المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

مقدمة الكتاب: المفاهيم القرآنية من سورة غافر
.1** التعريف بمحتوى الكتاب وجوهره**
يُعد هذا الكتاب رحلة غوص في أعماق سورة غافر، لا تقف عند حدود التفسير اللفظي، بل تتجاوزها إلى "استنطاق الدلالات" وعيش بركات الآيات .جوهره هو الانتقال بالقارئ من "ضيق الحرف إلى سعة المعنى"، ومن "ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة" .أما غايته الاستراتيجية فهي التأسيس لـ "مصدرية الوحي" كمرجعية وحيدة للإصلاح وبناء الحضارة.
.2** أهداف المؤلف من تقديم هذا العمل**
* إيقاظ القلب والعقل من سبات الغفلة وشد الانتباه لمعجزات كلام الله.
* ترسيخ اليقين بأن القرآن هو "خريطة الطريق" للنجاة والفلاح.
* تحويل الآيات من نصوص تُتلى إلى "محركات فاعلة" تصنع التغيير السلوكي والحضاري.
.3** أسلوب المؤلف في الطرح**
يتبع المؤلف أسلوباً "تفاعلياً استنهاضياً"، حيث يخاطب القارئ بلقب "أيها السائر إلى الله" .يعتمد الطرح على طرح التساؤلات العميقة، وربط المناسبات بين السور) مثل العلاقة بين ختام الزمر وافتتاح غافر(، وتحويل الصفات الإلهية إلى "كفاءات قيادية" ملموسة.
.4** مميزات هذا الكتاب عن باقي الكتب**
يتميز الكتاب بتركيزه على** "فقه السنن"**؛ فهو لا يكتفي بالشرح، بل يضع "عدسة ربانية" يفهم من خلالها القارئ أحداث يومه وتاريخ الأمم .كما ينفرد بربط الجوانب النفسية والتربوية بالبناء الا ستراتيجي للمجتمع.
.5** الهيكل المفاهيمي**
يقوم الكتاب على ثلاثة أركان أساسية) ثلاثية الاستنهاض(:
** * الوحي) المصدر(: **القواعد الكلية للسنن.
** * الاستدلال) المنهج(: **دور العقل في الربط بالواقع.
** * السير في الأرض) التحقق(: **المختبر العملي لرؤية فاعلية السنن.
.6** لمن خُصص هذا الكتاب؟**
خُصص هذا الكتاب لكل "باحث عن دفء اليقين"، وللمصلحين، والقادة، والمربين الذين يسعون لإقامة نهضة حضارية تنطلق من مرجعية الوحي لا من أهواء البشر.
.7** لماذا يجب أن تقرأ هذا الكتاب؟**
لأنه يمنحك "البوصلة" التي تضبط بها مسار حياتك، ويحررك من "عقدة النقص" أمام الحضارات المادية، ويمنحك العزة والسكينة من خلال الفهم العميق لصفات الله) العزيز العليم.(
.8** أهم المفاهيم التي يطرحها المؤلف**
** * مفهوم اليقظة الذهنية: **عبر الحروف المقطعة) حم.(
** * مفهوم المصدرية: **أن لا إصلاح خارج إطار الكتاب.
** * ثنائية العلم والقوة: **كدستور للنهضة) العزيز العليم.(
** * مفهوم التوازن: **بين الرحمة والحزم) غافر الذنب، شديد العقاب.(
.9** المخرجات من هذا الكتاب**
* بناء إنسان متوازن يجمع بين اليقين والعمل.
* امتلاك عقلية "ناقدة" تميز بين الحق والباطل.
* تأسيس مجتمع عادل يستمد قوانينه من مرجعية الوحي.
.10** ما الذي نتعلمه من هذا الكتاب؟**
نتعلم أن "دوام الحال من المحال"، وأن النصر "سُنة مرتبطة بشروط" وليس طفرة مفاجئة، وكيفية التعامل مع الأزمات النفسية والعملية بوعي قرآني.
.11** أهم المحطات التفسيرية) التحليل النفسي والتربوي**(
** * التحليل النفسي لـ) حم(: **كصدمة إيقاظية تنهي عصر "الطفولة الفكرية".
** * التحليل التربوي لآية التوازن: **كيف يربينا الله على "العفو" مع "الحزم" في مواطن المسؤولية.
** * مواجهة "عقدة النقص": **من خلال الاعتزاز بمنهج العزيز العليم.
.12** الأسس الحضارية في السورة) رؤية المؤلف**(
تنهض الحضارة في رؤية المؤلف على** "ثنائية العلم والقوة"**؛ فعلم بلا قوة استضعاف، وقوة بلا علم طغيان .كما يؤكد على "فقه السنن التاريخية" كوقاية من سقوط الحضارات.
.13** الخلاصة العملية: كيف نعيش مع هذه السورة؟**
* بافتتاح يومك بوعي) حم (وجعل القرآن مرجعك الأول في قراراتك.
* بتطبيق ميثاق "العلم قبل الحزم" في إدارتك لبيتك وعملك.
* بالثبات على الحق وعدم التأثر بجدال المبطلين أو كثرتهم.
.14** الرسالة الختامية**
"إن قراءتك لهذه السورة هي تجديد يومي لعهد الولاء لله ..اجعلها تملأ قلبك هيبة، وعقلك يقيناً،

وجوارحك عملاً ، لتكون ممن سيقوا إلى الجنة وهم في غاية الاطمئنان".

** إهداء**
إلى كل سائرٍ إلى الله...
إلى الباحث في عتمة الطريق عن سراج اليقين، ومن يرجو في خلواته "غافر الذنب" ويخشى في غفلته "شديد العقاب".
إلى الذين جعلوا من الوحي دليلهم، ومن "العزيز العليم" وجهتهم وقبلة أرواحهم.
أهديكم هذا الجهد المتواضع؛ لعلنا نخرج به معاً من ضيق الحرف إلى سعة المعنى، ومن ظلمات الغفلة إلى أنوار اليقظة، لنعيش بركات سورة غافر واقعاً يملأ حياتنا طمأنينة ورفعة.

رساله شكر وعرفان)
اتوجه بالشكر الجزيل للاستاذ القدير منير عبده عثمان الصلوي على ما بذله من جهد لاخراج محتوى هذا الكتاب من خلال المراجعه والتدقيق لمحتوى هذا الكتاب لغويا ولفظيا وموضوعيا وفنيا اسال الله ان يجعل ذلك في ميزان حسناته
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامرى

بسم الله الرحمن الرحيم
###** البطاقة التعريفية لسورة غافر**
.1** عدد آيات سورة غافر**
85** * آية**.
.2** ترتيب السورة**
** * من حيث المصحف: **هي السورة رقم**(40)** ، وهي أولى سور "آل حم") الحواميم السبع.(
** * من حيث النزول: **نزلت بعد سورة "الزمر" وقبل سورة "فصلت".
.3** مكان نزول السورة**
** * مكية) **نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة.(
.4** أسماء السورة وسبب التسمية**
** * سورة غافر: **سميت بذلك لافتتاحها بذكر هذا الصفة الجليلة لله تعالى في قوله:} غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ{، وهي دعوة للأمل وفتح باب العودة لله.
** * سورة المؤمن: **نسبة إلى "مؤمن آل فرعون" الذي ذُكرت قصته بالتفصيل في السورة، وهو النموذج الفذ للمؤمن الذي يكتم إيمانه وينصر الحق في أحلك الظروف.
** * سورة الطَول: **لقوله تعالى فيها} ذِي الطَّوْلِ{، أي صاحب المنّ والفضل والسعة.
.5** التناسب بين السورة وبين ما قبلها) سورة الزمر**(
* انتهت سورة الزمر بمشهد الحشر وانقسام الناس إلى زمرتين إلى الجنة وإلى النار واستقرار الحمد لله .ثم تأتي "غافر" لتبدأ بـ(حم)وكأنها رسالة إيقاظ شخصية للقارئ بعد هول مشهد الختام في الزمر، لتخبره كيف ينجو ويكون من "زمرة أهل الجنة" عبر اتباع الوحي.
.6** التناسب بين افتتاحية السورة وخاتمتها**
** * الافتتاح: **بدأت بإثبات مصدرية الكتاب} تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{، وذكر صفات الرحمة والعقاب.
** * الخاتمة: **انتهت ببيان مصير الذين جحدوا بهذا الكتاب واستكبروا عن آيات الله} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ .{فالبداية دعوة للإيمان بصفات الله، والنهاية تحذير من فوات أوان الإيمان عند نزول البأس.
.7** خصائص وفضائل السورة**
* هي "ديباج القرآن" وعرائسه) كما وصف ابن عباس الحواميم.(
* تتميز ببدئها بالحروف المقطعة (حم)فهي "صدمة إيقاظية" للذهن.
* تنفرد بكونها تعرض أطول حوار لداعية) مؤمن آل فرعون (بأسلوب استدلالي عقلي ونفسي باهر.
.8** بمن فُرضت) اهتمت (هذه السورة؟**
* فُرضت بالدرجة الأولى لتدعيم موقف النبي ﷺ والمؤمنين المستضعفين في مكة، ولجم غطرسة المستكبرين من قريش بضرب الأمثلة بمن سبقهم من الأمم) كقوم فرعون.(
.9** الأجواء التي نزلت فيها السورة**
* نزلت في فترة "المغالبة الفكرية" واشتداد التكذيب في مكة .كانت الأجواء مشحونة بالجدال الباطل من قِبل المشركين، فجاءت السورة لتبين أن هذا الجدال ما هو إلا محاولة يائسة لدحض الحق ، ولتثبيت قلب النبي ﷺ بأن العاقبة للمؤمنين.
.10** أهم المواضيع التي تتحدث عنها السورة**
** * قضية الوحي: **ومصدرية القرآن الكريم.
** * صفات الله عز وجل: **والجمع بين "المغفرة" و"شدة العقاب" لتحقيق التوازن النفسي بين الخوف والرجاء.
** * الصراع بين الحق والباطل: **متمثلا ً في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون.
** * فقه السنن: **ضرورة السير في الأرض للاعتبار بمصير المستكبرين.
** * الدعاء وأهميته:} **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ.{
.11** مقاصد السورة**
** * المقصد الاستراتيجي: **تقرير وحدانية الله وإثبات صدق الوحي وتحطيم كبرياء الباطل.
** * المقصد التربوي: **بناء الشخصية المؤمنة القوية) على غرار مؤمن آل فرعون (التي تصدع بالحق بحكمة ويقين.
** * المقصد الحضاري: **التأكيد على أن "العلم والقوة") العزيز العليم (هما ركيزتا الاستخلاف في الأ رض، وأن التكذيب بآيات الله هو سبب سقوط الحضارات.

المقطع الاول
اولا
أيها السائر إلى الله، الباحث عن دفء اليقين، ها قد وقفتَ على أعتاب سورة غافر، ففى معينها ما يروي ظمأ روحك، ويشعل في قلبك جذوة الفهم .تعال نسير في رحلة غوص في أعماق المحكم المتشابه، وارتشاف من فيوض الحكمة الإلهية .فدعني آخذ بيدك في هذا الميدان، لا لأ ُعلِمك، بل لنحلِق معًا في سماء هذه الآية الكريمة، فنتذوق معانيها، ونستنطق دلالاتها، ونعيش بركاتها، حتى نخرج من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ضيق الحرف إلى سعة المعنى.

المقدمة: على أعتاب سورة غافر

تخيّل مشهد سورة الزمر وهو يختتم، وقد انقسم الناس إلى زمرتين: زمرةٌ تُساق إلى الجنة، فرحةً مستبشرة، قد أشرقت وجوههم بنعيم الرضوان، وزمرةٌ تُساق إلى جهنم، مذلولةً خاسئة، قد أظلمت وجوههم بسواد الخسران .وهناك، في ذلك المشهد المهيب، يستقر الحق ويظهر، ويتفرد الله بالحمد، حمدًا يملأ الكون كله بعد أن يتبدد كل باطل .ينتهي المشهد، ويُسدل الستار على ذلك المصير المحتوم...

ثم فجأة، وقبل أن تفيق من هول المشهد، يُفتتح باب جديد .إنها سورة غافر، تطرق سمعك وتخاطب روحك بـ:} حم .{وكأنها رسالة شخصية لك، توقظك من غفلتك، وتذكرك بأن الطريق إلى ذلك المصير لم يُطوَ بعد، وأن الرحمن الرحيم، وفي لحظة حنوّ عظيمة، لم يأخذ الناس فجاءة بالعقاب، بل أنزل الكتاب من السماء .إنه بيان، إنه هدى، إنه خريطة الطريق التي إن اتبعت خطواتها، وصلت إلى الجنة التي رأيتَ أهلها في ختام الزمر، وتجنبتَ النار التي سيق إليها المجرمون.

فلنبدأ رحلتنا مع هذه الافتتاحية العظيمة، مستعينين بالله.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

الآية الكريمة(حم) هي مفتاح سورة غافر، وأولى آياتها .قد تراها عيناك حرفين لا ثالث لهما، لكنهما في الحقيقة كونٌ من المعاني:
· الهدف الأساسي: إيقاظ القلب والعقل من سبات الغفلة، وشد الانتباه إلى ما سيأتي من كلام الله المعجز، والتحدي للعرب أن يأتوا بمثله من هذه الحروف ذاتها التي يتقنونها ويتفاخرون بها.
· المقاصد الكلية:
1. إثبات الإعجاز والوحي: التأكيد على أن هذا القرآن ليس كلام بشر، بل هو كلام الحكيم العليم.
2. التربية على الإنصات والتدبر: تعليم المتلقي ألا يمر على كلام الله مرور الكرام، بل يقف متأملا ً، باحثًا عن الأسرار.
3. ترسيخ اليقين: بناء جسر من اليقين الراسخ في قلب المؤمن بأن ما يقرؤه هو الحق المبين، مما يورثه طمأنينة وسكينة.
· الدلالات العميقة:
· دلالة التحدي: إنها تقول للعرب: من هذه الحروف المألوفة لديكم، يتكون كلام الله الذي أعجزكم، فدلّ ذلك على أنه ليس من جنس كلامكم.
· دلالة التذكير: إنها تذكرك بأن كل نور الوحي الذي يشرق على حياتك، أصله من هذه الحروف المتواضعة، لتعلم أن العظمة ليست في ضخامة الشكل، بل في عمق المصدر.
· دلالة الاختصاص: إنها سرّ بين الله ورسوله ﷺ، ورمز من رموز الاصطفاء، يشعرك بأنك أمام كتاب ذي شأن عظيم، له أسرار لا يدركها إلا الخواص.

الأمر الأول:
في "حم" والحروف المقطعة، واجهة الإعجاز

أهمية ودلالة بداية السورة بـ) حم(

أنت الآن تسمع قوله:} حم .{هذان الحرفان ليسا مجرد أصوات عابرة .إنهما من الحروف المقطعة التي استأثر الله بعلمها، وهذا وحده سرّ يهز القلب؛ أن نقف أمام نص نعلم أنه من عند الله، وفيه ما لا نحيط بعلمه، فيزداد توقيرنا له .لكن، ماذا تعكس هذه البداية في ميزان البلاغة والإعجاز؟

انظر إلى النسيج القرآني الفريد .هذه السورة هي أولى "الحواميم" أو "آل حم"، وهي سبع سور متتاليات) غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف (تبدأ كلها بهذين الحرفين .وكأنها

عقدٌ لؤلؤي فريد، يفتتح بالاسم الأعظم "حم" .هذه الوحدة في البناء تشير بوضوح إلى أنها نزلت جملة واحدة أو زمناً متقارباً، مما يعكس ترابط موضوعاتها حول محور واحد: إنزال الكتاب، الوحي، وإقامة الحجة .وهذا الترابط المعجز في النظم والموضوع دليل ساطع على أنها من لدن حكيم عليم.

اللمسات البيانية والبلاغية:
تخيل لو أن خطيباً مصقعاً أراد أن يخطب في الناس، فماذا يصنع ليسترعي انتباههم؟ ربما يصمت قليلا ً، أو يطرق بعصاه الأرض .أما رب العزة، فافتتح كلامه بهذه الحروف التي هي في ظاهرها طلاسم، ولكن في باطنها إيقاع لفظي عجيب ."حا .ميم" .صوت "الحاء" يأتي من الحلق، فيه همس وخفاء ، وصوت "الميم" يأتي من الشفتين، فيه جهر ووضوح وغنة تطرب لها الأذن .إنه إيقاع صوتي يمهد للدخول في عالم السورة .إنها ليست مجرد كلمات، بل موسيقى روحية تداعب مشاعرك قبل أن تخاطب عقلك.

الرسائل التربوية والنفسية والفكرية:

.1رسالة نفسية: أنت أمام نص لا يمنحك كل شيء بسهولة .هذا يربيك على التواضع المعرفي؛ فالعقل البشري، مهما بلغ، لن يحيط بكل شيء .وهذا يورث النفس سكينة غريبة، سكينة التسليم لله مع بذل الجهد في فهم ما يمكن فهمه.
.2رسالة تربوية: إنها تعلمك أن ما خفي عنك من العلم أضعاف ما أدركته، فتصبح أقل غروراً وأكثر توقيراً للخالق.
.3رسالة فكرية: إنها تتحداك أن تفكر في طبيعة هذا الكتاب؛ كيف بني من مواد اللغة العربية ذاتها، لكنه خرج بصورة لا تتناسب مع قدرات البشر، لتصل بنفسك إلى قناعة أنه وحي.

الأمر الثاني:
علاقة الحروف المقطعة بـ"تنزيل الكتاب" وختام الزمر

والآن، انظر إلى الرابط العجيب بين هذه البداية} حم {وما بعدها:} تنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ {]غافر:.[2
بعد مشهد النهاية في سورة الزمر، حيث وُضعت كل نفس في مصيرها الأبدي، قد تتساءل بفزع: وهل بعدُ من فرصة؟ وهل الطريق لا يزال مفتوحًا؟ تأتيك سورة غافر بهذه البداية لتجيبك: نعم .إن الذي خلق الجنة والنار، لم يدعك تتخبط في ظلمات الجهل .إن مشهد سوق الفريقين لم يكن مشهد عقاب عبثي، بل كان إعلاناً عن تحقق الوعد والوعيد .ولكنه سبحانه، برحمته، لم يأخذ الناس بالعقاب فجأة، بل أنزل الكتاب.

ارتباط الافتتاح بالخاتمة:
ختام سورة الزمر يُفرد الله بالحمد بعد فصل القضاء .وافتتاح غافر يُظهر سبباً جليلا ً من أسباب ذلك الحمد، وهو أنه} تنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ .{فالله لا يُحمد فقط على عدله المطلق في الآخرة، بل يُحمد على رحمته السابقة في الدنيا، حيث أرسل الكتاب بيانًا وهدى .فكأن السورة تقول: أتدرون لماذا يستحق الله الحمد المطلق؟ لأنه لم يترككم هملا ً، بل أنزل الكتاب ليأخذ بأيديكم إلى الجنة.

معنى "تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ":
التنزيل هو النقل المتدرج من العلو المطلق إلى الأرض .إنه فعل عظيم، لأن مصدره "الله" لا غيره . وهو "العزيز" الذي لا يُغالب، فكلامه عزيز لا يُبطل ولا يُعارض، وهو "العليم" بمواطن الداء والدواء لعباده .فأنت حين تقرأ هذا الكتاب، فأنت تقرأ وصفة العليم الخبير، وتحتمي بحصن العزيز القوي .إنه كتاب جمع بين صفتي العزة والعلم، فيُشعرك بالأمان وأنت تتعامل معه.

اللمسات البلاغية والنفسية:
ذكر "تنزيل الكتاب" بصيغة المصدر يدل على الثبوت والتأكيد، وكأنه يقول:"هذا تنزيل ..هذا تنزيل.." لتستقر الحقيقة في قلبك.
والنفس حين تنتقل من رهبة مشهد الحساب إلى رحمة مشهد تنزيل الكتاب، فإنها تشعر بمزيج عجيب من الخوف والرجاء .خوف يدفعها للبحث عن النجاة، ورجاء يفتح لها باب الأمل في هذا الكتاب، فتندفع نحوه بكل مشاعرها.

الأمر الثالث:
دروس من الافتتاحية: إيقاظ العقول والقلوب

لندخل الآن إلى صميم التأثير النفسي والتربوي لهذه البداية الفريدة.

الدرس الأول: مفهوم اليقظة الذهنية وأهمية شد الانتباه

.1اليقظة الذهنية كمفهوم تربوي:
هل تساءلت يومًا: لماذا يبدأ اللّه كتابه أو سوره بهذه الحروف غير المألوفة؟ لأنك، أيها القارئ، قد تكون غارقًا في غفلة الحياة، في لهوها وصخبها .والغفلة هي الموت الحقيقي للعقل والقلب .فجاءت }حم {كصيحة أيقاظ قوية، كمُنَبِّه يقرع سمعك بقوة ليقول لك: "انتبه! ما سيأتي بعد لحظة ليس كلامًا عاديًا، إنه كلام ربك".
اليقظة الذهنية إذن هي تلك الحالة من الاستعداد التام للعقل والقلب، حالة من الحضور الكامل حيث تكون كل جوارحك مصغية، وكل أفكارك متجمعة، ليست مع الماضي ولا مع المستقبل، بل مع اللحظة التي يُتلى فيها كلام اللّه .إنها طردٌ للوساوس، وإقفال لأبواب الشتات.

.2إنها بمثابة جرس التنبيه:
كما يدخل الطفل مدرسته على صوت الجرس، منهياً زمن اللعب ومبتدئاً زمن الجد والتعلم، كذلك }حم .{إنها جرس إلهي يقرع أذن روحك ليخبرها بأن وقت اللعب والهو والغفلة قد انتهى، وحان وقت التلقي والجد والتدبر .ألا ترى أنك ما إن تسمعها حتى تشعر بخشوع مفاجئ، ورهبة تنتابك، وتوجس بأنك مقبل على أمر ذي بال؟ هذا هو عين المراد؛ التركيز على ما سيأتي بعدها.

.3التركيز وعلاقته باليقظة الذهنية:
التركيز هو ثمرة اليقظة الذهنية .اليقظة هي استعداد الأرض، والتركيز هو وضع البذرة .حينما توقظك }حم{، فإنها لا تطلب منك مجرد الإنصات بآذانك، بل تدعوك إلى ممارسة الوعي الحسّي والروحي . تدعوك لأن تنظر إلى ما هو أبعد من الحروف ذاتها: "كيف بني هذا الكلام من هذه الحروف وأعجزكم؟ " .هذا الانتقال من السمع إلى التحدي، ومن اللفظ إلى الإعجاز، هو الذي يحول المستمع إلى متأمل، و السامع إلى عاقل .والتأمل التام لا يمكن أن ينشأ إلا في تربة اليقظة الذهنية اليانعة.

.4استعداد العقل والجسد والروح للمواجهة والتحدي:
يريد منك المولى بهذه الافتتاحية أن تقبل عليه بكلك: بعقلك الذي يريد أن يفهم، بجسدك الذي يريد أن يعمل، وبروحك التي تريد أن تتصل .هذه الحروف بمثابة ديباجة الخطبة التي تهيئك نفسيًا للدخول في جو النص .والأهم من ذلك، أنها بمثابة تحدٍّ إيجابي لك.
إنها تضعك وجهاً لوجه أمام الحقيقة الكبرى: هذا القرآن من عند اللّه .وتتحدى فيك المعاند، وتقيم عليك الحجة بأن هذا الكلام لا يمكن لبشر أن يأتي به .وكأنها خطاب خاص لنفسك: "كن مستعداً لتقبل الحق، حتى وإن كان صعباً، حتى وإن كان مخالفاً لهواك .انظر بعقلك، ودع قلبك ينفتح" .إنها تخلق في داخلك حواراً ذاتياً، حديثاً إيجابياً مع نفسك، حيث تقول لها: "توقفي عن المراوغة، واستعدي لتلقي الحقائق."

.5الهدوء النفسي واليقين والتلذذ بالفهم:
والآن، اسأل نفسك: ما الذي تشعر به بعد أن تقرأ} حم {ويليها} تنزيلُ الكِتَابِ{، مدركاً معنى التحدي وا لإعجاز؟ إنه شعور عميق بالهدوء النفسي واليقين .إنه يقين بأنك تسير على صراط مستقيم، وأنك تستند إلى ركن شديد .هذه البداية تورثك طمأنينة بأن هذا الكلام ليس مجموعة أوهام، بل هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
وقد وصف النبي ﷺ آيات القرآن بأنها من "رياض الجنة" .إن كنت في الدنيا، جالسًا بين أهلك وفي بيتك، لكنك تقرأ وتتفهم كلام اللّه، فكأنك تتجول في بساتين الجنة .وهذه البدايات الحرفية هي بوابات تلك الرياض؛ لأنها تحفز العقل على التأمل، والقلب على التذوق .إنها تفتح لك باب التلذذ ب الفهم، تلك اللذة العقلية والروحية التي تفوق كل لذة حسية .لذة أن يفتح اللّه عليك بفهم معنى، أو يكشف لك عن سر بلاغي، فتطرب له نفسك كما يطرب الجالس في الروضة لأزهارها.

الأمر الرابع: أبعاد الآية والقضايا التي تعالجها

إن لهذه الآية القصيرة أبعاداً عميقة، تعالج قضايا وجودية وفكرية ونفسية:

.1قضية مصدر المعرفة: من أين نستقي معرفتنا بالله والكون والمصير؟ تعالج الآية هذه القضية عبر إثبات أن المصدر الأوحد هو الوحي الإلهي المتمثل في "الكتاب"، الذي يبدأ تنزيله من عند "اللّه" العليم.
.2قضية اليقين والشك: في عالم يعج بالشكوك، تزرع "حم" بذرة اليقين من خلال الإعجاز والتحدي،

لتنتشل الإنسان من مستنقع الحيرة إلى نبراس الثبات.
.3قضية الغفلة: الإنسان بطبعه غافل، يلهث وراء الدنيا وينسى الآخرة .فعالجت الافتتاحية هذه الغفلة بصدمته الإيقاظية التي تخرجه من نومته.
.4قضية الألوهية: تربط الآية مباشرة بين الحروف والله، بين التنزيل والعزة والعلم، لترسخ في الذهن أن هذا الكون له إله عليم قدير، وهذه هي القضية المركزية في السورة كلها.

الأمر الخامس:
المفاهيم العملية ودورها في البناء الحضاري

لننزل هذه المعاني إلى أرض الواقع ونتساءل: كيف تبني هذه المفاهيم إنسانا وحضارة؟

.1مفهوم الانضباط واليقظة الدائمة: إذا تعلمت من} حم {أن تكون منتبها، فإنك تتحول إلى إنسان واعٍ، لا تمر الأيام والأحداث من أمامه هباءً، بل يلتقط العبر، ويستثمر الفرص، ويقظ لمواضع الخطر . مجتمع من هذه النفوس اليقظة، مجتمع حي لا يمكن خداعه أو تزييف وعيه، وهو أساس أي نهضة حضارية.
.2مفهوم التسليم المبني على القناعة: نحن لا نستسلم للحق استسلام الأعمى، بل نقتنع به أولا ً من خلال التحدي والإعجاز .هذا يبني شخصية قوية، مؤمنة عن دليل وبرهان، لا تتزعزع أمام الشبهات . هذه الشخصية هي لبنة المجتمع المتين.
.3مفهوم الجدية والمسؤولية: الشعور بأن "وقت اللعب قد انتهى" وأنك أمام خطاب المسؤول هو الذي يبني إنسانا يدرك واجباته نحو خالقه ونحو المجتمع .إنهاء عصر الطفولة الفكرية والغفلة الروحية هو بداية العمل الحضاري الجاد.
.4مفهوم الحوار مع الذات ومع النص: تعلمنا الآية ألا نتلقى الأشياء بسلبية، بل أن نتحدى، أن نجادل بالحسنى، أن ننخرط في حوار إيجابي مع النص حتى نستخرج كنوزه .هذا يبني عقلا ً ناقدا، منتجا، قادرا على الابتكار والإبداع.

الأمر السادس:
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

قد تقول: هذا جميل، ولكن كيف لي أن أعيش كل هذا اليوم، الآن؟

.1افتتاح يومك بـ"حم": قبل أن تستمع لنشرة الأخبار، أو تتصفح هاتفك، اجعل لك وردا من القرآن . وعندما تصل إلى سورة غافر، توقف عن كل شيء .أشغل سمعك وقلبك .استشعر أن جرس اليقظة الإ لهي هذا هو إنذار بداية يوم جديد بوعي جديد .قل لنفسك: "لقد دخلتُ المدرسة".
.2التعامل مع مشكلات الحياة: عندما تواجهك مشكلة صعبة، أو تدخل في خلاف، استعمل تقنية "حم" .خذ نفسا عميقا، وأيقظ عقلك، واجمع شتات فكرك، ثم انظر في كتاب الله تبحث عن حل . اسأل نفسك: ما هو "الكتاب المنزل" الذي يضيء لي هذه الظلمة؟ استعن بالله واستشر كتابه.
.3مواجهة الإلحاد والشبهات المعاصرة: إن وجدت قلبك يتزعزع من شبهة، فعد إلى} حم {تنزيلُ الكِتَابِ .{تحدّ نفسك كما تحدت الآية العرب .تأمل في الإعجاز العلمي والبلاغي والتشريعي للقرآن .ابن إيمانك بالحجة والبرهان، ولا تكتفِ بالتقليد .هذه الآية تدفعك لأن تكون باحثا عن اليقين بنفسك.
.4بناء حياتك على أساس متين: تعلم أن كل عمل تقوم به يحتاج إلى "ديباجة" .ابدأ مهامك الكبيرة بتمهيد يوقظ ذهنك ويهيئك .ابدأ لقاءاتك المهمة بكلام واضح جاد .هكذا تصبح مؤثرا، وهكذا تبني حياتك على قاعدة صلبة من الوعي والتركيز.
ثانيا
أيها القارئ الكريم، إن رحلتنا مع} حم {لم تنته، بل هي في بدايتها .إنها ليست مجرد حروف، بل نافذة تطل منها روحك على عوالم الرحمة والعزة والعلم .اقرأها في كل مرة وكأنك تسمعها لأول مرة، بقلب متجرد، وعقل متأمل، وروح مشتاقة .عندها فقط، ستكتشف أن حاءها حياة، وميمها ملك، وأنك دُعيت بها لتكون من أهل رياض الجنة في الدنيا قبل الآخرة .فانهض، أيقظ قلبك، واقبل على كتاب ربك، لتكون ممن سيقوا إلى الجنة وهم آمنون
أيها السائر في دروب اليقين، أيها المتطلع إلى أنوار الوحي، ها قد عدنا نستكمل معًا رحلتنا في روضات سورة غافر. بالأمس، وقفنا على أعتاب {حم}، فكانت جرس اليقظة الذي أنهى زمن الغفلة، وكانت التحدي الذي أيقظ الذهن. والآن، وقد انتهت تلك الوقفة، انظر كيف ينفتح الباب لتستقبل المطر الغزير، إنها الآية الثانية:

}تنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ] {غافر:[2

لا تقرأها كلماتٍ تمر على لسانك مرورًا عابرًا، بل استقبلها بصدرك، وكأنها تُتلى عليك لأول مرة، وكأن جبريل عليه السلام يهبط بها الآن من السماء. إننا هنا لسنا أمام مجرد آية، بل أمام منظومة مفاهيمية متكاملة، وأمام ميثاق استراتيجي يُعيد ترتيب حياتك من جذورها. فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الآ ية، لا لنفهمها وحسب، بل لنعيشها ونحول معانيها إلى نبض في قلوبنا وحركة في واقعنا.

المقدمة: من اليقظة إلى البناء - التأسيس لمصدرية الوحي

لقد أيقظتك {حم} من سباتك، فأنت الآن في قمة الانتباه، حاضر بذهنك وروحك. ومباشرة، ودون أي إبطاء، يأتيك البيان الشافي: {تنزيلُ الكِتابِ} . إنه الجواب على السؤال الذي قد يكون راودك بعد ختام الزمر: "وكيف السبيل إلى النجاة من ذلك المصير؟".

اعلم يقينًا أن القرآن لا يمنحك كلمات مجردة تطفو على السطح، بل هو يبني فيك منظومة مفاهيمية راسخة. وأول لبنة في هذا البناء العظيم هو مفهوم "المصدرية". إنها رسالة استراتيجية واضحة: لا يمكن أن يبدأ أي إصلاح حقيقي في حياتك، ولا يمكن لمسار البشرية أن يتصحح، إلا إذا انطلق من نقطة واحدة واضحة، من مرجعية واحدة لا تقبل الشك: وهي الوحي، الكتاب المنزل من عند الله. كل محاولات الإصلاح التي تنطلق من أهواء البشر، أو من فلسفاتهم القاصرة، هي كمحاولة بناء قصر على كثيب من الرمل؛ لا ثبات له ولا بقاء.

إن هذه الآية تضعك أمام الخارطة الكاملة للوجود. إنها تخبرك: "هذا هو الدليل الاستراتيجي الذي تسير عليه، وهذا هو مصدره، فلا تبحث عن غيره". إن الارتباط بالوحي ليس ترفًا فكريًا، أو خيارًا من ضمن خيارات، بل هو نقطة الانطلاق الوحيدة لتصحيح المسار البشري. فهل أدركت الآن عظمة ما أنت مقبل عليه؟

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

هذه الآية هي الإعلان الرسمي عن المرجعية المطلقة:

· الهدف الأساسي: ترسيخ اليقين بأن القرآن هو المصدر الأوحد للمعرفة والتشريع، لأنه صادر عن الله المتصف بالعزة والعلم.
· المقاصد الكلية:
1. تأصيل مفهوم المرجعية: إبطال أي مرجعية سوى الكتاب المنزل.
2. تعظيم المصدر: بث الرهبة والمهابة في القلب من هذا الكتاب، لأنه تنزيل العزيز.
3. بناء الثقة المطلقة في المنهج: غرس الطمأنينة بأن أحكام هذا الكتاب وتوجيهاته هي الصواب المطلق، لأنها من عليم.
· الدلالات العميقة:
· دلالة الإطلاق: "الكتاب" معرفًا بالألف واللام، يفيد العموم والكمال؛ إنه الكتاب الجامع المانع، الذي لا يحتاج معه إلى غيره.
· دلالة العلو: "تنزيل" تدل على جهة العلو المطلق، فيهبط الأمر من السماء إلى الأرض، ليرفع المتلقي من حضيض الجهل إلى أوج المعرفة.
· دلالة الاقتران: اقتران "العزيز" بـ"العليم" هو دستور النهضة، كما سنرى.

الأمر الأول:
دلالة التأصيل البنائي ومفهوم المصدرية: نقطة الانطلاق الاستراتيجية

تأمل كيف يبني القرآن في وعيك مفهومًا مركزيًا: إن "تنزيل الكتاب من الله" ليس مجرد خبر، بل هو توجيه استراتيجي يمنحك الدليل الذي تسير عليه في دروب الحياة المظلمة. إنه يضعك على بداية الطريق الصحيح. فبدون وضوح هذه المرجعية، سيصبح الإنسان كالتائه في صحراء، يظن السراب ماءً، ويتبع كل ناعق.

أيها المؤمن، المصلح، الباحث عن النهضة: الآية تقول لك بصريح العبارة: "لا إصلاح خارج إطار تنزيل الكتاب". كل منهج لا يستمد أصوله من هذا الكتاب هو ضلال. أتظن أن بإمكان البشر أن يضعوا لأ نفسهم ما يصلحهم وهم لا يعلمون الغيب ولا يعلمون حقائق النفوس؟ إن الله هو الصانع، وهو العليم بصنعته، فمن هنا نستمد القوانين التي تحكم حياتنا. هذا هو مفهوم تعظيم المصدر؛ أن تستمد جميع القوانين التي تضبط إيقاع حياتك الشخصية والعملية والأسرية من منهج الله العليم بمصالح الخلق.

ولنا في حياتنا أسوة: حين يصمم مهندس آلة معقدة، يضع معها "دليل المستخدم" فهل من العبث أن نتجاوز دليل الصانع ونذهب إلى الجاهلين ليخبرونا كيف تعمل هذه الآلة؟ وهل يرضى أحدنا أن يتبع وصفة طبية من جاهل بالطب؟ فكيف نرضى لأنفسنا في إدارة حياتنا -وهي أعقد من أي آلة- أن نهمل دليل الصانع، ونتبع أهواءنا أو أهواء البشر؟ إن تعظيمك للقرآن يجب أن يكون كتعظيمك لدليل الصانع، بل أشد وأعظم، لأن عطب الروح أدهى من عطب الجسد.

الأمر الثاني:
دلالة "العزيز العليم": ثنائية القوة والعلم ودستور النهضة

انظر إلى قلب الآية: {مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ} . هذا الاقتران ليس عشوائياً، بل هو مفتاح فهمك للوجود كله.

لماذا اقترن "العزيز" بـ"العليم" في سياق تنزيل الكتاب؟

.1لضمان صحة الأحكام وكمالها: القرآن لم يصدر عن علمٍ وحده قد يستضعفه الظالمون، ولم يصدر عن قوة وحدها قد تطغى وتظلم .بل صدر عن "عزيز" قوي غالب، حمى كتابه من التحريف، وسيحفظ أتباعه وينصرهم، وعن "عليم" محيط بكل تفاصيل شؤونك، يعلم داءك ودواءك، وما خفي عليك من عواقب الأمور .وهذا يضمن لك أن ما تقرؤه ليس مجرد كلام، بل هو الحقائق النهائية.
.2لإبطال منطق القوة الجاهلة والعلم المستضعف: هذا الاقتران يهدم نظرية "القوة عمياء" و"العلم عاجز" .إنها رسالة تربوية حضارية: القوة الحقيقية هي التي تنبني على العلم، والعلم النافع هو الذي يقترن بالقوة لإنفاذه .ألا ترى أن الأنظمة البشرية إما أن تكون قوية غاشمة بلا علم، أو عالمة عاجزة بلا سلطان؟ أما المنهج الإلهي، فهو منهج العزيز العليم، القوة الكاملة بالعلم الكامل.

ثنائية العلم والقوة: جناحا النهضة

اجعل هذه القاعدة نصب عينيك: قوة بلا علم = طغيان ودمار، و علم بلا قوة = استضعاف واندثار. إن هذا الاقتران هو دستور النهضة الذي إن طبقته، نمت حضارتك، وإن فرطت فيه، انهارت.

· تأمل مثلا ً: جيش عنده أحدث الأسلحة) قوة (لكنه لا يملك مخابرات دقيقة ولا خرائط) علم(، فهو جيش أحمق سيخوض معركة خاسرة.
· ومثال آخر: عالم كبير يملك علاجاً لداء عضال) علم(، لكنه لا يملك القدرة على إيصاله أو حمايته من اللصوص) قوة(، فيبقى علمه حبيس الأدراج لا ينفع أحداً.
· وفي حياتنا اليوم: شاب عنده القوة البدنية والحماسة للعمل، لكنه يفتقر للعلم، فيخسر تجارته .وآخر عنده علم غزير، لكنه يفتقر للعزيمة والقوة، فيعيش فقيراً مستضعفاً لا ينفع الأمة بعلمه.

إذن، فالقرآن يربينا على الفكر السليم الذي يجمع بين التمكين والمعرفة. لا ينبغي للقوي أن يبقى جاه لا ً، ولا للعالم أن يبقى مستضعفاً.

الأمر الثالث:
التوجيهات الربانية: ماذا يريد المولى منا بهذه الافتتاحية؟

بعد أن تأصلت هذه المعاني في قلبك، ماذا يريد الله منك؟

.1دعوة للانتفاع والثقة المطلقة: يريد منك أن تنتفع بآيات هذا الكتاب انتفاع الواثق .أن تثق بمنهجه لتُدير حياتك الشخصية والأسرية والمالية، بنفس اليقين الذي تثق به أن النار تحرق .لأنه منزل من العليم الذي لا يجهل شيئاً .فعندما تقرأ توجيهاً قرآنياً، قف واسأل نفسك:"هل أنا أنتفع بتعليمات العزيز العليم أم لا؟" إن كنت لا تنتفع، فكأنك تقول بلسان حالك إن تعليمات غيره أفضل!!
.2دعوة للتسليم المبني على العزة والعلم: يريد منك تسليماً كاملا ً .ليس تسليم الأعمى، بل تسليم الواثق .إنه كتاب أنزل بقدرة الله وعزته، وبُني على علمه المطلق، مما أوجب التسليم المطلق .مثل المريض الذي يسلم بوصفة الطبيب الحاذق القدير، بل أعظم.
.3قواعد وميثاق عمل تنفيذي: الآية تعطينا مواثيق عمل لتحويل هذه المعاني إلى إجراءات ملموسة في مؤسساتنا وحياتنا .ومن أعظم هذه القواعد:
· لا لسلطة تشرع بلا ضوابط: لا يمكن لأي سلطة أن تشرع ما تريد، أو أن تترك مساحة للاجتهاد الشخصي المحض بلا تأطير .كل الأنظمة والقوانين يجب أن تؤطر بضوابط مستمدة من "تنزيل

الكتاب" .هذه حماية من طغيان البشر.
.
الأمر الرابع:
تحويل الصفات الإلهية إلى كفاءات قيادية وحضارية (نماذج تطبيقية)

هذه الآية ليست فقط للتعبد، بل هي دورة تدريبية متكاملة. يمكننا أن نحول الصفات الواردة فيها إلى وحدات تدريبية في القيادة والإدارة والتربية:

· وحدة تدريب "العليم":
· مهارة البحث والتحليل: قبل أن تقدم على أي مشروع، استفرغ وسعك في جمع المعلومات و البيانات وتدقيقها .لا تخطو خطوة وأنت جاهل.
· مهارة الاستشارة: "العليم" يعني أن تسأل أهل الخبرة، وتعترف بأن علمك قاصر، كما أمرنا الله: }فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ{
· وحدة تدريب "العزيز":
· مهارة اتخاذ القرار المبني على العلم: بعد أن تعلم، يأتي دور العزة؛ أن تكون قوياً في تنفيذ قرارك المبني على العلم، لا تردد ولا ضعف.
· مهارة الحزم والانضباط: تطبيق القانون على الجميع دون تردد أو محاباة، فهذه من مقتضيات العزة.
· كفاءة "العلم قبل الحزم":
· مثال واقعي: تخيل مديرًا في شركة اكتشف خطأ فادحًا من موظف .النموذج البشري هو الغضب والعقاب الفوري) عزة دون علم .(ولكن المدير الذي تربى على هذه الآية سيفعل الآتي: (1 يستدعي الموظف ويسأله ويستمع له) باحثًا عن العلم/دوافع الفعل (2 .(يتحقق من ملابسات المشكلة (3 .بعد أن يكتمل العلم، يتخذ القرار الحازم المناسب) العزة .(هذا هو العدل.

الأمر الخامس:
الأبعاد والمفاهيم التربوية والنفسية والفكرية وكيف تعالج قضايانا

الآن، يا رعاك الله، انظر كيف تغوص هذه الآية في أعماق نفسك لتبنيها من الداخل:

أولا ً: في الجانب النفسي - طمأنينة القلب وغرس القوة والثقة

عندما تضطرب الدنيا من حولك، وتنغلق الأبواب في وجهك، ويصيبك اليأس، أرجع بصرك إلى هذه الآ ية: {مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ} .

· طمأنينة العلم: مدبر كونك عليم بحالك وحزنك ووحدتك .إنه يعلم ما في صدرك، وما خفي من دموعك .هذا الشعور وحده بلسم لجراحك .أنت لست مجرد رقم في كون بلا روح، بل أنت عبد لإله يعلم تفاصيلك الدقيقة.
· طمأنينة القوة: هذا العليم بحالك هو نفسه العزيز القادر على نصرك وتفريج همك .فلماذا الخوف؟ ولماذا القلق؟ إن كنت على الحق، فالله معك بقوته .هذه العقيدة تمنحك قوة نفسية لا تضاهيها قوة . من علم أن الله هو العزيز الذي لا يغالب، هانت في عينه كل قوى الأرض، فلا يخاف إلا الله، ولا يلجأ إلا إليه.

ثانيًا: في الجانب الفكري - بناء التصورات وإعادة تعريف القوة والعلم

هذه الآية تعيد بناء مفاهيمك الفكرية من جذورها:

· مرجعية العلم والقوة: تعلمك أن الفكر السليم هو الذي يبني تصوراته عن الحياة انطلاقاً من مصدر الوحي .فكل فكرة تخالف هذا المصدر هي فكرة فاسدة، مهما زينها أهلها.
· لا للقوي الجاهل ولا للعالم المستضعف: لقد ربى القرآن فينا النفرة من هذين النموذجين المشوهين . فالقوي بلا علم طاغية، والعالم بلا قوة ببغاء يردد ما لا ينفذ .والنموذج الثالث هو الذي يبنيه القرآن: المؤمن القوي الذي هو عالم بدينه، والداعية الذي هو عزيز بحجته.
· البعد الوجودي: تؤكد الآية أن الوجود ليس عبثاً .إنه مسار يبدأ بمنهج الكتاب) تنزيل الكتاب(، وينتهي بحساب المصير) كما في خواتيم الزمر(، وما بينهما تفاعل حي مع صفات الله) العزيز العليم .(فحياتك إذن قصة ذات معنى، ومهمة عظيمة.

ثالثًا: في الجانب التربوي - مواجهة التحديات والضغوط

أنت تتعرض لضغوط يومية، من مديرك، من أقرانك، من المجتمع. قد تدفعك للتنازل عن مبادئك. كيف تمنحك الآية القوة للمواجهة؟

· تستمد قوتك من العزيز العليم، فلا تلجأ للبشر .عندما يأتيك إغراء وظيفي يتطلب منك التلاعب، أو إغراء اجتماعي يدفعك لمعصية، تذكر من أنت! أنت تتعامل مع "تنزيل العزيز العليم" .هل تترك توجيهاته إلى توجيهات فلان وعلان؟ هذا منبع الاعتزاز بالحق .اعتز بدينك ومنهج ربك، ولا تهن نفسك لطغاة الأرض، فـالله هو العزيز الحقيقي، ومن اعتز به أعزه، ومن اعتز بغيره ذله .إنك مستغنٍ بقوة الله عن قوة البشر.
· اليقين عند الضياع: عندما تحتار في اتخاذ قرار، وتشعر بالضياع، عد فوراً إلى يقينك الأول: الدليل والمنهج هو القرآن، من العزيز العليم .هذا يمنحك ثقة مطلقة في توجيه الشرع .إن بحثت في كتاب الله وسنة نبيه عن إرشاد لقرارك، فاعلم أن ما تطمئن إليه نفسك هو عين الصواب، لأن مصدره عليم لا يضل.

الأمر السادس: الثمرات العملية: دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لنرَ كيف تتحول هذه المعاني إلى لبنات نبني بها حضارتنا المنشودة:

.1بناء الإنسان المتوازن: تنتج الآية إنساناً قوياً بعلمه، عليماً بقوته .لا يطغى ولا يذل .إنساناً واثقاً من منهجه، مطمئن البال، صامداً في وجه الأعاصير .هذا هو لبنة المجتمع القوي.
.2بناء المجتمع العادل: مجتمع قوانينه مستمدة من "تنزيل الكتاب"، وقضاته وولاته يتأدبون بميثاق "العليم قبل العزيز"، فلا تصدر أحكامهم عن جهل أو هوى، ولا يكونون عاجزين عن تنفيذ الحق . مجتمع يسوده الأمن والثقة في النظم.
.3بناء الحضارة الراسخة: حضارة تقوم على ثنائية العلم والقوة .حضارة تنتج العلم النافع، وتمتلك القوة لحمايته ونشره .علم بلا قوة ينهب، وقوة بلا علم تدمر .أما هما معاً فيبنيان صرحاً شامخاً لا تهزه الرياح.
.4التنمية البشرية المستدامة: تخيل مؤسساتنا الإدارية والقانونية وهي تدرب موظفيها على "وحدة العليم") مهارات البحث والتحليل (و"وحدة العزيز") مهارات اتخاذ القرار والحزم .(سيتحول المجتمع إلى كيان فاعل، متعلم، قوي، وليس كتلة هلامية من البشر.

الأمر السابع: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

اجعل هذه التحليلات حية في حياتك، الآن، وليس غداً:

.1في بيتك: عندما تختلف مع زوجتك أو أولادك، طبق ميثاق "العليم قبل العزيز" .لا تحكم بغضب . استمع، وتحقق، وافهم الدوافع، ثم احكم بعزة ورحمة .وعندما تريد أن تربي أبناءك، اجعل القرآن هو المرجع الأول في قيم التربية، لا أحدث صيحات الغرب، بثقة أن خالقهم أعلم بما يصلحهم.
.2في عملك: اعتمد على كتاب الله في أخلاقيات التجارة .كن قوياً أميناً .قدر العلم وطور نفسك باستمرار .وعندما تتعرض لضغوط للغش أو الكذب، تذكر أن رزقك بيد العزيز العليم، وليس بيد مديرك أو عميلك.
.3في مواجهة الشبهات: إذا واجهت شبهة تشككك في دينك، عد إلى مبدأ اليقين بمصدر التوجيه .لا تنهار .قل: هذا من تنزيل العزيز العليم .إن غاب عني العلم بشيء، فـالله هو العليم .واطلب العلم النافع من مصادره .هذه الآية هي حصنك المنيع.
.4في إدارة أزماتك: عندما تحل بك أزمة مالية أو صحية، لا تخف ولا ترتبك .ردد بقلبك: "هذا من عند العزيز العليم" .هو يعلم، وهو قادر .ثم انظر في كتاب الله عن سنن الابتلاء والخروج من الأزمات ، وثق أن الحل في تطبيق أوامر الله وليس في اتباع الهوى .هذا يمنحك طمأنينة نفسية تنزع الخوف والارتباك.

أيها المؤمن الحي، إن قراءتك لـ {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} هي تجديد يومي لعهد الولاء لله، وإعلان أنك لن تستمد قوانين حياتك إلا منه. اجعلها تتردد في قلبك، فتملأه هيبة وطمأنينة، وفي عقلك، فتملأه يقيناً وثباتاً، وفي جوارحك، فتملأها قوةً وعملاً ً. عندها فقط، سنكون قد بدأنا السير الحقيقي في طريق "تنزيل الكتاب" لنكون من الذين سيقوا إلى الجنة وهم في غاية الاطمئنان.

ثالثا

.أيها السائر إلى الله، يا من أيقظت روحك بـ {حم}، ورسخت مرجعيتك بأن هذا {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ

اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ} ، ها نحن الآن نقف وإياك على عتبة الآية الثالثة، التي تتنزل على قلبك كالبلسم الشافي، وكالسوط العادل، وكالضابط الحكيم:

}غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ المَصِيرُ{ [غافر:3]

لا تقرأ هذه الآية كمجرد إخبار عن صفات الله، بل استقبلها وكأنها خارطة بناء شخصيتك، فهي ليست كلمات تُتلى فحسب، بل هي محركات فاعلة إذا استقرت في وجدانك، صنعت منك إنسانًا متوازنًا، وقائدًا ربانيًا، ومصلحًا يبني ولا يهدم. إنها دستور الحياة القلبية والعملية معًا. فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الصفات لنستخرج منها كنوز اليقين والتوازن والعمل.

المقدمة: من اليقظة والمرجعية إلى التوازن والبناء

بعد أن استقر في قلبك أن الكتاب تنزيل من العزيز العليم، يأتي السؤال العملي: كيف أتعامل مع هذا الكتاب ومع نفسي ومع الناس؟ كيف أوازن بين رحمة الله التي تغريني بالمغفرة، وعقابه الذي يرعبني من الذنب؟ كيف أتعامل مع أخطائي ومع أخطاء الآخرين؟ الآية تجيبك بمنظومة متكاملة من الصفات الإلهية التي هي، في الوقت نفسه، برنامج تربوي متكامل لبناء النفس والمجتمع. إنها تنقلك من مرحلة "المعرفة" إلى مرحلة "التحول"؛ تحول الكلمة إلى سلوك، والصفة الإلهية إلى خلق إنساني. إنها تقول لك: "كما أن الله غافر الذنب، كن أنت غافرًا لزلات إخوانك. وكما أن الله شديد العقاب، كن أنت حازمًا في مواطن الحزم. وكما أن الله ذو الطول، فكن واسع العطاء، لا تضيق ذرعًا بالشدائد". هذه الآية هي دستور التوازن الذي إن تمسكت به، نجوت من التردد بين اليأس والغرور، وبين الضعف والطغيان.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

- الهدف الأساسي: بناء الشخصية المسلمة الفاعلة المتوازنة، التي تجمع بين الرحمة والحزم، وبين الرجاء والخوف، وبين السعة والبذل، وتستمد كل ذلك من صفات ربها.
- المقاصد الكلية:
  1. غرس الأمل وإزالة اليأس: عبر تقديم صفتي "غافر الذنب" و"قابل التوب".
  2. ترسيخ الردع والمسؤولية: عبر ذكر "شديد العقاب".
  3. توسيع أفق الرجاء والفضل: عبر صفة "ذي الطول".
  4. تحرير النفس من العبودية لغير الله: عبر "لا إله إلا هو".
  5. ربط الأعمال بالمسؤولية الأخروية: عبر "إليه المصير".
- الدلالات العميقة:
- دلالة التوازن التشريعي والتكويني: الآية ترسم معادلة الوجود: رحمة وقوة، فضل وعدل.
- دلالة التخلق بصفات الله: إنها دعوة للتخلق بهذه الصفات على قدر الطاقة البشرية؛ فالمؤمن يتسامح) غافر(، ويقبل العذر) قابل(، ويحزم في موضع الحزم) شديد(، ويعطي) ذي الطول.(

الأمر الأول:
كيف تتحول الكلمات إلى محركات لبناء الشخصية المسلمة الفاعلة؟

هنا السر العظيم. هذه الآية ليست لوحة تُعجب بها، بل هي ورشة عمل. كيف؟
عندما تقرأ {غَافِرِ الذَّنبِ} لا تمر مرورًا، بل قف واسأل نفسك: إن كان الله، العظيم الجليل، يستر عباده ويغفر لهم، فمن أنا حتى لا أغفر زلة لإنسان أخطأ في حقي؟ هنا تتحول الكلمة إلى محرك سلوكي يدفعك للعفو.
وعندما تقرأ {شَدِيدِ العِقَابِ}، اسأل: إن كان الله الذي وسعت رحمته كل شيء لا يتهاون في عقاب الظالمين والمفسدين، فكيف أتهاون أنا في الدفاع عن الحق وإقامة العدل في حدود مسؤوليتي؟ هنا تتحول الكلمة إلى محرك للحزم والمسؤولية.
وعندما تقرأ {ذِي الطَّوْلِ}، اسأل نفسك: إن كان فضل الله واسعًا دائمًا لا ينقطع، فلماذا أبخل بمالي أو جاهي أو وقتي؟ وكيف أيأس من سعة رزق الله وفضله عند الشدة؟ هنا تتحول الكلمة إلى محرك للكرم والأمل والإيجابية.
إن قراءة القرآن بهذه الطريقة هي التي تصنع الشخصية الفاعلة، شخصية لا تكتفي بالتلقي السلبي، بل تتفاعل مع النص وتحوله إلى طاقة عمل وحياة.

الأمر الثاني:
دلالة "غافر الذنب" و"قابل التوب" - رحمة تصنع الأوبة

انظر إلى اللمسة البيانية الأولى: قدم الله وصفه بـ {غَافِرِ الذَّنبِ} على {قَابِلِ التَّوْبِ} . هذا الترتيب ليس عبثًا، بل هو رسالة أمان عظمى. "غافر الذنب" تعني أنه يمحو الذنب بمجرد وقوعه إذا شاء، فهو الغفور الذي يستر العيوب ويصفح عن الزلات، حتى قبل أن تفيق أنت من غفلتك وتتوب. إنه يبادرك بالستر، فإذا ما أفقت من غفلتك وتبت، كان "قابل التوب"، أي يقبل رجوعك ويجازيك عليه. فسبحانه، لا يعاملك معاملة الشرطي الذي ينتظر هفوتك، بل معاملة الطبيب الذي يضمد جراحك وأنت بعدُ لم تستفق من ألمك!

اللمسات البيانية والبلاغية:
صيغة "غافر" و"قابل" هي اسم فاعل، تدل على الثبوت والتجدد. فالله ليس غافرًا مرة واحدة، بل هو دائم المغفرة، دائم قبول التوبة، مهما تكرر الذنب وتكررت التوبة. إنها كالنافورة التي لا تنقطع، وكالنهر الذي لا يجف.
وهناك أيضًا لمسة بلاغية في التعبير بـ"الذنب" و"التوب" بصيغة الجمع؛ لتشمل الذنوب كلها، كبيرها وصغيرها، وتشمل التوبة من أي ذنب كان، فلا تقنط، بابُه مفتوح للجميع.

الرسائل التربوية والنفسية والعقلية:

.1الرسالة النفسية: صناعة الاستقرار الداخلي وتحطيم اليأس .هذه الآية تخاطبك في لحظات ضعفك وانكسارك، عندما يثقل عليك ذنبك، وتظن أن سبيل العودة قد أغلق .إنها ليست مجرد إخبار عن صفة الله، بل هي علاج نفسي رباني، يهمس في أذن روحك: "لا تيأس، عد إليّ، فبابي مفتوح، وستري واسع، وقبولي دائم" .إنها تصنع منك شخصية أوّابة، لا تستسلم للفشل، بل تحول كل خطأ إلى محطة تصحيح وإعادة انطلاق.
.2الرسالة التربوية: إنها تعلمك أن أول خطوة في التعامل مع المخطئ هي الستر والغفران، لا التشهير والإقصاء .فالمربي الناجح، والقائد الرباني، يستر زلات أتباعه أولا ً، ثم يفتح لهم باب المراجعة و التوبة، بهدوء وسرية، ليعيدوا بناء أنفسهم.
.3الرسالة العقلية: إنها تمنع الاكتئاب والتحطم الناتج عن "عقدة الكمال المزيف"؛ فالاعتراف بأن الله "غافر الذنب" و"قابل التوب" يعطي مخرجًا عقليًا ونفسيًا من جلد الذات المفرط، ويصالح الإنسان مع بشريته الضعيفة، ليقوم من جديد.

الأمر الثالث:
دلالة "شديد العقاب" - حزم يصون الحقوق

والآن، يتغير الإيقاع اللغوي فجأة. بعد فيض الرحمة، يأتي وصف {شَدِيدِ الْعِقَابِ} . لماذا؟
لأن الرحمـة بلا حزم تؤدي إلى الفوضى، ولأن التسامح المطلق يصبح تشجيعًا على الجريمة. إن هذا الاقتران هو الذي يمنع التمييع والانفلات. فلو كانت الآيات تتحدث عن المغفرة فقط، لظن الجاهل أن الله يرضى بالظلم أو أن العاقبة حميدة للجميع، ولو كانت عن العقاب فقط، ليئس الناس من رحمة الله.

اللمسات البيانية والبلاغية:
وصف العقاب بـ"شديد" هو خبر مقدم، و"العقاب" هو المبتدأ المؤخر، وهذا يفيد القصر والتوكيد؛ أي أن عقابه وحده هو الشديد حقًا، لا عقاب غيره. إنها كلمة تزلزل الأعماق، فتشعر وكأن جبال الكون ترتجف من شدة هذا الوصف.

الرسائل التربوية والنفسية والعقلية:

.1الرسالة النفسية: منع الغرور .كما تمنعك "غافر الذنب" من اليأس، تمنعك "شديد العقاب" من الأمن من مكر الله والغرور بطول السلامة .فيعيش قلبك في توازن ديناميكي بين الرجاء والخوف، مما يحفظ صحتك النفسية.
.2الرسالة التربوية والسلوكية) الضبط(: إنها تعلمك أن المرونة لها حدود .التسامح يكون في الحقوق الشخصية وفي الخطأ غير المقصود الذي يعقبه ندم .أما التهاون في الواجبات وحقوق الآخرين، والا عتداء على الأمة، فهو خيانة تستوجب الحزم والشدة .هذا هو الانضباط الذي يحفظ توازن المجتمع .
إن "شديد العقاب" هو السور الذي يحمي بستان "غافر الذنب" و"قابل التوب" من عبث العابثين.
.3الرسالة العقلية: إنها تضبط إيقاع التفكير؛ فلا تجعلك ساذجًا تتعامل مع كل الناس بالرحمة دون استثناء، فالمجرم المعاند يحتاج إلى منطق القوة لردعه.

الأمر الرابع:

دلالة "ذي الطول" و"لا إله إلا هو" و"إليه المصير"- فضل وتحرر ورقابة

ثم تأتي الصفات الثلاث التالية لترسم بقية المشهد:

أولا ً: {ذِي الطَّوْلِ}

"الطَّوْل" هو الغنى الواسع، والفضل العظيم، والإنعام المستمر .إنها صفة السعة التي لا حد لها .فبعد أن غفر، وبعد أن حذر من العقاب، يعود فيبسط بساط فضله، وكأنه يقول لك: "وإن كنتَ ضعيفًا محتاجًا، فأنا ذو الطول، واسع العطاء، أقدر على تمكينك وإغنائك وإعطائك من فضلي الواسع".

اللمسات البيانية: العطف بـ"ذي" يشعرك بالتملك والقدرة المطلقة على كل فضل ونعمة.
الرسالة النفسية والعملية: إنها تغرس الأمل والإيجابية. عندما تغلق في وجهك الأبواب، وتشعر بضيق الموارد، استحضر "ذي الطول". إنه يعلمك أن موارد الله لا تضيق، وأن فضله واسع. وقد دعا النبي ﷺ بهذا الاسم في الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم". إنها تطلقك من عقدة النقص، وتدفعك لتكون واسع العطاء إيجابي المبادرات، ذا طول نفس في مشاريع الإصلاح والتغيير.

ثانيًا: {لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}

هنا جوهر التوحيد العملي. بعد كل هذه الصفات، يأتي حصر الألوهية فيه وحده.

الرسالة الحضارية: هذا هو إعلان التحرر. من كان غافرًا وقابلًا وشديدًا وذا طول، فلماذا تخضع لسواه؟ لماذا تستمد قوتك أو رزقك أو سترك من مخلوق ضعيف؟ هذه الجملة تحررك من التبعية لغير الله، فتمنحك عزة في الحق، وتواضعًا مع الخلق. أنت لا ترجو إلا من يملك المغفرة، ولا تخاف إلا من يملك العقاب، ولا تسأل إلا من بيده الطول. بهذا تتحرر من كل طاغوت، ومن كل قيد وهمي.

ثالثًا: {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}

هو الختام الذي يعطي للحياة كلها معناها واتجاهها. إنه يذكرك بأن محطتك الأخيرة هي إليه وحده.

الرسالة التربوية والرقابية: هذا هو أعلى درجات الرقابة الذاتية. عندما تعلم أن المصير إلى الله، يتحول الدافع للعمل الصالح من الخوف من رقابة البشر إلى اليقين بالمسؤولية أمام الله. عندها، تقل الحاجة إلى الرقابة البشرية، لأن ضميرك حي، وعينك على الله. في عالم الإدارة، هذا يعني تربية كوادر يكون محركها الأساسي هو الإتقان والأمانة، ليس خوفًا من المدير، بل استعدادًا للقاء من إليه المصير.

الأمر الخامس:
التوجيهات الاستراتيجية من الآية - موازين للفرد والقائد والمجتمع

الآن، وقد تشربت المعاني، كيف تتحول إلى استراتيجيات عملية؟

1.إدارة "الفرص الثانية" بدلا ً من سياسة الإقصاء:

تعلمنا الآية أن على القائد أو المصلح أن يكون "قابلا ً للتوب"، أي أن يفتح مسارات العودة للمخطئ. سياسة الإقصاء الدائم والتشهير تحول المخطئ إلى عدو أو يائس. أما تربيتنا القرآنية فتقول: "عندما يدير أحدنا مؤسسة، أو حتى بيته، فليكن غافرًا للزلات الفنية والأخطاء غير المقصودة، قابلًا للمراجعة والتوبة، حازمًا مع الخيانة والاستهتار المتعمد". هذه هي روح القيادة المصلحة: احتواء لا إقصاء، وتصحيح لا تشهير.

2.التوازن بين المرونة والحزم) ضبط السلطة التقديرية(:

هذه الآية هي ميثاق عظيم لضبط السلطة التقديرية عند القاضي أو المدير أو المربي، من خلال موازين ثلاثة:

• ميثاق العلم قبل الحزم: "شديد العقاب" لا يأتي إلا بعد استيفاء البحث العلمي العليم .فقبل إيقاع أي

إجراء تأديبي، يجب التحقق من دوافع الفعل وملابساته .هذا يمنع الظلم.
· مبدأ التوبة المنتجة: "قابل التوب" يعني إدخال بدائل إصلاحية للعقوبات في الجرائم البسيطة .مثلا ً، إدراج الصلح القضائي والخدمة المجتمعية كبديل لعقوبات سالبة للحرية، إذا أظهر المذنب ندماً عملياً وجبر الضرر .هذا يفتح باب إعادة الدمج بدلا ً من وصمة السجن الأبدي.
· الصرامة في موضعها: "شديد العقاب" يعني أنه لا مجال للمرونة أو التسامح في الجرائم التي تمس أمن المجتمع أو خيانة الأمانة العامة، فهنا يطبق الحزم لصيانة الحقوق وحماية السلم المجتمعي.

الأمر السادس:
الأبعاد الواسعة للآية في بناء الإنسان والمجتمع

لننظر إلى الأبعاد الأوسع لهذه الآية الكريمة:

· البعد النفسي: صناعة الاستقرار الداخلي .الآية تخاطب الإنسان في أضعف حالاته) شعوره بالذنب (فتمنحه الأمان، وفي أقوى حالاته) شعوره بالقدرة (فتمنعه من الطغيان .هذا التوازن بين الرجاء) غافر الذنب (والخوف) شديد العقاب (هو سر الصحة النفسية للمؤمن.
· البعد السلوكي: الانضباط والمرونة .إنها تقنن السلوك؛ فالتسامح فضيلة ما لم يضر بالحقوق، والحزم واجب ما لم يتحول إلى قسوة .هذه هي الأخلاق العملية التي تبني المجتمعات.
· البعد الحضاري: مفهوم "الطَوْل" .هذا المفهوم يدعو إلى التحرر من ضيق الأفق وعقدة النقص .الله واسع الفضل، فكن أيها المسلم واسع العطاء، إيجابي المبادرة .في الاقتصاد والسياسة والتربية، نحتاج إلى "طول نفس" في المشاريع الإصلاحية، وألا نيأس من بطء النتائج .إنها تصنع حضارة السعة و الفضل، لا حضارة الانتقام والتشفي.

الأمر السابع:
التطبيقات التربوية والنفسية والعملية المباشرة

لنجعل هذه المعاني مصباحًا يضيء خطواتنا اليومية:

.1في إدارة الذات:
· في لحظة الخطأ: استحضر "غافر الذنب" .لا تجلد ذاتك، بل تصالح مع بشريتك، وتب إلى الله فورًا، واعلم أنه "قابل التوب" يحب الأوابين.
· في لحظة القوة والنجاح: استحضر "شديد العقاب" و"لا إله إلا هو"، لئلا يغريك نجاحك فتظن أنه بعلمك وقوتك، فتطغى .وتذكر "إليه المصير" لتكون متواضعًا.
· في لحظة الحاجة والضيق: استحضر "ذي الطول" .لا تهرب من الله بل اهرب إليه، واطلب من فضله الواسع، وافتح صفحة جديدة بالأمل.
.2في التعامل مع الآخرين) ثقافة التسامح والمرونة(:
التسامح هنا ليس حالة طبيعية مزاجية) مسالمة سلبية(، بل هو خُلق مكتسب، وفعل إرادي واعٍ، تقوم به وأنت قادر على الانتقام، استجابة لأمر الله وتدربًا على التخلق بأخلاقه .فالله "غافر الذنب" قبل أن يتوب العبد، وهذا يعلمك أن تبادر أنت بالستر وقبول العذر، وألا تحكم على الآخرين حكمًا مؤبدًا بسبب خطأ واحد.
· التدريب العملي: عند التعامل مع زملائك أو أهلك، طبق مفهوم "قابل التوب" .لا تجعل أول خطأ هو نهاية العلاقة .افصل بين الفعل والفاعل؛ نكره الذنب ونُخطئ الفعل، لكننا نبقي الباب مفتوحًا للفاعل إذا أراد العودة .هذا هو صلب "القيادة بالاحتواء لا بالإقصاء".
.3في التربية وبناء الشخصية:
· قاعدة الاحتواء لا الإقصاء: إذا أخطأ المتربي، فالخطوة الأولى هي الستر) غافر الذنب (والنصح السري، لا التشهير والطرد من المحضن التربوي.
· الإيجابية والتركيز على القوة: تطبيق "ذي الطول" يعني تحويل التركيز من معالجة الأخطاء فقط إلى اكتشاف المواهب ونقاط القوة وتنميتها، ومنح المكافآت المعنوية والمادية للمتميزين، ليعيش المتربي في أجواء الفضل التي تشجعه على الاستقامة حبًا لا خوفًا.
· الرقابة الذاتية: اربط المتربي دائمًا بـ"إليه المصير" .دربه على النقد الذاتي والمحاسبة اليومية للنفس، ليكون دافعه للعمل الصالح هو اليقين بالله، لا مراقبة المربي أو المدير، مما يقلل الحاجة إلى الرقابة البشرية.

الأمر الثامن:
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟ - دليل تحويلي

خذ هذه الآية معك في جيبك، واستحضرها في كل مشهد من مشاهد حياتك:

· في الصباح: عندما تبدأ يومك، استشعر أنك عبد لـ"غافر الذنب"، فابدأ يومك بصفحة جديدة مع الله ومع الناس .أنت أمام يوم جديد بفرص جديدة، لا تحمل فيه هموم أمس.
· في مقر عملك: أنت الآن قائد فريق .تذكر "قابل التوب" .عندما يخطئ أحد أفراد فريقك خطأ فنياً، استره، وناقشه على انفراد، وافتح له باب تصحيح الخطأ، واشكره على مبادرته .ولكن إذا اكتشفت خيانة للأمانة، فطبق "شديد العقاب" بروح العدل والمسؤولية، لا بروح الانتقام، لتضمن استقامة المؤسسة.
· في حياتك الأسرية: أنت زوج أو أب .تذكر "غافر الذنب" .لا تكن شرطياً يحصي الزلات .كن ساترًا، متسامحًا، وسّع صدرك، وكن "ذا طول" في عطائك العاطفي والمادي، تغمر أسرتك بالفضل.
· في صراعك مع أفكارك: عندما تهاجمك أفكار اليأس من رحمة الله، أو أفكار العجب بالنفس، فالآية هي ترياقك .انظر إلى صفات الله فيها: سعتها ورحمتها وحزمها، وستجد نفسك تعود إلى التوازن.
· في مواجهة الظلم والفساد المجتمعي: تذكر أنك عبد لـ"شديد العقاب"، وهذا يعني أن عليك واجب ا لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعي لإقامة العدل، والدفاع عن المظلومين، بقوة منضبطة .وفي الوقت نفسه، تذكر "ذي الطول" فلا تيأس من طول أمد الإصلاح.

في الختام، أيها المؤمن الحي، إن هذه الآية هي النموذج الأعلى الذي ندعو الله أن نتحلى به. هي ليست مجرد إخبار، بل هي تفويض وتكليف. إنها ترسم لك الصورة الكاملة للإنسان الرباني: قلب غافر، ويد حازمة على الحق، ونفس واسعة بالعطاء، وضمير حي بالرجوع إلى الله. اجعل هذه الآية بوصلتك ، تعش بها، وتتنفسها، فتكون من الذين ساروا إلى الجنة وهم في الدنيا في جنة الطمأنينة والتوازن.

رابعا

أيها السائر إلى الله، يا من أيقظت روحك بـ {حم}، وثبّت مرجعيتك بأن هذا {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، واتسع صدرك بنور صفاته: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ}، هلمّ بقلبك وعقلك معًا، لنقف على أعتاب آية جديدة، ترفع الستار عن حقيقة نفسية خطيرة، وتقدم لك توجيهًا استراتيجيًا يحصن قلبك من فتنة العصر. يقول تعالى بعد أن عرض مشهد الرحمة والعدل الإ لهي، وكأنه ينتقل بك من نور الصفات إلى ظلمات النفوس المعاندة:

}مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ{ [غافر:4]

لا تمر على هذه الآية كخبر عن الأمم السابقة، بل استقبلها وكأنها إنذار لك، وتشريح لنفسك، وحصن لواقعك. إنها تخبرك أن الطريق إلى الله نور ووضوح، وأن هناك من اختار الظلام والعناد، وتكشف لك حقيقة زيف ما هم فيه من متاع. فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الآية، لنستخرج منها الشفاء من داء الجدل، والنور الذي يبدد ظلام الشك، والتوجيه الذي يحررك من أسر المظاهر.

المقدمة: بين النور الإلهي وظلام الجحود

بعد أن ملأ الله قلبك في الآيات السابقة بنور اليقين بمصدرية الكتاب، وروعة التوازن بين رحمته وعزته وفضله، يأتي السؤال العملي: ماذا عن أولئك الذين وقفوا من هذا النور موقف الرفض؟ ما هي حقيقة موقفهم؟ وكيف يحصن الله قلبك أنت من هذا الموقف؟
الآية تنتقل بك من صفات الفاعل (الله جل جلاله) إلى صفات الفعل عند الرافضين. إنها تنقلك من دائرة النور الرحب إلى دائرة الضيق المظلم، ليس لتخيفك فحسب، بل لتريك آليات الضلال، فتعرفها وتجتنبها، وتفهم حقيقة ما تراه أعينك من قوة وسطوة لخصوم الحق. هذه الآية هي تشريح دقيق للنفس الإنسانية عندما تختار الكفر، وهي في الوقت نفسه رسالة أمان وطمأنينة لك، أيها المؤمن.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

· الهدف الأساسي: كشف الطبيعة النفسية والفكرية للكافرين عبر العصور، وبيان أن سلاحهم الأوحد هو الجدل العقيم، وتحصين المؤمن من الاغترار بزخارفهم الدنيوية.
· المقاصد الكلية:

1. تشخيص داء الجدل: تعريفه، وبيان خطورته، وكونه علامة فارقة على الكفر.
2. تصحيح المنظور الدنيوي: تعليم المؤمن ألا تقاس القيمة الحقيقية بالمال والجاه والسلطان.
3. ترسيخ الطمأنينة القلبية: بث السكينة في قلب المؤمن بأن قوة الكافرين مهما بدت عظيمة، هي متاع زائل واستدراج.
4. غرس قيمة القناعة والعزة: توجيه المؤمن لأن تكون عزته بالحق، لا بما في أيدي الناس من

متاع زائف.
· الدلالات العميقة:
· دلالة القصر والحصر: كلمة} إلَّا {تفيد أن الجدل في آيات الله بالباطل صفة لازمة وملتصقة حصرًا بالكافرين.
· دلالة السخرية والاستدراج: النهي عن الاغترار بـ"تقلبهم" يعني أن ما هم فيه ليس عزًا ولا تمكينًا حقيقيًا، بل هو إملاء واستدراج.
· دلالة التحذير والتربية: "فلا يغرنك" خطاب يبني في نفس المؤمن وعيًا نقديًا تجاه زيف المظاهر.

-الأمر الأول:
حقيقة الجدل عند الكافرين – تشريح نفس العِناد

الآية تبدأ بقصر بليغ وخطير: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}.
اسأل نفسك الآن: ما هذا الجدل الذي جعله الله سمة حصرية للكافرين؟

إنه ليس البحث الصادق عن الحقيقة، ولا هو المناقشة العلمية المحمودة. إنه الجدل العقيم القائم على المغالبة وقوة اللسان، لا على طلب الحق. إنه ذلك الصوت الذي يعلو في مجلس ما، لا ليفهم، بل لينتصر. إنه تلك الحالة النفسية التي تجعل الإنسان يرفض كل دليل وبرهان، ويدور في حلقة مفرغة من السفسطة والمراء. إنه يصرخ بأن صاحبه لا يريد أن يرى، لا أنه لا يرى. إنه عناد وعراك فكري، هدفه إظهار قوة المُجادل، لا الوصول إلى الحقيقة. ولهذا، فإن صاحبه لا يطلب دليلا ً ليسلم، بل يبحث عن شبهة ليدفع بها الحق عن صدره.

لماذا هذه الصفة من دعائم الكفر؟
لأن الإيمان يقوم على التسليم بعد وضوح الحجة، والاستعداد الداخلي لقبول الحق. أما هذا الجدل، فهو جدار سميك يبنيه المعاند حول قلبه، فيحجب عنه نور الحقيقة. إن الطريق أمام الكافر يصبح وعرًا صعبًا، ومخرجه يضيق حتى يكاد لا يرى له مخرجًا، لأنه هو الذي أغلق على نفسه كل المنافذ. إنه يرفض رؤية الحقيقة، والأدهى أنه ليس مستعدًا لقبولها، فيعيش في شك وظلام دامس، لا يستطيع الهروب من سجن ذهنه إلى نور اليقين ونهاره. إنه كمن عاش في كهف مظلم، فلما أشرقت الشمس، أغمض عينيه بإحكام، وجادل في أنها لم تشرق! وهذا هو عين الخسران المبين.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· استخدم الفعل المضارع "يُجادل" للدلالة على الاستمرار والتجدد .فالكافر في جدال دائم لا يهدأ، لا يستريح على يقين، بل هو في قلق وتشكك دائمين .فجداله ومنازعته قائمة على جهل دائم، فدام عماه عن الحق.
· لفظ "في آياتِ الله" يوحي وكأن الآيات ميدان معركة، فهم يخوضون فيها ويصولون ويجولون بجدلهم، لا ليتدبروها، بل ليعاركوها ويكسروها.

الرسائل النفسية والتربوية والفكرية:

.1نفسيًا: ظلام الشك الداخلي .هذا الجدال الظاهري ليس إلا غطاءً لظلام الشك والاضطراب الداخلي . الكافر والمجادل بهذه الصورة يعيش في ضيق نفسي رهيب .إنه لا يرى النهار، ولا يستطيع الهروب من الشك إلى نور اليقين ونهاره.
.2تربويًا: خطر التربية على الجدل .هذا يبين لنا خطورة تربية النشء على ثقافة "التنازع للجدل" بدل "الحوار للفهم" .نربي أبناءنا وطلابنا على قوة الحجة والمنطق، ولكن للوصول إلى الحق، لا للمغالبة وإظهار القوة .فمتى أصبحت الغلبة هي الهدف، أغلقنا باب الهداية عن أنفسنا وعن غيرنا.
.3فكريًا: إغلاق منافذ المعرفة .الجدل العقيم هو إعلان إفلاس فكري .العقل السليم يتفتح للحق ويبحث عنه، أما العقل المعاند فينغلق على نفسه، فيموت فكريًا وهو يظن نفسه حيًا، لأنه لا يرى إلا ذاته وانتصارها.

الأمر الثاني:
"فلا يغرنك تقلبهم في البلاد" – توجيه استراتيجي في زمن زيف المظاهر

بعد أن كشف الله حقيقة نفوسهم المضطربة بالجدل، يأتي التوجيه المباشر للنبي ﷺ ولكل مؤمن: {فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}.

ما هو هذا التقلب؟ إنه حركتهم الظاهرية؛ تجارتهم الرابحة، وسلطانهم الممتد، وجاههم العريض، ومناصبهم اللامعة. إنهم يتقلبون في البلاد يمينًا وشمالا ً، ذاهبين آيبين، والأموال تحفهم، والسلطة بيدهم. فجاء الخطاب ليقول لك: "احذر! لا تدع أبصارك تخطفك هذه الصورة البراقة، فإنها ليست دليل حب الله ولا رضاه، بل هي قد تكون استدراجًا وإملاءً". إن نظرة المسلم لهذه الأشياء (المال، الجاه، السلطان) ليست نظرة تعظيم وانهزام، بل هي نظرة عادية متوازنة؛ فهو يأخذ بأسباب جمع المال وتحصيل المناصب، لكنه لا يعظمها، ولا يجعلها مقياسًا لقيمة البشر، ولا يركض وراءها ركض الواله، فيسلم من الاستدراج الذي وقع فيه غيره.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· كلمة "تقلبهم" تدل على كثرة الحركة وسرعتها وتنقلها، لكنها حركة في "البلاد"، أي على سطح الأرض ، وليست حركة صاعدة في مرضاة الله .إنها حركة أفقية في الدنيا، لا حركة عمودية في سلم القرب من الله.
· النهي "لا يغرنك" هو نهي للعين والقلب معًا .لا تنخدع عينك بالمشهد، ولا يضعف قلبك فيميل إليهم أو يحسدهم.

الرسائل النفسية والتربوية والفكرية: غرس القناعة والتحرر من وهم الأسباب

هنا يكمن التوجيه الاستراتيجي العظيم، الذي يبني فيك فلسفة القناعة والعزة بالمبادئ:

.1تصحيح مفهوم القوة والرزق: الآية تغرس فيك أن قيمتك وقوتك ليستا معلقتين بالمال ولا ب السلطان ولا بالجاه ولا بالمناصب .هذه كلها أعطاها الله لكافرين لا يحبهم .أما قوتك أنت، أيها المؤمن ، ففي عزيمتك وإرادتك وسعيك لإرضاء الله وحده .انظر كيف تختلف النظرة: الكافر ينظر إلى المال على أنه غاية وجوده، ومصدر عزته وقوته، فيركض وراءه ناسيًا آخرته .أما المؤمن، فالمال في يده وسيلة، يأخذ بأسبابه، ولكن لا يعظمه، ولا يجعل قلبه متعلقًا به .هذه النظرة "العادية" للمال والجاه، هذا التحرر من عبوديتهما، هو ما يحصنك من أن تقع فيما وقعوا فيه من استدراج.
.2جراحة نفسية ضد الحسد والانهزام: إن رؤية الكافرين والمجرمين وهم يتقلبون في النعيم قد تحدث في النفس المؤمنة التمزق الداخلي، وقد يشعر بالمرارة أو الانهزام: "لماذا هم أقوياء ونحن ضعفاء؟" .فيأتي الخطاب القرآني كالبلسم:} فَلَا يَغْرُرْكَ{، لا تنظر إليهم، بل انظر إلى مقامك عند الله . هذا المفهوم يبني فيك القناعة والغنى النفسي .فأنت غني بإيمانك، عزيز بمبادئك، وليس باستحقار ما في أيدي الناس.

الأمر الثالث:
أبعاد الآية وآفاقها – وكيف نعالج بها تحدياتنا؟

الآية لا تعالج قضية الكافرين في مكة فحسب، بل تعالج قضية إنسانية أبدية: صراع الحق مع الباطل حين يتزين الباطل بزخارف الدنيا. إنها تعطيك بوصلة لتقرأ الواقع المعاصر، فترى كيف أن قوى الباطل المعاصرة غالبًا ما تملك المال والإعلام والسلاح، وتجادل في آيات الله ليل نهار بوسائل إعلا مية وفلسفية. فتعالج الآية عدة قضايا:

.1قضية الإدراك والوعي: كيف ندرك الأمور؟ هل بظواهرها أم بحقائقها الباطنة؟ الآية تعلمك قراءة ما وراء الحدث.
.2قضية المنظومة القيمية: ماذا نعظم؟ القيم الروحية والمبادئ، أم الماديات والمناصب؟ الآية تعيد ترتيب أولويات القيم لديك.
.3قضية الصحة النفسية المجتمعية: كيف نتعامل مع التفاوت الاقتصادي والاجتماعي؟ الآية تمنع الا نهزام النفسي والحسد والغبن، وهي أمراض تفتك بالمجتمع.

الأمر الرابع:
المفاهيم العملية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

.1مفهوم "النظرة الاستراتيجية" منظور المصير): الإنسان الذي يربى على هذه الآية لا يأخذه بريق اللحظة .ينظر إلى المصير .يُعمل عقله ليرى أن المتاع الزائل ليس دليل نجاح حقيقي، فيتجهز للنجاح الحقيقي يوم} إليه المصير .{هذه النظرة تبني قادة لا تساوم على مبادئها من أجل مكسب آني.
.2مفهوم "التحرر من العبودية الظاهرة والخفية": هذه الآية تعلن تحريرك من عبودية المال والجاه . أنت حر لأن قوتك في الله .هذا المفهوم هو الذي يبني الشخصية المسلمة القوية التي لا تستعبدها

الحضارة المادية، والتي تتعامل مع المال والمناصب كوسائل للاستخلاف، لا كغايات تستعبدها.
.3مفهوم "الحوار البناء بدل الجدل العقيم": الآية تبني ثقافة مجتمعية كاملة هي ثقافة الحوار و الجدال بالتي هي أحسن، طلبًا للحق، لا ثقافة المغالبة وإظهار القوة والعناد .مجتمع يربي أبناءه على هذه القاعدة، مجتمع ينمو ويتطور، لأن عقوله متفتحة على الحقيقة.
.4مفهوم "الاستدراج" كأداة تحليل: تعلمنا الآية ألا نهلل لأي قوة أو نجاح، بل نضعه في ميزان: هل هو استقامة على المنهج أم استدراج؟ فتحكم على الأمور بمآلاتها لا ببداياتها الزائفة.

الأمر الخامس:
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه المعاني حية في حياتك، الآن، وليس غدًا:

.1في علاقتك مع نفسك: عندما ترى من هو أقل منك تدينًا يمتلك من الدنيا ما ليس عندك، ردد بقلبك:} فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ .{واعلم أن هذا اختبار لك ليرى الله هل تطمئن نفسك بعطائه أم تجزع .ازرع في نفسك القناعة، واعلم أن قوتك في عزيمتك وإرادتك وسعيك لإرضاء الله.
.2في علاقتك مع أفكارك: عندما تشعر أن الشبهات تحاصرك، وأن الخطاب الإعلامي لخصوم الدين قوي وجذاب، تذكر أن سلاحهم الوحيد هو الجدل .لا تنجرف وراء بريقه، بل اطلب العلم والحق، واسأل الله الثبات .لا تجادل نفسك بوساوسهم، بل أغلق الباب، واطلب النور من مصدره.
.3في عملك وقيادتك:
· لا تكن من النوع الذي "يُجادل" في الاجتماعات لإظهار قوته، بل كن ممن يحاور للوصول إلى الصواب.
· لا تنبهر بموظف أو تاجر أو قائد، نجاحه المادي أو نفوذه الواسع، إن كان يعاند الحق ويعيش في جدل مع أوامر الله .قيمه الحقيقية عند الله صفر، فلا تعطه فوق حقه في نفسك.
.4في تربيتك لأبنائك:
· علمهم أن القوة في العزيمة والإرادة وليس في المال.
· دربهم على ثقافة الحوار) طلبًا للحق (والنفور من الجدل) طلبًا للغلبة .(علمهم أن يقولوا: "لا أعلم" ، و"لنتحاور لنفهم"، لا "لنتنازع لننتصر".
.5في لحظات الضعف والإحباط:
· إن رأيت أهل الباطل يصولون ويجولون، لا تهن ولا تحزن .أنت على الحق، وسلاحهم الأجوف هو الجدل والعناد، أما سلاحك فهو اليقين} .فَلَا يَغْرُرْكَ {هي بلسم لقلبك، تمنحك الطمأنينة بأن نهايتهم إلى زوال، وعاقبتك إلى خير، إن ثبت.

الأمر السادس:
رسائل الآية للقيادة وللنهضة – نحو مجتمع رباني

هذه الآية تقدم دروسًا استراتيجية للمصلحين والقادة:

· القوة في المبدأ لا في المال: القائد الرباني لا يقيس قوته بعدد أتباعه ولا بحجم موارده، بل بوضوح رسالته وثباته عليها.
· الحذر من الاستدراج: القائد الذي ينظر لمقاييس القوة الأرضية فقط، قد يقع في فخ الاستدراج . يرى مناهضو دعوته يمتلكون الإعلام والمال، فيظن أن الحق معهم، فيلين أو يتراجع .الآية تقول: قوتهم وهم، لا تغتر.
· بناء ثقافة تنظيمية قوامها الحوار لا الجدل: في أي مؤسسة، الجدل العقيم قاتل .إنه يبدد الطاقات، ويفسد العلاقات، ويقتل الإبداع .المؤسسة التي تربي كوادرها على ثقافة الحوار الهادف، وتنبذ ثقافة الجدل العقيم، تسير في طريق النهضة.

أيها المؤمن الحي، دع هذه الآية تكون مرآة لقلبك. كلما رأيت متاع الدنيا يلمع في يد من يعاند الحق ، تذكر {فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}. وكلما دفعتك نفسك أو دفعك غيرك إلى عناد وجدل لا يُراد به وجه الله، تذكر {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}، فاستعذ بالله من هذه الصفة، واطلب الحق وحدك. بذلك، تكون قد بنيت شخصيتك على صخرة اليقين التي لا تتزعزع، متحررًا من الآصار والأغلال التي تكبل بها الدنيا أبناءها، لتعيش في نور اليقين ونهاره، لا في ظلام الشك وعماه.
خامسا
أيها السائر على درب اليقين، يا من أيقظتك} حم {من غفلتك، وأرست بك} تنزيل الكتاب {على شاطئ المرجعية الآمنة، واتسع صدرك بنور صفات ربك في آية التوازن، ثم حَصِّن قلبك من زيف مظاهر

الكافرين وجدلهم العقيم، هلمّ الآن بقلبك وعقلك وكل جوارحك، لندخل معًا إلى رحاب آية جديدة .آية لا تقص عليك خبرًا مجردًا، بل تمنحك "عدسة" ربانية ترى بها التاريخ كله، وتفهم بها أحداث يومك وغدك .يقول الحق تبارك وتعالى:

}كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ] {غافر:[5

لا تقرأ هذه الآية كسرد تاريخي جاف، بل استقبلها وكأنها خارطة ميدان معركة، تكشف لك تكتيكات العدو الثابتة عبر العصور، وسلاحك الأمضى فيها، والعاقبة المحتومة التي تنتظرك إن صبرت وثبتّ . إنها دعوة صريحة من الله لك أن ترتقي من مجرد قراءة الأحداث إلى فقه السنن التي تحكمها .فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الآية، لنستخرج منها كنوز البصيرة والصبر واليقين.

المقدمة: خطاب النور في زمن الظلام - تعلم كيف تقرأ التاريخ بعين الله

بعد أن كشفت الآية السابقة حقيقة الكافرين الأبدية بأنهم} مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا{، يأتي السؤال من قلبك: "يا رب، هذا حالهم، فكيف كانت عاقبة من سبقهم؟ هل انتصر باطلهم؟ وهل تخليت عن رسلك؟".
تأتي هذه الآية لتمسح على قلبك، وتجيبك بصورة عملية تطبيقية .إنها تنتقل بك من التنظير إلى التطبيق التاريخي، قائلة لك: "انظر في سجلات التاريخ، فستجد أن طبيعة الكفار واحدة لا تتغير، ولكن سنتي فيهم أيضًا واحدة لا تتبدل".
هذه الآية هي دعوة لأن تتعلم "فقه السنن"، وهو علم قراءة التاريخ وفهم الأحداث الجارية وفق القوانين الإلهية الثابتة .إنها تعطيك بوصلة لتحلل واقعك، فلا تضطرب من هجمة الباطل، ولا تنبهر بقوته المؤقتة، لأنك تعلم أن ثمة قانونًا إلهيًا يحكم الصراع، بدأ بكلمة} كَذَّبَتْ {وسينتهي بجملة} فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.{

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

· الهدف الأساسي: تعليم المؤمنين "فقه السنن" في الصراع بين الحق والباطل، ليكونوا على بصيرة من أمرهم، ثابتين في خضم المعركة، موقنين بالنصر.
· المقاصد الكلية:
1. بيان وحدة طبيعة الكافرين: كشف أن أساليبهم النفسية والفكرية واحدة في كل زمان ومكان.
2. تشريح تكتيكات الباطل: تحديد أدواتهم الثابتة: التكذيب، الإيذاء الجسدي) الأخذ(، والجدال بالباطل) الحرب الإعلامية والشبهات.(
3. إثبات سنة إلهية مطردة: التأكيد على أن عاقبة هذا الفعل هو الأخذ الإلهي المحتوم.
4. تثبيت قلب المؤمن: طمأنة الدعاة والمصلحين بأن العاقبة للمتقين، وحماية الله نازلة بالمكذبين.
· الدلالات العميقة:
· دلالة التسلية والتثبيت: تسلية النبي ﷺ والمؤمنين بأن ما يواجهونه هو سنة ماضية، وليس حكرًا عليهم.
· دلالة التحليل النفسي: كشف الباعث النفسي لأفعال الكافرين، وهو كراهية الحق، وحب الأموال و الشهوات التي عميت أبصارهم.
· دلالة التأريخ الرباني: التاريخ ليس أحداثًا عشوائية، بل هو مسرح لتفاعل السنن الإلهية مع أفعال البشر.

الأمر الأول:
فقه السنن ودعوة الآية إلى قراءة التاريخ القراءه الشرعيه المقدسة

ما هو فقه السنن الذي تدعوك إليه الآية؟
إنه ليس مجرد معرفة أخبار الأولين، بل هو استبطان القوانين الإلهية الثابتة التي تحكم حركة التاريخ والصراع بين الإيمان والكفر .إنها القدرة على رؤية يد الله وهي تعمل في التاريخ، فتدرك أن الأحداث ليست فوضى، بل هي تجلّ لحكمة الله وعدله .لهذا تبدأ الآية بدليل وبرهان تاريخي ساطع:} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ.{
هذه الكلمة وحدها هي مفتاح فقه السنن .إنها تنقلك فورًا إلى المختبر التاريخي الكبير، لترى التجربة وقد تكررت مرارًا، وكأنها تقول لك: "انظر، لستَ أول من أوذي، ولستم أول أمة كُذّبت، هذه هي طبيعة المعركة".

أهمية القراءة التاريخية كما تعلمنا الآية:

.1الاتصال النفسي: الآية تؤكد أن هناك تلاقيًا نفسيًا وروحيًا بين الكافرين في كل زمان ومكان .فما في قلوبهم من كراهية للحق، وحب للشهوات والمال، هو نفسه الذي كان في قلوب أسلافهم .هذه الرؤية تطمئنك بأن المشكلة ليست فيك أو في أسلوبك، بل في طبيعة المرض الذي يعانون منه.
.2استيعاب الدليل التاريخي: لم تذكر الآية التفاصيل، بل أعطت نماذج:} قَوْمُ نُوحٍ {لأنهم أول أمة انحرفت عن التوحيد وحل بها العذاب الشامل، و} الْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ {لتشمل عادًا وثمود وقوم لوط وآل فرعون وصولاً إلى أحزاب قريش، وإلى كل ملحد وكافر في زماننا هذا .كلمة "الأحزاب" تدل على أنهم تجمعوا وتحزبوا لمواجهة الحق، ولكن بلا علم ولا هدى .هذا هو النموذج الذي يتكرر.
.3الغاية من القراءة: الغاية ليست التسلية، بل} لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ] {الفرقان: .[32 أنت تقرأ التاريخ لتستمد منه الصبر واليقين بأن سنة الله نافذة، وأن دوام الحال من المحال للباطل.

الأمر الثاني:
تشريح طبيعة الكافرين وأدواتهم في المعركة - تحليل نفسي وسلوكي

بعد أن أرست الآية قاعدة الاتصال التاريخي، تنتقل لتشريح "هيكلهم النفسي" و"أدواتهم القتالية" الثابتة، والتي نراها رأي العين في واقعنا المعاصر:

.1التكذيب: الدرع الواقي للجهل

}كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ{: إنها أول أسلحتهم وأكثرها بدائية .التكذيب المطلق دون دليل، هو رد الفعل التلقائي للنفس التي أعمى حب الدنيا بصيرتها .إنهم لا يملكون علمًا يردون به الحق، فحملهم الجهل على التكذيب للرسالة، والانحراف عن الحق، وإنكار الآيات الكونية الساطعة الدالة على وحدانية الله .إنهم يرفضون اتباع أحكامه وآياته بدون علم، متمسكين بمصالحهم وأموالهم، طالبين العزة من غير الله .
وهذا الجهل هو الذي أوقعهم في ظلام الشك والنزاع والمراء.

.2الإيذاء الجسدي) الأخذ:(القمع لإسكات الصوت

}وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ{: هنا ترتقي المعركة .بعد أن عجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة، لجأوا إلى القوة الغاشمة ."ليأخذوه" يعني ليعتقلوه، أو يقتلوه، أو يسجنوه .هذه هي كراهية الحق وكراهية من يدعو إليه، وقد تجسدت في صورة فعلية .إنهم لم يكتفوا بالرفض، بل أرادوا منع الناس من التأثر بالحق، فأرادوا إسكات الصوت الداعي إليه .وهذا ما نراه اليوم من سجن للدعاة، وقتل للمصلحين، وتضييق على كل من يرفع راية الحق.

.3الجدال بالباطل) الحرب الإعلامية والشبهات:(لتشويه الحقيقة

}وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ{: هذا هو السلاح الأكثر خطورة ودهاءً .إنه الإعلام السلبي المضلل.

· ما هو الجدال بالباطل هنا؟ هو إثارة الشبهات، واختلاق الأكاذيب، والدعاية السوداء، ليس لإثبات حق، بل فقط "ليدحضوا" أي ليزيلوا ويمحوا الحق من أذهان الناس.
· الهدف: التأثير على العوام، وتشكيكهم في الرسالة وفي شخص الرسول .هم يعلمون أنهم لا يستطيعون مواجهة الأدلة الواضحة، فيلجأون إلى إثارة الغبار الإعلامي حولها، ليجعلوا الرؤية ضبابية عند العامة.
· هذا هو بالضبط ما نعيشه اليوم: حملات إعلامية شرسة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، وإثارة الشبهات حول الثوابت، وتزييف الحقائق، وتسليع الإعلام ليكون أداة في يد الباطل.

الرسالة النفسية والتربوية:
لا تحزن .هذا التكتيك قديم قدم المعركة .هم لم يبتكروا شيئًا جديدًا .لقد فعلها قوم نوح، وفعلها الأ حزاب من بعدهم .معرفة هذا تمنحك مناعة نفسية؛ فأنت لا تواجه أمرًا استثنائيًا، بل تواجه سنة ماضية، وهذا جزء من الابتلاء الذي يرقيك.

الأمر الثالث:
سنة الله في النهاية - الأخذ الإلهي المحتوم

ثم يأتي الفعل الإلهي الحاسم، بكل جلاله وقوته، في كلمة واحدة تقلب المشهد رأسًا على عقب: }فَأَخَذْتُهُمْ.{
تأمل هذا الانتقال السريع والمذهل .بعد كل ذلك الجدال، والهم بالأخذ، والتخطيط، يأتي الفعل الإلهي: "فأخذتهم" .لقد أعماهم جهلهم، وأطغاهم غرورهم، فظنوا أن قوتهم ستحميهم، وأن أموالهم ستنفعهم، فجاءهم "الأخذ" الإلهي.

ثم يأتي السؤال البلاغي الذي يزلزل القلوب ويثبت المؤمنين:} فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.{
هذا السؤال ليس استفهامًا عن الكيفية، بل هو تقرير عن الهول والشدة والرهبة .إنه يفتح عينيك على مصراعيها، ويدعوك للتأمل: "انظر إلى تلك المصارع، وإلى تلك النهايات المأساوية للأمم الغابرة! أين هم الآن؟ أين قوتهم؟ أين أموالهم؟".
إنه سؤال يلقنك درسًا عمليًا أبديًا: الأموال والقوة والسلطان لا توفر الحماية لمن كفر .أما الجهل و الشك والتنازع الذي كانوا فيه، فقد أوجب لهم الحرمان من الهداية وأوصلهم إلى الهلاك .هذا هو نهاية طريق الباطل دائمًا وأبدًا.

الأمر الرابع:
التوجيهات الاستراتيجية من الآية - كيف تواجه الباطل بفقه السنن؟

هذه الآية ليست للبكاء على الأطلال، بل هي ورشة عمل استراتيجية لك، أيها المؤمن، أيها الداعية، أيها المصلح:

.1اعرف عدوك: لا تتفاجأ .تعلم من الآية أن طبيعة الكافرين واحدة .عندما ترى التكذيب والإيذاء والإعلام المضلل، فاعلم أنك في قلب المعركة الصحيحة، وأن عدوك يستخدم نفس الأسلحة القديمة، فاستعد لها.
.2لا تنبهر بالباطل: لا يغرنك ما لديهم من إعلام وقوة .هذه مجرد أعراض شكلية .إنهم في الحقيقة يعيشون في جحيم الشك والتنازع الداخلي .أنت تملك اليقين، وهم يملكون الزيف .قوة إيمانك ويقينك أقوى من كل إعلامهم.
.3ثِق في وعد الله: نهايتهم المحتومة هي الأخذ والعقاب .هذه سنة الله .مهما طال ليل الباطل، فإن فجر الحق آت .هذه الثقة تمنحك الصبر والثبات .أنت تنظر إلى نهاية الشوط، لا إلى بدايته فقط.
.4وظف الدرس عمليًا: عند تحليل حدث سياسي أو اجتماعي معاصر، استخدم "عدسة فقه السنن" . اسأل: أين موقع هذا الحدث من سنة الله في الصراع؟ هل هو من جنس} وجادلوا بالباطل{؟ إذن فالنتيجة معلومة سلفًا، وستكون} فأخذتهم.{

الأمر الخامس:
الأبعاد التربوية والنفسية والحضارية للآية

· في الجانب النفسي: الطمأنينة والتحرر من الخوف .عندما تعلم أن الله هو الذي يتولى "الأخذ"، تسكن نفسك .أنت لست مطالبًا بالانتقام، بل مطالب بالصبر والثبات حتى يأتي وعد الله .هذا يحررك من القلق والغضب المدمر.
· في الجانب التربوي: بناء عقلية النصر المؤجل .الآية تربي المؤمن على طول النفس، وألا يطلب النصر الفوري .إنها تعلمه أن الاستدراج والإمهال هو جزء من السنة، والصبر هو مفتاح الفرج.
· في الجانب الحضاري: تأسيس علم التاريخ على أسس ربانية .هذه الآية تقدم منهجًا لقراءة التاريخ قراءة شرعية، بعيدًا عن المادية والعبثية .التاريخ هو صراع بين الحق والباطل، تحكمه سنن إلهية . هذا الفهم هو الذي يبني حضارة واثقة من منهجها، لا تنبهر بحضارات الباطل وزيفها.

الأمر السادس: مفاهيم عملية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع

.1مفهوم "قراءة التاريخ بعين السنة": لا تكتفِ بحفظ الأحداث، بل استنبط القانون .هذا يجعلك قائدًا واعيًا، لا تنطلي عليه الأكاذيب.
.2مفهوم "التحصين ضد الدعاية": علم أبناءك ومجتمعك كيف يكتشفون "الجدال بالباطل" في وسائل الإعلام .دربهم على التفكير الناقد الذي يفرق بين الحجة والشبهة.
.3مفهوم "الصبر الاستراتيجي": الصبر هنا ليس سلبية، بل هو فعل مقاومة وثبات، مبني على يقين بأن العاقبة للمتقين .هذا المفهوم يبني مجتمعات لا تنهار عند أول هزة.
.4مفهوم "العاقبة للمتقين": هذا هو الموجه النهائي لكل سلوكك .أنت لا تعمل للدنيا الفانية، بل للعاقبة الباقية .هذا يعطيك القوة لتضحي، واليقين لتصبر.

الأمر السابع: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه الآية بوصلة في أيدينا اليوم:

.1عند مشاهدة الأخبار: حين ترى قوى الباطل تجتمع كالأحزاب، وحين تراهم يثيرون الشبهات لتشويه الحق، قل بقلبك: "هذه سنة ماضية، قد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب، وسنة الله فيهم الأخذ، فلا يحزنني ما هم فيه".
.2في مواقع التواصل الاجتماعي: أنت في ميدان} وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ .{لا تنجرف وراء كل شبهة، ولا تجعل الجدال العقيم يأخذ وقتك وإيمانك .قدم الحق بلطف ووضوح، واترك الباطل وأهله، فهم إلى زوال.
.3عند الشعور بالضيق أو الاضطهاد: تذكر} وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .{أنت في ركب الأنبياء . هذا الابتلاء شرف لك، فلا تستسلم .اصبر وصابر، وانتظر} فَأَخَذْتُهُمْ.{
.4في التربية والتعليم: درّب أبناءك وطلابك على فقه السنن .اطلب منهم تحليل أحداث التاريخ في ضوء هذه الآية .اسألهم: أين نجد جدال الباطل اليوم؟ ما هو مصير من سار على هذا الدرب؟ هذا يبني فيهم وعيًا حضاريًا فريدًا.

أيها المؤمن الحي،} فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ {هو سؤال يُعرض عليك كل يوم .تذكره، وتأمل في مصارع الظالمين عبر التاريخ، واعلم أن الله يملي للظالم، ولكن إذا أخذه لم يفلته .فاثبت على الحق، وتسلح بفقه السنن، وامض في طريق الدعوة بقلب مطمئن، فإن العاقبة لك، والنصر مع الصبر، وموعدك الجنة بإذن ربك

سادسا

أيها السائر إلى الله، يا من تتبع خطوات اليقين آيةً آية، لقد أيقظتك {حم} من غفلتك، وثبّت مرجعيتك بأن هذا {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، واتسع صدرك بنور صفاته في آية التوازن، ثم حَصِّن قلبك من زيف مظاهر الكافرين وجدلهم العقيم، ثم أراك الله سنة الصراع بين الحق والباطل وكيف أن العاقبة للمتقين. والآن، هلمّ بقلبك وعقلك لتعيش لحظة الختام، لحظة إغلاق الملف، لحظة ا لإعلان الإلهي الرسمي الذي لا رجعة فيه. يقول الحق تبارك وتعالى:

{وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر: 6]

لا تقرأ هذه الآية كمجرد نهاية لقصة، بل استقبلها كوثيقة الضمان الإلهية لك أيها المؤمن، وكصك الحكم النهائي على أهل الباطل. إنها الختم الذي يغلق ملف الكافرين إلى الأبد، والمنارة التي تهديك إلى دعائم الثبات في زمن الفتن، والجواب الشافي على كل تساؤلات قلبك عن مصير الظالمين. فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الآية لنستخرج منها يقين النصر، وأسباب الثبات، وحقيقة المصير.

المقدمة: من فقه السنن إلى يقين العاقبة – الختم الإلهي على ملف الكافرين

بعد أن كشفت لنا الآية السابقة سنة الله الجارية في الأمم، والتي تبدأ بتكذيبهم وتنتهي بأخذ الله لهم: {فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}، وكأن السؤال قد ثار في نفسك: "يا رب، وما مصيرهم بعد ذلك الأ خذ؟ وما هي العاقبة الأخروية التي تنتظرهم؟ وهل هذا التقلب في البلاد الذي نراه اليوم سيدوم لهم ؟".
تأتي هذه الآية لتجيبك جوابًا قاطعًا لا يحتمل التأويل: {وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}. إنها تأكيد على أن ما حدث للأمم السابقة من هلاك في الدنيا ليس هو النهاية، بل هو مقدمة وإشارة إلى مصيرهم الأ بدي في الآخرة: {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}.
بهذا، تكون الآية قد ربطت بين مشهدين: مشهد الهلاك الدنيوي، ومشهد العذاب الأخروي، لتقول لك بكل وضوح: إن الطريق الذي سلكوه من تكذيب وجدال وإيذاء، قد "حقت" بهم كلمة الله، ووجب عليهم العذاب، وثبت أنهم أهل النار.

هذه الآية هي الجواب العملي والنهائي على قوله السابق: {فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}. إنها تقول لك: نعم، هم يتقلبون الآن في المال والجاه والسلطان، ولكن لا تغتر، فهذا استدراج وإمهال. ففي النهاية سيكون الهلاك المحتوم. فأفعالهم تلك تنزع عنهم غطاء الحماية الربانية، فلا عزة حقيقية لديهم ولا قوة، بل كل ما هم فيه وهمٌ زائل، وظل سيختفي عند شروق شمس الحقيقة. فأنت أيها المؤمن لديك ما هو أعظم، فلا تغتر بالمظاهر الخادعة التي يغتر بها الأعداء.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

· الهدف الأساسي: ترسيخ اليقين القلبي لدى المؤمن بأن العاقبة للمتقين، وأن الكافرين مهما امتد بهم الزمن وامتلأت أيديهم من متاع الدنيا، فإن مصيرهم المحتوم هو النار، وذلك لحكمة إلهية بالغة.
· المقاصد الكلية:

1. بيان عدالة الله المطلقة: إظهار أن إدخال الكافرين النار ليس ظلمًا، بل هو كلمةٌ "حقت" ووجبت بسبب أفعالهم.

2. تثبيت المؤمنين: منح المؤمنين طمأنينة نفسية بأن ما يرونه من قوة الباطل مؤقت، وأن الحكم النهائي في صالحهم.

3. إكمال مشهد الصراع: ربط نهاية الأمم السابقة في الدنيا بمصيرهم في الآخرة، ليكتمل درس "فقه السنن".

4. الدعوة إلى الثبات: حث المؤمنين على التسلح بدعائم اليقين والصبر والعدل والجهاد، ليحظوا بـ النصر والنجاة.

· الدلالات العميقة:

· دلالة "حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ": كلمة "حقت" تدل على الثبوت والوجوب. إنها ليست مجرد عقوبة، بل هي إثبات لحكم سابق، وعدالة لاحقة. "كلمة ربك" هي القضاء النافذ الذي لا مرد له.

· دلالة "أَصْحَابُ النَّارِ": كلمة "أصحاب" تدل على الملازمة والصحبة الدائمة. فهم ليسوا مجرد زوار للنار، بل هم أهلها الملازمون لها أبدًا. هذه هي الحماية الوحيدة التي حصلوا عليها: حماية النار لهم، بدلا ً من حماية الله.

· دلالة الختم: الآية تختم ملف الكافرين بشكل نهائي، لتبدأ مع الآيات التالية صفحة جديدة عن مصير المؤمنين وعن الملائكة الذين يستغفرون لهم.

الأمر الأول: {وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} – يقين العدالة الإلهية المطلقة

لنتأمل في قوله: {وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}. "وكذلك": أي مثل ذلك الهلاك الذي نزل بالأمم السابقة، ومثل ذلك القضاء الذي أوقعناه بهم، ومثل تلك السنة التي لا تتبدل، حقت وثبتت ووجبت "كلمة ربك".

ما هذه الكلمة؟ إنها القضاء الإلهي النافذ، والحكم الكوني الذي لا يُرد، والقانون الإلهي المطرد. إنها الكلمة الفصل التي تفصل بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر. إنها حكم الله الذي سبق في علمه الأزلي، وقضاؤه الذي لا يتخلف.

ما الذي تعكسه لك هذه الآية نفسيًا؟

.1إزالة الحيرة: قد يتحير المؤمن عندما يرى الكافر يزداد قوة ومالا ً، وقد يتساءل: أين عدل الله؟ ولماذا يزدادون قوة ونحن نزداد ضعفًا؟ فتأتيه هذه الآية لتمسح على قلبه وتقول: "لا تستعجل، فثمة 'كلمة' قد 'حقت'، وقضاء قد نُفذ في عالم الغيب، وإن كنت لا ترى أثره كاملا ً في الدنيا، فهو واقع لا محالة في الآخرة".
.2طمأنينة القلب: إن معرفة أن هناك "كلمة" إلهية قد "حقت" تمنح المؤمن سكونًا عجيبًا وطمأنينة لا توصف .إنه يشعر أن الأمر ليس فوضى، وليس متروكًا للصدف، بل هو بيد حكيم عليم، له كلمة نافذة ، وقضاء ماض، فلا داعي للقلق .هو يشعر أنه في كنف الله، وأن العاقبة للمتقين.

الأمر الثاني: {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} – المصير المحتوم وبيان الحماية المفقودة

ثم يأتي البيان الصريح: {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}. هذا هو فحوى الكلمة التي حقت، ومضمونها القاطع. إنها ليست مجرد عقوبة مؤقتة، بل هي ملازمة أبدية. إنهم أصحابها، أي أهلها المخلدون فيها، الذين لا يخرجون منها أبدًا.

وهنا يتضح الربط البديع مع الآيات السابقة ليظهر لك الصورة كاملة:

· في الآية الثالثة، عرفنا أن الله {شَدِيدِ الْعِقَابِ}، وها هو ذا العقاب الشديد يتجسد في صورة النار.
· في الآية الرابعة، قال: {فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}، وها هو البيان بأن هذا التقلب هو استدراج واستمتاع مؤقت، ونهايته التي لا مفر منها هي النار.
· في الآية الخامسة، قال: {فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}، وها هو بيان أن ذلك الأخذ في الدنيا ما هو إ لا مقدمة وإنذار للعذاب الأخروي الأكبر والأدهى، حيث صاروا أصحاب النار.

الرسالة التربوية والوجدانية:
هذه الآية تجعلك ترى العالم على حقيقته. الكافر الذي تراه متقلبًا في النعيم، هو في الحقيقة يسير نحو الهاوية. إنه كالأنعام، يأكل ويتمتع، والنار مصيره. أما أنت، أيها المؤمن، فلديك ما هو أعظم وأبقى:

· أنت لديك منهج من "العليم"، فيه العلم الذي يوصلك إلى طريق النجاة، وهم يتخبطون في الجهل و الشك.
· أنت لديك رحمة الله التي تتجاوز عن سيئاتك وتقبل توبتك، وهم محرومون من ذلك.
· أنت لديك إنعام الله وتفضله ومضاعفة الحسنات، وهم ينكرون الإنعام فيُحرمون من الهداية.
· أنت موحد، وهم مشركون.
· أنت لديك الحماية عندما تعود إلى الله وتلوذ به، لأنك في يقظة دائمة نتيجة خوفك من الله ورجائك فيه. أما هم فقد نزعت عنهم الحماية.

فكيف تغتر بمظاهرهم بعد هذا البيان؟!

-الأمر الثالث:
بناء شخصية المؤمن للحياة – دعائم النصر والنجاة الأربع

الآن، وبعد أن استقر في قلبك يقين المصير، تعالَ لنسأل: كيف أثبت أنا على الحق؟ كيف أحصن نفسي من الاغترار بزينة الكافرين؟ كيف أضمن أن أكون من الناجين برحمة الله، لا من الهالكين بعدله ؟

هذه الآية وما قبلها ترسم لنا معركة بين الحق والباطل قائمة إلى قيام الساعة، وتخبرنا أن النصر في النهاية للمؤمنين. فمن هم هؤلاء المؤمنون؟ وما هي عدتهم في هذه المعركة؟
إن الذين يحملون دعوة الحق والإيمان، ولا يخافون قوة الباطل، يستندون في ثباتهم ونصرهم إلى أربع دعائم كبرى تُستنبط من مجموع هذه الآيات المباركات:

الدعامة الأولى: اليقين – أساس الثبات الذي لا يتزعزع

اليقين هو النور الذي يبصر به المؤمن حقائق الأشياء، وهو ثمرة تبصر وفطنة وفهم للآيات المقروءة (القرآن) والآيات المرئية (الكون). فمن تبصر، تبينت له الحكمة، فأدرك أن العزة لله جميعًا، وأن العظمة له وحده، وأنه هو صاحب الإنعام والفضل. وبمعرفة هذه الحكمة، عرف العبرة، فتأمل في مصارع الأمم السابقة، وعاش وكأنه كان فيهم، فأيقن أن النهاية للمؤمنين والهلاك للكافرين. وهذا اليقين يجعله يسير على صراط مستقيم واضح، فيعيش في الدنيا حميدًا ومحمودًا.

الدعامة الثانية: الصبر – زاد الطريق إلى الجنة

صبر المؤمن ليس مجرد تحمل للألم، بل هو شوق إلى الجنة. إنه يعلم أن الحياة الحقيقية في الآخرة ، ولذلك يخرج من غفلة الدنيا وزخرفها. إنه يعيش حالة من اليقظة الدائمة، نتيجة خوفه من الله، وهذا الخوف يدفعه إلى الصبر على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى أقدار الله المؤلمة. إنه يرقب الموت، ويخاف من عقاب الله، فيسارع إلى الأعمال الصالحة قبل أن يحل الأجل. هذا الصبر يجعله زاهدًا في الدنيا، لا تؤثر فيه شهواتها ولا أموالها التي يراها في أيدي الكافرين، لأنه متطلع إلى ما عند الله من النعيم المقيم.

الدعامة الثالثة: العدل – ثمرة فهم أسرار الآيات وحسن تطبيقها

عندما يصل المؤمن إلى درجة اليقين، ويفهم آيات الله وأسرارها الظاهرة والباطنة، فإنه يصبح حكيمًا. وهذه الحكمة تجعله يأخذ بخلاصة ما في الآيات من دروس، فيطبقها في حياته. وهنا يتجلى العدل: أن يسير على الحق الظاهر المستقيم، فلا يفرط في أمر الله، ولا يتعدى حدوده. إنه يعطي كل ذي حق حقه، ويعامل الناس بالتي هي أحسن. وهذا العدل هو الذي يجعله يعيش في الدنيا حميدًا بين الناس، ومحمودًا عند الله، فيصل إلى مرتبة الحلم والاتزان.

الدعامة الرابعة: الجهاد – وقود المعركة ضد النفس والأعداء

الجهاد هنا متعدد المستويات، وهو الذي يشد ظهر المؤمنين:

· جهاد النفس: محاسبة النفس، ومجاهدة الهوى، وعدم الاستسلام لتأثير الشيطان. هذا هو الجهاد الأ كبر.
· جهاد الأعداء: مجاهدة أعداء الله بالحجة والبيان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فبالأمر بـ المعروف يشد ظهر المؤمنين، وبالنهي عن المنكر يرغم أنوف المنافقين.
· الصدق في المواطن: أن يثبت في موطن الجهاد، وأن يكون صادقًا في أقواله وأفعاله، عالمًا أن النتائج على الله، وأن الغرض الأسمى هو إرضاء الله في الآخرة، وليس مجرد الانتصار الدنيوي.

الأمر الرابع:
مقارنة بين دعائم الإيمان ودعائم الكفر – لماذا هلكوا ونجوتم؟

لنكتمل الصورة، ونفهم طبيعة المعركة بشكل أعمق، دعنا نقارن بين ما يستند إليه المؤمنون وما يستند إليه الكافرون:
اولا دعائم الإيمان (طريق النجاة) | دعائم الكفر (طريق الهلاك) |

دعائم الايمان	طريق النجاه	دعائم الكفر	طريق الهلاك
يقين: ثمرة التبصر و الفهم.	يدرك أن العزة لله، ويعرف العبرة، فيثبت.	جهل:	جهل مطبق، وسعي وراء الأوهام والخرافات ، وعدم طلب العلم. |
الصبر	شوق إلى الجنة، وزهد في الدنيا، وخوف من . الله، و المسارعة للخيرات.	الشهوات	الميل إلى الشهوات الحيوانية والاستسلام للرغبات، التي تعمي عن رؤية الحق.
العدل	السير على الحق المستقيم، والحكم بـ القسط، وعدم التفريط في حدود الله	التنازع	التنازع والشقاق و الجدال بالباطل، مما يصيبهم بالعمى و التفرق. |
الجهاد	محاسبة النفس، ومجاهدة الأعداء لإعلاء كلمة الحق.	الاستسلام للشهوات	فقدان العزيمة، والاستسلام لمتاع الدنيا ورغباتها التي تقودهم إلى الهلاك
الرجاء	في رحمة الله ومغفرته وفضله، التي تقبل التوبة وتضاعف الحسنات.	الشك	الشك: العيش في دائرة الشك والظلام الدامس، فلا رأي ولا إرادة، فيستحقون
الحمايه	يشعر بالأمن في كنف الله	انعدام الحمايه	انعدام الحماية: أفعالهم تنزع عنهم غطاء الحماية الربانية.

انظر كيف أن الكافرين يعيشون في جحيم نفسي قبل جحيم النار: جهل، شك، تنازع، فقدان عزيمة، استسلام للشهوات. أما المؤمن، فهو في جنة نفسية قبل جنة الآخرة: يقين، صبر، عدل، جهاد، رجاء، وأمان.

الأمر الخامس: أبعاد الآية وآفاقها

· البعد النفسي: صناعة الطمأنينة المطلقة والتحرر من الخوف. عندما تستقر هذه الآية في قلبك، يزول القلق والخوف من المستقبل. أنت تعلم أن العاقبة للمتقين، فتهدأ نفسك وتطمئن. تصبح قويًا بإيمانك، لا ترهبك قوى الباطل.

· البعد التربوي: بناء الشخصية المتوازنة. أنت تجمع بين الخوف (الذي يمنعك من المعاصي) والرجاء (الذي يدفعك للعمل). أنت تزهد في الدنيا (فتتحرر) وتعمل لها (فتعمرها). أنت صابر على البلاء، شكور على النعماء، عادل في السراء والضراء.
· البعد الحضاري: تأسيس الحضارة على دعائم خالدة. حضارة المؤمنين لا تقوم على الترف المادي الزائف فحسب، بل على قيم اليقين والصبر والعدل والجهاد التي تضمن لها الدوام والاستقرار والبركة. إنها حضارة تعرف أن الدنيا مزرعة الآخرة، فتعمرها بالحق والقسط، بعكس حضارات الكافرين القائمة على الأهواء والشهوات، والتي تؤدي حتمًا إلى الهلاك والانهيار.

الأمر السادس: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه الآية حية في ضميرنا وسلوكنا اليومي:

1.في لحظات الإحباط والهزيمة النفسية:
عندما ترى أهل الباطل ينتصرون، تذكر: {وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}. لا تحزن. هذه مجرد حلقة في سلسلة الصراع، والنهاية مكتوبة. تجاوز اللحظة المؤلمة وانظر إلى الأفق البعيد. سَلْ نفسك: أين سيكون هؤلاء بعد مئة عام؟ وأين سأكون أنا إن ثبت على اليقين؟ ستهدأ نفسك لا محالة.
2.في بناء ذاتك والارتقاء بإيمانك:
كل صباح، اسأل نفسك محاسبةً صادقة: أين أنا من الدعائم الأربع؟
· هل أزداد يقينًا؟ (بالتدبر في آيات الله).
· هل أنا صابر؟ (بحبس النفس عن الشكوى والجزع).
· هل أنا عادل؟ (في حكمي على الناس، وفي إنصافهم، وفي معاملاتي).
· هل أنا مجاهد؟ (لهواي، ولنشر الخير، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).
3.في تربية أبنائك وصناعة الجيل القادم:
· لا تربهم على حب الدنيا والانبهار بالمظاهر. بل ازرع فيهم الزهد في الدنيا الفانية، والشوق إلى الجنة الباقية، والخوف من النار.
· دربهم على الصبر، بأن تجعلهم يتحملون المسؤولية ويصبرون على الصعاب. لا تعطهم كل ما يريدون فورًا.
· علمهم أن النجاح الحقيقي ليس في المال والجاه، بل في إرضاء الله ودخول الجنة، واجعل هذه المعاني حاضرة في حواراتك معهم.
4.في قراءة الأخبار والأحداث وتحليلها:
· لا تنظر إلى الأحداث بسطحية. بل استخدم "عدسة" الآية: أين موقع هذا الحدث من سنة الله؟ ما هو مصير هؤلاء الطغاة في ضوء هذه الآية؟ هذا يمنحك وعيًا نقديًا وعمقًا في التحليل، ويحميك من الدعاية المضللة ومن اليأس.

أيها المؤمن الحي، لقد ختمت الآية ملفًا، وفتحت لك بابًا. ملف الكافرين قد أغلق إلى الأبد بقوله: {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، وبابك أنت قد فتح بمشيئة الله إلى رحمته ورضوانه. إنها دعوة للتأسي بالطريق الذي رسمه الله للسعداء، وللسير على درب الناجين. فلا تغتر ببريق الباطل، بل اسعَ لنور الحق. وتسلح باليقين، وتزود بالصبر، وتحلّ بالعدل، وجاهد في سبيل الله. عندها، ستكون من الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وستعيش في الدنيا حميدًا، وفي الآخرة سعيدًا، في جنات النعيم، برحمة أرحم الراحمين.
القسم الثاني
ايات هذا القسم تتحدث عن العلاقه بين الملائكه والمؤمنين
اولا
.أيها السائر إلى الله، يا من تلمست خطوات اليقين في دروب هذه السورة المباركة، لقد أيقظتك {حم} وأرست مرجعيتك بأن هذا {تنزِيلُ الْكِتَابِ}، واتسع صدرك بنور صفات ربك في آية التوازن، ثم حُصِّن قلبك من زيف الكافرين وجدلهم، وأراك الله سنة الصراع، وختم لك بأنهم {أَصْحَابُ النَّارِ}. لقد كان المشهد حتى الآن في أرض المعركة مع الباطل وأهله. أما وقد أُغلق ذلك الملف، وتلك الظلمات، فقد حان الوقت لينفتح أمامك مشهد آخر منير؛ مشهد يريك أنك لست وحدك في هذه المعركة. من ظلمات الكافرين إلى أنوار الموقنين. من مشهد الأحزاب المتجمعة على الباطل، إلى مشهد الملأ الأعلى المجتمعين على الحق. تأمل كيف ينتقل بك الخطاب الإلهي، ليفتح لك نافذة على الغيب، لتطمئن، ولتعلم أن لك في هذا الكون الفسيح إخوة لم ترهم، يحبونك ويحملون همّك ويدعون لك. يقول رب العزة:

}الذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا

وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ] {غافر:7]

لا تقرأ هذه الآية كخبر عن الغيب فحسب، بل استقبلها كحبل نوراني ممدود من السماء إلى قلبك، كعناق روحي من ملائكة الرحمن، كرسالة تطمئنك بأن لك في هذا الكون الفسيح إخوة لم ترهم، يحبونك ويحملون همّك ويدعون لك. إنها نقلة نوعية في مسار السورة وفي مسار روحك؛ من التركيز على العدو إلى التركيز على مصادر القوة والمدد الإلهي. فهيا بنا ندخل إلى هذا المشهد المهيب، لنرتقي بأرواحنا إلى الملأ الأعلى.
#المقدمة: من مشهد الهلاك إلى مشهد الحماية - الارتباط العضوي بين خواتيم الزمر وبدايات غافر

تأمل هذا الربط القرآني المعجز. في نهاية سورة الزمر، رأيت المشهد الأخير: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا} و {سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}، ثم كان الختام المهيب: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ}. هناك، أُسدل الستار والمشهد هو مشهد الحساب.
والآن، في سورة غافر، وبعد أن انتهى مشهد الكافرين المعاندين في الدنيا بقوله: {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، يفتح الله لك الستار من جديد، ليس على مشهد الحساب، بل على مشهد الدعم والولاء في دار الغيب ، لتجاب على سؤال قلبك: "يا رب، ومن معي في هذه المعركة؟".
يأتيك الجواب: هؤلاء هم جند الله الذين لم ترهم! {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}. إن المسألة تتعدى علاقة النوع والجنس. الكفار قد تحزبوا من الإنس والجن والشياطين، أما أنت أيها المؤمن، فلك حزب الله، وفي مقدمتهم أعظم خلقه وأقربهم: حملة العرش ومن حوله. هاهنا ذروة التكريم الإلهي للمؤمنين؛ أن جعل المقربين من حملة عرشه يدعون لهم ويستغفرون.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

· الهدف الأساسي: تثبيت قلوب المؤمنين بإعلامهم بمكانتهم عند الله، وأن لهم في الملأ الأعلى من يحبهم ويدعو لهم ويستغفر لهم، وإظهار عظمة الله وجلاله.
· المقاصد الكلية:
.1 بيان تماسك جبهة الإيمان: إظهار وحدة الصف بين مؤمني الأرض) الإنس والجن (ومؤمني السماء) الملائكة.(
.2 تعليم العبودية الخالصة: تقديم نموذج الملائكة في التسبيح والحمد والإيمان والاستغفار، ليكونوا قدوة لنا.
.3 ترسيخ مفهوم الأخوة الإيمانية: بيان أن علاقة المؤمنين بالملائكة هي علاقة حب وولاء، وكذلك فيما بينهم، من خلال الدعاء في ظهر الغيب.
.4 تصحيح العقيدة في الملائكة: إبطال تصورات المشركين الفاسدة عن الملائكة، وتقديم العقيدة الصحيحة فيهم.
.5 تعليم أدب الدعاء: عرض نموذج دعاء الملائكة للمؤمنين، لنتعلم كيف ندعو لأنفسنا ولإخواننا.
· الدلالات العميقة:
· دلالة الانتقال: الانتقال من جحود الكافرين إلى يقين الملائكة، لبيان الفارق المهول بين الفريقين.
· دلالة العرش: ذكر العرش، وهو أعظم المخلوقات، إشارة إلى عظمة الله المطلقة، وأن هؤلاء الملا ئكة على قربهم من هذا المقام العظيم، إلا أنهم في غاية الخضوع والتذلل.
· دلالة الأمن: الآية تمنح المؤمن أمناً نفسياً عظيماً، فهو ليس وحيداً في هذا الكون، بل له إخوة أقوياء مخلصون في السماء.

الأمر الأول:
{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ} - التعريف بجند الله الأقوياء والتسليم للغيب

من هم هؤلاء الذين يحملون العرش؟
هم طائفة من أعظم الملائكة وأقواهم وأشدهم خلقاً. يكفينا أن نعلم أن النبي ﷺ أخبرنا أن أحدهم ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وأنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين، فيحملونه ثمانية. وهذا من علم الغيب الذي نؤمن به ولا نكيفه. أما "من حوله" فهم صفوف الملائكة الكروبيون المحيطون بالعرش، المسبحون بحمد ربهم.

ولكن، ما هو العرش؟
هنا تتجلى عظمة التسليم. العرش هو أعظم مخلوقات الله، وهو سقف الكون، استوى عليه الرحمن استواءً يليق بجلاله. ومقام الرحمن فوق العرش. نحن نؤمن بذلك، ولكن علمنا محدود بطاقتنا البشرية

التي وهبنا الله إياها. لا نعلم كيف هو، ولا ما وصفه، ولا نكيفه. وهذا التسليم هو عين العظمة؛ أن نقف حيث انتهى علمنا، ونقول: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}. إن ذكر العرش هنا ليس المقصود به إثارة فضولنا لمعرفة كنهه، بل المقصود تعظيم الله في قلوبنا، وإشعارنا بضخامة هذا الملك وعظمة هذا الرب. فإذا كان حملة هذا العرش العظيم، على قربهم من الله، في هذا الخشوع والتذلل، فكيف بنا نحن الضعفاء! هذا يطهر قلبك من الكبر فوراً، ويؤهلك لتكون أهلا ً لهذا الارتباط الروحي معهم.

الأمر الثاني:
عبادة الملائكة وارتباطهم بالمؤمنين - منظومة متكاملة من الحب والولاء

انظر إلى أفعال هؤلاء الملائكة الأربعة، كيف أنها ترسم خارطة علاقتهم بالله وبعباده المؤمنين:
{يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ}: هذان هما جناحا عبادتهم. التسبيح هو التنزيه والتقديس لله عن كل نقص وعيب، فلا نشرك به شيئاً ولا ننسب له الشركاء ولا الأولاد. والتحميد هو الثناء عليه بصفات الكمال والجلال. والإيمان به هو التصديق المطلق والخشوع والاستسلام لله. إنهم يتدللون بين يديه بتنزيهه وتقديسه وتمجيده. وهذه هي القدوة التي ينبغي أن نقتدي بها، فنكثر من التسبيح والتحميد حتى تصبح حياتنا كلها لله؛ نقول عند الطعام: بسم الله، وبعد الانتهاء: الحمد لله، وفي كل حال: سبحان الله وبحمده.

}وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا{: وهنا المفاجأة التي تفيض بالحب! إنهم بعد أن انغمسوا في عبادة ربهم، توجهوا بالدعاء ...لمن؟ ليس لأنفسهم، بل للمؤمنين في الأرض! هذا هو الرباط العجيب، والأخوة الصادقة .إنهم يدعون لنا في ظهر الغيب .وهنا تتجلى علاقة الحب في الله والولاء .كما أن الكفار من الإنس والجن تحزبوا على الباطل، فإن المؤمنين من الإنس والملائكة متحدون على الحق، تربطهم مشاعر واحدة: الحب، والأخاء، والتسبيح، والاستغفار، والإيمان، والدعاء .إنها أخوة قائمة على عقيدة التوحيد الخالص .وهذا الارتباط هو الذي يجعل للمؤمن قيمة في هذا الكون، فأنت لست فرداً معزولا ً، بل لك إخوة في السماء يستغفرون لك، ويطلبون لك النجاة وحسن العاقبة.

الرسالة التربوية والنفسية:
هذا المشهد يبني في نفسك مفهوم "الأخوة الإيمانية" بأوسع معانيها. فإذا كان ملائكة السماء يستغفرون لنا، فكيف لا نستغفر نحن لإخواننا في الأرض؟ هذا يدفعك لأن تكون سليم الصدر، نقي القلب، تحب الخير لكل مؤمن، وتدعو لهم بظهر الغيب، فتكون بذلك جديراً بهذا الارتباط المبارك.

الأمر الثالث:
الغرض من ذكر الملائكة - تصحيح العقيدة وإزالة الانحرافات

إن تفصيل هذا المشهد له حكمة عظيمة تتعلق بالبيئة التي نزل فيها القرآن. فالمشركون لم يكونوا ينكرون وجود الملائكة، لكنهم انحرفوا في تصوراتهم وفصلت معتقداتهم تجاههم:

· زعم بعضهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
· وزعم آخرون وجود علاقة نسب بين الله والجن، فقالوا: الملائكة من تزاوج الله والجن!
فجاءت الآيات في سورة الصافات لتوبخهم:} فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ.{
لهذا، جاء هذا المشهد القرآني ليصحح هذه التصورات الفاسدة، وليبين حقيقة الملائكة:

.1هم عباد مكرمون:} بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ] {الأنبياء:26[، ليسوا بناتاً ولا شركاء.
.2هم في غاية الخضوع لله: رغم منزلتهم العالية وحملهم للعرش، إلا أنهم يسبحون ويستغفرون، فلا مكان للكبر في قلوبهم.
.3علاقتهم بالمؤمنين هي علاقة ولاية وحب ودعاء، وليست علاقة شرك وعبادة.
هذا هو التصور الصحيح الذي ينبغي أن أعتقده، فأعلم أن الملائكة إخوة لي في الله، أحبهم وأحب أعمالهم، وأقتدي بهم في تسبيحهم واستغفارهم، دون أن أرفعهم فوق مقام العبودية، ودون أن أعتقد فيهم شركاً.

الأمر الرابع:
أدب الدعاء ودروس النجاة - كيف تعلمنا الملائكة أن ندعو؟

والآن، استمع إلى دعائهم بخشوع، وخذ منه دروساً عملية في أدب الدعاء ومقومات النجاة:

.1التوسل بأسماء الله وصفاته:} رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا{
لاحظ كيف بدأوا الدعاء: "ربنا". استخدموا لفظ الربوبية الذي فيه التوقير والاعتراف بالعبودية. ثم توسلوا إلى الله بصفتين عظيمتين: الرحمة الواسعة، والعلم الواسع. هاتان الصفتان هما المناسبتان لطلب المغفرة؛ فالرحمة تقتضي العفو، والعلم يقتضي معرفة حال العبد وضعفه. أنت أيضاً تعلم هذا الأ دب: توسل إلى الله بأسمائه وصفاته، واختر ما يناسب مطلبك. وإنه لدرس عظيم أن نتعلم من الملا ئكة الرحمة؛ فكما أن رحمة الله وسعت كل شيء، ينبغي أن تسع رحمتنا نحن الآخرين، فنرحمهم ونتجاوز عن زلاتهم.

.2شرط المغفرة: التوبة واتباع السبيل:} فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ{
هم لم يدعوا بالمغفرة المطلقة لكل أحد، بل خصصوها بـ:

·} لِلَّذِينَ تَابُوا{: التوبة النصوح، أي الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم العودة .فالعودة إلى الذنب تعني الإصرار، والإصرار يعني العناد، ولا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع التوبة .هذه هي طريق النجاة الأولى: المبادرة بالتوبة.
·} وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ{: ما هو سبيل الله؟ إنه المنهج الذي افتتحت به السورة:} تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .{إنه تطبيق أوامر القرآن .فالتوبة ليست كلمة باللسان فقط، بل هي صلاح في الحال و العمل .ولا تقبل التوبة إلا باتباع الطريق الذي رسمه الله.

.3طلب الوقاية الشاملة:} وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{
وهنا الدعاء الجامع. إنهم يطلبون من الله وقاية المؤمنين من العذاب. وهذه الوقاية لا تكون فقط يوم القيامة، بل تبدأ في الدنيا: أن يقيهم الله الأعمال القبيحة التي توردهم النار، وأن يقيهم وبال الأ فعال السيئة وعواقبها، وأن يقيهم من الجدل بالباطل، وأن يحفظهم من النار في الآخرة. إنها وقاية تشمل الدنيا والآخرة.

الأمر الخامس:
الرسائل التربوية والنفسية والعملية من الآية

· التواضع ونبذ الكبر: إذا كان حملة العرش يسبحون ويستغفرون، فمن أنا حتى أتكبر؟ الآية تطهر قلوبنا من الكبر، لتجعلنا أهلا ً لهذا الارتباط بالملأ الأعلى.
· الأمن النفسي واليقين بالنصر: عندما تشتد بك الغربة، وترى الكافرين متحزبين، تذكر أن لك إخوة في السماء يدعون لك ويستغفرون .هذا يورث في قلبك سكينة وقوة لا توصف.
· أهمية العمل الجماعي والأخوة: المؤمن ليس وحده .ارتباطه بالجماعة المسلمة يمتد من الأرض إلى السماء .أنت جزء من جسد واحد، تشعر بألمه وتدعو له .وهذا يبني أقوى المجتمعات.
· تربية الضمير الحي بالمراقبة الدائمة: علمك أن ما تفعله في الخفاء يعلمه الله، ويعلمه ملائكته الذين يستغفرون لك .فكيف تقابل استغفارهم ودعاءهم لك بمعصية؟ هذا يجعلك تستحي من الله ومن ملا ئكته، فتراقب تصرفاتك.

الأمر السادس:
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

.1اجعل التسبيح والتحميد رطيب لسانك:
اجعل لك ورداً يومياً تقتدي فيه بالملائكة .في كل وقت، سبح الله، واحمده، وقدسه .قل: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم .بذلك تجعل حياتك كلها عبادة، وتصبح من المسبحين.
.2طبّق عبادة الدعاء في ظهر الغيب:
استشعر أن الملائكة يستغفرون لك، فبادلهم المحبة بأن تستغفر أنت لإخوانك المؤمنين .كل يوم، أدرج في دعائك أسماء محددة؛ لأهلك، لأصدقائك، للدعاة، للمستضعفين، للمسلمين في كل مكان .هذا سينقي قلبك من الحقد، ويملؤه حباً ونقاءً، ويعمق أواصر الأخوة بينك وبينهم.
.3تعلم أدب الدعاء من الملائكة:
عندما تدعو، ابدأ بحمد الله والثناء عليه، وبتمجيده، مثلما فعلت الملائكة:} رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا .{توسل إلى الله برحمته وعلمه، ثم اعرض حاجتك بخشوع.
.4لتكن توبتك نصوحاً ومتبوعة بعمل:
إذا وقعت في ذنب، فلا تكتف بالاستغفار باللسان .بل استجمع شروط التوبة التي ذكرتها الملائكة: أقلع عن الذنب فوراً، واندم عليه بقلبك، واعزم على ألا تعود .ثم اتبع هذا بـ"اتباع السبيل"، أي أن تم لأ وقتك بطاعة الله وعمل الصالحات، فالعمل الصالح هو الدليل على صدق توبتك.

5.عِشْ وكأن لك إخوة في السماء:
عندما تخلو بنفسك وتهم بمعصية، تذكر أن الملائكة تستغفر لك وتطلب لك الوقاية من النار .فكيف تخون هذا الرجاء؟ عِش حياتك بكرامة، فأنت لست مجرد رقم، بل أنت عبد صالح له في السماء إخوة كرام .هذا الشعور وحده كفيل بأن يجعلك ترتقي بسلوكك.

أيها المؤمن الحي، إن الآية السابعة هي بوابة الروح إلى الملأ الأعلى. إنها تفتح لك كوة في سقف الدنيا لترى حقيقتك؛ أنت لست وحيداً، بل لك إخوة يحملون عرش الرحمن، يدعون لك ويحبونك. فطهّر قلبك حتى تكون أهلاً لهذا الحب. سبّح بحمد ربك، واستغفر لإخوانك، واتبع سبيله، تكن من المقربين، الذين تنالهم دعوات الملائكة، فيقيهم الله عذاب الجحيم، ويدخلهم جنات النعيم.
ثانيا
أيها السائر إلى الله، يا من خطونا معًا خطوات اليقين في رحاب هذه السورة المباركة، لقد أيقظتك {حم}، وأرست مرجعيتك بأن هذا {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، واتسع صدرك بنور صفاته، ثم رأيت كيف كَشفت لك حقائق النفوس المعاندة، وكيف حُصّنتَ من الاغترار بزخرفهم، ثم تأملت سنة الله في الصراع، وعرفت يقين المصير. وبعد أن فُتحت لك كوة السماء لترى إخوة لك من الملائكة يحملون العرش، ويسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للمؤمنين، تطلب مني الآن أن نقف معًا لنستكمل هذا الدعاء العظيم، في الآيتين الثامنة والتاسعة.

هذا المقطع ليس مجرد تكملة لدعاء، بل هو غرس عميق لمفاهيم الأخوة الإيمانية الصادقة، ورسم لخارطة الأسرة المسلمة، وبيان لمعنى النجاح الحقيقي. سأستكمل معك الرحلة بنفس الأسلوب، الذي نغوص فيه إلى أعماق النفس، نخاطب العاطفة والوجدان والذهن، بأسلوب يجعلك تشعر وكأن هذه المعاني توحى إليك الآن، فتنفعل بها، وتتحول فيك إلى طاقة حياة. سنرى كيف تطلب الخير لأخيك ولأسرته، وكيف تتحمل مسؤولية التربية لتجتمع بأبنائك في الجنة، وكيف تعيد تعريف النجاح والفوز العظيم في حياتك.

المقدمة: من استغفار الملائكة إلى دعائهم الجامع - التتويج بدعوة شاملة

لقد رأيت في الآية السابقة كيف أن الملائكة، بعد أن أثنوا على الله بقولهم: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا}، بدأوا في طلب المغفرة والوقاية للمؤمنين التائبين المتبعين لسبيل الله. هذا هو المدد الإلهي العظيم الذي يمنحك إياه الله؛ أن جعل من حملة العرش ومن حوله جنودًا لك بالدعاء. والآن، يستمر هذا الدعاء ليرسم لك نموذجًا تطبيقيًا حيًا لأعلى درجات الحب في الله، حيث لا يطلب الملا ئكة للمؤمنين النجاة لأنفسهم فقط، بل تتسع دوائر دعائهم لتشمل آباءهم وأزواجهم وذرياتهم. إنه مشهد إخبار رباني، لكنه في حقيقته توجيه وتأديب لنا، لنعيش هذه المعاني في واقعنا. فكما أن الملا ئكة يدعون للصالحين بصلاح ذرياتهم، علينا نحن أن نتحمل مسؤولية التربية، وأن ندعو لبعضنا البعض بخيري الدنيا والآخرة. إنه بلسم لقلب كل أب وأم يخافون على أبنائهم من الفتن، وطريق واضح لمن يريد أن يجتمع بأحبته في جنات النعيم.

أهداف ومقاصد ودلالات الآيتين الكريمتين

عندما نقف على قوله تعالى: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: 8-9]، نجد أنفسنا أمام ميثاق أسري واجتماعي وإيماني عظيم.

· الهدف الأساسي: ترسيخ مفهوم المسؤولية الجماعية للمؤمنين، فكل منهم يدعو للآخر ولأسرته، وبيان معنى النجاح والفوز الحقيقي الذي يسعى إليه المؤمن.
· المقاصد الكلية:
1. بيان شمولية الدعاء: أن يشمل الدعاء الفرد وأسرته وجماعة المؤمنين.
2. ترسيخ مفهوم الأسرة الإيمانية: الأسرة الممتدة عبر الأجيال) آباء، أزواج، ذرية (التي يجمعها الإ يمان والعمل الصالح، لا مجرد رابطة النسب.
3. تأكيد مسؤولية الأبوة في التربية: الدعاء لهم مشروط بصلاحهم، وهذا حث للأبناء على الاستمرار على الصلاح، وللآباء على تربية ذرياتهم عليه.
4. إعادة تعريف النجاح الحقيقي: نقله من المنظور المادي الدنيوي إلى المنظور الأخروي) الوقاية من السيئات، نيل الرحمة، الفوز العظيم.(
5. تعزيز عقيدة العدل والحكمة الإلهية: من خلال الختم باسمي} العزيز الحكيم.{
· الدلالات العميقة:

· دلالة "جنات عدن التي وعدتهم": عدن هي الإقامة الدائمة، والتي لا فناء بعدها، والتي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .الملائكة يطلبون لهم تمام الوعد الإلهي، وفي هذا إشارة إلى أن الجنة وعد منجز من العزيز الحكيم.
· دلالة "السيئات": تشمل كل ما يسوء الإنسان في دنياه وأخراه؛ فهي وقاية شاملة من الأعمال السيئة وعواقبها ومنازل السوء في الآخرة.
· دلالة التضخيم "الفوز العظيم": الفوز ليس مجرد نجاة، بل هو الظفر بأعظم مطلوب، وهو رحمة الله .وهذا التضخيم يغير موازين حياتك كلها.

الامر الاول: مفهوم الأخوة الإيمانية - أن تطلب لأخيك الخير ولأسرته

انظر إلى سمو هذه النفوس الملائكية. هم لم يقولوا: "وأدخلهم جنات عدن وحدهم"، بل قالوا: {وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ}. هذا هو قمة الحب في الله.

ماذا يعلمنا هذا؟
أن الأخوة الإيمانية الصادقة لا تقتصر على حب الخير لأخيك فحسب، بل تمتد لتشمل من يحبهم ويشفق عليهم. أنت حين تحب أخًا لك في الله، تحب له أن يكون مع أهله في الجنة، وتدعو لهم جميعًا. وهذا يعكس أسمى مراتب صفاء القلب من الحقد والحسد. فبدلا ً من أن تنظر إلى نعمة الله على أخيك في أهله وولده بعين الحسد، أنت تدعو الله أن يتمم له هذه النعمة في الجنة. هذا يبني مجتمعًا متماسكًا، تحوطه المحبة، وتغمره أدعية بعضه لبعض. فأنت حين تدعو لصديقك بأن يجمع الله شمله بوالديه الصالحين وزوجته وذريته، فأنت ترتقي بإيمانك ومعاملاتك إلى مصاف الملائكة. وهنا يكمن السر: العلاقة التي تربط المؤمنين في الدنيا والآخرة هي علاقة الإيمان والعمل الصالح، لا علاقة النسب فقط. فالنسب الفاسد لا ينفع صاحبه، والنسب الصالح يزداد شرفًا بالإيمان. فلنحرص إذن على هذه الأخوة، ولنجعل ألسنتنا رطبة بالدعاء لإخواننا وأسرهم، ففي ذلك خير عميم لنا ولهم.

الامر الثاني: مسؤولية الأبوة والأسرة - إذا أردت الاجتماع بهم في الآخرة

هذه الآية ترسم أمام عينيك صورة الأسرة المسلمة الممتدة عبر الأجيال، مجتمعة في جنة عدن. ألا تشتاق نفسك لهذا المشهد؟ أن تجلس مع أبيك الصالح، وزوجتك المؤمنة، وأبنائك وبناتك الأبرار في نعيم لا يزول!
ولكن تأمل القيد العظيم: {وَمَن صَلَحَ}. فلم يدخلهم الدعاء مطلقًا، بل قيده بالصلاح. وهذا فيه توجيه تربوي عميق:

.1دورك كأب أو أم: أنت مسؤول عن صلاح ذريتك .مجرد دعائك لهم ليس كافيًا وأنت مقصر في تربيتهم وتعليمهم .الآية تحفزك على أن تبذل قصارى جهدك في تربية أبنائك على الإيمان والعمل الصالح .اجعل هدفك الأسمى من التربية أن يكونوا أهلًا لأن يكونوا معك في الجنة .عندما تبني فيهم القيم، وتغرس فيهم حب الله ورسوله، وتجنبهم رفقاء السوء، فأنت بذلك تسعى عمليًا لتحقيق هذا الدعاء الملائكي .اسأل نفسك الآن: "ماذا أفعل اليوم لأضمن أن يكون أبنائي صالحين، فأراهم في جنات عدن كما وعد الله؟".
.2دورك كابن أو ابنة: الآية أيضًا تدعوك أنت لأن تكون "ممن صلح"، لتنال أنت هذا الشرف، ويلحق بك والديك الصالحون إن قصرت درجاتهم .بصلاحك، تنفع نفسك وأهلك، فتصبح قرة عين لهم في الآ خرة .هذا يدفعك للموازنة بين بر الوالدين والالتزام بطاعة الله .وهنا نجد المعنى الحقيقي لاجتماع الأ سرة في الجنة، وهو ليس مجرد لقاء عاطفي، بل هو ثمرة جهاد مشترك في الدنيا على طريق الحق.

الامر الثالث: مفهوم النجاح والفوز العظيم - إعادة تعريف كاملة لمقاييس الحياة

ثم تأتي خاتمة الدعاء لتقلب كل مفاهيم الدنيا رأسًا على عقب: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

اسأل نفسك: ما هو النجاح الذي يسعى إليه عامة الناس اليوم؟ إنه المال، الجاه، السلطان، الشهادات، المناصب. هذه كلها وسائل قد تكون خيرًا وقد لا تكون. لكن الآية تعطيك التعريف الإلهي النهائي للنجاح، وتضعه في ثلاثة مستويات متدرجة:

.1النجاح هو الوقاية من السيئات: وهذه هي وظيفة الإيمان الأساسية في الدنيا .أن يقيك الله الأ عمال القبيحة، وأن يصرف عنك الفتن والمحن، وأن يحفظ جوارحك عن الحرام .أتدري ما أعظم هذه النعمة؟ كثير من الناس يملك المال والجاه، لكنه غارق في السيئات، أسير لشهوة أو فاحشة .أن

يمنحك الله العافية في دينك، وأن يبعد عنك الموبقات، هذا هو أساس النجاح .فإذا وجدت في نفسك كراهية للمعصية، وسهولة في الطاعة، فاعلم أن هذا توفيق إلهي عظيم، فاحمد الله عليه.
.2النجاح هو نيل رحمة الله الخاصة:} فَقَدْ رَحِمْتَهُ .{في الآخرة، لا يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله .أن ينالك مطر الرحمة الإلهية فتكون في أمان يوم الفزع الأكبر، هذا هو المكسب الحقيقي .هذه الرحمة هي التي غفرت ذنبك، وسترت عيبك، وقبلت توبتك، وأدخلتك الجنة .فاجعل هدفك في كل طاعة تسعى إليها أن تكون من المرحومين.
.3النجاح هو الفوز العظيم: لاحظ وصف "العظيم" .لماذا؟ لأنه فوز أبدي لا ينقطع، فوز تشهده الملا ئكة والنبيون، فوز تنتقل فيه من دار البؤس والشقاء إلى دار السعادة والهناء .كما قال تعالى في موضع آخر:} وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .{هذا المفهوم إذا استقر في قلبك، أوجد عندك موازنة عجيبة بين متطلبات الدنيا والآخرة . فإذا تعارض نجاح دنيوي مع أمر من أوامر الله، آثرت تنفيذ أوامر الله على الدنيا، لأنك تعلم أن النجاح الحقيقي في الآخرة .وسائل الوصول لهذه الرحمة هي التوبة الصادقة، واتباع سبيل الله، والإ يمان والعمل الصالح، وهذا هو سبيل الفلاح الذي ترسمه سورة غافر كلها.

الامرالرابع: ختام الآية باسمي {العزيز الحكيم} - تطمينات للقلب المؤمن

انظر إلى روعة الختام في الآية الثامنة: {إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. لماذا اختتمت الملائكة دعاءهم بهذين الاسمين؟

.1العزيز: هو القوي الذي لا يغالب .وفي هذا طمأنة للمؤمن بأن هذا الوعد بالجنة) جنات عدن التي وعدتهم (واقع لا محالة، لأن الذي وعد به عزيز لا يعجزه شيء، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من إنجاز وعده .فهو قادر على أن يدخلك ومن صلح من أهلك جنته، مهما بدا الطريق صعبًا.
.2الحكيم: هو الذي يضع كل شيء في موضعه .وهو عليم بمن يستحق هذا الوعد، ومن هو أهل لدخول الجنة .فإذا طلبت دخول الجنة أنت وأهلك، فاعلم أن الله حكيم، وسوف يزن الأعمال والنوايا بميزان عدله .وهذا يجعلك تخاف من التقصير، وتسعى جاهدًا لتحقيق الصلاح لنفسك ولأهلك، وتطمئن أيضًا أن الله لن يظلم أحدًا .إنه يحكم بحكمته بين العباد، فيُدخل الصالحين برحمته جنته.

الامر الخامس: مفاهيم عملية وتربوية ودورها في بناء الذات والمجتمع

لنستخلص الدروس العملية لنحولها إلى سلوكيات ملموسة:

· التربية الأسرية الهادفة: على كل مربٍ، أبًا كان أم أمًا، أن يحدد هدفه بوضوح: "أريد أن ألقى أبنائي في الجنة" .هذا الهدف يجعلك تغير وسائلك التربوية، فتنتقل من مجرد توفير الطعام واللباس، إلى بناء عقيدتهم وأخلاقهم.
· مبدأ التعاون على البر: الدعاء لأسر الآخرين يبني فيك صفاء النفس، ويقضي على الحسد .جرب أن تدعو لأخيك ولأسرته وأنت في سجودك، سترى كيف يتسع صدرك وتحس بطعم الأخوة الإيمانية.
· إعادة تعريف النجاح: في كل مرة تشعر فيها بالإحباط لأن راتبك أقل، أو سيارتك أقدم، أو منصبك ليس مرموقًا، تذكر أن} ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {مرتبط بالآخرة .عدّل بوصلة قلبك ليكون النجاح عندك هو رضا الله والجنة .هذا المفهوم هو سر السعادة والطمأنينة في زمن الماديات.
· استشعار معية الله عند المعصية: عندما تهم بذنب، قل: "اللهم قني السيئات" .استشعر أنك تطلب من الله أن يحميك، كما علمتك الملائكة أن تدعو .هذا الدعاء يصبح درعًا لك من الشيطان.

الامر السادس : كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

.1دعاء يومي عائلي: اجعل دعاء الملائكة هذا جزءًا من أذكارك اليومية .قل: "اللهم وأدخلنا جنات عدن التي وعدتنا، ومن صلح من آبائنا وأزواجنا وذرياتنا، إنك أنت العزيز الحكيم، وقنا السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم" .علمه لأبنائك، واجتمعوا عليه .سيكون رابطًا روحيًا عجيبًا بينكم.
.2بر الوالدين بدافع الآخرة: برك بوالديك ليس فقط من أجل الدنيا، بل لتكون سببًا في اجتماعك بهم في الجنة .تحمل تعب خدمتهم، وأغدق عليهم بالحب، وادع لهم، لعل الله يجمعك بهم في الفردوس.
.3تربية الأبناء على رؤية الآخرة: لا تقل لابنك فقط: "ذاكر لتنجح وتصبح طبيبًا أو مهندسًا"، بل قل له أيضًا: "ذاكر وتعلم وكن صالحًا لتكون معي ومع والدتك في جنة عرضها السماوات والأرض" .ازرع في قلبه الشوق إلى جنات عدن، ليكون صلاحه اختيارًا نابعًا من حب، لا إكراهًا ناتجًا عن خوف.

4.التوازن في تقييم الذات والآخرين: عند الحديث عن شخص ناجح، لا تذكر فقط أمواله وعقاراته، بل اسأل: "هل هو من المتقين؟ هل هو من الموعودين بالفوز العظيم؟". هذا التغيير في النظرة هو بداية التحول الحضاري الشامل. أنت بذلك تخرج من عبودية المال والجاه، وتدخل في عبادة الله وحده، راجيًا وقايته من السيئات، وفائزًا برحمته.

أيها الحبيب في الله، إن هاتين الآيتين هما تأكيد إلهي على أن رحلة الإيمان لا تقطعها وحدك. أنت محاط بأنهار من الرحمة، وبأدعية الملائكة، وبأخوة صادقة. فلا تيأس، ولا تضعف. أصلح نفسك، وانهض بأسرتك، واطلب لأخيك ما تطلبه لنفسك، ليتم الله عليك نعمته. تخيل نفسك هناك، عند باب جنة عدن، تنتظر وصول والديك وزوجتك وأبنائك، لتدخلوا معًا فرحين برحمة الله. هناك فقط، ستعرف يقينًا أن ذلك هو الفوز العظيم، وهناك، ستشكر الله أنك فهمت هذه الآيات وعشتها في دار الابتلاء، ففزت برضوانه في دار الجزاء.

القسم الثالث

حال الكفار يوم القيامه وهم في جهنم

اولا

أيها السائر إلى الله، يا من غصنا معًا في بحار هذه السورة المباركة، مستنشقين عبير اليقين، ومتزودين بزاد الصبر. لقد وقفنا على أعتاب الجنة ونحن نسمع دعاء الملائكة للمؤمنين، ورأينا كيف تشملهم رحمة الله الواسعة. لقد كان المشهد في الآيات السابقة ينبض بالأمل، مفعمًا بالأنوار، يفيض بالحب الإلهي. لكن، أيها الحبيب، المعركة بين الحق والباطل لم تنته، ودروس المولى لنا لا تتوقف. فبعد أن أرانا مشهد الممدوحين المرحومين، يعرض علينا الآن مشهد الممقوتين المطرودين، لا ليشمت بهم، بل ليرينا عدله المطلق، وليزجر قلوبنا أن تميل إلى غفلتهم، وليقيم علينا الحجة، وليفتح لنا باب التوبة قبل فوات الأوان. تأمل كيف ينقلب المشهد فجأة، من صوت الدعاء بالرحمة، إلى صوت النداء بالمقت. يقول الحق تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين:

}إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ{ [غافر:10]

لا تقرأ هذه الآية كأنها خبر عن الغيب فحسب، بل استقبلها كأنها صيحة نذير في أذن روحك، تنتشلك من غفلتك، وتريك وجها آخر من صفات ربك، ألا وهو "المقت" الذي يستحقه المعاندون. إنها ليست مجرد آية، بل هي تشريح نفسي عميق لحال الخاسرين يوم القيامة، وهي مرآة ترى فيها وجه الندامة قبل أن تراه غدًا، وأبلغ درس في تحمل المسؤولية واغتنام الفرصة. فهيا بنا نقف على هذا المشهد المهيب، لا لنشفى صدورنا، بل لنزداد يقينًا، ونراجع أنفسنا قبل فوات الأوان.

المقدمة: من مشهد الرحمة إلى مشهد العدل - لماذا هذا الانتقال المفاجئ؟

تأمل هذا السياق القرآني المعجز. بعد أن حدثتنا الآيات السابقات عن الملائكة وهم في قمة خشوعهم، يدعون للمؤمنين ويطلبون لهم دخول جنات عدن والوقاية من السيئات، يأتي هذا المشهد الصادم. لماذا؟ ليكتمل بناء عقيدتك. فالله ليس فقط "غافر الذنب" و"قابل التوب" و"ذي الطول"، بل هو أيضًا "شديد العقاب". ولقد رأينا وصف "شديد العقاب" في الآية الثالثة، وها نحن الآن نرى مشهدًا من مشاهد هذا العقاب الشديد. ولكن أشد ما في هذا العقاب أنه ليس جسديًا فحسب، بل هو عقاب نفسي يسبق العذاب الجسدي. إنه النداء الذي يعلن الخزي، إنه صوت المقت والكراهية من أرحم الراحمين.

يريد الله منا أن نعرف أن مصير الكافرين ليس مجرد نار تحرق الأبدان، بل هو خزي يحرق الأرواح والنفوس. إنهم في ذلك اليوم لن يشعروا فقط بالألم، بل سيشعرون بالمقت والكره من الله، وهذا هو العذاب الأكبر. إنه مشهد يرينا أن أعظم نعمة ينعم بها المؤمن هي محبة الله له، وأعظم عقوبة يعاقب بها الكافر هي مقت الله له. فهذا الانتقال هو لتعيش بـ "قلبين": قلب يرجو رحمة الله التي سمعتها في دعاء الملائكة، وقلب يخاف مقت الله الذي تسمعه في نداء الآخرة. وهذا هو التوازن بعينه.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

· الهدف الأساسي: زجر النفوس عن الكفر والمعاصي، وبيان عدل الله المطلق، وتحذير المؤمنين من الغفلة عن الاستجابة لداعي الإيمان.
· المقاصد الكلية:
1. التحذير من الندم المتأخر: بيان أن ندم الكافر يوم القيامة لا ينفعه شيئًا.
2. غرس المسؤولية الفردية: تأكيد أن الإنسان هو الذي جنى على نفسه بكفره، وهو الذي يمقت

نفسه بسبب ما فرط في جنب الله.
.3 تعظيم شأن الاستجابة للإيمان: إظهار أن سبب هذا المقت هو رفضهم لدعوة الإيمان في الدنيا.
.4 تربية المؤمن على الخوف والرجاء: ليكون دائمًا بين الرجاء في رحمة الله، والخوف من مقته.
· الدلالات العميقة:
· دلالة "ينادون": النداء هنا ليس تكريمًا، بل هو إعلان للخزي على رؤوس الأشهاد، وفيه تصوير لحال الذل والهوان.
· دلالة "مقت الله": المقت هو أشد البغض والكراهية .وإذا كان هذا المقت من الله، فهو أشد وأعظم أنواع المقوت.
· دلالة "أكبر من مقتكم أنفسكم": هم في قمة الندم، يكرهون أنفسهم أشد الكره، لأنهم يرون العذاب ، ويدركون أنهم سببه .لكن الآية تخبرهم أن كراهية الله لهم -بسبب أفعالهم- هي أشد وأكبر.
· دلالة "إذ تدعون": ذكر السبب، وهو رفضهم لدعوة الإيمان.

الأمر الأول: التحليل النفسي لحال الكافرين في هذا الموقف المهيب

يا عبد الله، أغمض عينيك، وتخيل هذا الموقف! إنه يوم القيامة، اليوم الذي يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. الكافرون يقفون في ذل، تحيط بهم ملائكة العذاب. وفجأة، يرتفع نداء، ليس من بعيد، بل من جهة العرش، من عند العزيز الجبار: {يُنَادَوْنَ}. إنهم يُنادون بالخزي والإهانة. النداء يقول لهم: إن مقتي، أيها الكافرون، لكم، أكبر من مقتكم لأنفسكم الآن!

اسأل نفسك: في أي حالة نفسية يكونون؟
هم في حالة من أشد حالات الانهيار النفسي التي يمكن أن يتخيلها عقل بشر. إنهم يمقتون أنفسهم، لماذا؟ لأن الحجاب قد كشف: {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}. لقد رأوا الجنة التي أعدت للمؤمنين، ورأوا النار التي أعدت للكافرين، ورأوا ما فاتهم من النعيم المقيم ، ورأوا ما صاروا إليه من العذاب الأليم. في هذه اللحظة، يعرفون يقينًا أنهم هم المسؤولون عما هم فيه. لا يلومون الشيطان، ولا يلومون المجتمع، بل يمقتون أنفسهم أشد المقت. إنه شعور الندم الذي يقتل النفس قبل الجسد.
ولكن، وهنا المصيبة الكبرى، يأتيهم النداء بأن كره الله وغضبه عليهم أكبر! إنهم في دوامة من الا نهيار: الندم من أنفسهم، والإحساس بأن الجليل العظيم يمقتهم. لماذا؟ يذكرهم النداء بالسبب: {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ}.
يا له من سبب! لقد كانوا يُدعون إلى الإيمان، نور فيه هدايتهم وفلاحهم، فكانوا يكفرون. ولم تكن هذه الدعوة مرة واحدة، بل مرة بعد مرة، ورسولا ً بعد رسول، وآية بعد آية، وموعظة بعد موعظة، وهم يرفضون بإصرار وعناد. فاستحقوا هذا المقت العظيم.

الرسالة النفسية لنا: هذا المشهد يصنع في نفس المؤمن خوفًا من هذا الموقف، وهو خوف محمود يدفعه لمراجعة نفسه: "هل أنا أستجيب لداعي الإيمان حقًا؟ أم هناك تقصير؟ هل أفرح بالإيمان وأبغض الكفر؟". إنها لحظة صدق مع النفس.

الأمر الثاني: ماذا يريد المولى منا بهذا الإخبار؟ التوجيهات الاستراتيجية

لا يخبرنا الله بهذا لمجرد التعجيز أو بث الرعب، حاشاه. بل يريد منا عدة توجيهات عملية:

.1يريدك أن تخاف المقت الإلهي: كما ترجو رحمته، يجب أن تخاف مقته .فالمؤمن يعبد الله بين الرجاء والخوف .أن تخاف أن يبغضك الله، أن تخاف أن ينظر إليك نظرة كراهية .هذا الخوف سيجعلك تبتعد عن كل ما يغضب الله.
.2يريدك أن تستجيب لداعي الإيمان الآن: قوله:} إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ {هو تنبيه لك .أنت الآن مدعو للإيمان؛ لكل صلاة، لكل فرض، لكل طاعة .فاستجب، ولا تكن من الذين قيل فيهم:} فَتَكْفُرُونَ .{كل تأخير في التوبة، وكل تسويف في الطاعة، هو نوع من عدم الاستجابة .يريدك أن تكون من الذين ق ال الله فيهم:} إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.{
.3يريدك أن تحاسب نفسك: قبل أن يأتي يوم الندامة، حاسب نفسك الآن .اسألها: هل أنا من ممتثلي أوامر الله حقًا؟ أم أن هناك كفرًا بنعم الله، أو جحودًا لفضله، أو ادبارًا عن ذكره؟ محاسبة النفس في الدنيا تريحك من مقتها في الآخرة.
.4يريدك أن تغتنم فرصة العمر: الآية ترسل لك رسالة واضحة: "اغتنم حياتك قبل مماتك" .فالكافر يمقت نفسه لأنه ضيع فرصته، أما أنت فالفرصة بين يديك الآن .لا تكن ممن يضيعون أعمارهم في

اللهو والغفلة، ثم يندمون حيث لا ينفع الندم.

ضالأمر الثالث: أبعاد الآية وآفاقها – رؤية شاملة للوجود والعمل

هذه الآية القصيرة تحمل أبعادًا عميقة:

· البعد الإيماني: ترسخ في قلبك أن الإيمان ليس مجرد أقوال، بل هو استجابة حقيقية لداعي الله . وأن الكفر هو جريمة تستحق المقت الإلهي الأبدي.
· البعد النفسي: إنها تنشئ فيك ما يسمى بـ "الندم الاستباقي" .أي أن تستشعر ألم الندم قبل وقوعه، فتتجنب أسبابه .هذا من أعلى درجات الذكاء العاطفي والروحي.
· البعد الأخلاقي: إنها ترسخ مبدأ "تحمل المسؤولية" .فالكفار لم يلقوا باللوم على أحد، بل ملأتهم أنفسهم .وأنت أيضًا مسؤول عن عملك وإيمانك.
· البعد الاجتماعي: تخيل مجتمعًا يعيش أفراده بهذا الوعي: وعي الاستجابة للخير، ووعي المسؤولية الفردية، ووعي الخوف من عواقب الكفر والإجرام .هذا مجتمع حي الضمير، سليم القلب، جاد في عمله.
· البعد الحضاري: حضارة تقوم على أفراد لا يسوّفون، ولا يضيعون الفرص، بل يغتنمون الأوقات في طاعة الله وعمارة الأرض .هذه حضارة منتصرة لا محالة، لأنها تبني للإيمان، وتستجيب لداعي الله، وتخاف من مقته.

الأمر الرابع: أمثلة تقريبية – تقريب الصورة إلى الذهن والوجدان

حتى تكتمل الصورة في ذهنك، أيها السامع، تعال معي إلى أمثلة دنيوية محسوسة، علها تقرب لك المشهد الأخروي العظيم:

· مثال الطالب المهمل: تخيل طالبًا في جامعة مرموقة، كان ذكيًا ولامعًا .نصحه أساتذته، حذره أهله من الإهمال، دُعي إلى الجد مرارًا .لكنه ظل يلعب ويلهو .وأخيرًا، جاء يوم النتائج النهائية .رأى زملاءه يتخرجون بامتياز ويحصلون على وظائف مرموقة، أما هو فرسب .في تلك اللحظة، جلس وحيدًا، يمقت نفسه أشد المقت، يقول: "يا ليتني استجبت! يا ليتني سمعت!" .لكن هل ينفعه الندم؟ لا .هذا مثال مصغر جدًا .فما بالك بمن دُعي إلى الإيمان وفاز بالجنة الأبدية، فرفض، فكان مصيره النار الأ بدية!
· مثال المريض الذي أهمل العلاج: تخيل مريضًا بمرض بسيط في بدايته، جاءه الطبيب وقال له: "خذ هذا الدواء كل يوم لمدة شهر وستشفى تمامًا" .فتهاون، وأهمل، حتى استشرى فيه المرض، وأصبح لا علاج له .في تلك اللحظة، عندما يرقد على فراش الموت، وقد أصبح جسده هيكلًا عظميًا، يمقت نفسه، لأنه كان يستطيع أن يشفى في البداية بقليل من الجهد .هكذا الكافر، كانت التوبة النصوحات دواءً شافيًا في متناول يده، فرفضها استكبارًا وإعراضًا، حتى إذا جاء الموت، لا ينفع الندم.

هذه الأمثلة ترينا أن باب التوبة والاستجابة مفتوح، وقيمتها أنها حدثت لغيرنا، لذلك فهي فرصة لنا لنأخذ العبرة.

الأمر الخامس: مفاهيم عملية ودورها في بناء الذات والمجتمع

لنستخلص معًا ما يمكن أن نطبقه في حياتنا مباشرة من هذه الآية:

.1مفهوم "اليوم قبل الغد": لا تؤجل توبتك إلى الغد .لا تقل: "سأتوب غدًا، سألتزم العام القادم" .فمن يضمن لك أن تعيش إلى الغد؟ عالج أخطاءك اليوم، وتب الآن .هذه الآية تجعل من التسويف جريمة كبرى.
.2مفهوم "المسؤولية الذاتية": درب نفسك على ألا تلقي باللوم على الآخرين، أو على الظروف، أو على المجتمع .كما أن الكافر في ذلك اليوم لا يلوم إلا نفسه، فكن أنت الآن كذلك .قل: "تقصيري مسؤوليتي، ونجاتي بيدي بعد توفيق الله".
.3مفهوم "الفرحة بالطاعة": عندما تسمع داعي الإيمان) الأذان، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر(، لا تعتبره عبئًا، بل اعتبره فرصة .سارع إليها فرحًا، وكأنها دعوة إلى وليمة عظيمة .لأنها في الحقيقة دعوة إلى نعيم الجنة .استجب بقلبك وجسدك:} سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.{
.4مفهوم "الجهاد ضد هوى النفس": رفض الاستجابة للإيمان سببه الهوى والشهوات .جاهد نفسك .إذا وجدت في نفسك مشقة في أداء طاعة، فاعلم أن نفسك الأمارة بالسوء تدعوك إلى الكفر العملي، فخالف هواك، وأطع ربك، لتنجو من مقت الله.

الأمر السادس: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

فلنجعل هذه الآية ميزانًا لحياتنا:

· كلما سمعت الأذان: تذكر النداء} إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ{، وقل لنفسك: "ها هي الدعوة، سأستجيب، ولن أكون من الذين} فَتَكْفُرُونَ{" .انهض إلى الصلاة وكأنك تنهض إلى الجنة، واستشعر أنك بذلك تنجو من مقت الله.
· كلما راودتك معصية: تذكر لحظة الندم في الآخرة .اسأل نفسك: "هل تستحق هذه المعصية الزائلة أن أمقت نفسي؟ هل تستحق أن أتعرض لمقت الله؟" .تذكر أن المقت الإلهي أشد وأكبر، فاهرب من المعصية.
· عند التعامل مع الأبناء والمتربين: استخدم هذا الأسلوب القرآني في التربية .لا تخوفهم فقط من النار، بل خوفهم من مقت الله وبغضه .قل لهم: "أعظم عقوبة هي أن يبغضك الله، وأعظم نعمة هي أن يحبك الله .فماذا تختارون؟" .هذا يبني ضميرًا حيًا عميقًا.
· في عملك وحياتك: لا تكن ممن دُعوا إلى الأمانة فخانوا، أو دُعوا إلى الإتقان فأهملوا .استجب لداعي الإيمان في كل شأن من شؤون حياتك، فالإسلام لا يتجزأ .إيمانك في عملك، وإيمانك في أمانتك، وإيمانك في معاملاتك، كل هذا مما تدعو إليه الشريعة .استجب لتنجو.
أيها المؤمن الحي، إن الآية العاشرة ليست مجرد تهديد، بل هي في حقيقتها دعوة حب. إنها صرخة تحذير من حكيم خبير، يعلم ضعفنا، ويعلم أننا بحاجة لمن يوقظنا من غفلتنا. لقد أرانا المولى مشهد الخاسرين وهم يمقتون أنفسهم، لننتفع نحن بهذا المشهد، فنكون من الفائزين. تخيل نفسك في الجنة، وقد أنعم الله عليك برضوانه، فأنت في أمان من مقته. عندها، ستحمد الله أنك استمعت لهذا النداء في الدنيا، فاستجبت، وآمنت، وعملت صالحًا. اختر الآن: هل تريد أن تكون ممن ينادى عليهم في الجنة بالتحية والسلام؟ أم ممن ينادى عليهم بالمقت والهوان؟ الخيار لك، والفرصة ما زالت بين يديك ، والله يدعوك إلى الإيمان الآن. استجب، قبل فوات الأوان.
ثانيا
أيها السائر إلى الله، يا من تفيأت ظلال هذه السورة المباركة، وتتبعت خطوات اليقين من بدايتها. لقد أيقظتك {حم} من غفلتك، وثبّت مرجعيتك بأن هذا {تَنزِيلُ الْكِتَابِ}، ثم غمرتك رحمة {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ}، وأرعبتك قوة {شَدِيدِ الْعِقَابِ}، وأغرقتك في بحار فضل {ذِي الطَّوْلِ}. ثم رأيت مشهد الكافرين وهم يجادلون بالباطل، ورأيت سنة الله في أخذهم، وسمعت نداء المقت عليهم. لقد كان المشهد الأخير في الآية العاشرة مشهد خزي وندامة، حيث يُنادى عليهم بأن مقت الله لهم أكبر من مقتهم لأنفسهم.

والآن، هلمّ بقلبك وعقلك لتعيش المشهد التالي مباشرة، وكأنك واقف هناك، تسمع بأذنيك حوارهم اليائس، واعترافهم المتأخر، الذي لا ينفعهم شيئًا. إنه مشهد الانهيار الكامل للروح المعاندة، والاعتراف المهين الذي لم يعد له قيمة. إنها صورة تفصيلية لأعماق نفس الكافر وهو يتجرع مرارة الندم، ويقابل برد قاطع من الحكم الإلهي. يقول الحق تبارك وتعالى، وهو يصور هذا الموقف بلسان عربي مبين:

{قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (11) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر: 11-12]

لا تقرأ هاتين الآيتين كقصة عن الآخرة فقط، بل استقبلهما كجرس إنذار أخير لنفسك، كمرآة ترى فيها وجه الندامة قبل أن يفوت الأوان، كتحذير من عاقبة رد الحق بعد وضوحه، وكدرس عميق في التوحيد والولاء. فهيا بنا نغوص في هذا الحوار الأخروي المهيب، لنستخرج كنوز العبرة.

المقدمة: من مشهد المقت إلى مشهد الانهيار والاعتراف المتأخر

بعد أن نودي عليهم بأن مقت الله لهم أكبر من مقتهم لأنفسهم، ماذا تتوقع أن يكون رد فعلهم؟ إنه ا لانهيار التام. لقد تحطم كل كبرياء، وذل كل عنيد، واعترف الجاحد. لم يعودوا يجادلون بالباطل، ولم يعودوا يثيرون الشبهات، بل رجعوا إلى فطرتهم الأولى، ونطقوا بكلمة الحق التي طالما أنكروها في الدنيا: {رَبَّنَا}. إنهم يعترفون بالربوبية الآن، ولكن في وقت لا ينفع فيه الاعتراف.

إن الله يخبرنا بهذا الحوار لا لنعرف مصيرهم فحسب، بل لنرى بأعيننا آليات الانهيار النفسي للروح المعاندة، ولنفهم أن كل جحود في الدنيا سيتحول إلى اعتراف مرير في الآخرة، ولكن بعد فوات الأ وان. إنها دعوة لك أيها المؤمن، أن تجعل اعترافك بالحق الآن، في وقت ينفعك فيه الاعتراف، لا في

وقت الندم. وهكذا، تنتقل الآيات من مشهد إلى مشهد لتبني فيك روحًا تائبة أوّابة، لا معاندة متكبرة.
أهداف ومقاصد ودلالات الآيتين الكريمتين

تهدف هاتان الآيتان إلى كشف الحالة النفسية للكافرين عند معاينة العذاب، وبيان أن اعترافهم بالحق في الآخرة لا ينفعهم، لأنه اعتراف اضطراري لا اختياري. إنهما تؤكدان على أن سبب هذا المصير هو موقفهم من التوحيد؛ فقد كانوا يكفرون بـالله إذا دُعي وحده، ويؤمنون بالشركاء إذا أشرك به. و المقصود الأعظم هو تحذير المؤمنين من هذا المسلك، ودعوتهم إلى التوحيد الخالص، والاستجابة لداعي الله في الدنيا، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم. ودلالات الآيتين عميقة؛ ففي قولهم {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} إقرار بالبعث الذي طالما أنكروه، وفي قولهم {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا} تجسيد لسقوط قناع الكبرياء، وفي سؤالهم {فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ} تصوير لليأس المطبق وإغلاق كل الأبواب، وفي الجواب الإلهي {ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} بيان لسبب العذاب وهو ازدواجية الإيمان: كفر بالتوحيد وإيمان بالشرك.

الأمر الأول: شرح دلالة {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} وبيان المراحل الأربع في حياة الإنسان

انظر كيف يبدأون كلامهم. بعد ذلك العناد الطويل، وبعد ذلك الجدال العقيم، ها هم يقولون: {رَبَّنَا}. لقد انكسرت شوكتهم، واعترفوا بربوبية الله. ثم يعددون مراحل خلقهم التي جحدوها من قبل: {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}. ما هذه المراحل الأربع التي يعترفون بها الآن؟

لقد ذكر المفسرون أن المراد بالإماتة الأولى هي الحالة التي كانوا عليها قبل النفخ فيهم وهم في أص لاب آبائهم، أو الحالة التي كانوا عليها عدمًا محضًا، ثم الحياة الأولى هي الحياة في الدنيا، ثم الإماتة الثانية هي الموتة التي يموتونها في الدنيا، ثم الحياة الثانية هي البعث يوم القيامة. فهم الآن في الحياة الثانية، وقد رأوا بأعينهم صدق ما كذبوا به، فاعترفوا بهذه المراحل الأربع. هذا الاعتراف هو تتويج للانهيار النفسي الكامل؛ إنهم لم يعودوا قادرين على الإنكار أو المكابرة، لأن الحقيقة صارت أمام أعينهم عيانًا بيانيًا. لقد أصبحوا كمن يصف مشهدًا يراه الآن، بعد أن كانوا بالأمس القريب يستهزئون به ويستهينون.

واللمسة البيانية هنا في كلمة {رَبَّنَا} التي صدروا بها كلامهم. لم يقولوا "يا ربنا" بالنداء المباشر، بل ق الوا {رَبَّنَا} بالإضافة، وكأنهم يتعلقون بأذيال الربوبية، متذللين، معترفين بالعبودية بعد فوات الأوان. إنه نداء الملهوف الذي لم يعد يجد مهربًا.

والرسالة التربوية لنا عظيمة: إن الاعتراف بالحق في وقت الشدة والاضطرار ليس فضيلة، بل الفضيلة أن تعترف بالحق في وقت السعة والاختيار. إنهم اعترفوا الآن، فهل نفعهم؟ لا. فبادر أنت أيها المؤمن ، واعترف بذنوبك، وآمن بربك، وصدق بمراحل خلقك وبعثك، طواعية لا اضطرارًا، لتكون من الفائزين حقًا.
الأمر الثاني: {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ} - مشهد الندم اليائس والاستجداء الذي لا يُجاب

ثم يأتي الإعلان الصريح، الذي طالما فروا منه في الدنيا: {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا}. لم تعد هناك أعذار، ولا تبريرات، ولا لوم على الشيطان أو الأسلاف. إنها لحظة الصدق المر، التي لا تنفع صاحبها. إنهم يرون العذاب، فيعترفون بأنهم هم سبب هذا العذاب، وأن ذنوبهم هي التي أوصلتهم إلى هنا.

ولكن انظر ماذا يفعلون بعد هذا الاعتراف. إنهم لا يطلبون المغفرة، لماذا؟ لأنهم يعلمون أن باب المغفرة قد أغلق، فالآخرة دار جزاء لا دار عمل. بدلا ً من ذلك، يتجهون ببصرهم نحو جهنم، ثم يسألون سؤالا ً يعج باليأس والألم: {فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ}. إنه ليس سؤال استفسار، بل هو سؤال استجداء وتذلل. إنهم يتوسلون، يسألون عن أي طريق، عن أي منفذ، عن أي مهرب من هذا العذاب. إنهم لا يطلبون الجنة، بل يطلبون فقط "الخروج" من النار، أي شيء غير هذا!

وهنا تكمن اللمسة البلاغية العظيمة: سؤالهم بصيغة {فَهَلْ} التي تفيد الاستفهام مع التمني، وكأنهم يتعلقون بقشة، ويطرقون بابًا يعلمون أنه قد أغلق. وجاءت كلمة {خُرُوجٍ} نكرة لتفيد العموم والتعميم؛ أي خروج، بأي سبيل كان، ولو كان إلى عدم. وجاءت كلمة {مِّن سَبِيلٍ} لتؤكد أنهم لا يرون أي طريق، فتكون إجابة هذا السؤال معلومة ضمنًا: "لا، لا سبيل إلى الخروج". وهذا الامتناع عن الإجابة، أو هذا السكوت، هو في حد ذاته عذاب نفسي فوق العذاب الجسدي. إنه تتويج لشعور الإحباط المطلق.

والرسالة النفسية لنا هنا عميقة جدًا. هذه الآية تعالج في نفس المؤمن مشكلة التسويف والأمل الكاذب. كثير من الناس يؤخر التوبة ويقول: "سأدعو الله الآن وأتوب فيما بعد"، وكأن باب التوبة مضمون إلى الأبد. هذه الآية تقول لك: ماذا لو أتاك الموت وأنت في غفلتك؟ هل ستجدي عليك هذه الحجة؟ ألا ترى هؤلاء الآن كيف يسألون الخروج فلا يجابون؟ إن هذا المشهد يخلق في نفسك "رعبًا مقدسًا" من التسويف، ويدفعك للمبادرة بالتوبة الآن فورًا، فتكون توبتك اعترافًا بالحق في وقت ينفع فيه الاعتراف، لا في وقت العذاب.

الأمر الثالث: {ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} - الجواب الإلهي الحاسم وبيان علة العذاب

ثم يأتي الجواب من الله، لا على لسان الملائكة، بل هو حكم إلهي قاطع: {ذَٰلِكُم}. أي هذا العذاب الذي أنتم فيه، وهذا المقت، وهذا اليأس، سببه واحد واضح: {بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}.

انظر إلى روعة التعبير. إنه يذكرهم بجريمتم الكبرى: التوحيد. لقد كانت قضية حياتهم هي "لا إله إلا الله". ففي الدنيا، عندما كانوا يُدعون إلى عبادة الله وحده، وترك الشركاء، كان ردهم: الكفر والجحود والعناد. لم يكونوا مجرد غافلين، بل كانوا معاندين، يدعون إلى الله وحده فيكفرون.

ثم تأتي الجريمة الثانية المرتبطة بالأولى: {وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا}. وهنا مكمن الخلل العميق. إنهم لم يكونوا ملحدين منكرين للغيب بالكلية، بل كانوا يؤمنون ويصدقون، ولكن ليس بـالله وحده! إنهم إذا أشرك بـالله أحد، إذا ذكرت الأصنام والأوثان والوسطاء، آمنوا وصدقوا وسارعوا إلى التصديق. هذه هي الطامة الكبرى: أن يكون الولاء للشرك، والبراء من التوحيد. هذه هي ازدواجية الإيمان التي كانت سبب هلاكهم.

اللمسة البيانية هنا بالغة الدقة. تأمل أسلوب الحصر في {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} وفي {يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا}. إنه يصورهم وكأنهم خلقوا للكفر بالتوحيد والإيمان بالشرك! وكلمة {تُؤْمِنُوا} هنا تدل على التصديق والقبول والانقياد. فسبحان الله، كيف انقلبت موازينهم! كيف أصبح الحق باطلا ً والباطل حقًا في أعينهم!

والدرس التربوي والفكري لنا هنا خطير. إنه يعلمنا أن مشكلة الكافرين لم تكن في عدم إيمانهم بـ الغيب، بل كانت في توجيه هذا الإيمان لغير الله. وهذا يحدثنا عن أهمية تصحيح "بوصلة الإيمان" في قلوبنا. قد يكون الإنسان متدينًا، يصلي ويصوم، ولكنه في الوقت نفسه يعلق قلبه ببشر، أو بحزب ، أو بفكرة، أو بقبر، أو بمال، فيقدم طاعة المخلوق على طاعة الخالق عند التعارض. أليس هذا شبهًا بما كانوا فيه؟ إن التوحيد الخالص هو أن يكون ولاؤك المطلق لله وحده، فإذا دعا الله وحده استجبت وآمنت، وإذا أشرك به شيء رفضت وكفرت. هذا هو مقتضى "لا إله إلا الله" الحق.

الأمر الرابع: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} - ختم الآية وقفل باب المراجعة

وبعد بيان الجريمة، يأتي الحكم النهائي الذي لا استئناف بعده: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}. لقد أغلق الباب. لا مجال للخروج، لا مجال للمراجعة، لا مجال لشفيع. انتهى الأمر. "الحكم" هو القضاء النافذ، وهو الله وحده.

تأمل هذا الختم باسمي {الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}. لماذا اختير هذان الاسمان هنا بالذات؟
"العلي": هو الذي له العلو المطلق في ذاته وصفاته وقدره وقهره. إنه إعلان أن كل ما سواه سفلي حقير، فلا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا. فكيف يُشرك به وهو العلي؟ "الكبير": هو العظيم الذي لا أعظم منه، الكامل الذي لا نقص فيه. فإذا كان الحكم للعلي الكبير، فمن ذا الذي يستطيع أن يرد حكمه؟ ومن هو الذي يمكن أن يشفع عنده إلا بإذنه؟ إن هذين الاسمين يحطمان أي أمل كاذب في الخلاص، ويؤكدان أن الأمر كله بيد الله وحده، وأن الشركاء الذين عبدوهم لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا. وفي الوقت نفسه، هذان الاسمان يطمئنان قلب المؤمن، فأنت يا عبد الله، عندما تكون مع الله، فأنت مع العلي الكبير، فلا يضيعك، ولا يخذلك، ولا يغلبك أحد.
الأمر الخامس: الأبعاد والآفاق والقضايا التي تعالجها الآيتان

هاتان الآيتان الكريمتان تعالجان قضايا وجودية ونفسية عميقة:
أولا ً: قضية حرية الإنسان ومسؤوليته. إنهما تؤكدان أن الإنسان حر في اختياره في الدنيا، وهو المسؤول عن هذا الاختيار. الكافرون يعترفون بأنهم هم الذين أجرموا، ولا يلقون باللوم على القدر أو على الله. هذا يعزز فيك الشعور بالمسؤولية الفردية عن إيمانك وكفرك.

ثانيًا: قضية التوحيد والشرك. إنهما تضعان يدك على لب الصراع بين الحق والباطل، وهو قضية عبادة الله وحده. وهذا يدعوك لمراجعة عقائدك وولاءاتك، لتتأكد من خلوها من شوائب الشرك الخفي.
ثالثًا: قضية قيمة الوقت والفرصة. إنهما تصوران بأبلغ صورة أن الفرصة الضائعة لا تعود. الندم في الآخرة لا ينفع، والاعتراف بعد فوات الأوان لا يجدي. هذا يملأ قلبك حرصًا على اغتنام كل لحظة في طاعة الله.
رابعًا: قضية انعكاس الموازين. إنهما تكشفان كيف أن الإنسان قد يصل به الحال إلى أن يكفر بالحق ويؤمن بالباطل، إذا أغمض عينيه عن النور. وهذا يحذرك من الغرور والتكبر، ويدفعك للتجرد في طلب الحق.
الأمر السادس: المفاهيم العملية والتربوية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع

لنستخرج من هاتين الآيتين مفاهيم عملية تبني ذواتنا ومجتمعاتنا:
أولا ً: مفهوم الاستجابة الفورية لداعي الحق. عندما تسمع داعي الله يدعوك إلى طاعة، استجب فورًا ، ولا تؤجل. علم نفسك وأبناءك أن كلمة "سأفعل غدًا" هي بداية طريق الخسران. فالذين ندموا في الآخرة كانوا يقولون في الدنيا: "غدًا نتوب، غدًا نلتزم".
ثانيًا: مفهوم التوحيد العملي. التوحيد ليس مجرد كلمة تقال، بل هو ولاء وعمل. أن يكون ولاؤك لله وحده، فلا تطيع مخلوقا في معصية الخالق. هذا المفهوم إذا عم في المجتمع، صنع أمة عزيزة لا تذل لغير الله، ولا تخضع إلا لحكمه.
ثالثًا: مفهوم الصدق مع النفس. إنهم اعترفوا بذنوبهم. والاعتراف بالذنب فضيلة عظيمة، ولكن في الدنيا. ثقافة الاعتراف بالخطأ هي أساس الإصلاح. إذا أخطأت، اعترف بخطئك، وتب منه، فهذا من شيم المؤمنين الصادقين. وهذا يبني مجتمعًا يتعلم من أخطائه ولا يكررها.
رابعًا: مفهوم الحكم لله. {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}. هذا المفهوم يبني فيك اليقين بأن العاقبة لله، وبأن حكمه هو الفصل. فلا تحزن إذا حكم الناس بغير الحق، ولا تيأس إذا رأيت الباطل منصورًا، فالحكم النهائي لله، وهو آت لا محالة.
الأمر السابع: كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

لنحول هذه المعاني إلى سلوك يومي:
أولا ً: في علاقتك مع نفسك ومع ربك. إذا راودتك نفسك بتأجيل التوبة، استحضر هذا المشهد، مشهد {فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ}. وقل لنفسك: "الآن، الآن، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم". بادر بالطاعة، واجعل الاستجابة الفورية خلقًا لك.
ثانيًا: في التعامل مع الشهوات والشبهات. إذا دعاك الشيطان إلى معصية، أو دعتك نفسك إلى شرك خفي كالرياء، تذكر أن الكافرين كانوا إذا دعي الله وحده كفروا. فكيف بك وأنت تدعي الإيمان؟ راجع نيتك ووجه إيمانك لله وحده.
ثالثًا: في تربيتك لأبنائك. لا تربهم على أن الدنيا فرصة للهو والغفلة. بل ربهم على أنها فرصة للعمل والاستجابة. قص عليهم هذا المشهد، وازرع في قلوبهم أن يوم القيامة قريب، وأن باب التوبة مفتوح الآن، فلا يضيعوه.
رابعًا: في مواجهة الابتلاءات والظلم. عندما ترى الظالمين يتجبرون في الأرض، وتحزن لعدم إنصافك، تذكر أن {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}. ثق أن الله سيفصل بين العباد، وأن حكمه آت، فيطمئن قلبك، ويذهب غيظ صدرك.
أيها المؤمن الحي، إن الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة هما صفعة يقظة لكل غافل، ونور بصيرة لكل مؤمن. إنهما تكشفان لك نهاية طريق العناد، لتختار أنت بداية طريق الاستسلام لله حبًا وطواعية. أرأيت كيف كان اعترافهم في غير أوانه؟ فاجعل اعترافك بالحق لله الآن، وأنت في زمن المهلة. أرأيت كيف كانوا يسألون الخروج فلا يجابون؟ فاهرب إلى الله الآن، تكن في أمانه. أرأيت كيف كان ذنبهم الأكبر هو الكفر بالتوحيد والإيمان بالشرك؟ فأخلص دينك لله، واجعل ولاءك له وحده. عندها، سيكون حكم الله العلي الكبير لك لا عليك، وسيكون مصيرك جنات عدن التي وعدها عباده المتقين، وستكون ممن نادتهم الملائكة بالتحية والسلام، لا بالمقت والهوان.
القسم الرابع
اولا
أيها السائر إلى الله، يا من تنفست روحك نسمات اليقين في رحاب هذه السورة المباركة، ووقفت على مصارع الغابرين، وسمعت نداء المقت على الجاحدين. لقد انتقلنا في الآيات السابقة بين مشاهد الرحمة والعذاب، بين حب الملائكة للمؤمنين ودعائهم لهم، وبين مقت الله للكافرين واعترافهم المتأخر. والآن، وبعد أن أغلق ملف أولئك الذين كانت جريمتهم الكبرى أنهم إذا دعي الله وحده كفروا، يفتح الحق سبحانه أمامك صفحة النور، ويدعوك إلى رحلة معرفة وإيمان، ويذكرك بآياته المبثوثة في الآفاق وفي نفسك. يقول جل جلاله:
{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: 13-14]

لا تقرأ هاتين الآيتين كإخبار عابر، بل استقبلهما كدعوة شخصية من الله لك. إنهما يخاطبان فطرتك التي طالما حجبها الغبار، ويوقظان فيك أسئلة الإيمان الأولى: من أنا؟ ومن خلقني؟ ومن يرزقني؟ إنهما يمدان إليك حبلين عظيمين للوصول إلى الله: حبل آياته المرئية التي تراها عيناك، وحبل آياته المسموعة التي تتلوها شفتاك. فهيا بنا نقف بخشوع أمام هذين الطريقين، لنفهم كيف ننتفع بهما، وكيف نكون من المنيبين الشاكرين، لا من الغافلين الجاحدين.

المقدمة: الانتقال من مشهد العدل إلى مشهد النعمة

لقد ختم الله الآية الثانية عشرة بقوله: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}. هذا الختام كان بمثابة إعلان سيادة مطلقة، وقدرة شاملة، وعظمة لا يدانيها شيء. وهنا، بعد أن استقر في قلبك أن الله هو العلي الكبير، يأتي البيان: كيف نعرف أنه العلي الكبير؟ كيف نصل إلى هذه المعرفة؟ إن الانتقال هنا بديع؛ فبعد أن ذكر سبحانه حال الكافرين الذين أعرضوا عن آياته، يلتفت إلى عباده المؤمنين، وإلى كل البشر، ويذكرهم بأنه لم يخلقهم هملا ً، ولم يتركهم بلا دليل. إنه يريك آياته في كل ما حولك، وينزل عليك رزقه من فوقك. فبعد أن كان الحديث عن الذين كفروا بـالله وحده، يأتي الحديث عن الطريق الصحيح للإيمان بـالله وحده. يريد الله منا أن ننتقل من الخوف من مقته، إلى الرجاء في رحمته، من خلال معرفته حق المعرفة.

أهداف ومقاصد ودلالات الآيتين الكريمتين

تهدف هاتان الآيتان إلى تذكير الإنسان بطريقي المعرفة بـالله، وهما آياته المرئية في الكون، وآياته المسموعة وهي الوحي والرزق المنزل من السماء. وتبينان أن العبرة ليست بمجرد رؤية الآيات، بل بـ التذكر والإنابة والشكر. كما تهدفان إلى ترسيخ عقيدة التوحيد الخالص، والأمر بإخلاص الدين لله وحده في الدعاء والعبادة، دون التفات إلى كراهية الكافرين أو معارضتهم. والمقصد الأعظم هو إخراج الإنسان من غفلته، ورده إلى فطرته، ليكون من الشاكرين المنيبين. ودلالات الآيتين عظيمة؛ فهما تكشفان عن رحمة الله الواسعة، حيث جعل أدلة معرفته في متناول كل إنسان، فكل البشر يرون السماوات والأرض والجبال، وكلهم يأكلون من رزق الله، لكن المنتفعين هم فقط أولئك الذين يتذكرون وينيبون. وفيهما دعوة صريحة لتحرير العقل من أوهام الشرك، وتوجيه القلب إلى الله وحده.
الأمر الأول: الآيات المرئية - كتاب الكون المفتوح وإثبات الألوهية

انظر حولك. ماذا ترى؟ {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ}. إنها جملة جامعة، تخاطب كل إنسان، في كل زمان ومكان. الله هو الذي يريك، أيها الإنسان، آياته ودلائله. ليست محجوبة عنك، بل هي في متناول عينيك، مبثوثة في كل ما تراه. ما هي هذه الآيات المرئية؟ إنها السماوات المرفوعة بغير عمد، والأ رض المبسوطة، والجبال الشامخات الراسيات، والشمس والقمر والنجوم المسخرات، والليل والنهار، واخت لاف الألسنة والألوان، وفي أنفسنا، في خلقنا من نطفة ثم تطورنا في الأرحام. كل هذه المخلوقات هي آيات، أي علامات وبراهين دالة على عظيم صنع الله وإبداعه. ولا تجد بشرين يختلفان في أن لهذا الكون خالقًا، فهي آيات مشهودة متفق عليها. فقوله: {يُرِيكُمْ} هو فعل مستمر؛ فـالله يريك هذه الآ يات كل يوم، في كل لحظة، ولكن كم منا من يراها بعين البصيرة لا بعين البصر فقط؟

وتأمل كيف أن هذه الآيات ترتبط بخاتمة الآية السابقة: {الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}. فمن يرى السماوات والأرض و الجبال، يعلم يقينًا أن خالقها هو العلي، صاحب الاستعلاء المطلق، الذي ليس فوقه شيء. ومن يتأمل في عظمة هذه المخلوقات، يعلم أن مبدعها هو الكبير، العظيم الذي لا شيء أعظم منه. هكذا تتضافر الأدلة؛ فالكون كله ينطق بلسان حاله: {سُبْحَانَ اللَّهِ}، ويشهد بأن الله هو العلي الكبير. فهذه الآيات الكونية هي لغة يفهمها كل إنسان، وهي أصل في فطرته، تذكره بما هو مركوز فيه من معرفة الله.
الأمر الثاني: الآيات المسموعة والرزق المنزل - دليل العناية والرحمة

ثم يضيف الله إلى الآيات المرئية آية أخرى، لا تقل عنها عظمة: {وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}. ما هو هذا الرزق؟ إنه المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها، فتخرج الثمرات والأقوات. ولكنه ليس المطر فقط ، بل هو كل ما ينزله الله من السماء من خير وبركة ورحمة وهدى. إنزال الرزق هو آية مزدوجة: فهو آية مرئية، ترى فيها الماء ينزل من الغمام بأمر الله، وهو آية مسموعة، لأن الله أنزل مع الرزق المادي رزقًا روحيًا وعقليًا، وهو الوحي والقرآن. فالقرآن رزق للقلوب، كما أن المطر رزق للأبدان. والرزق المنزل من السماء دليل على أن الله لا يكتفي بخلقك، بل يرعاك، فهو المنعم المتفضل. وهذه الآية تخاطب فطرتك أيضًا، فكل مولود يولد على الفطرة، يعلم في قرارة نفسه أن هناك ربًا يعطيه ويمنعه،

يرزقه ويكلؤه. هذه المعرفة الفطرية، والتوحيد الفطري، والإقرار الفطري، هو الأساس الذي يقوم عليه التكليف.

ولكن، انظر إلى قوله: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}. ما معنى هذا؟ كل الناس يرون الآيات المرئية، وكل الناس يأكلون الرزق المنزل، لكن لا ينتفع بهذه الآيات إلا "المُنيب". من هو المنيب؟ هو الذي يرجع إلى الله بقلبه، ويقبل عليه. هو الذي يتذكر العهد الأول، عهد "ألست بربكم"، فينيب إلى ربه. أما المعرض الغافل، فتمر عليه هذه الآيات مرور الكرام، فيراها ولا يتبصر بها، ويأكل الرزق ولا يشكر المنعم. هنا يكمن الفرق بين البشر؛ فالآيات موجودة للجميع، لكن المنتفعين بها هم المنيبون وحدهم، الذين استجابوا لداعي الفطرة، وفتحوا أعين بصيرتهم، فرأوا في كل ذرة من الكون آية تدل على الخالق، وفي كل لقمة من الرزق آية تدل على المنعم. فمن لم ينتفع، كان جاهلا ً بها، لم يتفكر، ولم توقظه فطرته، فعاش في غفلة قاتلة، وهو لا يشعر.
الأمر الثالث: أركان الشكر الثلاثة - كيف تكون من المنيبين الشاكرين؟

الآن، السؤال العملي: كيف تكون من المنيبين الشاكرين الذين ينتفعون بالآيات؟ ما هو واجبك تجاه هذه النعم؟ لقد ذكر المفسرون أن الشكر يقوم على ثلاثة أركان، وهي بمثابة خريطة عملية لحياتك:

الركن الأول: الاقرار بأن النعمة من عند الله.
هذا هو أساس الشكر. أن تعترف بقلبك ولسانك أن كل نعمة أنت فيها، من صحة ومال وولد وعلم وهداية، هي من الله وحده، ولم تكن لتصل إليها بقوتك وحدك. وهنا تدخل مسألة الدعاء؛ فإذا أيقنت أن النعمة من الله، فلن تسأل إلا الله. فدعاء المسألة والطلب لا يتوجه إلا إلى الله وحده. وهذا هو مقتضى الإيمان بأن النعم منه. فإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بـالله. وهذا الإقرار يطهر قلبك من التعلق بالأسباب والشفعاء، ويجعل تعلقك بـالله وحده.

الركن الثاني: نسبة النعمة إلى المنعم وحده.
هذا هو الركن الذي يكشف صدقك. كثير من الناس يعترف بأن النعمة من الله، لكنه عند النجاح أو الغنى يقول: "إنما أوتيته على علم عندي"، أو ينسب الربح إلى ذكائه وتجاربه، أو ينسب الشفاء إلى الطبيب والدواء، وينسى المسبب الحقيقي. إن نسبة النعمة إلى نفسك أو إلى الأسباب هو جحود خفي. أما المنيب الشاكر، فيقول: الله هو الذي جعل الربح، وهيأ الأسباب، ووفقني لبذل الجهد والا ستعداد. الذكاء من الله، والتوفيق من الله، والصحة من الله. إنه يرى يد الله في كل شيء، ويرد كل فضل إلى صاحب الفضل. هذا الركن يحررك من "الأنا" المتضخمة، ومن عقدة الكمال، ويجعلك متواضعًا، عالمًا أنك فقير إلى الله مهما أوتيت.

الركن الثالث: صرف النعمة فيما يحب الله ويرضاه.
وهذا هو ثمرة الشكر. فمن ادعى الشكر، ثم استعمل نعم الله في معصيته، فهو كافر بالنعمة، جاحد لها. أن تستعمل صحتك في طاعة الله، ومالك في الحلال والإنفاق، وعلمك في نفع الخلق، ولسانك في الذكر والنصح. هذا هو شكر النعمة حقًا. أما من عرف النعمة، وعرف المنعم، وأقر بها، ولكنه لم يخضع له، ولم يحبه، ولم يصرفها في مرضاته، فهو لم يشكر الله بعد. إنه كمن يتلقى هدية من ملك، فيشكره بلسانه، ثم يمزقها! لا يكون شاكرًا حتى يحافظ عليها ويستخدمها فيما يرضي المعطي.

انظر إلى حال الناس مع هذه الأركان: الغافل الجاهل لا يعرف النعمة أصلا ً، فهو لا يرى إلا نفسه وجهده. ومن يعرف النعمة ولا يعرف المنعم، لن يشكره، بل يشكر الظروف أو الحظ. ومن يعرف النعمة والمنعم ويقر بها، لكنه لا يخضع ولا يحب، فهو مقصر. أما الشاكر الكامل، فهو ذلك المنيب الذي عرف النعمة، وعرف المنعم، وأقر بها، وأحب المنعم، وخضع له، وصرف النعمة في محابه ومراضيه. فأي الأربعة أنت؟ وأيهم تريد أن تكون؟
الأمر الرابع: دواء الغفلة ووصفة الرحمن - تدبر الكتابين المسطور والمنظور

الآية الكريمة تضع أمامك وصفة شاملة للخروج من دائرة الغفلة إلى رحاب اليقين. إن الجهل الذي يغطي الفطرة، والغفلة التي تصيب القلب، لا شفاء لها إلا بوصفة الرحمن. وما هذه الوصفة؟ إنها تدبر آياته المسموعة (القرآن والسنة)، والنظر في آياته المرئية (الكون ونعم الله). هذان هما العلاجان الناجعان. فإذا وجدت قلبك قاسيًا، وغفلتك مسيطرة، فداو نفسك بهاتين:

الأولى: أن تتدبر القرآن وتقرأ السنة، فتلك آيات مسموعة توقظ الفكر، وتشرح الصدر، وترقق القلب، وتذكرك بـالله والدار الآخرة.

والثانية: أن تنظر في الكون، في السماوات والأرض والجبال والشجر والدواب، وفي نعم الله عليك، فهي آيات مرئية تذكر فطرتك، وتجعلك ترى عظمة الخالق، فتلين لك القلوب.

والطبيب الذي يعالج بهذه الوصفة هو "العالم الرباني". إنه ذاك الذي عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعرف دينه وأمره ونهيه، وعرف يوم الميعاد وجزاءه. فهذه أقسام العلم ثلاثة، لا رابع لها. وهذا العلم هو الذي يورث البصيرة، ويدفع إلى العمل. فالآية تدعوك ألا تكتفي برؤية الآيات، بل أن تنتقل من الرؤية إلى التذكر، ومن التذكر إلى الإنابة، ومن الإنابة إلى الشكر، ومن الشكر إلى العمل الصالح. وهذا هو طريق الهداية المستقيم.
الأمر الخامس: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} - إعلان التوحيد وتحدي الباطل

بعد هذا التذكير بالآيات، يأتي الأمر الإلهي الصريح: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}. "الفاء" هنا للتفريع، أي أنه بعد أن رأيتم الآيات وعرفتم أن الله هو الخالق الرازق، فالنتيجة الطبيعية هي: أخلصوا له العبادة والدعاء. و"ادعوا" تشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة. فأنت تدعوه تعبدًا وتذللا ً، وتدعوه طلبًا وسؤالا ً. ولا تطلب إلا منه، ولا تعبد إلا إياه، لأن الآيات والرزق منه وحده. فكما أنه وحده الذي يريكم الآيات وينزل الرزق، فهو وحده المستحق للعبادة والدعاء. والإخلاص يعني أن تجرد قصدك لله، وتنقيه من شوائب الشرك والرياء. أن يكون الله وحده هو مقصودك في كل صلاتك، وذكرك، ودعائك، وطلبك، ورجائك، وخوفك. لا تجعل له ندًا ولا شريكًا. فإن فعلت ذلك، كنت قد وافقت فطرتك، واستجبت لربك.

ثم يختم سبحانه بقوله: {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. هذه العبارة تحمل في طياتها القوة والعزة والثبات. فأنت عندما تخلص الدين لله، ستواجه كراهية الكافرين الذين يكرهون الحق، والذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم. ولكن الله يأمرك ألا تبالي بهم، ولا تعمل لهم اعتبارًا في هذه المسألة. لا مهادنة في التوحيد، ولا تنازل عن الإخلاص. إن الكافرين يكرهون أن تعبد الله وحده، ويكرهون أن تطلب منه وحده، ويكرهون أن تنسى آلهتهم الباطلة. ولكنك ماض في طريقك، مخلصًا، موحدًا، معلنًا ولاءك لله، وبراءك من الشرك وأهله. وهذا الموقف هو الذي يرغم أنوف الكافرين، ويثبت قلبك، ويجعلك من حزب الله المفلحين.
الأمر السادس: المفاهيم العملية والتربوية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لنستخلص من هاتين الآيتين مفاهيم عملية تبني الذات والمجتمع:

أولا ً: مفهوم القراءة المزدوجة للوجود. أن يتعلم الإنسان قراءة كتابين: كتاب الكون المسطور في الآ فاق، وكتاب الوحي المسطور في الصحف. هذه القراءة المزدوجة تجعل المؤمن دائم الصلة بالله، يرى آياته في كل مكان، فيزداد إيمانًا. هذا المفهوم يبني عقلية علمية إيمانية، تنظر إلى الكون على أنه مسرح لعظمة الله، لا مجرد مادة صماء.

ثانيًا: مفهوم الإنابة والتذكر. أن يكون الإنسان في حالة يقظة دائمة، لا يمر على مشهد كوني أو نعمة إلا وتذكر الله. هذا المفهوم يبني شخصية يقظة واعية، لا تعيش في غفلة، بل تستثمر كل لحظة في تقوية صلتها بربها.

ثالثًا: تربية الضمير بالشكر. الأركان الثلاثة للشكر هي دستور أخلاقي وعملي يبني ضميرًا حيًا. أن تقر بالنعمة، وتنسبها لله، وتصرفها في طاعته. هذا يبني إنسانًا متواضعًا، أمينًا، غير مغتر بنفسه، سخيًا في بذل الخير. مجتمع يسوده الشكر هو مجتمع لا يعرف الحسد ولا الطغيان.

رابعًا: مفهوم إخلاص الدين لله. أن يكون الله وحده هو محور حياتك. هذا المفهوم إذا تبناه المجتمع، صنع أمة عزيزة لا تخضع لغير الله، ولا تذل لمخلوق، ولا تساوم على ثوابتها. إنها أمة {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، تملك صلابة الموقف ووضوح الرؤية.

خامسًا: مفهوم العلم النافع. التقسيم الثلاثي للعلم (معرفة الله، معرفة دينه، معرفة اليوم الآخر) يوجه التعليم توجيهًا ربانيًا. فيبني حضارة تقوم على أسس راسخة، لا تتخبط بين الفلسفات المادية، لأنها تعرف من أين جاءت، ولماذا تعيش، وإلى أين تصير.
الأمر السابع: كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه المعاني واقعًا حيًا في حياتنا اليومية:

أولا ً: في لحظات التأمل اليومي. خصص وقتًا تتأمل فيه في خلق الله. انظر إلى السماء، إلى النجوم، إلى النبات، إلى طعامك. قل بقلبك: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ}. استشعر أن كل شيء حولك هو آية من الله لك. هذا التأمل يملأ قلبك إيمانًا وسكينة.

ثانيًا: في وجبات طعامك. قبل أن تأكل، تذكر أن هذا الرزق منزل من عند الله: {وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}. قل: بسم الله، وكل بيمينك، واشكر الله بعدها: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة. طبق أركان الشكر الثلاثة في كل لقمة.

ثالثًا: في نسب النجاحات. عندما تنجح في أمر، أو تحصل على ترقية، أو تكسب مالا ً، إياك أن تنسب ذلك لنفسك. درب لسانك أن يقول: "هذا من فضل ربي". هذه العادة تطهر قلبك من الكبر، وتجعلك دائم الصلة بالله.

رابعًا: في التعامل مع الضغوط الاجتماعية. قد يسخر منك البعض بسبب تمسكك بدينك وإخلاصك لله. تذكر قوله: {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. هذا هو درعك الواقي. لا تتنازل عن مبادئك، ولا تهادن في دينك. كن قويًا، ثابتًا، وأعلن إخلاصك لله، ولا يضرك كيدهم.

أيها المؤمن الحي، لقد فتح الله لك بهاتين الآيتين نافذة على عظمته. لقد جعل لك الكون كتابًا مفتوحًا، تتصفحه في كل لحظة، وجعل لك الوحي نورًا وهدى. فاخرج الآن من غفلتك، وانظر حولك بعين البصيرة. كن من المنيبين الشاكرين، الذين عرفوا النعمة، فنسبوها لصاحبها، وصرفوها في طاعته. وأخلص لله دينك، ولا تبالي بكراهية الكافرين. عندها، ستكون من أهل الله وخاصته، الذين يرون آياته في كل شيء، ويشكرونه على كل نعمة، فيزيدهم من فضله، ويورثهم جنات النعيم.

ثانيا

أيها السائر إلى الله، يا من تفيأت ظلال هذه السورة المباركة آية آية، واغترفت من بحار معانيها. لقد رأيتَ آيات الله المبثوثة في الآفاق، ودُعيت إلى إخلاص الدين له وحده. والآن، هلمّ بقلبك وعقلك وروحك لنقف معًا على آيتين جديدتين، كأنهما بابان عظيمان يُفتحان على مصراعيهما، لترى عظمة الله ومقامه الأعلى، ولتفهم سر اصطفائه لرسله، ولتستعد ليوم تتجلى فيه الحقائق، وتكشف فيه الأستار. من قبلُ، رأيتَ آياته المرئية والمسموعة، ودُعيت إلى إخلاص الدين. والآن، تأتي الآيتان لتخبراك عن مصدر هذا الدين ومنزله، وعن اليوم الذي تُختبر فيه ثمرة الإخلاص.

}رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ] {غافر:15 -[16

لا تقرأ هاتين الآيتين كإخبار مجرد، بل استقبلهما وكأنهما خطاب من العلي الكبير إليك مباشرة. إنهما يغرسان في نفسك القوة والثبات، ويطهران قلبك من الحسد والاعتراض، ويعدانك ليوم يُكشف فيه كل غطاء، يوم لا ينفع فيه إلا العمل الصالح.

المقدمة: من رحمة الآيات إلى هيبة الإلقاء والإنذار

لقد أراك الحق في الآيات السابقة أنه هو الذي يريك آياته وينزل رزقك، ودعاك إلى إخلاص الدين له. والآن، وبعد أن عرفت أن الرزق بيده، يخبرك كيف تنزل رزق الأرواح والعقول، وهو الوحي. إنه يرتفع بك من مشهد الآيات الكونية إلى مشهد الملأ الأعلى، حيث يُلقى الروح من أمره. الانتقال هنا يجعلك تشعر بهيبة المصدر، بعظمة من بيده الأمر، ليزداد يقينك، وتستسلم نفسك استسلامًا كاملا ً لاختياره وحكمه. بعد أن أمرك بالإخلاص، يبين لك أن هذا الدين الذي دُعيت إليه ليس فكرة بشر، بل هو روح ووحي منزل ممن هو رفيع الدرجات، ذو العرش. فمصدر الرسالة يضفي عليها من الهيبة والجلال ما يملأ قلبك طمأنينة وثباتًا.

أهداف ومقاصد ودلالات الآيتين الكريمتين

تهدف هاتان الآيتان إلى ترسيخ تعظيم الله في النفوس، من خلال وَصْفِه بأنه رفيع الدرجات ذو العرش. وإلى بيان مصدر الوحي وغايته، حيث يُلقي الروح على من يشاء من عباده لينذروا بيوم عظيم هو يوم التلاق. كما تهدفان إلى تطهير النفس من داء الحسد والاعتراض على اختيار الله لرسله ، وإلى تقوية قلب المؤمن ليكون ثابتًا لا يخاف البشر. المقصد الأعظم هو الإعداد لذلك اليوم، يوم البروز، حيث يذوب كل ملك وتنكشف كل حقائق، وترجع الأمور كلها لله الواحد القهار. دلالات الآيتين تفيض بالعظمة والرهبة والأمل معًا، فهما ترسمان صورة متكاملة عن قدرة الله وعظمته وعن عدله في

ذلك اليوم المشهود.
الأمر الأول: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} – استحضار العظمة المطلقة وبناء القوة النفسية

قف بخشوع عند هذا الوصف الإلهي. لم يقل سبحانه: "العلي ذو العرش" فقط، بل قال: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ}. إنها صيغة مبالغة تفيد العلو المطلق. الدرجات هي المراتب والمقامات العالية، ورفعتها فوق كل شيء. إنه سبحانه رفيع الذات، رفيع الصفات، رفيع القهر، رفيع القدر. لا داني لرفعته، ولا مقابل لعظمته. وفي هذا الوصف تأكيد على أنه سبحانه فوق خلقه بذاته، قدرُه فوق كل قدر، ومقامه فوق كل مقام.

ثم يقرن هذا الوصف بقوله: {ذُو الْعَرْشِ}. والعرش هو أعظم المخلوقات على الإطلاق، وهو سقف الكون كله. والله سبحانه هو صاحب العرش ومالكه، الذي استوى عليه استواءً يليق بجلاله. فالذي يملك أعظم المخلوقات، كيف لا يكون هو العلي الكبير؟ وكيف لا يكون وحده المستحق للعبادة؟ لقد صدرت هذه الآية بهذين الوصفين ليبني في نفسك هيبة لا توصف، ليس كالخوف من مخلوق، بل هيبة ممزوجة بحب وإجلال. إنه يعلمك كيف تنظر إلى هذا الإله العظيم قبل أن تستمع إلى أمره. إنه يريد منك أن تستشعر ضآلتك وضآلة كل قوى الأرض، لأن ربك هو رفيع الدرجات، فوق خلقه جميعًا، وعرشه العظيم هو سقف المخلوقات.

والرسالة التربوية هنا عظيمة؛ هذا الاستحضار يبني في نفسك القوة والشجاعة. فعندما تستقر في قلبك حقيقة أن من يقف بجانبك هو رفيع الدرجات ذو العرش، وأنه أعلى وأكبر من كل مخلوق، فلماذا تخاف من بشر ضعيف؟ لماذا ترهب تهديدات المخلوقين؟ إن المؤمن عندما يستحضر هذه المعاني، تتضاءل في عينه قوى الطغاة، وينظر إليهم على أنهم مجرد مخلوقات ضئيلة، مجردين من تلك الصفات، لا يملكون لنفسهم نفعًا ولا ضرًا. أنت تملك الولي الأعظم، والكافرون ليس لهم من دونه ولي. هذه الصفات الربانية تغرس في النفس الشجاعة، وتجعل صاحبها يثبت على الحق، خاصّة أن السورة مكية، وقد نزلت في مرحلة اضطهاد وتهديدات. إنها رسالة ثبات لكل داعية ولكل مؤمن: املأ قلبك بعظمة الله قبل أن تدخل معركة الحق والباطل، فلا تعد تهاب البشر مهما بلغت قوتهم.
الأمر الثاني: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} – استئصال الحسد والخضوع لمشيئة الله

ثم يأتي الفعل الإلهي المباشر: {يُلْقِي الرُّوحَ}. ما هو الروح؟ هو الوحي، هو كلام الله الذي به حياة القلوب والأرواح. وقد سماه روحًا لأن القلوب تحيا به بعد موتها، كما تحيا الأبدان بالأرواح. إنه رزق ا لأرواح، الذي ينزل من عند من بيده الرزق كله. وهو من أمر الله الكوني والشرعي.

لكن، تأمل في قوله: {عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}. هنا يتجلى اختيار الله المطلق. إنها إجابة على اعتراض المشركين الذي حكاه القرآن عنهم: {لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}. لقد كانوا يحتقرون اختيار الله لنبيه محمد ﷺ، ويعترضون على اصطفائه، قياسًا بمعاييرهم المادية. والآية هنا تعلن القاعدة العظيمة: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}. لقد اختار الله لرسالته من يعلم أنه أهل لها، واصطفى من الملائكة رسلا ً ومن الناس. فالمسلم الحق عليه أن يتخلص من الحسد، وألا يعارض إرادة الله في اختياره لمن يشاء. إنه سبحانه الملك، له الملك كله، يختار من يشاء، فلا مساحة للا عتراض أو التسخط.

وهذا الاستسلام لاختيار الله هو من صميم العبودية، وهو الذي يريح قلبك، ويملؤه سكينة ورضاً. ومتى طُبّق هذا المفهوم في المجتمع، استؤصل مرض الحسد، الذي هو من أول ذنب عُصي الله به في السماء، عندما رفض إبليس السجود لآدم، معترضًا على اختيار الله. فالاعتراض على قدر الله واختياره هو سلوك شيطاني، والعلاج هو الاستسلام لله.

والآية تبين أن مهمة هذا الرسول هي {لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}. فالغاية من إلقاء الروح هي رحمة الله بـ العباد، لإنذارهم قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم الأكبر. ومهمة الرسول هي البلاغ والإنذار، وليس إكراه الناس على الإيمان. وهذه تربية للداعية: أنت لست مسؤولا ً عن قلوب الناس، بل عن إنذارهم. وهذا يريح نفسك من عنت المحاولة لإكراههم على الهدى.
الأمر الثالث: مشهد {يَوْمَ التَّلَاقِ} و {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ} – الرهبة والانكشاف المطلق

ثم ينقلك من مشهد إلقاء الوحي إلى غايته، وهي الإنذار بذلك اليوم المهيب. إنه يسمى {يَوْمُ التَّلَاقِ}. وما أبلغ هذا الاسم! تتلاقى فيه كل الخلائق، الأولون والآخرون. يلتقي الظالم والمظلوم، القاتل و المقتول، الرسول والمكذب. تلتقي كل نفس بما عملت. وتلتقي الخلائق كلها بخالقها. ويلتقي أهل السماء وأهل الأرض.

ثم يزيد الوصف هيبة وتفصيلا ً: {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ}. إنه وصف للبروز التام. في الدنيا، قد يستتر الإ نسان بالجدران، أو بالليل، أو بالأقنعة الاجتماعية. أما في ذلك اليوم، فهم بارزون، ظاهرون، مكشوفون، لا غطاء لهم ولا ساتر يسترهم. لا جبل يخفيهم، ولا حجر يسترهم، ولا ظلام يدثرهم. إنهم في فضاء مكشوف لله، عارون عن كل ما كانوا يتسترون به. {لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ}. هذه الجملة تخاطب ضميرك الآن. فالذي سيكون بارزًا يوم القيامة، هو نفسه الذي يراه الله الآن في كل حالاته. فاستحضار هذا اليوم يجعلك تستحي من الله في الخلوات، ويدفعك إلى مراقبته في كل عمل، فيورثك خوفًا محمودًا وحياءً من المعاصي.

ثم يأتي النداء الإلهي المهيب، في لحظة هيمنة وصمت، بعد أن قضى الله بين العباد: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}. إنه سؤال تقريري، يُسأل فيه الخلائق، فلا يجيبه أحد. فيجيب الله بنفسه: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}. في ذلك اليوم، تتجلى الحقيقة التي طالما غفل عنها الناس. لقد كان المتكبرون في الدنيا يظنون أن لهم ملكًا وسلطانًا، فإذا بهم في ذلك اليوم صفر اليدين. الملك كله لله وحده. ووصفه بـ "الواحد" يؤكد توحده في الألوهية والملك، فلا شريك له. ووصفه بـ "القهار" يؤكد أنه يقهر كل جبار، ويغلب كل ظالم، ويدين له كل عنق. وهذا هو الفصل النهائي للمعركة التي تحدثت عنها السورة كلها. هذا هو العدل المطلق الذي ينتظره المؤمنون، والهلاك الذي ينتظر الكافرين.
الأمر الرابع: الأبعاد والآفاق والقضايا التي تعالجها الآيتان

تعالج الآيتان قضايا إيمانية ونفسية أساسية. أولا ً، قضية مصدر التشريع والسلطة العليا، إذ تربطان الوحي بالذات الإلهية العليا مباشرة. ثانيًا، قضية الصراع الداخلي في النفس البشرية ضد الحسد والكبر ، وتقدمان العلاج بالاستسلام لاختيار الله. ثالثًا، قضية الخوف من البشر، وتقدمان العلاج باستحضار عظمة رب البشر. رابعًا، قضية الغفلة عن الآخرة، عبر تفصيل أهوال يوم التلاق والبروز. وأفق هذه المعاني يتسع ليشمل بناء شخصية مسلمة متوازنة، تجمع بين القوة بالله والتواضع للخلق، وبين الخوف من الله والرجاء فيه، وبين الثبات على الحق والصبر على الأذى.

الأمر الخامس: المفاهيم العملية والتربوية ودورها في البناء الفردي والاجتماعي والحضاري

لنستلهم من هاتين الآيتين مفاهيم عملية تحيي بها نفسك، وتبني بها من حولك:

أولا ً: مفهوم القوة المستمدة من العظمة الإلهية. أنت لست ضعيفًا ما دمت مع الله. إن استحضار "رفيع الدرجات ذو العرش" يجعلك تنظر إلى البشر الضعفاء، مهما بلغت قوتهم، على أنهم مجردون من تلك الصفات، فلا تهابهم. فهذه القوة تجعل المجتمع لا يهاب الظالمين، فيقوم بواجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بثبات. هذا هو سر عزة الأمة.

ثانيًا: مفهوم الرضا باختيار الله والاصطفاء. سواء في القيادة، أو في توزيع الأرزاق والمواهب، عليك أن تتخلص من الحسد. لا تنظر إلى ما في يد غيرك، بل انظر إلى اختيار الله لك. هذا المفهوم ينشر المحبة في المجتمع، ويقضي على الصراعات الداخلية، ويجعل الأفراد يعملون بروح الفريق، لا بروح الحاسدين.

ثالثًا: مفهوم إعطاء الحياة للقلوب بالوحي. كما أن الجسد يموت بلا طعام، فالروح تموت بلا قرآن. فعلى المسلم أن يعطي الأولوية القصوى لتلقي الوحي، تدبرًا وفهمًا وعملا ً. فمجتمع يملأ قلبه بـ القرآن، هو مجتمع حي، قوي، لا تقتله الشبهات ولا الشهوات.

رابعًا: مفهوم البروز والمراقبة الدائمة. عش حياتك وكأنك ترى منظرك وأنت بارز بين يدي الله. هذا المفهوم هو خير رقيب على سلوكك، وهو الذي يمنع الفساد، ويدفع إلى الإخلاص. رجل الأعمال الذي يستحضر أنه بارز بين يدي الله، لن يغش. والمسؤول الذي يعلم أنه بارز، لن يظلم. إنه الطريق إلى مجتمع تسوده الأمانة.

خامسًا: مفهوم الملك لله وحده. هذا التحرر من أوهام الملكيات يجعلك سخيًا، لا تبخل بما في يدك. أنت تعلم أن المال مال الله، والسلطان سلطانه. فلماذا التكبر؟ ولماذا الشح؟ إنها تربية على الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة.

الأمر السادس: كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه المعاني روحًا تسري في تفاصيل حياتنا اليومية:

عندما تشعر بالخوف من تهديد، أو قلق من مستقبل، تذكر أن وليك هو {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ}. هل يمكن أن يضيعك وهو العلي الأعلى؟ استشعر عظمته، فيزول الخوف من قلبك، وتحل محله الطمأنينة.

وعندما تلمح في نفسك ذرة حسد تجاه إنسان آتاه الله علمًا أو مالا ً أو جاهاً، توقف فورًا. قل: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}. وليكن شعارك: اللهم لك الحمد على ما وهبت، وأسألك من فضلك. درب نفسك على تمني الخير للآخرين، والدعاء لهم، فالحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وعندما تسمع القرآن يُتلى، لا تسمعه كأي كلام. استشعر أنه {الرُّوحَ} الذي يلقيه الله إليك، ليحيي قلبك ، وينير دربك. اقبل عليه بشوق، وتدبر كل حرف منه، واستشعر أنك تتلقى رسالة من العلي الأعلى.

واجعل يوم {التَّلَاقِ} نصب عينيك. عندما ينسيك العمل آخرتك، تذكر قوله: {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ}. تخيل نفسك في ذلك الموقف، وتخيل أن الله يراك الآن كما سيراك هناك. فحياؤك من اطلاعه عليك يدفعك للإتقان والإخلاص. وقبل أن تنام، سائل نفسك: هل أنا مستعد للبروز على الله غدًا؟ بل كل يوم، لأن الموت قريب.

وإذا رأيت الظلم والباطل يعلو في أرض الواقع، لا تيأس. تذكر النداء المهيب: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}، وتذكر الإجابة: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}. اعلم أن هنالك يومًا تنفضح فيه الحقائق، ويذل فيه المتكبر، ويعز فيه المتواضع. انتظر ذلك اليوم، واعمل له، فهو الحق الآتي لا ريب فيه.

أيها المؤمن الحي، إن هاتين الآيتين هما عمود النور في سورة غافر. إنهما تقولان لك: ارفع رأسك، فربك رفيع الدرجات ذو العرش. واطمئن قلبك، فالوحي رحمة منه. وطهّر نفسك، فالرضا باختياره نجاة. واستعد، فإن يوم التلاق آت، ويومها لن يملك أحد شيئًا، بل الملك لله الواحد القهار. عش بهذه المعاني، تكن من الفائزين برضوان الله في الدنيا، ومن المرحومين في ذلك اليوم العظيم.

ثالثا

أيها السائر إلى الله، يا من تتبعت خطوات اليقين في رحاب هذه السورة المباركة، ووقفت على مشاهد العظمة والهيبة والإنذار. لقد رأيت في الآيات السابقة كيف أن الله هو {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ}، وكيف يُلقي الروح من أمره على من يشاء، لتنذر بيوم التلاق، ذلك اليوم الذي تبرز فيه الخلا ئق، وتكشف فيه الأستار، ويُنادى فيه: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}. بعد هذا المشهد المهيب الذي يخلع القلوب، ويذهل العقول، يأتي تمام المشهد، وتكتمل الصورة، بآية تختصر كل قواعد العدل ا لإلهي في كلمات قليلة، وتضع النقطة الأخيرة على ملف الحساب. يقول الحق جل في علاه، وهو أصدق القائلين:

}الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ] {غافر:17]

لا تقرأ هذه الآية كأنها مجرد إخبار عن حدث مستقبلي، بل استقبلها وكأنها وعد إلهي شخصي لك، وكأنها تحذير وإنذار، وكأنها طمأنة وسكينة. إنها الآية التي تجيب على كل تساؤلاتك عن عدل الله، وتريح قلبك من همّ الظلم الذي تراه في الدنيا، وتجعل الميزان نصب عينيك في كل عمل تعمله. فهيا بنا نقف بخشوع أمام هذه الآية الجامعة، لنستخرج منها كنوز اليقين، وندرك معنى العدالة المطلقة، ونعد أنفسنا ليوم الحساب الخفيف.

المقدمة: من مشهد البروز إلى مشهد الجزاء – تتويج رحلة الإنذار

بعد أن ذكر الحق سبحانه أنه يلقي الروح على من يشاء من عباده لينذر بيوم التلاق، وبعد أن وصف ذلك اليوم بأنهم فيه بارزون، لا يخفى على الله منهم شيء، وأن الملك فيه لله الواحد القهار، يأتي هذا الإعلان الحاسم: {الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}. إنه الانتقال من وصف هيبة الموقف إلى بيان ما يجري في ذلك الموقف، من فصل القضاء، وإقامة ميزان العدل. إنه تتويج للإنذار الذي حمله الرسل، وختام لمشهد البروز الذي ما كان ليكتمل إلا ببيان الجزاء. وكأن الآية تقول: هذا الذي أنذرتكم به الرسل، وهذا ما كنتم تكذبون به، ها هو قد وقع، وها هي ذي كل نفس تتلقى جزاءها. إن هذا الا نتقال يبني في نفس المؤمن شعورًا بالترقب والمسؤولية، ويجعل الغافل يفيق من سباته، فالأمر ليس مجرد عرض، بل حساب دقيق عادل.

أهداف ومقاصد ودلالات الآية الكريمة

تهدف هذه الآية إلى ترسيخ عقيدة العدالة الإلهية الشاملة في قلب المؤمن، وبيان أن الله يحاسب كل إنسان على عمله دون نقصان أو ظلم. وتهدف كذلك إلى تعزيز المسؤولية الفردية، حيث كل نفس

تجزى بما كسبت هي، لا بما كسبه غيرها. كما تقصد إلى إدخال الطمأنينة على قلوب المظلومين بأن حقهم لن يضيع، وإدخال الرهبة على قلوب الظالمين بأنهم لن يفلتوا. المقاصد الكلية للآية تتلخص في بناء قلب متوازن يخاف عدل الله ويرجو سرعة حسابه للمظلومين، وبناء عقل واعٍ يزن كل عمل قبل الإقدام عليه، لأنه يعلم أن هناك يومًا للجزاء.

ودلالات الآية عميقة؛ ففي افتتاحها بـ "اليوم" إشارة إلى أن ذلك اليوم هو يوم الفصل والحسم بعد طول انتظار. وفي إفراد "كل نفس" تأكيد على أن الجزاء فردي، لا تزر وازرة وزر أخرى. وفي قوله "بما كسبت" دلالة على أن الجزاء مرتبط ارتباطًا دقيقًا بالعمل، عدلا ً منه تعالى. وفي نفي الظلم نفياً مطلقاً بيان لكمال عدله. وفي الختم باسم "سريع الحساب" إشارة إلى كمال قدرته وإحاطته وإنجازه لـ لأمور بلا مشقة.

الأمر الأول: اللمسات البيانية والبلاغية وربطها بالرسائل النفسية والعقلية والتربوية

أولا ً: اللمسات البيانية والبلاغية

تأمل معي معمار هذه الآية البديع. لقد صدرت الآية بقوله: {الْيَوْمَ}، وهذا التكرار اللفظي للفظ "اليوم" الذي تكرر في قوله: {يَوْمَ التَّلَاقِ} و {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ} له وقع بياني عظيم. إنه تكرير لتوكيد أهمية ذلك الوقت، وترسيخه في الأذهان كحقيقة لا مفر منها. ثم انظر إلى قوله: {كُلُّ نَفْسٍ}؛ فالتنوين في "كل" أفاد الشمول المطلق، فلا يغادر أحد. وبناء الجملة للمجهول في {تُجْزَىٰ} فيه معنى العظمة والجلا ل والهيبة؛ فالجزاء صادر من قوة عظيمة قاهرة هي الله جل جلاله. وقوله: {بِمَا كَسَبَتْ} فيه حذف، إذ لم يقل "بما كسبت من خير أو شر"، وفي هذا الإطلاق بلاغة؛ فهو يشمل كل صغيرة وكبيرة، دقيقة وجليلة، بالغة السر والعلانية.

أما قوله: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}، فهي جملة اسمية تفيد الثبوت والتأكيد. وتقديم الخبر "لا ظلم" يفيد التوكيد ونفي الظلم بأي صورة من الصور. إنها تنفي الظلم نفيًا قاطعًا لا استثناء فيه. ثم يختم الحق سبحانه قائلا ً: {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}. انظر إلى روعة التذييل! إنها جملة تعليلية لكل ما سبق. لماذا لا ظلم اليوم؟ لأن الله سريع الحساب. وسرعة الحساب هنا كناية عن كمال علمه وقدرته، فهو لا يحتاج إلى وقت طويل للتدقيق، لأن علمه محيط بكل شيء. إنها صورة بيانية تهز الوجدان؛ فالملك العظيم لا يحتاج إلى جرد طويل، فسجلاته عنده، وعلمه نافذ في كل شيء.

ثانيًا: الرسائل النفسية والعقلية والتربوية

هذه اللمسات البلاغية تحمل في طياتها كنوزًا من الرسائل التربوية والنفسية. إنها توجه إليك، أيها المؤمن، عدة رسائل:

· الرسالة النفسية الأولى: الطمأنينة المطلقة .عندما تسمع} لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ{، يسري في نفسك برد اليقين بأن كل ما أصابك من ظلم في الدنيا، وكل ما رأيته من إفلات للظالمين، لن يمر بلا حساب .إن هذه الآية هي بلسم لقلب كل مظلوم، ودواء لجراح كل منكسر .إنها تقول لك: لا تحمل همّ القصاص، وكل أمرك لله، فإن يوم الجزاء آت، ولا ظلم فيه مثقال ذرة .هذا يحررك من الغلّ والحقد، ويملأ قلبك سكينة.
· الرسالة النفسية الثانية: الرهبة والمراقبة .وفي الوقت نفسه، تولد هذه الآية في نفس المؤمن رهبة من ذلك اليوم، فهو يعلم أن} كُلُّ نَفْسٍ {ستُجزى، وأن نفسه واحدة من هذه النفوس .هذا الشعور يجعله يراقب أعماله، ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، ويدفعه إلى التوبة والإنابة.
· الرسالة العقلية: ترسيخ مفهوم المسؤولية الفردية .إن قوله} كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ {يبني في عقلك مفهوماً مركزياً: أنت مسؤول عن عملك وحدك .لا تحمّل غيرك خطيئتك، ولا تتحمل عن غيرك .لا تنسب نجاحك لغيرك، ولا تلمْ غيرك على فشلك الكامل .هذا يبني عقلا ً ناضجاً واعياً، يتحمل مسؤولية خياراته.
· الرسالة التربوية: بناء الإرادة والضبط الذاتي .عندما تستقر هذه العقيدة في نفس الناشئ، يصبح لديه رقيب ذاتي داخلي قوي .إنه يعلم أن هناك يوماً سيُجزى فيه على كل عمل، حتى وإن أفلت من عقاب الدنيا .هذا يبني ضميراً حياً، وأخلاقاً راسخة، وإرادة صلبة على فعل الخير واجتناب الشر.

الأمر الثاني: ما الذي يريده المولى سبحانه وتعالى منا بهذه الآية؟ وما فيها من دروس حياتية وتوجيهات

بعد أن تشربت هذه المعاني، تعال نسأل بقلوبنا: ما الذي يريده الله منا بهذه الآية تحديدا؟

أولا ً: يريد منك أن تعيش العدل مع نفسك ومع الناس. إنه يريد منك أن تتخلق بصفة العدل. فكما أنه لا يظلم أحداً، فهو يأمرك بألا تظلم أحداً. أن تكون عادلا ً في حكمك، عادلا ً في كلمتك، عادلا ً في أسرتك وعملك. وإذا وليت أمراً من أمور الناس، فلتتذكر: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}، فكن إلهياً في عدلك قدر طاقتك.

ثانيًا: يريد منك أن تغرس في نفسك المسؤولية الكاملة عن أفعالك. لا تكن ممن يلقي باللوم على الظروف، أو على الوراثة، أو على المجتمع، أو على الشيطان. الآية تقول لك: {بِمَا كَسَبَتْ}. أنت صاحب الكسب، وأنت المسؤول عنه. هذه المسؤولية تجعلك جاداً في حياتك، تحسن الاختيار، وتفكر في العواقب.

ثالثًا: يريد منك أن تستعد لذلك اليوم. بما أنك علمت أن {الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ}، فالاستعداد لهذا اليوم هو قضية حياتك الكبرى. يريد منك أن تجعل كل عمل تقوم به هو لبنة في صرح نجاتك. يريد منك أن تسأل نفسك قبل كل فعل: ماذا سأجني من هذا غداً؟ إنه توجيه استراتيجي لترتيب أولويات وجودك.

الأمر الثالث: ما الذي نتعلمه من هذه الآية؟

نتعلم من هذه الآية دروساً حياتية عملية، تتحول إلى سلوك يومي:

.1تعلم الصبر على البلاء والظلم: إذا علمت أن هناك محكمة عدل عليا يوم القيامة، وأن الله سريع الحساب، فسوف تصبر على أذى الناس، ولن تحاول الانتقام لنفسك بطرق غير مشروعة، لأنك وكلت أمرك إلى العدل الإلهي.
.2تعلم عدم الاغترار بالنجاح الدنيوي المؤقت: قد ترى ظالماً ناجحاً في الدنيا، فتشعر بالحيرة .الآية تعلمك ألا تغتر، فنجاحه هذا ليس جزاءً نهائياً، بل هو استدراج، وسيأتي يوم} لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ {فيلقى حسابه.
.3تعلم الدقة والمراجعة: إذا كان الله سريع الحساب، محصيًا كل شيء، فهذا يعلمك أن تكون دقيقًا في عملك، تراجعه وتحاسِب نفسك عليه، لأنك ستُجزى على كل شاردة وواردة.
.4تعلم عظمة التوحيد: سرعة الحساب مع كثر الخلائق وتباين أعمالهم، دليل على كمال قدرة الله وإحاطته .هذا يزيد يقيننا بوحدانيته وعظمته، فيثبتنا على التوحيد الخالص.

الأمر الرابع: ما الذي تدعونا إليه الآية؟

هذه الآية ليست مجرد خبر، بل هي دعوة مفتوحة:

· إنها تدعونا إلى ثقافة الإتقان والإخلاص في العمل .عندما نوقن أننا سنُجزى على عملنا، فإننا نتقن أعمالنا ولو لم يرها بشر، إخلاصاً لله.
· إنها تدعونا إلى ثقافة العفو والتسامح .عندما نوقن أن الله سينصفنا، يخف الغل من قلوبنا، ونتسامح مع من أساء إلينا، ونفوض أمرنا إلى الله.
· إنها تدعونا إلى ثقافة المحاسبة الذاتية .أن يكون لكل منا دفتر حساب مع نفسه، يراجع فيه أفعاله قبل أن ينام .ماذا كسبت اليوم؟ ماذا ستُجزى عليه غدًا؟ هذه المحاسبة هي طريق السلامة.
· إنها تدعونا إلى ثقافة الأمل والتفاؤل .حتى لو ضاقت بنا الدنيا، وغلبنا الظالم، هناك أمل .هناك يوم سيُرفع فيه الظلم، ويُعاد فيه الحق .هذا الأمل هو زاد المؤمن في طريق الابتلاء.

الأمر الخامس: الأبعاد والآفاق والقضايا التي تعالجها الآية

تتسع آفاق هذه الآية لتعالج قضايا وجودية ومجتمعية كبرى:

· قضية العدالة المطلقة: إنها تجيب على السؤال الفلسفي القديم: أين العدالة في هذا الكون؟ جواب ا لآية: العدالة المطلقة مؤجلة ليوم الحساب، وهنالك ستوزن الأمور بميزان الحق.
· قضية الحرية والمسؤولية: الآية ترسي مفهوم أن الإنسان حر في اختياراته، وهو مسؤول عنها .وهذا يهدم الأفكار الجبرية التي تلغي دور الإنسان.
· قضية المعنى من الحياة: تجيب الآية على سؤال: لماذا نُخلق؟ ولماذا نُؤمر ونُنهى؟ الجواب: لأن هناك يوماً ستجزى فيه النفس بما كسبت، فالحياة دار عمل، والآخرة دار جزاء.
· قضية الصحة النفسية المجتمعية: الإيمان بهذه الآية يقضي على الكثير من الأمراض النفسية والا

اجتماعية، كالحسد، والغل، والرغبة في الانتقام، والإحباط من عدم الإنصاف في الدنيا.
الأمر السادس: مفاهيم عملية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لنستخلص المفاهيم العملية من هذه الآية، ودورها في بناء صروح النهضة:

.1مفهوم الجزاء الفردي: هذا المفهوم يبني مجتمعاً قائماً على الاستحقاق والجدارة .أنت تُجزى بما كسبت، لا بنسبك ولا بجاهك ولا بمالك .وهذا يدفع كل فرد إلى تطوير نفسه والارتقاء بعمله، فينهض المجتمع بأكمله.
.2مفهوم العدل المطلق: هذا المفهوم يبني ثقة مطلقة في النظام الإلهي، ويجعل الأفراد يلتزمون بـ القوانين الأخلاقية حتى في غياب الرقيب البشري .فإذا انتشر هذا المفهوم، قلت الجرائم، وسادت الأ مانة، وقوي نسيج المجتمع.
.3مفهوم سعة العلم وسرعة الإنجاز:} إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .{هذا يعلمنا أن نستثمر التكنولوجيا والعلم في تسريع إجراءات العدالة والخدمات .فـالله مع عظمة خلقه، وصف نفسه بسرعة الحساب، فنحن أولى أن نتعلم من ذلك في حياتنا العملية والإدارية، باختصار الإجراءات وتحقيق العدالة الناجزة.
الأمر السابع: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه الآية بوصلة في حياتنا اليومية المليئة بالتحديات:

· في العمل والوظيفة: عندما تشعر أن مجهودك غير مُقدّر، وأن آخرين يأخذون حقك، لا تيأس ولا تقصر في عملك .ذكر نفسك:} الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .{إن جزاء ربك خير وأبقى .فهذا الشعور يمنحك طاقة إيجابية لمواصلة العطاء.
· في التعامل مع الآخرين: قبل أن تصدر حكماً على أحد، أو تسيء الظن به، تذكر أن هناك من يحاسب .قل لنفسك: إن كنت مظلوماً، فـالله سريع الحساب .وإن كنت ظالماً، فتذكر أن الله سريع الحساب أيضاً .هذا يجعلك متوازناً، لا تظلم ولا ترضى بالظلم.
· في تربية الأبناء: علم أبناءك منذ الصغر أن الحياة ليست فوضى .ازرع فيهم عقيدة} الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ .{دعهم يفهمون أن الكلمة الطيبة أجر، والكذب عقاب، حتى لو لم يره أحد .هذا يبني فيهم رقابة ذاتية منذ نعومة أظفارهم.
· في لحظات الصراع الداخلي: عندما تزين لك نفسك معصية، وتقول لك: "افعلها، لن يراك أحد!"، دع صوت هذه الآية يجلجل في ضميرك:} إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .{في أي لحظة، سيحاسبك .استح هذا من الله، فيكون هذا الاستحياء درعك الحصين من الوقوع في الحرام.

أيها المؤمن الحي، إن الآية السابعة عشرة هي في حقيقتها "رسالة أمان" و"إعلان مسؤولية" في آن واحد. هي أمان للمظلوم بأن حقه لن يضيع، وهي إنذار للظالم بأن عذابه آت. هي حافز للعامل بأن أجره محفوظ، وهي رادع للمسيء بأن حسابه عسير. اجعل هذه الآية ميزانك الذي تزن به الأمور، وطريقك الذي تسير به إلى الله. استعد لذلك اليوم، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. واسأل نفسك في كل صباح: ماذا كسبتُ بالأمس، وكيف سأجزى به اليوم؟ عش حياتك في ظل هذه الآية، تكن في أمن من الله، وفي طمأنينة من أمرك، وفي يقين بأن العدل قادم لا محالة، وأن الله لا يخلف الميعاد.
رابعا
أيها السائر إلى الله، يا من تتبعت خطوات اليقين في رحاب هذه السورة، ووقفت على مشاهد العدل والجزاء. لقد رأيت كيف أن الله هو {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ}، وكيف أن يوم التلاق يوم عظيم. ثم سمعت الإع لان الحاسم: {الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}. هذا المشهد المهيب للعدل الإلهي يثير في نفسك سؤالا ً عميقًا: "يا رب، وكيف يكون حال الناس في ذلك اليوم؟ وما هي مشاعرهم؟ ومن ينفعهم أو يضرهم؟". من رحمة الله بك أنه لا يترك أسئلة قلبك دون جواب، بل يأخذك في رحلة تصويرية بديعة، ترى فيها المشهد كأنك تعيشه الآن، وتسمع فيه دقات القلوب وهي تصعد إلى الحناجر. يقول الحق تبارك وتعالى، وهو ينقلك إلى قلب الحدث:

}وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] {غافر:18 -[20

لا تقرأ هذه الآيات كأنها سرد لأحداث غيبية فقط، بل استقبلها وكأن مشاهدها تنبض أمام عينيك الآ ن. إنها دعوة من الله لك أن تعيش الموقف بكل كيانك، أن تشعر بالكرب وأنت في أمان، لتنتفع بهذا الشعور في حياتك قبل مماتك. إنها ليست مجرد كلمات، بل هي لوحة فنية ربانية ترسم بالحروف

مشهدًا لا يمحى من الذاكرة. فهيا بنا نغوص في أعماق هذا المشهد القرآني المهيب.
المقدمة: من الإخبار إلى المعايشة

بعد أن أسس الحق سبحانه قاعدة الجزاء العادل بقوله: {الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ}، ينتقل بك هنا انتقالة عجيبة. إنه لا يكتفي بأن تكون عالمًا بالخبر، بل يريدك أن تتحول إلى "منذر". قوله: {وَأَنذِرْهُمْ} هو أمر للنبي ﷺ، وهو في حقيقته توجيه لك أيها المؤمن: كن نذيرًا لنفسك أولا ً، ثم لمن حولك. أنذرهم ذلك اليوم، لكن ليس بأي وصف، بل بوصف خاص يجعل اليوم ماثلا ً أمام أعينهم.

ثم تأتي التسمية: {يَوْمَ الْآزِفَةِ}. ما أروعها من تسمية! "الآزفة" من الأزَف أي القرب. إنه اليوم الذي أزف وقوعه، واقترب زمانه، وصار على الأبواب. في هذه الكلمة الواحدة صفعة للمسوّفين، وهزة للغافلين، الذين يظنون أن يوم القيامة بعيد. إنها تقول لك: لا تنظروا إليه على أنه بعيد، بل انظروا إليه على أنه قريب جدًا، قريب يكاد يحضر الآن. وهذا الشعور بالقرب هو الذي يدفعك للاستعداد الفوري. هذه هي عظمة التصوير القرآني، كلمة واحدة ترسم في ذهنك خريطة زمنية كاملة، وتغير نظرتك للحياة.
أهداف ومقاصد ودلالات الآيات الكريمة

تهدف هذه الآيات الكريمة إلى نقل صورة اليوم الآخر من حيز التصور الذهني المجرد إلى حيز المعايشة الوجدانية الحية. إنها تبني في نفس المؤمن سياجًا من الخوف المحمود الذي يردعه عن الظلم والمعاصي، ويمنحه في الوقت نفسه طمأنينة بأن العدالة الإلهية قادمة لا محالة. كما تعالج قضية العلاقة بين صفات الله (العلم، السمع، البصر) وبين كمال عدله في ذلك اليوم. ودلالاتها عميقة جدًا؛ ففي تسمية اليوم بـ "الآزفة" تحذير من طول الأمل. وفي وصف القلوب أنها "لدى الحناجر" تصوير حسي مرعب لشدة الكرب، يجعل القارئ يكاد يحس بغصّة في حلقه. وفي نفي الحميم و الشفيع إعلان عن الوحدة القاتلة للظالم، التي لا ملاذ منها إلا بالعمل الصالح.
الأمر الأول: اللمسات البيانية والبلاغية – كيف ترسم الكلمات مشهد الكرب الأعظم؟

الآن، تأمل معي كيف حولت هذه الآيات المشهد الغيبي إلى لوحة فنية تتحرك أمام عينيك. السر يكمن في اللمسات البيانية والبلاغية الفريدة التي استخدمها القرآن:

أولا ً: التصوير بالكلمة المفردة (الآزفة).
الله سبحانه لم يقل فقط "يوم القيامة"، بل اختار اسمًا جديدًا للموقف: {يَوْمَ الْآزِفَةِ}. هذا الاسم مشتق من مادة "أزف" التي تدل على القرب والدنو. فأنت ما إن تسمع هذه الكلمة حتى تشعر بأن الخطر ليس بعيدًا، بل هو محدق، يكاد يقع. إنها تخلق في قلبك إحساسًا بالإلحاح والضرورة، وتقتل في نفسك التسويف. هذا الأسلوب القرآني في اختيار الأسماء للمواقف يجعلك تشعر بالمشهد قبل أن تراه، لأنه يخاطب وجدانك مباشرة.

ثانيًا: رسم الحركة الداخلية للجسد (القلوب لدى الحناجر).
هنا تصل البلاغة القرآنية إلى ذروتها. في الحالة الطبيعية، القلب مستقر في الصدر، مطمئن. أما في هذا اليوم، ومن شدة الفزع والكرب، يرتفع القلب من مكانه حتى يصل إلى الحنجرة، وكأنه يريد أن يخرج من الجسد! إنها صورة حسية محضة لشيء نفسي غيبي. إنه يجعل "الخوف" شيئًا ماديًا تراه، كتلة تتحرك إلى الأعلى. يكاد الواحد منا أن يضع يده على حنجرته وهو يقرأ هذه الآية، ويتخيل كيف يكون الحال. هذا هو الإعجاز البياني؛ إنه لا يخبرك عن الخوف، بل يريك إياه.

ثالثًا: وصف الحالة النفسية المصاحبة (كاظمين).
كلمة {كَاظِمِينَ} هي حال منصوبة، والكظم هو الامتلاء بالغيظ والحزن والكرب مع حبسه في النفس ومنعه من الخروج. هؤلاء ممتلئون من الداخل بالرعب والندم، لكنهم لا يستطيعون البكاء، ولا الصراخ، ولا التعبير. إنهم مكتومون على أنفسهم. هذا العذاب النفسي الصامت يضاعف من عذابهم. فلم يعد العذاب مجرد مشهد خارجي، بل صار ألمًا مكتومًا في الدواخل. إنه تمام الصورة: قلب يصعد إلى الحنجرة، ونفس مكتومة لا تفرّج عن أحزانها.

رابعًا: تقطيع الأوصال الاجتماعية (ما للظالمين من حميم ولا شفيع).
بعد أن صور المشهد الفردي الداخلي، ينتقل إلى المشهد الاجتماعي الخارجي. {حَمِيمٍ} هو القريب الذي يهتم لأمرك بحرارة. {شَفِيعٍ} هو الوسيط الذي يشفع لك. في ذلك اليوم، تنقطع كل الصلات. الظالم وحيد، معزول، لا يجد صديقًا يخفف عنه، ولا شفيعًا يدفع عنه. هذه الوحدة هي قمة الكرب الإنساني. إنه مشهد كامل: رعب داخلي، كرب مكتوم، وعزلة قاتلة. كل هذا بني في آية واحدة!
الأمر الثاني: الرسائل النفسية والعقلية والتربوية من هذه اللمسات

هذه الصورة المرسومة بهذا الإبداع ليست للتسلية، بل تحمل في طياتها رسائل عميقة موجعة ومفيدة في آن واحد:

· الرسالة النفسية: استثارة الخوف النافع .هذا المشهد مصمم ليوقظ في نفسك خوفًا محمودًا .الخوف هنا ليس سلبياً يؤدي إلى اليأس، بل هو دافع إيجابي يجعلك تراجع حساباتك فورًا، ويسأل كل واحد نفسه: ماذا سيكون حالي هناك؟
· الرسالة العقلية: قناعة تامة بعدالة الله .عندما ترى الظالم في هذا الموقف المهين، المنعزل، المتألم، فإن عقلك يصل إلى قناعة كاملة بعدالة الله .لم يعد الأمر مجرد إيمان غيبي، بل صار صورة ذهنية ترسخ اليقين بأن الظلم عاقبته وخيمة.
· الرسالة التربوية: التدريب على الانضباط الداخلي .عندما يستقر في ذهن الناشئ أن الله "يعلم خائنة الأعين" كما سيأتي، فإنه يتربى على الانضباط الداخلي .لا يحتاج إلى رقيب خارجي، لأن ضميره الحي هو رقيبه .هذا هو أساس التربية الأخلاقية الراسخة.

الأمر الثالث: ما الذي يريده المولى سبحانه وتعالى منا بهذه الآيات؟

بعد أن عشنا هذا المشهد، تعالَ لنسأل: ما الذي يريده الله منا تحديدًا؟
أولا ً: يريدنا أن نكون منذرين. أمره {وَأَنذِرْهُمْ} ليس خاصًا بالنبي ﷺ، بل هو واجب على كل المسلمين بحسب الاستطاعة. يريد من كل واحد فينا أن يكون نذيرًا لأهله وأصدقائه وزملائه، ينقل إليهم هذا المشهد القرآني فيذكرهم باليوم الآخر.
ثانيًا: يريدنا أن نراجع علاقاتنا الاجتماعية. إذا كان "الحميم" لا ينفع في ذلك اليوم، فعلينا أن نبني ع لاقاتنا في الدنيا على أساس الإيمان والتقوى، لا على المصالح الزائلة. الصديق الحق هو الذي يكون سندًا لك في طريق الهداية.
ثالثًا: يريدنا أن نراقب خواطرنا ونوايانا. قوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} هو أمر ضمني بمراقبة النفس. يريدك أن تحاسب نفسك على النظرات الخاطفة، والهمسات التي تخفيها الصدور. فالجزاء في ذلك اليوم سيكون على "ما كسبت" القلوب قبل الجوارح.

الأمر الرابع: ما الذي نتعلمه من هذه الآيات؟ وما الذي تدعونا إليه؟

نتعلم من هذه الآيات دروسًا حياتية لا تُحصى، وكلها تدعونا إلى تغيير سلوكنا اليومي:

· تعلم المبادرة وترك التسويف} .يَوْمَ الْآزِفَةِ {تدعوك إلى ألا تقول "غدًا أفعل"، فالآزفة تعني القرب، و اليوم الذي هو قريب يستوجب عملًا عاجلا ً.
· تعلم التواضع والتخلص من الغرور .عندما ترى أن الظالمين في ذلك اليوم أذلة كاظمون، تتعلم ألا تغتر بقوتك أو جاهك أو منصبك، فالمصير واحد لو طغيت.
· تعلم أن قيمة الإنسان بإيمانه لا بعلاقاته} .مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ {تعلمك أن الشبكات الاجتماعية لا تنفع صاحبها إذا كان ظالماً .فابحث عن إيمانك.
· تعلم العفة في النظرات والصدق في النوايا} .يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ {تدعوك إلى غض البصر، وتطهير القلب من الحقد والحسد والرياء، لأن كل ذلك "ما تخفي الصدور" وسيحاسبك الله عليه.
إن هذه الآيات تدعونا إلى ثقافة "اليوم قبل الغد"، وإلى أخلاق "السر كالعلن"، وإلى عزاء "العدالة الإ لهية".

الأمر الخامس: الأبعاد والآفاق التي تعالجها الآيات

تتسع آفاق هذه الآيات لتعالج قضايا وجودية واجتماعية معاصرة:

· قضية الخوف من المستقبل المجهول: بدلا ً من الخوف المرضي من غد مجهول، توجه الآيات الخوف إلى وجهته الصحيحة) الآخرة (مما يمنح الإنسان شجاعة في الدنيا.
· قضية العدالة الاجتماعية: تؤكد أن العدالة المطلقة ليست في الدنيا الفانية، بل في محكمة الآخرة . هذا يعطي المظلومين أملًا لا ينقطع، ويجعلهم صابرين محتسبين.
· قضية الخصوصية والمراقبة: في عصر انعدمت فيه الخصوصية، تؤكد الآية أن الله هو الرقيب الأ على، وهذا يحرر الإنسان من الخوف من المراقبة البشرية، ويستبدلها برقابة إلهية تورثه طمأنينة.
· قضية انهيار العلاقات الأسرية والاجتماعية: تقدم الآية نموذج "الحميم" الذي لا ينفع، لتحذر من بناء العلاقات على أسس هشة.

الأمر السادس: مفاهيم عملية ودورها في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

لنستخرج من هذه الآيات مفاهيم عملية تبني الذات والمجتمع:

.1مفهوم "الحياة في ظل الآزفة": أن يعيش الإنسان وهو يشعر بقرب الساعة .هذا المفهوم إذا ساد في المجتمع، جعل الناس يتقنون أعمالهم، ويتسامحون في معاملاته، ويبادرون بالتوبة، مما يبني حضارة أخلاقية عظيمة .إنه سر قوة الجيل الأول، الذين عاشوا القرآن واقعًا.
.2مفهوم "التقوى الرقابية":} يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ .{بناء ضمير حي يراقب الله في الخلوات قبل الجلوات .مجتمع يقوم على هذا المفهوم، يقل فيه الفساد، وتزدهر فيه الأمانة، وتختفي الحاجة إلى أجهزة رقابية متعبة.
.3مفهوم "القضاء بالحق":} وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ .{هو دستور للقضاء والإدارة في الدولة المسلمة .العدالة المطلقة هي الهدف، وعلى المؤسسات أن تتعلم من هذه الصفة الإلهية لتكسب ثقة الناس.
.4مفهوم "العزلة الإيمانية": معرفة أن الحميم لا ينفع يوم القيامة، تحررك من التبعية العمياء لرفقاء السوء، وتجعلك تختار صحبة صالحة تعينك على طاعة الله.

الأمر السابع: كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

لنجعل هذه الآيات تنبض حياة في تفاصيل يومنا:

· في الصباح: عندما تفتح عينيك، تذكر أن} يَوْمَ الْآزِفَةِ {قريب .عاهد نفسك ألا تؤجل واجبًا، ولا تسوف توبة .عش يومك وكأنك تستعد لرحلة طيران ستقلع بعد ساعات.
· في العمل: إذا راودتك نفسك بخيانة في معاملة، أو نظرة خائنة إلى ما لا يحل، تذكر فورًا:} يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ .{صوّب نظرك، وطهر قلبك.
· في لحظات الظلم: إذا شعرت بالقهر لأنك مظلوم ولا من ينصفك، تذكر أن} اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ .{سيأتي يوم ترى فيه ظالمك} كاظِمِينَ{، فاصبر ولا تنتقم لنفسك بطرق غير مشروعة.
· في علاقاتك: لا تعتمد على "معارفك" و"واسطاتك" لتنجيك من المآزق، وتذكر أنهم} مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .{اعتمد على عملك الصالح، فهو حميمك وشفيعك.

أيها المؤمن الحي، إن هذه الآيات الثلاث هي نافذة أطلعت منها على جزء من مشهد القيامة، لا لتخاف فتُصاب باليأس، بل لتخاف فتعمل. خف من يوم تزيغ فيه الأبصار، وتصعد القلوب فيه إلى الحناجر، خوفًا يدفعك إلى مراقبة خائنة الأعين، وإلى بناء حياة قوامها الحق. عش في الدنيا وكأنك ترى ذلك اليوم، لتكون فيه من الآمنين، الذين سيقوا إلى الجنة زمرًا، برحمة الله وكرمه.

بسم الله الرحمن الرحيم
المقطع الثاني
القسم الاول
الايات (٢١-٢٢) من سورة غافر
المبحث الأول
دعني آخذ بيدك في رحلة تدبرية مع آية واحدة من كتاب الله، وكأننا لم نقرأها من قبل .سنقف على شاطئ معانيها، ونغوص في أعماقها، ونسبر أغوار مقاصدها، لنخرج من هذه الرحلة وقد تغير فينا شيء.

تخيل أنك تجلس في مجلس خاشع، وتتلى عليك هذه الآية من سورة غافر:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ

ألا تشعر معي أنها ليست مجرد خبر عن الماضي؟ بل هي خطاب مباشر لك، لقلبك، لعقلك في هذه اللحظة .إنها بوصلة حياة .فلنبدأ رحلتنا بمقدمتها، ثم نبحر في محاورها الستة بلغة حوارية تخاطب الوجدان والذهن معًا.
المقدمة: نداء السماء إلى أهل الأرض
تأمل معي كيف يفتتح الله جل جلاله هذه الآية .إنه سؤال، لكنه ليس استفهامًا عاديًا تريد به إجابة، إنه استفهام يهز كيانك ."أَوَلَمْ يَسِيرُوا" .وكأنه يقول: ألم يحن الوقت؟ ألم يبلغ بهم الغفلة والانغماس في المادة حدًا يستوجب هذا التوبيخ الإلهي الحنون؟

هذه الآية هي دعوة عالمية، تخطت حدود الزمان والمكان، لتصل إلى كل فرد وأمة وحضارة .إنها تقدم لنا منهجًا متكاملا ً للوعي والمعرفة، يبدأ بـ "السير" في الأرض، الذي هو حركة الجوارح و العقول، ويمر بـ "النظر"، الذي هو التأمل العميق والتحليل العلمي، ليصل إلى "الاعتبار"، وهو الهدف الأ سمى، أي عبور المشاهدة الحسية إلى اليقين القلبي، واستخلاص القانون الإلهي الذي يحكم التاريخ.

هدفها الأسمى أن تنتشلنا من الغفلة، أن نفيق من سكرة الاغترار بالقوة المادية، سواء كانت جيوشًا أو تكنولوجيا أو أبراجًا شاهقة، لنرى أن هنالك قانونًا لا يحابي أحدًا .إنها تريد بناء يقين في قلوبنا بأن العاقبة للمتقين، وأن الهلاك هو المصير المحتوم لأي حضارة تخلت عن وظيفتها الأخلاقية والروحية .
فلنبدأ الغوص في محاورها.
الأمر الأول:
منهجية الاعتبار) السير والنظر والقراءة (– متى تتحول الرحلة إلى يقين؟

دعنا نتوقف أولا ً عند هذه المنهجية العجيبة: السير والنظر والقراءة .إنها خريطة طريق إلهية لبناء عقلية مستنيرة.

١/ لماذا أمرنا الله بالسير بأسلوب الاستفهام التوبيخي) أَوَلَمْ يَسِيرُوا(؟
تخيل أن صديقًا عزيزًا عليك يغفل عن خطر محدق به، كيف تناديه؟ هل تقول له ببرود "انظر"؟ أم تقول له بلهفة المتفجع:"ألم تنظر بعد؟" هنا تكمن البلاغة .أسلوب الاستفهام التوبيخي ليس للتعنيف، بل لإحداث الصدمة الإيجابية .إنه سوط من نور يلهب به الله مشاعرنا الميتة، ويوقظ عقولنا الساهية . غرضه الحق هو أن يهزك من الداخل، وكأنه يقول لك: كيف ترضى لنفسك أيها الإنسان هذا الجمود وقد جعلت لك الأرض كتابًا مفتوحًا؟ إنه تنبيه إلى أن الغفلة عن سنن التاريخ جريمة حضارية.

٢/ لماذا خصّ الله "السير في الأرض" كطريق للنظر والاعتبار؟
لماذا لم يقل "أولم يقرأوا" أو "أولم يسمعوا"؟ لأن "السير في الأرض" يحول المعرفة إلى تجربة حسية ومعنوية مباشرة لا تقبل الشك .أن تقف على أطلال قوم عاد، أن ترى مساكن ثمود، أن تلمس آثار الفراعنة، هذا يجعل الخبر اليقيني عين اليقين .إنه منهج علمي تجريبي قبل أن يعرفه المنهج التجريبي الحديث بقرون؛ المعاينة على الطبيعة هي رأس البرهان .السير يجعل التاريخ حيًا يتحرك أمام ناظريك، لا مجرد كلمات في كتاب.

٣/ وهل المقصود السير المادي فقط) سياحة (أم سير القلب بالتفكير والتدبر) سياحة بالقلوب و العقول(؟
هنا السر الأعظم .دعني أهمس في أذنك: السير المادي بدون تفكر هو مجرد انتقال من مكان إلى آخر ، أشبه بسياحة الحيوانات .لكن السير المأمور به في القرآن هو رحلة متكاملة:

· سير الأبدان: للوقوف على الآثار ماثلة للعيان.
· وسير العقول: للبحث والتنقيب وسؤال علماء الآثار والتاريخ.
· وسير القلوب: وهو الأهم، وهو أن تنتقل بقلبك من مشاهدة الحجر إلى شهود قدرة الله، ومن رؤية الخراب إلى استشعار عدل الله، ومن معرفة النهاية إلى مراقبة البدايات في نفسك ومجتمعك.

كيف تستثير الآية العقول والقلوب للتفكر؟
إنها تستثير العقل بمنطق المقارنة الذي تطرحه) كانوا أشد منهم قوة(، وتستثير القلب بمنطق النهايات المأساوية) فأخذهم الله بذنوبهم .(هذا المزج بين المنطق والعاطفة هو الإعجاز! تجد عقلك يتساءل: ما السر؟ وقلبك يرتجف: ما المصير؟ وهنا تنفتح أبواب التدبر.

اللمسات البيانية والبلاغية والرسائل الفكرية:
الكلمة القرآنية هنا نسيج وحده ."سيرُوا" فعل أمر، لكنه مفتوح على الحياة كلها .و"فَيَنظُرُوا" عطفت بـ الفاء، دالة على أن النظر هو الثمرة الفورية للسير .إنها ليست مسافة زمنية، بل نتيجة حتمية .هذا البناء اللغوي يرسخ في النفس أن الرحلة الحقيقية ليست رحلة الأميال، بل رحلة البصائر التي تبدأ من أول خطوة .الرسالة التربوية هنا: كن إنسانًا متأملا ً، اجعل من كل شيء حولك مادة للتفكر، من خرائب مقهورة، إلى حضارة شامخة، لأنها كلها تحكي قصة واحدة اسمها "السنن الإلهية".

الأمر الثاني: تدبر في عبر التاريخ – لماذا نقرأ حكايات المنكسرين؟

والآن، وقد سرنا ونظرنا، ماذا يجب أن نرى؟ تجيبك الآية: "فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ" . إنها تنقلك من مجرد رؤية الأحجار إلى تدبر "العاقبة".

ماذا تعني قراءة التاريخ الشرعية للحضارات؟
إنها قراءة مختلفة تمامًا عن القراءة المادية المحضة .القراءة المادية تنظر إلى قيام الحضارات وسقوطها في إطار الصراع على الموارد والقوة فقط .أما القراءة الشرعية فهي تربط الحدث بموقف أخلاقي وكوني: الموقف من دعوة الأنبياء .إنها تجعل من) التكذيب/الإيمان (المفتاح الوحيد لتفسير النهايات .فحين ترى حضارة انهارت، فإنك لا تسأل فقط عن أسباب اقتصادية، بل تسأل: ما موقفهم من الحق؟ هل كان فيهم مصلحون؟ هل أصروا على الباطل؟

ما أهمية أن تجعل من قراءة التاريخ أداة لتقوية الإيمان؟
لأنها تحول التاريخ من قصص للتسلية إلى مختبر للقوانين الإلهية .عندما ترى أن هذا القانون) الإيمان =النجاة، الكفر والظلم = الهلاك (قد تكرر باضطراد مع عاد وثمود وفرعون، فإن إيمانك يصبح مبنياً على برهان مطرد، وليس فقط على خبر غيبي .إنه يشبه أن ترى بعينيك معادلة كيميائية تنجح في كل مرة، فتيقن بصحتها، هنا تتيقن من صدق وعد الله ووعيده، فيزداد إيمانك ويقينك.

ما العاقبة التي يطلب الله منا النظر إليها؟ ولماذا يكرر الله قصص السابقين؟
العاقبة ليست مجرد الموت، بل هو الهلاك والدمار والخزي والفضيحة .إنها نهاية تهز الكيان الجمعي، وتمحو الأثر بعد العزة .والتكرار في القرآن لهذه القصص ليس عجزًا عن الإتيان بجديد، بل هو توكيد وتذكير وترسيخ .إنه يريد أن يحفر في وجدانك أعمق نقش أن الكفر والمعصية هما السبب المباشر للدمار .يكررها حتى لا يغتر القوي بقوته، فيقول لنفسه: "أنا مختلف، أنا أقوى"، فيأتيه الرد قرآنيًا: "لقد كان من قبلكم من هم أشد منكم قوة".

اللمسات البلاغية والرسائل التربوية:
"كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ" هذا الاستفهام يفتح شهية العقل للبحث والتحليل، فتشارك أنت في صنع المعرفة . إنها لا تقدم لك الإجابة جاهزة، بل تطلب منك أن تكتشفها بنفسك .تربويًا، هذا يعلمك أن المعرفة التي يصل إليها الإنسان بجهده الخاص أثبت وأعمق أثرًا في النفس .فأنت حين تنظر وتتدبر وتستنتج أن سبب الهلاك هو الذنوب، تصبح هذه القناعة جزءًا من بنائك النفسي، لا مجرد معلومة تلقيتها.
الامر الثالث:
منطق القوة الخادعة) كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ(

الآن، وقد رأيت العاقبة، قد يساور عقلك سؤال: لكن من نحن حتى نقارن أنفسنا بهذه الإمبراطوريات؟ يأتي الرد الإلهي فورا ليسد عليك باب التبرير.

ما دلالة أنهم كانوا أشد قوة وآثارًا في الأرض؟
انظر إلى الآية كيف تصف قوتهم: "أشد" اسم تفضيل، و"آثارًا" نكرة تعظيم .والقصر في "كانوا هم" يؤكد أن التفوق كان حكرا عليهم وحدهم .إنها تقطع الطريق على أي تبرير قد تلجأ إليه نفسك أو أي

حضارة معاصرة .فكأنها تقول: إن كان الأقوى والأعظم عمرانًا قد سقط بذنبه، فالذي هو أقل قوة أولى بالحذر وأحق بالخوف .هذا هو منطق المقارنة الذي يذل الكبر.

مفهوم المقارنة بين الحضارات) القياس النسبي للقوة(:
هنا لطيفة عقلية عظيمة .الله يأمرنا أن نبحث ونتأمل كم كانت قوتهم "في زمانهم" .المقياس ليس مطلقًا .قوة عاد هي في جسامة أجسادهم "وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً"، وقوة ثمود في هندستهم ونحتهم للجبال "وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ"، وقوة فرعون في جنوده وسلطانه وتمكينه الذي جعله يقول "أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ" .إن الآية تعلمنا ضبط معيار القياس:

- المال والسلطان) التمكين الاقتصادي والعسكري.(
- العلم والتقدم التقني) وكانوا مستبصرين.(
- العمران والهندسة) مصانع، قصور، بيوت منحوتة.(

وتقول لك: قارن ما لديكم بما كان لديهم "بالنسبة لأزمانهم" .ففي مثالنا المعاصر، هيمنة دولار اليوم في زماننا كقوة عاد في زمانها، وتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي كالهندسة الفرعونية .الدرس المستفاد: لا تخدعك القوة الظرفية، فقيمتها نسبية في ميزان السنن الإلهية .ما قيمة مئة ريال يمني كانت تعادل مئة دولار بالأمس وصارت لا تساوي شيئاً اليوم؟ القيم تتغير، والقوى تزول، وتبقى السنن.
الامر الرابع: معادلة الهلاك المحتوم) فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ(

وصلنا إلى العبارة الفاصلة في الآية، كلمة هي أشبه بالصاعقة على قلب من يفهمها: "فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ".

ما دلالة ذلك؟ وما هي الذنوب التي أهلكت الأمم السابقة؟ وكيف تتكرر اليوم؟
"الأخذ" هنا ليس مجرد إماتة، بل هو أخذ عزيز مقتدر، أخذ فيه إهانة وسحق وغضب، أخذ جبّار السموات والأرض .والذنوب التي أهلكتهم ليست مجرد سيئات فردية، بل هي منظومة متكاملة من الا نحراف: الذنب الفكري وهو الكفر والتكذيب، والذنب السلوكي وهو الظلم والفساد في الأرض، والذنب ا لأخلاقي وهو الاستعلاء والتكبر والغرور، والذنب الاجتماعي وهو غياب الإصلاح وموت النخوة الإ يمانية .ألا ترى هذه الذنوب عينها تتكرر في كل حضارة تنحرف؟ إنها ليست قصة انتهت، بل هي سيناريو يعاد.

لماذا يربط الله العقاب في الدنيا بالذنوب بشكل مباشر؟ وما دلالة الباء السببية) بِذُنُوبِهِم(؟
"بذنوبهم" الباء هنا للسببية، وهي أخطر حرف في الآية .إنها تشير إلى أن الهلاك ليس ظلمًا إلهيًا، ولا هو مصادفة تاريخية، بل هو نتيجة فعلية ومباشرة للانحراف .وكأن الذنوب نفسها هي التي تولد الهلا ك، والله هو المنفذ العادل .إنها إقامة للحجة كاملة: أنتم من جلبتم على أنفسكم الدمار بأفعالكم، والله ما كان ليظلمهم .إنها تزرع في النفس فكرة المسؤولية الشخصية المطلقة، فلا مجال للتعلل بالقدر، بل بالفعل.
الامر الخامس: الحصانة المفقودة) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ(

إذا كانت الذنوب هي سبب الهلاك، فهل من حماية؟ تجيب الآية بالنفي المطلق:"وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ".

ماذا تعني هذه الجملة؟
إنها تعلن الإفلاس الكامل لكل ما ظنوه قوة ."واقٍ" نكرة في سياق النفي، فلا واقي واحد ولا كثير . كل جيوشهم، وكل حصونهم، وكل تقنياتهم، كلها تبخرت كأنها لم تكن .إنها صورة قرآنية باهرة للعجز الكامل أمام الجبروت الإلهي .المعنى المروع: لا توجد حماية من عذاب الله إذا أراده، لا من داخل ولا من خارج، لا جيش ولا سور ولا حلفاء.

مفهوم: المعيار الحقيقي لبقاء الأمم هو الطاعة، وسنن الله لا تحابي أحدًا .ماذا يعني هذا؟
إنه يعني ببساطة: لا أحد فوق القانون، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل .القانون هو: الطاعة والإيمان والصلاح تجلب الأمن والبركات والبقاء .والظلم والكفر والفساد تجلب الخوف والهلاك والفناء .هذا القانون لا تجامله أنساب الحضارات، ولا تنخدع ببريق إنجازاتها .إنه إعلان أن الحماية الحقيقية ليست في بنايات نوويّة أو اقتصاد عالمي، بل في صلة بالله، فيكون هو الواقي ."إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا".

كيف أربط بين أمن الأمة وطهارتها، وبين زوال أمنها وفسادها؟
الرابط هو كلمة التوحيد .أمن الأمة وطهارتها من الذنوب هما روح الجسد الحضاري ودرعها الواقي .

إذا طهرت الأمة من الفساد، نزلت عليها الطمأنينة والوقاية الإلهية .وإذا فسدت، تخلت عنها هذه الوقاية، فتصبح كالمريض الذي سقط جهاز مناعته، تأكله الأمراض من الداخل قبل أن يهاجمه عدو من الخارج .الدمار الاجتماعي والأخلاقي هو مقدمة الدمار المادي.

الامر السادس: أبعاد الآية وآفاقها – خريطة لبناء الروح والعقل والمجتمع

بعد هذا الغوص، دعنا نرسم معًا خريطة الأبعاد التي تفتحها هذه الآية في كيانك:

.١الأبعاد العقائدية:

· حتمية نصر الحق: الآية تبني يقينًا راسخًا بأن الباطل، مهما طال به الزمن، له نهاية .وهي ترسخ أن القوة المادية ليست إلهًا آخر، بل هي مادة للاختبار، وتثبت كمال القدرة الإلهية من خلال إظهار اسم الله "القوي" و"شديد العقاب" في مشهد هلاك الجبابرة .هنا يستريح قلب المظلوم، ويرتعد فؤاد الظالم.

.٢الأبعاد العقلية والفكرية:

· القراءة العلمية للتاريخ: إنها دعوة صريحة للبحث العلمي في التاريخ، للتنقيب عن الآثار الجيولوجية والبشرية، ودراسة صعود وسقوط الحضارات بعقلية تحليلية ناقدة .هي تحطم مفهوم القوة كضمان للبقاء، وتدفعك للبحث عن القوانين الخفية .إنها تنتج "العقلية الاستراتيجية" التي لا تنبهر بالظاهر، بل تبحث في السنن.

.٣الأبعاد النفسية والتربوية:

· علاج الكبر والغرور: هذه الآية هي عيادة نفسية إلهية .إذا شعرت بذرة غرور تنمو في نفسك بسبب قوتك أو علمك، فاقرأها .سترى من هو أقوى وأعلم وقد باد، فتتواضع .هي تبني "الوعي النقدي" الذي يحميك من انبهارك بالحاضر، وتغرس فيك الشعور بالأمان الحقيقي بأن القوي هو الله، مما يبعث السكينة والرضا.

.٤الآفاق الفكرية والحضارية:

· قراءة التاريخ بمنظور إيماني: إنها تعيد صياغة رؤيتك للتاريخ، فلم تعد الحضارة العظيمة بأبراجها هي البطل، بل البطل هو الحق الذي قامت عليه أو سقطت بتركه .تربط المادي بالروحي برباط عضوي ، وتكشف أن الكفر ليس مجرد ذنب فردي، بل هو "منظومة دمار شامل" تؤدي حتمًا إلى الفساد الا قتصادي والظلم الاجتماعي، ثم الانهيار .إنها صياغة لفلسفة التاريخ من منظور الوحي.

الامر السابع : التطبيق العملي – كيف نعيش بالآية؟

كل هذا النور، كيف يتحول إلى واقع في حياتنا اليومية؟ إنها ليست آية للتلاوة فقط، بل هي خارطة طريق.

كيف نطبق الآية في الحياة العملية؟

· في مجال الأعمال: لا تقتل بآثارك في الأرض) بناياتك، أموالك، سلطتك (وتظن أنها خالدة .بل اجعلها وسيلة لطاعة الله وخدمة الناس، واعلم أن استمرارها مرهون ببرك ونزاهتك، لا بقوتها الذاتية.
· في تربية الأبناء: لا تربهم على حب القوة فقط .ازرع فيهم مبدأ الاعتبار من خلال قراءة القصص القرآني والتاريخي .قل لهم: انظروا ماذا حدث لمن كذب وعصى وهو أقوى منكم، ليفهموا أن القوة بلا إيمان وأخلاق تؤدي إلى الهلاك.
· في مواجهة الأزمات: حين تضيق بك السبل، عد إلى الآية، ستعلم أن التوبة والإصلاح والسعي ب العدل والأمر بالمعروف هو السبيل الوحيد للنجاة ورفع البلاء.
· في السياحة والترحال: زيارتك للمناطق الأثرية وديار الأقوام السابقة لتكون للعبرة والاعتبار، لا لمجرد التنزه والتقاط الصور .اجعلها رحلة إيمانية صامتة مع سنن الله في خلقه.

إذن، ما هي المفاهيم التي تقدمها الآية لبناء الإنسان والحضارة؟
تقدم الآية منظومة متكاملة:
مفهوم سنة التداول والاستخلاف) القوة ليست ضمانًا
(، مفهوم المسؤولية الشخصية) النتيجة مرتبطة بالسبب(،

(مفهوم التواضع المعرفي) من سبقوك كانوا أكثر تقدمًا(، ومفهوم الأمن الحقيقي) الواقي هو الإيمان و العمل الصالح
.(هذه المفاهيم هي لبنات بناء الفرد، ومن ثم الأسرة، ومن ثم الحضارة التي تزدهر وتستمر لأنها قامت على الحق والعدل، لا على الوهم المادي.

والآن، في ختام رحلتنا، اسألني: ما الذي يريده منا المولى في هذه الآية بالضبط؟

يريد منا ثلاثة أمور أساسية، اجعلها أمام عينيك دائمًا:

.1اليقظة: أن نفيق من غفلتنا، وألا نغتر بالمظاهر المادية الجوفاء، فكم من دولة عظيمة انهارت في لحظة لأنها خلت من الروح والقيم.
.2التعلم من التاريخ: أن نجعل من التاريخ مختبرًا نستخلص منه القوانين التي تحكم الحياة، فمن لا تاريخ له لا مستقبل له.
.3الارتباط بالحق: أن ندرك أن الواقي الوحيد من السقوط والهلاك هو الله، والوقاية تكون بالتقوى و العدل والعمل الصالح، لا بمراكمة الآثار والممتلكات.

الخلاصة: الآية 21 من سورة غافر هي دعوة نبوية للانتقال من الحضارة العابرة، التي تهتم بالبناء المادي وحده، إلى الحضارة الباقية، التي تبني الأرض بروح السماء .إنها رسالة سلام وإنسانيتنا الحقة، أن نعمر الأرض لنرتقي بها إلى الله، لا أن نرتفع فوق الخلق فنُسحق تحت سننه الكونية .فهل وعينا الدرس؟

المبحث الثاني

والآن، وقد وقفنا بقلوب واجفة على مشهد الهلاك في الآية الحادية والعشرين، تساءلنا: كيف وصلوا إلى هذا المصير؟ لماذا سقطت تلك الحضارات الشامخة ذلك السقوط المروع؟ هنا تأتي الآية الثانية و العشرون لتمسك بيدك، وتنقلك من مشاهدة الجثة الحضارية الهامدة إلى تشريح غرفة العمليات. إنها تفتح لنا قلب القضية، لتريك العلة الحقيقية، العلة الوحيدة.

تأمل معي كيف تتدفق الحكمة الإلهية: "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ" [غافر: 22].

كأن الله يقول لك: أتريد أن تفهم سر انهيارهم؟ أتريد أن تعرف لماذا لم تغن عنهم قوتهم ولا آثارهم شيئًا؟ اسمع إذن هذه الخلاصة المركزة التي هي أشبه بمعادلة كونية. فلنبدأ رحلتنا مع هذه الآية التي لا تقل جلالا ً وعمقاً عن سابقتها.
الأمر الأول:
تشريح العلة – لماذا كان الهلاك؟ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ)

دعنا نقف مع أول كلمة: "ذَٰلِكَ". ما أبلغها من إشارة! إنها تشير إلى كل ما سبق من هلاك وأخذ ودمار. وكأن الآية تقول: ذلك المصير البشع، وذلك الأخذ الأليم، وذلكم الخزي والفضيحة... ليس ظلمًا من الله ، وليس صدفة عمياء، بل هو "بِأَنَّهُمْ". الباء هنا للسببية، إنها باء الجريمة والإدانة. إنها تقدم لائحة الا تهام الرسمية وتقول: السبب كامن فيهم هم، في موقفهم من الحق.

والآن، ما هو هذا السبب؟ "كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ".

- "كَانَت تَّأْتِيهِم": تأمل معي "كان" التي تفيد الماضي المستمر، ثم الفعل المضارع "تأتيهم" الذي يدل على التجدد والاستمرارية .إنها ترسم لك صورة تاريخية متحركة: لم يأتهم رسول واحد مرة واحدة فحسب، بل توالت عليهم الرسل أفواجًا، جيلا ً بعد جيل، ونبيًا بعد نبي، كل منهم يجدد الدعوة ويذكر ويبشر وينذر .لم يتركهم الله لهملهم، بل أقام عليهم الحجة حتى لم يعد للشك موضع.
- "رُسُلُهُم": لاحظ الإضافة هنا .لم يقل "رسل الله" بل "رسلهم" .إنها إضافة تشريف وتذكير .رسل من جنسهم، يتكلمون لغتهم، يعرفون أفراحهم وأتراحهم، يفهمون طبائعهم .هم منهم وفيهم، ليقطع بذلك كل عذر، فلا يقولوا "لو أرسلت إلينا ملكًا".
- "بِالْبَيِّنَاتِ": ما هي البينات؟ إنها الآيات الواضحات القاطعات .هي المعجزات الحسية التي تُبهر العين، والأدلة العقلية التي تقنع العقل، والفطرة التي تهز الوجدان .هي النور الذي لا تحتاج معه إلى دليل آخر على أنه نور .إنها الحقيقة التي تجردت من كل غموض، ووقفت عارية أمامهم .فلم يبق لهم أي عذر، لا عذر الجهل، ولا عذر الشك، ولا عذر الحيرة.

فماذا كان موقفهم من كل هذا الوضوح؟ كلمة واحدة تلخص المأساة: "فَكَفَرُوا".
الفاء هنا للتعقيب، فهي تدل على أن كفرهم جاء مباشرة وبسرعة بعد مجيء البينات. لم يكن كفر

جهل وبساطة، بل كان كفر عناد وإباء واستكبار. جاءتهم البينات ليسلموا، فكفروا. جاءتهم ليهتدوا، فأصروا على الضلال. إنها الجريمة المكتملة الأركان: وضوح الحق، ثم رفضه. هنا نفهم لماذا كانت الذنوب في الآية السابقة مهلكة، لأن الذنب الأعظم الذي يجر كل ذنب هو الكفر الصريح بعد البيان.

مثال واقعي يقرّب الصورة:
تخيل طبيبًا ناصحًا مشفقًا يأتي لمريض بتحاليل قاطعة، وأشعة واضحة، ويقول له: "انظر، هذا الورم في جسدك، ودواؤه هو هذا، والشفاء مضمون بإذن الله". فينظر المريض في التقارير، ثم يمزقها، ويقول للطبيب: "أنت كاذب، لا أعترف بك، وسأستمر في حياتي هكذا". أليس مصيره الموت المحقق؟ هذا بالضبط ما فعلته تلك الأمم، جاءتهم وصفة الحياة من خالق الحياة ذاته، فكفروا بها ومزقوها، فكان الموت الحضاري هو النتيجة المنطقية.

الأمر الثاني: الذنب الجذري – الكفر بوصفه انتحارًا حضاريًا (فَكَفَرُوا)

لنتوقف قليلا ً عند فعل "فَكَفَرُوا". الكفر هنا ليس مجرد إنكار قلبي خفي، بل هو موقف عملي ووجودي. هو إعلان حرب على الحق. لقد تجسد هذا الكفر في صور شتى عبر التاريخ:

· التكذيب والاستهزاء: كما فعل قوم نوح حين قالوا عنه ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، بل وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم.
· الاستكبار والعلو: كما قال فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، وجمع السحرة لمواجهة العصا، فلما بان له الحق كابر وكفر.
· الإنكار العملي المصحوب بالإفساد: كما فعلت ثمود التي عقروا الناقة بعد أن رأوا بأعينهم معجزة خروجها من الصخرة.

واليوم، ألا ترى هذه الصور تتكرر بأشكال حديثة؟ الكفر ليس فقط إلحادًا صريحًا، بل قد يكون كفرًا عمليًا ناعمًا.

أمثلة واقعية من حياتنا المعاصرة:

.1كفر الفرد بالبينات الأخلاقية: شاب يأتيه العلم اليقيني من كل جهة) طبية، دينية، اجتماعية (بأن المخدرات تهدم عقله وجسده وأسرته .تأتيه البينات عبر نشرات، قصص واقعية، نصائح مخلصة، بل وربما عبر آيات قرآنية وأحاديث .لكنه "يكفر" بهذه البينات، يرفضها، يسخر من المحذرين، ويستمر في طريقه .النتيجة؟ "أخذه الله" بذنبه في الدنيا قبل الآخرة: قد يكون أخذًا صحيًا بمرض مفاجئ، أو أخذًا نفسيًا باكتئاب مقيم، أو أخذًا اجتماعيًا بفقدان الأهل والأصدقاء وتحوله إلى منبوذ .هذا هو منطق "فأخذهم الله" وهو قوي شديد العقاب.
.2كفر الأمم بالمصلحين: انظر إلى أي مجتمع يظهر فيه مصلحون ينادون بالعدالة، ويكافحون الفساد، ويدعون إلى القيم .يأتون بأرقام وحقائق مدوية) هي بمنزلة البينات (عن حجم الفساد المالي والإداري . كيف تتصرف النخبة الفاسدة؟ "تكفر" بكلامهم، تشوه سمعتهم، تسجنهم أو تنفيهم .هذا هو الكفر بـ البينات عينه .وماذا يحدث بعدها بسنوات؟ ينهار الاقتصاد، وتسقط الدولة أو تتخبط في أزمات لا قرار لها .ألا ترى أن هذا هو "فأخذهم الله بذنوبهم" يتجسد أمامنا في صورة انهيار اقتصادي أو اجتماعي؟ إنه القانون ذاته.
.3كفر المجتمعات بآيات الله الكونية: أمة تعيش في رفاهية وأنهار، وتأتيها دعوة الأنبياء عبر القرآن أن اشكروا، أن أقيموا العدل، أن لا تفسدوا .ثم تأتيها بينات كونية على شكل إنذارات: زلازل، فيضانات ، أمراض تجتاح .بدلا ً من أن تتوب وتعتبر، "تكفر" هذه الأمة بهذه الآيات التذكيرية، وتقول: "هذه ظواهر طبيعية لا علاقة لها بأخلاقنا"، ثم تزداد فسادًا وإفسادًا .فتأتيها الطامة الكبرى فجأة .ألا يبدو هذا كسيناريو عاد وثمود؟
الأمر الثالث: ختام الاسمين الجليلين – القوة وشدة العقاب (إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والآن، وقد انكشف سبب الهلاك، تأمل كيف تختم الآية بهذين الاسمين الجليلين: "إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ". لماذا "قوي" و"شديد العقاب" هنا تحديدًا؟

· "قوي": لأن السياق كله عن القوة! كانوا هم أشد منا قوة .كانوا جبابرة .كانوا يملكون من العتاد و العمران ما لا نملكه .فجاء الاسم الإلهي ليقول: مهما بلغت قوتكم، فإن الذي أخذكم هو "القوي" المطلق الذي لا تعجزه قوة ولا يفلت منه جبار .إنه إعلان أن القوى الأرضية تسحقها القوة السماوية سحقًا . هذا يبعث الطمأنينة في قلب المؤمن المستضعف: ربك الذي هو معك هو القوي، فلا تخف من قوة العالمين.

• "شَدِيدُ العِقَابِ": ولم يقل "شديد العقاب" فحسب، بل هو "شديد العقاب" .إنها صيغة مبالغة .عقابه ليس عاديًا، ليس مجرد أخذ، بل هو عقاب شديد، عنيف، ماحق .لماذا يستحقون هذه الشدة؟ لأن الجريمة كانت عظيمة! جريمتهم أن البينات كانت غاية في الوضوح، ومع ذلك كفروا .فجاء العقاب على قدر الجريمة .إنه العدل الإلهي المطلق: كلما عظمت الحجة، عظمت التبعات.

تخيل قاضيًا مع قاتل. القاتل الذي قتل عن سبق إصرار وتخطيط وتفاصيل بشعة عقوبته تختلف عن القاتل الذي قتل عن خطأ. أولئك "جاءتهم البينات فكفروا"، لقد خططوا للكفر بعناد وإصرار، فرأوا الحق فرفضوه، فاستحقوا أشد العقاب. إن هذا الختام يجعل المؤمن يرتجف خوفًا من عدل الله، وفي الوقت نفسه يسجد شكرًا لأن الله قوي ينتقم له من أعدائه.
الأمر الرابع: الدروس العملية – كيف نعيش بالآية ونحمي أنفسنا من السقوط؟

الآن، دعنا ننزل من سماء التنظير إلى أرض التطبيق. كيف نحمي أنفسنا من أن نكون "فكفروا"؟ كيف نجعل من هذه الآية جهاز إنذار مبكر؟

.1وضوح الحق لا يكفي، العبرة بالتسليم العملي) الانقياد(:
أعظم خطر يحدق بك أيها الإنسان أن تعرف الحق وتخالفه .كم منا يعلم يقينًا أن الكذب مهلكة أخلاقية، ومع ذلك يكذب في تجارته وعلاقاته؟ كم من موظف يعلم أن الرشوة تأكل البركة، وتأتيه الأ دلة من الكتاب والسنة، ومن تجارب البشر، ومع ذلك يكابر ويستمر؟ هذا هو "الكفر بالبينات" في صورته الفردية .اعلم أن العقاب قد لا يكون صاعقة من السماء، بل يكون نزع البركة من الرزق، أو قسوة القلب، أو التعاسة التي لا تنتهي .مثال: تاجر يعلم أن الغش حرام، والآيات والأحاديث بينات واضحات، لكنه يقول: "السوق هكذا، والجميع يفعل" .هذا "فكفروا" صغير يتمدد في روحه، فيفقد راحة البال، ويصبح ماله وبالا ً عليه.
.2رفض دعاة الإصلاح جريمة حضارية تؤذن بالانهيار:
أوصيك ونفسي ألا نكون من الذين يقفون في وجه المصلحين .في محيط عملك، في أسرتك، في مجتمعك، عندما يأتيك من ينصحك بالحق ويدلك على الصواب، فإياك أن تقابله بجفاء وصدود .فإن هذا الفعل هو استنساخ مصغر لفعل الأمم البائدة مع رسلها .الأمم التي تقمع النقد البناء، وتكمم أفواه العلماء الصادقين، وتطرد الشرفاء، إنما تحفر قبرها بأظافرها .انظر إلى بعض الدول التي أطفأت أنوار الحرية والنزاهة، كيف انهارت فجأة بعد أن ظن أهلها أنهم في منعة؟) مثال الاتحاد السوفيتي السابق الذي قام على محاربة الدين وإشاعة الإلحاد كمثال على "الكفر بالبينات" الفكرية ثم السقوط.(
.3التسويف في التوبة بعد وضوح الدليل هو اللعب بالنار:
كم من إنسان يسمع الموعظة، يقرأ الآية، يحضر درسًا، فتنشرح نفسه للحظة، ويقول: "نعم، سأتوب غدًا، سألتزم لاحقًا" .إنه يمتلك البينة ولكنه يسوف! هذه حالة خطيرة جدًا .إن استمرار التسويف هو نوع من "الكفر العملي"، لأنك تعلن بأفعالك أنك تؤجل أمر الله لأجل هواك .وفجأة، يأتي الأخذ: قد يكون موت الفجأة، أو مرضًا مقعدًا، أو فضيحة تهز حياتك .لا تؤجل توبة حضرت بينتها، فـ "الأخذ" الإلهي لا يستأذن أحدًا.
.4فهم قانون السببية ينقذ حياتك:
تدبر هذه الآية يمنحك عقلية تحليلية سببية .فبدل أن تلعن الظروف حين تقع في مشكلة، اسأل نفسك: ما هي "البينات" التي رفضتها فأدى بي ذلك إلى هنا؟ هل أتتني الفرص للإصلاح فرفضتها؟ هل حذرني الناصحون فكذبتهم؟ هذه المراجعة الدائمة هي توبة عملية مستمرة.

الأمر الخامس: الأبعاد العقدية والنفسية والفكرية – كيف تبني الآية الإنسان من الداخل؟

.١البعد العقدي) حتمية العدل الإلهي(:
الآية ترسخ في قلبك عقيدة عظيمة: أن الله حكيم لا يظلم، وأن أسباب الهلاك ليست غامضة، بل هي محددة ومعروفة. الله لا يعاقب عباده عبثًا، بل "بأنهم". هذا يريح عقلك، ويجعلك تفهم الحياة على أنها دار تكليف ومسؤولية. كما أنها تثبت صفات الكمال لله: "القوي" فلا يغلبه غالب، و"شديد العقاب" فلا يفلت منه ظالم. يترتب على ذلك خوف ورجاء هما قوام الإيمان.

.٢البعد النفسي) الطمأنينة والتحرر من الخوف(:
إذا ابتليت برؤية ظالم يستقوي، أو مجتمع ينحرف، فتذكر هذه الآية. ستهدأ نفسك وتطمئن، لأنك تعلم أن هنالك قوة أعظم قادرة على تغيير المشهد في لحظة. إنها تعطيك الفرقان النفسي بين أن ترى الأمور كفوضى، وأن تراها خاضعة لناموس دقيق. هي علاج للاكتئاب الذي يصيب المصلحين حين يرون الباطل ينتفش، لأنها تهمس لك: "إنهم لن يفلتوا، فقد أتتهم البينات التي قدمتها، فإن كفروا فا لعاقبة لهم". وفي المقابل، هي رادع نفسي عظيم لمن يفكر في مجاوزة الحق، لأن استحضار "شديد العقاب" يزلزل القلب.

٣.البعد الفكري والتربوي) منهج تحليل التاريخ والمجتمع(:
إنها تؤسس لعقلية نقدية مستنيرة. فحين تدرس سقوط أي حضارة، أو انهيار أي شركة، أو فشل أي مشروع، لن تكتفي بالأسباب السطحية الاقتصادية أو الإدارية فحسب، بل ستبحث عن "الذنب الجذري" ، عن لحظة رفض "البينة" وتكذيب "الرسل". ستبحث عن اللحظة التي أوصِد فيها باب النصيحة، وقتِل فيها صوت الحق. هذه نظرة قرآنية متكاملة، تجعل من قراءة التاريخ عبادة، ومن التعامل مع الواقع فقهًا.

الأمر السادس: التطبيق العملي – جعل الآية خارطة طريق في حياتك اليومية

كيف تحول هذه الآية إلى واقع معاش؟

· في تربية أبنائك: عندما تربي طفلك على أن يقول الحق، ولا تكتفِ بتلقينه، بل علمه هذه المعادلة . قل له: "هل رأيت حين نبهتك على خطأ ما، وأتيتك بالدليل على أنه خطأ، لكنك أصررت؟ هذا هو الكفر بالبينة بعينه" .استخدم كلمات الآية عند النصح: "يا بني، لا تكن ممن تأتيهم البينات فيكفرون" . هذا يغرس في نفسه مراقبة دائمة لله، ويجعل من القرآن دستورًا للسلوك اليومي.
· في مراجعة النفس) محاسبة يومية(: في ختام يومك، اسأل نفسك: ما هي البينات التي جاءتني اليوم؟ ربما آية قرآنية مرت علي، أو نصيحة من صديق، أو موقف رأيته كان عبرة، أو فكرة خطرت ببالي .هل "كفرت" بها بأن أعرضت عنها ولم أغير سلوكي؟ أم "آمنت" بها وبدأت بالتغيير؟ هذه المحاسبة تحول حياتك إلى مختبر للتطبيق القرآني.
· في الإعلام والنشر والدعوة: وظيفتك أن توصل "البينات" فقط، أما حساب من يكفر بها فليس إليك . إنك تحاكي الرسل في أنهم أتوا بالبينات، ثم وكلوا الأمر إلى الله القوي شديد العقاب .هذا يريح الداعية والمعلم والمصلح من غم الفشل، لأنه يعلم أنه قام بدور "التبيين"، وأما النتائج فبيد من هو "قوي شديد العقاب".
خلاصة الرحلة: ثنائية الوعي والتاريخ

انظر كيف أن الآيتين (21 و 22) تشكلان ثنائية متكاملة لا تنفصل. الأولى أرتك المشهد بكل روعته ورهبته: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ... كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ". إنها تقدم لك الواقع المحسوس، وتدعوك للسياحة والنظر والمشاهدة. والثانية (22) شرحت لك المنطق الخفي وراء هذا المشهد: "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا". الأولى كانت دعوة للسير، و الثانية هي حصيلة النظر. الأولى كانت تشخيصًا للمرض، والثانية هي كشف عن الفيروس المسبب له.
المبحث الثالث
مفهوم فقه السنن
يُعد مفهوم **"فقه السنن"** من أعمق المفاهيم التي أرستها الآية 21 –22من سورة غافر، فهو يمثل الجسر الرابط بين الإيمان بالغيب وفهم الواقع المادي. إن دعوة القرآن لـ "السير في الأرض" و"النظر" ليست نزهة بصرية، بل هي عملية استقصائية لاستخراج القوانين التي تحكم حركة الحياة و المجتمعات.
إليك تفصيل هذه المحاور العميقة التي طرحتها:
1. مفهوم "فقه السنن" المستنبط من الآية
فقه السنن هو **"العلم بالقوانين المطردة والثابتة التي أودعها الله في الكون والمجتمعات، والتي لا تتخلف ولا تحابي أحداً"**.
* من الآية نستنبط أن السنن لها مقدمات (الذنوب/الكفر بالبينات) ولها نتائج (الأخذ/الهلاك).
* الفقه هنا يعني الانتقال من "معرفة الخبر" إلى "إدراك العلة"؛ أي لماذا سقط الأقوياء؟ وكيف نتجنب مصيرهم؟
2. أهمية استيعاب السنن والتعامل مع الأحداث
إن استيعاب السنن ليس ترفاً فكرياً، بل هو ضرورة حتمية لعدة أسباب:
* **تفسير أحداث الخير والشر:** فقه السنن ينقلنا من التفسير العشوائي أو "الخرافي" للأحداث إلى التفسير السنني. فالشر (كالهزيمة أو الانهيار الاقتصادي) ليس قدراً غامضاً، بل هو نتيجة لخلل في موازين السنن (الذنوب المجتمعية أو الإدارية).
* **التحكم في المسار:** القدرة على التعامل مع السنن تعني أن الإنسان لا ينتظر وقوع الكارثة، بل يقرأ مقدماتها ويتدخل لتغيير المسار، فمن سار في طريق السقوط سقط، ومن سار في طريق النهوض نهض.
3. الوحي كدليل عمل للتعامل مع التحولات
أعتبر الوحي هو الدليل لأن العقل البشري قد ينبهر بـ **"اللحظة الراهنة"**؛ فالآية تقول: "كانوا هم أشد منهم قوة"، وهنا يأتي الوحي ليخبرنا أن هذه القوة المادية خادعة إذا انفصلت عن القيمة الأخلا

اقية.
* الوحي يقدم لنا "النظارات" التي نرى بها ما وراء المادة.
* الوحي يثبّت "المعايير" وسط التحولات؛ فبينما تتغير أدوات القوة (من القلاع إلى التكنولوجيا)، تظل "سنة الله" في إهلاك المفسدين ثابتة.
4. فقه السنن كـ "وقاية" من الهلاك والنار
تبين الآية أن فقه السنن يمثل "جهاز إنذار مبكر":
* **كشف العاقبة قبل وقوعها:** "فينظروا كيف كان عاقبة..."؛ فالنظر في التاريخ يقينا من تكرار الأ خطاء.
* **الوقاية بالمضادات الأخلاقية:** عندما ندرك أن "الذنوب" هي سبب "الأخذ"، فإن الاستغفار والإص لاح والعدل تصبح أدوات "وقاية" تحمي المجتمع من الهلاك الدنيوي ومن ثم نار الآخرة.
* الآية ختمت بـ "وما كان لهم من الله من واق"؛ لتؤكد أن الواقي الوحيد هو **الامتثال للسنن** التي شرعها الله، وليس التحصن خلف الجدران المادية.
5. فقه السنن وإدارة الأزمات (قبل، أثناء، وبعد)
السير في الأرض يمنحنا "دليل إدارة الأزمات" وفق الآتي:
* **تجنب الأزمة (المنع):** من خلال دراسة "أسباب السقوط" للأمم السابقة، يمكننا وضع "استراتيجيات مانعة" تمنع مجتمعنا من الانزلاق لنفس المنحدر.
* **إدارة الأزمة (التعامل):** عند وقوع الأزمة، يمنحنا فقه السنن ثباتاً نفسياً وفكرياً؛ فنحن نعلم أن لكل ضيق مخرجاً إذا عدنا لتصحيح المسار (البحث عن البينة التي تركناها).
* **تجاوز الأزمة (الاستعلاء على الهزيمة):** فقه السنن يعلمنا أن "الأخذ" ليس نهاية العالم إذا كان هناك "بقية" تصلح في الأرض، فهو يمنحنا خارطة طريق للنهوض من جديد من وسط الركام، كما نهضت أمم بعد انكسارها عندما استعادت شروط النهوض.
الخلاصة:
الآية 21 من سورة غافر تحول "التاريخ" إلى "مختبر علمي". هي لا تريد منا أن نبكي على الأطلال، بل تريد منا أن **"نستخلص القوانين"** (فقه السنن) لنبني حضارة محصنة من السقوط، قادرة على إدارة أزماتها بيقين المؤمن وعقل الخبير.
المبحث الرابع
معاناه الامه اليوم نتيجه غياب المنهج السنني عن العقل المسلم:-
.هذا هو جوهر الأزمة التي تعيشها الأمة اليوم، فالإشكالية ليست في نقص "الموارد" أو "القوة المادية" بقدر ما هي في **"العطل الوظيفي"** للذهنية التي تدير هذه الموارد. إن غياب المنهج السنني عن العقل المسلم المعاصر حوّل الدين من "محرك للحضارة" إلى "طقوس معزولة" وإليك تفصيل لذلك وفقا للآية 21 من سورة غافر:
1. غياب البوصلة و"التيه المعرفي"
عندما أضاع العقل المسلم "بوصلة الوحي" كمنهج لاستنباط السنن، وقع في فخين:
* **التدين المغشوش:** وهو التدين الذي يركز على الشكليات ويهمل "قوانين الله في الكون". هو ظنُّ البعض أن الدعاء وحده كافٍ للنصر دون إعداد الأسباب (القوة والآثار)، وهذا مناقض لمنطق الآية التي ربطت بين القوة المادية والمسؤولية الأخلاقية.
* **الانفصام النكد:** أدى هذا التيه إما إلى **"المروق"** (الاستلاب الكامل للنموذج الغربي وفصل الدين عن الحياة) أو **"الانسحاب"** (الاعتزال واليأس من التغيير)، وكلا المسارين هروب من استحقاق "الخلافة" و"العمران" الذي تفرضه السنن.
2. الذهنية المسكونة بالصدفة (غياب النواميس)
الأزمة كامنة في "الذهنية" التي لا تدرك أن الحياة **ساعة محكمة** النواميس:
* البعض ينتظر "المعجزات" لتغيير الواقع، بينما الآية تقول "أولم يسيروا... فينظروا"؛ أي أن الحل موجود في دراسة القوانين المطردة.
* إن عبارة **"فلن تجد لسنة الله تبديلا "** هي قاعدة ذهبية في الفيزياء الاجتماعية؛ فمن يزرع الفساد الإداري والظلم الاجتماعي (الذنوب) سيحصد حتماً الانهيار (الأخذ)، مهما كان يرفع من شعارات دينية. السنن لا تحابي أحداً، والقرآن أكد أن السابقين كانوا "أشد قوة"، ومع ذلك لم تشفع لهم قوتهم أمام خرقهم للسنن الإلهية.
3. التكامل بين (الوحي، العقل، السير في الأرض)
هذه هى ثلاثية الاستنهاض التي غابت عن العقل المعاصر:
* **الوحي (المصدر):** هو الذي يعطينا "القواعد الكلية" للسنن (مثل سنة الاستبدال، سنة التداول، سنة النصر والتمكين).
* **الاستدلال (المنهج):** هو دور العقل في ربط هذه القواعد بالواقع المعاصر.
* **السير في الأرض (التحقق):** هو "المختبر" الذي نرى فيه فاعلية هذه السنن. التوغل في تاريخ ا لأمم وقصص الأنبياء يمنحنا "قاعدة بيانات" ضخمة لفهم كيف تنهض الحضارات (بالعدل والعلم و العمل) وكيف تسقط (بالظلم والترف والجهل).

4. فقه السنن كعلاج لـ "أزمة الفعالية"
المشكلة اليوم ليست في "الإيمان" بوجود الله، بل في "الفقه" بكيفية إدارة الله لهذا الكون.
* العقل المسلم الذي يستوعب الآية 21 يدرك أن **"القدر"** لا يصادمه إلا **"قدر"** آخر؛ فنحن ندفع قدر الجهل بقدر العلم، وقدر الهزيمة بقدر الاستعداد.
* هذا المنهج السنني هو الذي يخرج الأمة من "حالة الصدمة" أمام الأزمات إلى "حالة الفعل"؛ لأن الأ زمة لم تعد لغزاً، بل هي نتيجة لسبب، وبعلاج السبب يتغير المسار.
5. لماذا السنن لا تحابي أحداً؟
هذه هي الحقيقة المذهلة التي تصفع الغرور البشري؛ فالله عز وجل جعل قوانين الاجتماع كقوانين الفيزياء. النار تحرق من يلمسها سواء كان مؤمناً أو كافراً، وكذلك "الظلم" يخرب العمران سواء وقع من مسلم أو من غيره.
الآية (21) هي صرخة لإيقاظ العقل المسلم من **"الانتظار السلبي"** إلى **"الشهود الحضاري"** القائم على فقه السنن.
الخلاصة:
إن العودة لـ "المنهج السنني" تعني تصحيح المسار من **إسلام "الهروب من الواقع"** إلى **إسلام "صناعة الواقع"**. وهذا لن يتم إلا بتحويل الوحي من "نص يُتلى للتبرك" إلى "منهج يُقرأ لتفسير حركة التاريخ وبناء المستقبل".
المبحث الخامس
مفهوم قراءه التاريخ القراءه الشرعيه
بناءً على ما تقدمه الآية 21 من سورة غافر، فإن قراءة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث أو استمتاعاً بالقصص، بل هي عملية **"استدلالية استراتيجية"** تعتمد على منهجية علمية واضحة.
إليك كيف حددت الآية أركان قراءة التاريخ:
1. القراءة "الميدانية" (الربط بين الجغرافيا والتاريخ)
* **{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}:** تدعو الآية إلى الخروج من دائرة التنظير إلى دائرة المعاينة. قراءة التاريخ الحقيقية تتطلب فحص "الآثار" المادية والاجتماعية في مواقعها. السير هنا يعني البحث الميداني، الاطلاع على حضارات الآخرين، ومقارنة الواقع بالماضي.
2. القراءة "البصرية البصيرة" (التحليل لا الوصف)
* **{فَيَنظُرُوا كَيْفَ}:** لم تكتفِ الآية بكلمة "ينظروا" بل أتبعتها بـ **"كيف"**. وهذا يعني أن المطلوب ليس النظر في "ماذا حدث" (الوصف الجمالي للأطلال)، بل النظر في **"كيف حدث"** (الآ ليات والميكانزمات).
* كيف صعدوا؟
* كيف سقطوا رغم قوتهم؟
* ما هي العوامل الخفية التي نخرت في جدار قوتهم؟
3. القراءة "العاقبتية" (منطق النتائج لا المظاهر)
* **{كَانَ عَاقِبَةُ}:** تحذرنا الآية من الانخداع بـ "اللحظة الراهنة" للقوة. قراءة التاريخ الصحيحة هي التي تنظر إلى **"المآلات"**. قد تبدو أمة ما في قمة مجدها (قوة وآثاراً)، لكن فقه السنن يعلمنا أن العبرة بالخواتيم والنتائج النهائية (العاقبة) التي يحددها المسلك الأخلاقي والعدلي للأمة.
4. القراءة "المقارنة" (قياس الفارق والتشابه)
* **{كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}:** تضعنا الآية في مقارنة مباشرة بيننا وبين من سبقونا. التاريخ يُقرأ لندرك أننا لسنا "استثناءً" من القوانين الكونية. إذا كان من هو "أشد قوة" منا قد زال، فمن باب أولى أن نصحح مسارنا نحن. هذه القراءة تكسر "غرور الحاضر" وتعيد التواضع المعرفي للإنسان.
5. القراءة "السببية" (قانون العلية)
* **{فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}:** هذه هي "اللمسة التفسيرية" العميقة. التاريخ في القرآن محكوم بقانون (السبب والنتيجة). الذنب هنا ليس مجرد خطيئة فردية، بل هو **"انحراف سُنني"** (ظلم، ترف، استكبار، تضييع للحقوق). قراءة التاريخ تعني كشف "الذنوب الحضارية" التي أدت إلى سقوط الدول و الأنظمة.
6. القراءة "الوقائية" (التحصين ضد المستقبل)
* **{وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ}:** نكتشف من خلال التاريخ أن التحصينات المادية (الآثار) تعجز عن حماية الأمة إذا جاء أمر الله بانهيارها. القراءة هنا هدفها البحث عن **"الواقي الحقيقي"**، وهو الامتثال لسنن الله والعدل في الأرض.
تلخيص منهجية القراءة من خلال الآية:

الخطوه	المنهج	الهدف
السير	البحث والاستكشاف	جمع المعلومات والبيانات من الواقع
النظر	التحليل والاستنباط	فهم كيفيه عمل القوانين الاجتماعيه

الاعتبار	مقارنة والقياس	ادراك أن السنن ثابتة لا تحابي أحداً.
التفسير	الربط السببي	ربط الانهيار (الأخذ) بالانحراف (الذنوب).
التطبيق	الإدارة والوقاية	تجنب مسار السقوط وبناء "الواقي" الأخلاقي والسنني.

بناءً عليه: قراءة التاريخ في الآية هي "مختبر للسنن"؛ فمن يقرأ التاريخ بهذا المنطق يمتلك **البوصلة** التي ذكرتها، ويخرج من حالة "التيه" إلى حالة "الشهود والتمكين".

المبحث السادس

العلاقة بين الآيتين 21 و 22 في سورة غافر هي علاقة)** النتيجة بالسبب**(، أو علاقة)** المظهر بـ المخبر .**(إذا كانت الآية 21 قد قدمت لنا "المشهد المادي" للنهايات، فإن الآية 22 قدمت لنا "التقرير التحليلي" للمقدمات.

إليك تفصيل هذه العلاقة من منظور فقه السنن والبناء الحضاري:

.1 تكامل التشخيص (المرض والعرض)

** * الآية) 21 العَرَض): **ركزت على "الأثر" و"القوة" والدمار المادي) الأخذ .(هي تصف لنا الحالة التي وصل إليها المنحرفون عن سنن الله) سقوط الحضارة.(

** * الآية) 22 المرض): **كشفت السبب الجذري لهذا السقوط .لم يكن السقوط بسبب نقص في التكنولوجيا أو العمارة، بل كان بسبب** "أزمة استجابة للوحي والبينات".**

** * الربط: **لا يمكن فهم "الأخذ" في الآية 21 إلا بفهم "الكفر بالبينات" في الآية22.

.2 علاقة "البينة" بـ "الأثر"

* في الآية21 ، تركوا "آثاراً في الأرض") عمران وماديات.(

* في الآية22 ، جاءتهم الرسل بـ "البينات") منظومة قيم وأدلة عقلية.(

** * العلاقة: **الحضارة الحقيقية هي التي تزاوج بين** البينة) **المنهج الفكري الصحيح (وبين** الأثر) **الإنجاز المادي .(الآية تبين أن "الآثار" المادية مهما عظمت، فإنها تنهار إذا تصادمت مع "البينات" الأخلاقية.

.3 السنن لا تعمل في فراغ) إقامة الحجة(

* تؤكد العلاقة بين الآيتين أن الله لا يهلك القرى بظلم .الآية 21 ذكرت "فأخذهم الله"، والآية 22 بدأت بكلمة** "ذلك بأنهم" **لتبيين العدالة الإلهية.

* هذا الربط يوضح أن** "سنة الإهلاك" **لا تقع إلا بعد** "سنة البيان" .**أي أن الانهيار الحضاري لا يأتي فجأة، بل يسبقه دائماً وصول رسائل تنبيهية) بينات (يتم تجاهلها.

.4 صراع القوى) القوة البشرية vs القوة المطلقة(

* في الآية21 ، استعرضت الأمم قوتها:}** كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً.**{

* في الآية22 ، ختم الله المشهد بتذكيرنا بالقوة الحقيقية:}** إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ.**{

** * العلاقة: **هي عملية "تصحيح للموازين" .الإنسان الذي يقرأ التاريخ) الآية (21 قد ينبهر بقوة الأمم السابقة، فتأتي الآية 22 لتعيد بوصلته إلى أن القوة المادية نسبية وفانية، بينما القوة المستندة إلى الحق) قوة الله وسننه (هي الغالبة والمطلقة.

.5 من "السير في الأرض" إلى "اليقين في الوحي"

* الآية 21 تحث على** السير البدني والعقلي **في الواقع والتاريخ.

* الآية 22 تحث على** التسليم الواعي **للوحي) الرسل والبينات.(

** * الخلاصة: **الربط بينهما يعلمنا أن "فقه السنن" يكتمل بجناحين: جناح** الاستقراء) **رؤية الواقع وتجارب الأمم (وجناح** الاستهداء) **فهم الوحي وقواعده .(فمن سار في الأرض دون هدى الوحي ضل في تفسير الأحداث، ومن قرأ الوحي دون سير في الأرض ظل حبيس النظرية دون التطبيق.

القسم الثاني

تعطينا الايات من ٢٣-٤٦)

نماذج حيه عن المعركه بين الحق والباطل نماذج تاريخيه للمكذبين كيف كانت المعركه بينهم وبين المؤمنين والرسل لناخذ من التاريخ الدروس وكيف هي طريق الدعاه واساليب الدعوه وبنفس الوقت تبين لنا السنن والنواميس والقوانين التي تحكم هذا الصراع وان النصر في الاخير للمؤمنين

اولا

سنمضي معًا في رحلة تدبرية جديدة مع آيتين تشكلان مختبرًا تاريخيًا مكثفًا. إنهما ليستا مجرد قصة تروى، بل هما قانون مكشوف، ونموذج مكرر، ومرآة ترى فيها وجه الحاضر كما ترى وجه الماضي. وكما كانت الآية 21 دعوة للسير والنظر، والآية 22 تشريحًا للعلة، تأتي هاتان الآيتان لتعرضا عليك أول وأخطر نموذج للكفر والاستكبار؛ إنه النموذج الفرعوني الذي يجتمع فيه كل خيوط الانحراف.

تأمل معي قول الله جل جلاله، وكأنه يفتح لك ملفًا سريًا لأخطر عصابة في التاريخ:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) [غافر: 23-24]

ثم يمتد السياق القرآني ليكشف النهاية في الآيات التالية: (فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ).

دعنا نقف معًا أمام هذه اللوحة العملاقة، ونغوص في تفاصيلها الدقيقة، بلغة حوارية تخاطب وجدانك وتوقظ عقلك.

الأمر الأول: إرسالية الحق – عظمة الدعوة ووضوح البرهان (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

لنبدأ من البداية. تأمل كيف تستهل الآية كلامها: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا".

· الواو: هي واو القسم، فالله يقسم على أنه أرسل موسى، ليعظم شأن هذه الإرسالية، وليلفت قلبك إلى أن ما سيأتي هو خبر ثابت لا مرية فيه.
· "لَقَدْ": اللام واقعة في جواب القسم، وقد تفيد التوكيد .إنها تؤكد لك أن هذا الحدث هو حقيقة تاريخية كبرى، وليس أسطورة.
· "أَرْسَلْنَا": الفعل مسند إلى الله نفسه، "أرسلنا" .وكأن الله يقول لك: أنا الذي أرسلته، أنا الذي اخترته، أنا الذي جهزته .هذه الإضافة تشريف لموسى، وتخويف لفرعون .إنها تعني أن الرسول لا يأتي بقوته الذاتية، بل بتفويض إلهي مطلق.

ثم تأتي الكلمة الأهم: "بِآيَاتِنَا". ما هي هذه الآيات؟
إنها الآيات التسع المذكورة في القرآن: العصا، واليد البيضاء، والسنين (القحط)، ونقص الثمرات، و الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. إنها ليست آية واحدة، بل تسع آيات، كل واحدة منها بينة قاطعة، صدمة حسية هائلة. لاحظ الإضافة مرة أخرى: "آياتـِـنا". إنها ليست مهارة موسى، ولا سحره، بل هي آيات منسوبة إلى الله، تحمل توقيع القدرة الإلهية. إنها حقائق وجودية تقتحم الزمان والمكان وتقلب نظام الطبيعة.

ثم تأتي العبارة التي تكمل الصورة: "وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ".

· "سُلْطَانٍ": ما هو السلطان؟ هو الحجة القاطعة، والبرهان الناصع، والقدرة العقلية على الإفحام، و التمكين المعنوي .إنه ليس مجرد معجزة حسية، بل هو القوة المنطقية والحجة الدامغة التي تسكت ا لألسنة.
· "مُّبِينٍ": أي واضح في ذاته، موضِح لغيره .ليس فيه لبس ولا غموض .إنه كالشمس في رابعة النهار، لا يحتاج إلى دليل آخر ليثبت أنه حجة.

الرسائل النفسية والفكرية والعقائدية والتربوية من هذا المشهد الأول:

· عقائديًا: هذه الآية ترسخ في قلبك أن الأنبياء لا يخترعون رسالاتهم، بل هم مبلغون عن الله .وأن ا لأدلة على صدقهم لا تأتي من فراغ، بل هي من عند الله القادر على كل شيء .إنها تزرع اليقين بأن الحق مدعوم من السماء.
· فكريًا: إنها تعلمك منهجًا في الدعوة والحوار .الداعية الناجح لا يكتفي بالكلام العاطفي، بل يحتاج إلى "الآيات") البراهين الحسية والواقعية (و"السلطان المبين") الحجج العقلية والمنطق السليم .(موسى لم يذهب إلى فرعون بخطاب رنان فحسب، بل ذهب بيده وعصاه، بحقائق قاهرة، وبراهين دامغة . وهذا هو المزج بين الإقناع الحسي والإقناع العقلي.
· نفسيًا وتربويًا: أنت أيها المؤمن، حين تواجه طغيانًا، لا تخف .تذكر أن موسى ذهب إلى أعتى طاغية في التاريخ، لكنه كان مزودًا بسلاح لا يقهر: آيات الله وسلطانه .هذا يعطيك طمأنينة عظيمة: لست وحدك، بل معك القوة الإلهية ذاتها .وتعلم من هذا أن تعد عدتك: عليك أن تتمكن من حجتك، وأن تقدم براهينك، وأن تكون واضحًا مبينًا في دعوتك، لا غامضًا مرتبكًا.

الأمر الثاني: مثلث الشر – النموذج التاريخي للمكذبين (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ)

والآن، لمن أرسل موسى بكل هذه القوة؟ الجواب صاعق في تركيزه: "إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ". لم يقل "إلى فرعون" فقط، بل ذكر الثلاثة. لماذا؟ لأن الآية تريد أن ترسم لك "مثلث الشر" الذي يتشكل

في كل زمان، والذي يحارب به الحق.

.١فرعون: رأس الوثنية الاستبدادية السياسية.
فرعون هو الرمز. إنه ليس مجرد حاكم، بل هو النظام السياسي الذي يؤله نفسه، ويقول: "أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ". إنه يمثل القوة السياسية والعسكرية في أعلى مستوياتها. إنه "السلطة" التي تملك القرار، و الجيش الذي يحمي القرار. هو الذي يستعلي في الأرض بغير الحق. قال الله عنه في موضع آخر: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ". إنه يمثل رأس الهرم للكفر المؤسسي.

مثال واقعي: كل حاكم أو نظام سياسي في التاريخ يرفض الاحتكام لشرع الله، ويتعالى على خلقه، ويحتكر الحقيقة، ويقول بلسان الحال أو المقال: "أنا مصدر السلطة والقانون"، هو استنساخ لفرعون. من فرعون موسى إلى فراعنة العصر الحديث الذين يتألهون على الشعوب، الجوهر واحد.

.٢هامان: الوزارة والنفوذ والإعلام المعادي.
من هو هامان؟ هو الوزير، والمستشار، ورأس الجهاز الإداري والإعلامي. هو الذي ينفذ سياسات فرعون ، ويوفر لها الغطاء الأيديولوجي والإداري. وحين يأمره فرعون ببناء الصرح ليطلع إلى إله موسى، ينفذ. هو الذي يهندس الكفر، ويدير ماكينته. إنه يمثل "النخبة" الفاسدة التي تحيط بالحاكم، من مستشارين وعلماء سلاطين وقادة قبائل ومعسكرات فكرية وإعلاميين، الذين يبررون الظلم ويحاربون الحق. هو يمثل القوة الناعمة للسلطة والتي تحول الاستبداد إلى نظام مقبول عبر البروباغندا.

مثال واقعي: في هذا العصر، "هامان" هو تلك المنظومة الإعلامية الضخمة التي تبرر للطواغيت، وهو المؤسسات الفكرية التي تنتج خطابًا دينيًا مزيفًا يخدم السلطة، وهو جماعات الضغط واللوبيات التي تحمي مصالح الحاكم. إنهم الذين يهونون على الناس أمر الطغيان، ويزينون لهم الفساد. حين ترى إعلا مًا يصور المحتل بطلا ً، والمصلح مخرّبًا، فذاك هو هامان بعينه.

.٣قارون: القوة المادية والمالية.
قارون هو رأس المال. كان من قوم موسى، ولكنه بغى عليهم. أوتي من المال ما إن مفاتحه لتنوء بـ العصبة أولي القوة. قال الله عنه: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ". إنه يمثل القوة الا قتصادية المنفصلة عن الدين والأخلاق، التي تستخدم في البغي والإفساد. هو "الثراء" الذي يولد الا ستكبار، ويقول صاحبه: "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي". هو النظام المالي الذي يمول الطغيان ويستفيد منه، والذي يجعل من المال صنمًا.

مثال واقعي: اليوم، "قارون" هو الشركات العابرة للقارات التي تتحكم في مصائر الشعوب وتدعم الحروب، أو رؤوس الأموال الفاسدة التي تمول الحملات الانتخابية لشراء السياسيين، أو الأفراد الذين يستخدمون ثرواتهم في الإفساد في الأرض وإشاعة الفاحشة ومحاربة القيم. هو رمز لرأس المال المتوحش الذي لا يعرف إلا منطق الربح، ولو على حساب الدم والأخلاق.

الزواج الشيطاني:
المشهد المرسوم في الآية ليس مجرد أفراد متفرقين، بل هو تزاوج استراتيجي بين هذه القوى الثلا ث: السلطة السياسية (فرعون)، والنفوذ الإداري والإعلامي (هامان)، والثروة المالية (قارون). لقد تحالفوا وتشابكت مصالحهم لمواجهة الحق. قال قائلهم: "نحن أقوى وأشد وأكثر". قارون يمول، وهامان يخطط ويدير الدعاية، وفرعون يحكم ويبطش. هذا التزاوج هو الذي يصنع جبروت الباطل وقوته المؤقتة. ولهذا خلدهم القرآن في هذه الآية مجتمعين، ليقول لك: انظر، هكذا تتشكل جبهة الكفر دائمًا.

الرسائل التربوية والفكرية من هذا المثلث:

· فكريًا: الآية تعطيك أداة تحليلية لا تقدر بثمن .حين تريد أن تفهم أي صراع بين حق وباطل، ابحث عن "فرعون" النظام، و"هامان" منظومته الإعلامية والإدارية، و"قارون" ماله ومصالحه .ستجدهم حاضرين دائمًا، وسترتفع عنك الحيرة، وستفهم لماذا تحَارب كلمة الحق، لأنها تهدد مصالح هذه الأضلا ع الثلاثة.
· تربويًا: الآية تعلمك ألا تخدعك جبهة الباطل بضخامتها .قد ترى تحالف المال والإعلام والسلطة، فتظن أنه لا قبل لك به، ولكن تذكر أن موسى وحده واجه هذا المثلث بالحق، فانتصر .القوة ليست في الأرقام والتحالفات، بل في كونك مع الله.
· نفسيًا: هناك راحة نفسية عظيمة في معرفة أن ما تراه اليوم ليس جديدًا .هذا التكتل الشيطاني هو نفسه منذ فجر التاريخ .وبما أنك تعرف أن العاقبة كانت للمتقين، فإن قلبك يطمئن، وتعرف أن هذا البنيان المرصوص ظاهره قوة وباطنه هش، وسينهار كما انهار من قبل.

الأمر الثالث: سلاح الباطل – تكذيب الدعوة وتشويه الأنبياء (فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

والآن، بعد أن واجه هذا المثلثُ الإرساليّ القويّ بالآيات والسلطان المبين، ماذا كان رد فعله؟ كلمة واحدة: "فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ". تأمل كيف صيغت هذه التهمة:

أولا ً: "سَاحِرٌ"
لماذا اتهموه بالسحر، مع أن الآيات التي جاء بها هي معجزات إلهية؟ لأنهم لم يستطيعوا إنكار ما رأوه. العصا انقلبت ثعبانًا أمامهم، واليد أضاءت كالقمر. إنه أمر حسّي لا يمكن تكذيبه. فماذا يفعلون؟ يلجأون إلى "إعادة تأطير" الحدث. يقولون للناس: هذا ليس معجزة، بل هو سحر. هو خداع بصري، وتمويه. إنها محاولة لتقليل التأثير النفسي للمعجزة على الجماهير.

ثانيًا: "كَذَّابٌ"
هذه التهمة الثانية أشد وأخطر. بعد أن صوروه ساحرًا، ينتقلون إلى شخصه فيقولون: هو "كذاب". لماذا؟ لأن الرسالة التي يحملها هي التوحيد، والدعوة إلى الله، والتهديد بيوم القيامة. كل هذا، بالنسبة لهم، "كذب". هم لا يكتفون بتشويه المعجزة، بل يسعون لتدمير مصداقية النبي نفسه. يريدون أن يقولوا للجماهير: موسى رجل كذاب، يدعي أنه نبي، ويكذب على الله، ويخدعكم بسحره. لا تثقوا بكلمة مما يقول.

دور الإعلام المعادي والتضييق:
هذا هو عمل "هامان" في العصر الحديث. الإعلام المعادي لا يستطيع دائمًا إنكار الوقائع بالكلية، فيلجأ إلى حرب المصطلحات. يسمي المقاوم "إرهابيًا"، والمصلح "رجعيًا"، والعالم الرباني "متطرفًا". إنه نفس ا لأسلوب: إعادة تأطير الواقع، وتشويه صورة حامل الحق.

· تشويه العقل: يصورون النبي أو الداعية على أنه "مريض نفسي"، أو "مسحور"، أو "مغسول الدماغ"، أو "يعيش في الماضي" .قال المشركون عن النبي محمد ﷺ: "مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ"، و "سَاحِرٌ كَذَّابٌ" .إنها التهمة نفسها تتكررا الهدف: إسقاط احترام الناس له، فمن يتبع رجلا ً مريضًا في عقله، أو كذابًا في نقله؟
· تشويه الأتباع: وحين يفشلون في تشويه القائد، يشوهون الأتباع .يقولون عنهم: إنهم "مغيبون"، "سذج"، "مخدوعون" .وهذا ما فعله فرعون حين قال عن موسى وأتباعه: "إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ" .تقليل العدد، وإظهار الغضب منهم.

اللمسات البيانية والبلاغية والرسائل:

· البلاغة في لفظ "فقالوا": الفاء للتعقيب .فور رؤية الآيات، مباشرة، دون تفكر أو تدبر، قالوها .هذا يدل على أن رد فعلهم كان انعكاسيًا، صادرًا عن عناد وكبر، لا عن عقل يبحث عن الحق.
· تنكير "ساحر" و"كذاب": جاءت الكلمتان نكرتين للتهويل والتقليل معًا ."هو مجرد ساحر، مجرد كذاب" . إنهم يحاولون أن يجعلوه واحدًا من عامة السحرة والكذبة، ليهونوا من عظمة شأنه.

الرسائل التربوية والنفسية والفكرية:

· نفسيًا: على الداعية والمصلح أن يتوقع هذا السلاح .عندما يراك أهل الباطل واضحًا في دعوتك، قويًا في حجتك، سيلجأون إلى الطعن في شخصك .لا تحزن، ولا تنكسر، ولا تستغرب .هذا هو طريق الأنبياء قبلك .إن معرفة هذا يمنحك مناعة نفسية ضد كلام الناس .تذكر أنهم قالوا عن موسى، الذي كلمه الله تكليمًا: "ساحر كذاب"، فماذا ينتظر من يأتي بعده؟
· فكريًا: هذه الآية تعلمك ألا تنخدع بتحليلات الإعلام المعادي .انظر دائمًا إلى الدليل والبرهان، لا إلى التصنيفات الجاهزة .من هو الساحر الكذاب حقًا؟ أهو الذي يأتي بالحق أم الذي يحاربه بالافتراء؟ علم أولادك وأتباعك أن يحللوا الخطاب الإعلامي، وأن يتساءلوا: ما الدافع خلف هذا الوصف؟ ولماذا لا يناقشون الفكرة بدل الطعن في الشخص؟
· عقائديًا: تثبت الآية أن الكافرين في كل زمان لهم طريقة واحدة .تكذيب الرسل والاستهزاء بهم .هذا يزيد المؤمن يقينًا بأن منهج الأنبياء واحد، وأن عداوة الباطل لهم واحدة، وبالتالي، فإن العاقبة واحدة.

الأمر الرابع: تصاعد الجريمة – من التشويه إلى القمع (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا...)

هنا تنكشف الطباع الفرعونية بالكامل. الآية التي تليها (25) تكمل المشهد: "فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ".

· "جَاءَهُم بِالْحَقِّ": الحق هو الرسالة نفسها، هو القرآن النازل على النبي، هو التوراة على موسى .إنه النور الذي يفضح ظلماتهم ."من عندنا" تكرير للتأكيد على مصدره الإلهي.
· ماذا كان ردهم؟: لم يكتفوا هذه المرة بالتشويه الإعلامي) "ساحر كذاب"(، بل انتقلوا إلى مرحلة التصفية الجسدية ."اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ" .هذا هو منطق الطغيان: إذا فشل التضليل الإعلامي، ننتقل إلى القمع المسلح .إنهم يريدون اجتثاث شجرة الإيمان من جذورها بقتل الذكور) الذرية والقوة (واستبقاء النساء للخدمة والاستعباد.

والآن، لاحظ المفارقة العجيبة:
فرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل قبل مولد موسى خوفًا من المقاومة. وبعد أن جاء موسى بالحق، عاد إلى السياسة نفسها: قتل الأبناء. لماذا؟ لأنه لم يتعلم. ولماذا يكررها؟ لأنه ليس عنده حل آخر. إنه لا يستطيع مواجهة الحق بالحجة، فيلجأ للحديد والنار. هذا هو المنهج الواحد للمستبدين عبر التاريخ: عندما يُهزمون فكريًا، يلجأون للقمع الجسدي، ظانين أنهم بقتل الأبدان يستطيعون قتل الفكرة.

الرسائل الفكرية والنفسية والعقائدية والتربوية:

· عقائديًا وفكريًا: الآية ترسخ أن الفكرة الصحيحة لا تموت بموت حامليها .بل إن دماءهم تكون وقودًا لانتصارها .فرعون يريد إخماد الثورة، ولكن القتل زادها اشتعالا ً .وفي النهاية: "وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ"، أي في خسار وهلاك .كل تخطيطهم، كل مؤامراتهم، كل قوتهم ...مصيرها الفشل والضلال .هذا هو القانون.
· نفسيًا: على المؤمنين في كل مكان وزمان أن يدركوا أن التضييق والاضطهاد هو "توقيع" يثبت أنهم على الطريق الصحيح .لقد استحق أتباع موسى القتل في نظر فرعون .لم يستحقوا الإهمال، بل استحقوا التصفية .فإذا وجدت نفسك مستهدفًا من طغيان ما، فتذكر أن هذا شرف .إنهم لا يضطهدون إلا من يخافون تأثيره.
· تربويًا: تعلمنا الآية أن نكون واضحين في تقديم الحق، وألا نتفاجأ من ردود الفعل العنيفة .علم أبناءك أن يثبتوا على المبدأ، حتى في وجه التهديد .علمهم قصة السحرة الذين آمنوا بموسى، فتوعدهم فرعون بالقتل والصلب، فقالوا: "فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ" .هذا هو التثبيت الذي يجب أن نربيهم عليه.

خلاصة الرحلة: خريطة طريق للداعية والمؤمن في كل زمان

انظر كيف تشكل هاتان الآيتان مع الآيات السابقة منظومة متكاملة. كنّا في الآية 21 و22 في رحلة سير ونظر لاستخلاص قانون: الأخذ بالذنوب، والسبب الجذري هو الكفر بالبينات. والآن في الآية 23 و24، تحصل على الدراسة الميدانية التفصيلية لهذا القانون.

الآيات تعطيك النموذج الأكبر والأخطر: موسى ضد فرعون وهامان وقارون. وتكشف لك منهجية واحدة:

.1طريقة الدعاء: الحق يأتي بالبينات والسلطان المبين.
.2طباع الكفار في كل زمان: واحدة لا تتغير .تحالف بين المال والسلطة والإعلام لمواجهة الحق.
.3أسلوبهم الإعلامي: التشويه والطعن في الشخص والنوايا) "ساحر كذاب".(
.4أسلوبهم العملي حين يفشل الإعلام: القمع والتصفية الجسدية) "اقتلوا أبناء".(
.5النهاية المحتومة: كيدهم في ضلال، وسنة الله في أخذهم ماضية.

الذي يريده منا المولى في هاتين الآيتين:

.1أن نقرأ التاريخ قراءة صحيحة: لا للترفيه، بل لنأخذ الدروس .أن نرى في فرعون كل طاغية، وفي هامان كل إعلامي فاسد ومستشار خائن، وفي قارون كل رأس مال متوحش .هذا هو "الاعتبار" المطلوب في الآية.21
.2أن نثبت على منهج الدعوة: نقدم الحق واضحًا مدعومًا بالبراهين، ولا نلتفت لتشويه المشوهين .سلاحنا هو الآيات والسلطان المبين، لا العنف ولا الانفعال.
.3أن نوقن بسنة الله: أن العاقبة للمتقين، ولا يغرننا تجمع الباطل وتحالف قواه .فالجبهة التي تبدو صماء هي في الحقيقة هشة؛ لأنها قامت على الكفر، والله هو القوي الذي يكيد لها من حيث لا تحتسب.

إنها دعوة لأن تكون "موسوي" العصر، تواجه طغيان المال والإعلام والسلطة بالحق الذي جاء من عند

الله، واثقًا بأن كيد الكافرين لن يعدو كونه في ضلال، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
ثانيا
حسنًا، لنكمل رحلتنا مع سورة غافر، وكأننا لم نقرأ هذه الآية من قبل. نحن الآن أمام مرآة أخرى تُسقط لنا مشهدًا من التاريخ، لنرى فيه وجه حاضرنا. لقد فهمنا من الآية السابقة مثلث الشر: فرعون وهامان وقارون، ورأينا كيف كان ردهم الأول على الحق: "ساحر كذاب". والآن، وقد فشل هذا السلاح ا لإعلامي، ماذا تبقى لهم؟ الآية الخامسة والعشرون تفتح لنا صفحة جديدة من هذا الصراع، وتكشف لنا عن الطبيعة الحقيقية للطغيان عندما يُهزم فكريًا. تأمل معي المشهد بكل تفاصيله الدقيقة، ف الله يُسمِعُك همساتهم الخفية.

قال الله جل جلاله:

فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
[غافر: 25]

دعنا نتوقف هنا في هذه اللحظة الفارقة، حيث ينتقل الصراع من مرحلة الكلمة والاتهام، إلى مرحلة الحديد والنار.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآية

الآية 25 من سورة غافر هي خريطة متكاملة لمراحل الصراع الأزلي بين الحق والباطل. إنها تقدم لنا الأفكار الجوهرية التالية:

· انتقال الصراع من مرحلة الإعلام إلى مرحلة القمع: بعد أن فشلت كل وسائل التضليل والتشويه الإع لامي، لم يجد الباطل إلا أن يلجأ إلى السيف.
· كشف منهج الدولة العميقة) فرعون وهامان وقارون(: الآية تظهر لنا أن هذا القرار لم يكن فرديًا، بل كان مؤامرة جماعية) "قالوا" .(إنه تكتل المصالح الذي يخاف على عرشه وماله ونفوذه من انتصار الحق.
· شمولية الإيذاء للمؤمنين: الأذى هنا تجاوز الطائفية والعنصرية ليصبح عقابًا جماعيًا لكل من آمن، سواء كان من بني إسرائيل أو من الأقباط، مما يؤكد أن المعركة هي معركة عقيدة.
· حتمية فشل كيد الكافرين: مهما بلغت قوة الطغيان وتخطيطه، فإن نهايته محسومة: "وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" .إنه قانون إلهي يمنح المؤمنين الصبر والثقة.

والآن، دعنا نغوص في تفاصيل هذه الأفكار، ونحن نستحضر واقعنا المعاصر في كل خطوة.

الأمر الأول: مفترق الطرق – لماذا انتقلوا من الكلمة إلى السيف؟ (فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا)

دعنا نقف مع الافتتاحية القرآنية الباهرة: "فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا".
تأمل معي هذا الانتقال في حرف "الفاء" و"لما". "لما" هي ظرفية تفيد التوقيت الدقيق. إنها تشير إلى لحظة فارقة، مفترق طرق في تاريخ الصراع. وكأن الآية تقول لك: في اللحظة التي اكتمل فيها البيان ، ووصل الحق إلى ذروته، في تلك اللحظة بالذات حدث الانقلاب.

ما هو "الحق" الذي جاء به موسى؟
ليس مجرد الرسالة الشفوية، بل هو "الحَقّ" المطلق، مقترنًا بقوله "مِنْ عِندِنَا"، ليزيده قوة وتوكيدًا. هذا الحق هو:

.1الحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي أقامها موسى.
.2الانتصار المدوي في المعركة العلنية التي حشد لها فرعون كل قوته .تذكر المباراة التي جمع فيها السحرة من كل مصر .لقد كانت لحظة حاسمة، معركة فكرية وحسية أرادها فرعون أن تكون نهاية لموسى.
.3وماذا كانت النتيجة؟ هزيمة السحرة هزيمة نكراء، لم تكن هزيمة عادية، بل كانت هزيمة مدوية جعلت السحرة أنفسهم، وهم نخبة المجتمع وعلماؤه، يخرون ساجدين ويعلنون إيمانهم برب موسى وهارون .هذا الإعلان كان بمثابة انهيار الجبهة الداخلية لفرعون.

والآن، اسأل نفسك: هل استجاب فرعون وملؤه بعد هذا البيان القاطع؟ هل آمنوا؟ هل صدقوا؟
الجواب هو في الآية: "قَالُوا". لم يقولوا: "آمنا" كما قال السحرة، بل قالوا شيئًا آخر. لقد كان موقفهم

هو الكبر والعناد. عندما يفشل الباطل في مواجهة الحق بالحجة، وعندما يعجز عن الصمود أمام البرهان، فإنه لا يستسلم، بل تتغير استراتيجيته فورًا. إنه ينتقل من محاولة إطفاء نور الحق بالتضليل الإعلامي، إلى محاولة إطفائه بإطفاء حامليه.

هكذا هو الطغيان في كل زمان ومكان. عندما يخسر المعركة الفكرية، وعندما تفضحه الحقائق، وعندما ينهزم أمام الرأي العام، فإنه يلجأ إلى القمع المسلح. هذا هو القانون الذي نراه يتكرر: من فرعون الذي قال "ساحر كذاب" ليمنع الناس من الاستماع، ثم "اقتلوا أبناء" حين فشل، إلى طغاة عصرنا الذين يبدأون بحملات إعلامية لتشويه المصلحين ووصمهم بالإرهاب والتطرف، وعندما يفشل هذا المسار، ينتقلون إلى الاعتقالات والتصفية الجسدية.

الأمر الثاني: الدولة العميقة وكشف المؤامرة (قَالُوا اقْتُلُوا)

تأمل الآن في كلمة واحدة هي محور هذه الآية: "قَالُوا". من هم الذين قالوا؟
لم يقل الله "قال فرعون"، بل قال بصيغة الجمع: "قَالُوا". إنه فرعون وهامان وقارون وملؤهم. إنها الدولة العميقة مجتمعة، التي تتشاور في الغرف المغلقة، وتخطط في الظلام، وتتخذ القرارات المصيرية.

لماذا هذا التشاور والتآمر؟
إنهم خائفون. هاهم السحرة، وهم من صفوتهم، قد آمنوا. الخطر قادم على مصالحهم وملكهم وسلطانهم وجاههم. فرعون خائف على عرشه، وهامان على وزارته ونفوذه، وقارون على ماله وسلطته الاقتصادية. هذه المصالح المشتركة هي التي دفعتهم للتواصي باستعمال القوة.
إنهم يريدون إيقاف نور الله، ومنع الناس من اتباعه بكل ما لديهم من سلطة وجاه ومال. هذا هو بـ
الضبط ما فعله مشركو قريش مع النبي ﷺ. بدأوا بالاستهزاء واتهامه بالسحر والكهانة والجنون، ولما فشلوا في صده عن الدعوة، تآمروا في دار الندوة، وقالوا مقولتهم المشهورة: "اقتلوه".

وهو ما يحدث في واقعنا المعاصر تمامًا!
ألا ترى كيف تجتمع النخب السياسية والإعلامية والمالية في وجه أي إصلاح حقيقي؟ عندما يظهر مصلح ينادي بالعدل والحرية، فإنهم يبدأون أولا ً بتشويه صورته إعلاميًا. لكن عندما يرون أن الناس بدأوا يلتفون حوله، وأن الحجة قد ثبتت، وأن "السحرة" الجدد قد بدأوا يؤمنون، عندها ينتقلون إلى التخطيط للقمع. القرار ليس فرديًا، بل هو نتاج تآمر للدولة العميقة التي تخشى على مصالحها. هذا هو الدرس الذي تقدمه لك هذه الآية: لا تندهش، فالتاريخ دائمًا يعيد نفسه.

الأمر الثالث: شمولية الإيذاء – الإرهاب الجسدي والأخلاقي (اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ)

والآن نصل إلى ذروة الجريمة: "اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ". هذا هو الأمر الصريح ، قرار الإبادة والتدمير. ولكن دعنا نتوقف هنا لنفهم الأبعاد الدقيقة لهذا الأمر، فهو ليس مجرد أمر بـ
القتل.

أولا ً: الفرق بين قتل الأبناء هنا والقتل السابق.
أشار موسى عليه السلام إلى هذا بنفسه عندما قال في سورة إبراهيم: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ".

· القتل الأول) قبل مولد موسى(: كان بدافع العنصرية والطائفية .فرعون كان يستضعف بني إسرائيل كطائفة، ويذبح أبناءهم خوفًا من المولود الذي سيُذهب ملكه، ويستحيي نساءهم للإذلال والخدمة .
كان هذا استعبادًا طائفيًا منظمًا .لقد جعل أهل مصر شيعًا، يستضعف طائفة منهم ويمنعهم من حق المواطنة والحياة بحرية.
· القتل الثاني) هنا في الآية(25 : هذا أمر جديد، بدافع العقاب على الإيمان .إنه موجه "أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" .لاحظ الفرق: لم يعد الأمر مقصورًا على بني إسرائيل .الآن، كل من آمن بموسى أصبح مستهدفًا، سواء كان من بني إسرائيل أو من الأقباط أنفسهم! انظر إلى السحرة الذين آمنوا، لقد صاروا في نظر فرعون أقل منزلة، بل صاروا مستحقين للقتل والتعذيب لأنهم تخلوا عن "سلالتهم النقية" و"دين الدولة".

هذا هو الذي يفسر قول بني إسرائيل لموسى في سورة الأعراف: "قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا" [الأعراف: 129]. إنهم يقولون له: يا موسى، كنا نُضطهد ونُذبح قبل أن تأتي، والآن وقد

جئت، ها نحن نُضطهد ونُذبح معك، ومعنا هذه المرة من آمن بك من الأقباط! دعوتك لم تغير واقعنا، بل أوقع أذى جديدًا على قوم فرعون الذين صدقوك!

ثانيًا: دلالة "واستحيوا نساءهم".
لماذا الأمر باستحياء النساء تحديدًا؟

· للإذلال النفسي العميق وتدمير الأعراض: إنه سلاح حرب نفسية وأخلاقية قذر .قتل الرجال ينهي وجودهم، واستحياء النساء يعني استعبادهن وسبيهن، وهو أمر يهدم كرامة المؤمنين، ويجعل من أعراضهم ساحة للنيل منهم .هذا السلاح هو نفسه الذي يُستخدم اليوم في كل الحروب غير الأخلاقية ضد المصلحين، حيث تُستهدف أعراضهم وعائلاتهم لتشويههم وإسكاتهم عن بكرة أبيهم.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من هذا المشهد:

· فكريًا: الآية تعلمنا أن الإيمان عابر للقوميات والطوائف .فالدماء التي سالت هي دماء مؤمنين من أصول مختلفة، وحدتهم العقيدة في مواجهة الطغيان .كما تعلمنا أن الطغيان إذا شعر بالخطر الحقيقي، فإنه يسحق كل الحواجز ويضرب بيد من حديد، مستهدفًا الجميع.
· نفسيًا: هذه الآية فيها تثبيت عجيب للمؤمن في وجه الاضطهاد .إنها تقول له: لا تستغرب .هذا طريق الدعوة .لقد أوذي من هم خير منك .اشعر بالعزة أنت وأسرتك، لأنكم استهدفتم كما استهدف أهل الحق من قبلكم .هذا الاضطهاد هو "شهادة ميلاد" ثورية.
· تربويًا: علم أولادك أن طريق الإيمان شاق ومليء بالتضحيات، ولكن نهايته النصر .عدم خداعهم بأن التدين سيجلب لهم الراحة الفورية في الدنيا .بل هون عليهم الشدائد بذكر قصص الأولين، وقل لهم: انظروا ماذا قالوا عن موسى، وماذا خططوا له ولأتباعه، ولكن انظروا إلى النهاية.

الأمر الرابع: حتمية الفشل – ختام يثلج الصدور (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

والآن، بعد أن رأيت كل هذا الإجرام، يأتي التعقيب الإلهي ليطمئن قلبك ويمسح على جراحك: "وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ".
ما أروع هذا الختام وما أعمقه!

تأمل معي لمساته البلاغية:

· "وَمَا": نافية للجنس، تفيد النفي المؤكد المطلق.
· "إِلَّا": أداة حصر.
· "فِي ضَلَالٍ": في خسار وتيه وهلاك واضمحلال .ولم يقل "يؤول إلى ضلال"، بل هو الآن، في الحال، "فِي ضَلَالٍ" .منذ لحظة التخطيط الأولى، هم غارقون في التيه .هي معادلة محسومة: أي كيد ضد الحق هو في جوهره ضلال، وفي طياته هلاكه.

ماذا تعني هذه الجملة عمليًا؟
إنها تعني أن كل تلك المؤامرات والدسائس التي حاكها فرعون وهامان وقارون، وكل خططهم الإ جرامية لقتل الحق وحملته، مصيرها الفشل الذريع. كيدهم واقع في ضلال، أي في طريق مسدود، في متاهة لا مخرج منها. إنهم يخططون ويدبرون، ولكن تخطيطهم نفسه هو الذي سيقودهم إلى الهاوية.
إنه قانون إلهي: الباطل، مهما بلغت قوته وتجبره، يحمل بذور فنائه في داخله. القتل والقمع لن يقضيا على الفكرة، بل سيزيدان أتباع الحق صلابة وإيمانًا، وكلما ظن الطغاة أنهم اقتربوا من النصر، كانوا في الحقيقة يقتربون من حتفهم.

فالتفكير السيء، والظلم، والكيد، يأخذ صاحبه بعيدًا في طريق وعر لا مخرج منه، ليقول لنا الله جلت قدرته: إن الصبر والثقة بنصر الله والطاعة لأوامره هي المخرج الوحيد لنا، وهي القوة الحقيقية التي تحمينا من بطش الطواغيت وتجبرهم.

الأبعاد الكاملة للآية ورسائلها

١.الأبعاد العقائدية:

· ترسخ الآية يقينًا مطلقًا بأن نصر الله آتٍ لا محالة .كل هذا التآمر والكيد هو في ضلال، ولن يغير من وعد الله شيئًا .هذا يمنح المؤمن طمأنينة عجيبة، ويعلمه أن يتجاوز الأسباب الظاهرية ويرتبط بمسبب الأسباب.

· تبرز كمال القدرة الإلهية في إحاطة كيد الكافرين وجعله في ضلال.

٢.الأبعاد العقلية والفكرية:

· تمنحنا الآية أداة تحليلية دقيقة لفهم الصراعات: هناك مرحلة أولى هي "الحرب الناعمة") الإعلام و التضليل(، ومرحلة ثانية هي "الحرب الصلبة") القمع والتنكيل .(فبمعرفة هذه المراحل، لا يرتبك المؤمن ولا يتفاجأ.
· ترسخ مفهوم الدولة العميقة التي تدير الصراع لحماية مصالحها، وهذه المعلومة تفتح آفاقًا جديدة لفهم الواقع السياسي والاجتماعي.

٣.الأبعاد النفسية والتربوية:

· علاج للإحباط: هذه الآية عيادة نفسية .إذا شعرت بالإحباط وأنت ترى الباطل ينتفش ويتحالف ويخطط، تذكر: "وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" .لا تحزن، ولا تيأس، فالله يرى ويسمع.
· بناء الوعي والصبر: تعلمنا الآية أن طريق الإيمان يحتاج إلى صبر عظيم، لأن الأذى سيقع حتمًا .هذا يبني في النفس "المناعة النفسية" اللازمة للثبات.

٤.الرسائل العملية:

· في الدعوة: كن واضحًا وقويًا، ولا تخف من ردود الفعل .اعلم أنهم إذا عجزوا عن الرد على فكرتك فسيحاولون النيل من شخصك، وإذا فشلوا فسينتقلون إلى محاولة إسكاتك بالقوة .هذا دليل على أنك على الطريق الصحيح.
· في مواجهة الأزمات: علم أبناءك وأهلك أن ما تمر به الأمة من كيد وتآمر هو سنة ماضية، وأن العاقبة للمتقين .اصبروا وصابروا ورابطوا، وكونوا على يقين بأن الخلق لو اجتمعوا على أن يضروكم بشيء لم يكتبه الله عليكم، فلن يستطيعوا ذلك.

خلاصة الرحلة

انظر كيف تتكامل السورة في بناء الوعي. في الآية 21 دعانا الله للسير والنظر، وفي الآية 22 كشف لنا عن علة الهلاك وهي الكفر بالبينات، وفي الآية 23 و24 عرض علينا النموذج الأكبر (موسى ضد فرعون وهامان وقارون) وكيف كان أول رد فعل لهم هو التشويه. والآن، في الآية 25، نرى كيف يفشل التشويه ويتحول الصراع إلى مواجهة عنيفة، ليكشف لنا المستور ويؤكد لنا أن كيدهم إلى زوال.

إن هذه الآية هي رسالة إلى كل مؤمن ومصلح: لا ترهبك قوة الطغيان، ولا يغرنك تحالف المال و السلطة والإعلام، ولا تنكسر نفسك من شدة الإيذاء. إنهم يخططون، ولكن الله يمكر، والله خير الماكرين. وكيدهم، مهما بدا محكمًا، هو في ضلال. فالله ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآ خرة، وانصرنا على القوم الكافرين.
ثالثا
حسنًا، سنمضي معًا في رحلة جديدة مع آيتين تشكلان معًا لوحة فنية متكاملة من الصراع بين الحق والباطل .لقد رأينا في الآيات السابقة كيف بدأ فرعون وملؤه بمحاولة تشويه الحق بحرب المصطلحات)ساحر كذاب(، ثم كيف انتقلوا إلى مرحلة القمع الجسدي والتنكيل) اقتلوا أبناء .(...والآن، بعد أن فشلت كل هذه المراحل، وبعد أن رأوا إصرار المؤمنين وصمودهم الأسطوري تحت وطأة التعذيب، ماذا تبقى لهم؟ تبقى لهم الورقة الأخيرة، الفكرة الشيطانية التي يعتقد كل طاغية أنها الحل السحري: تصفية القائد نفسه .إنها المرحلة الثالثة، مرحلة الاغتيال والتصفية الجسدية لقائد المسيرة.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيتان

الآيتان 26 و 27من سورة غافر تقدمان لنا مشهدًا دراميًا بالغ الأهمية، وتكشفان عن أفكار جوهرية في الصراع الأبدي:

1.المرحلة الثالثة من الصراع: بعد فشل الإعلام والتضليل، وبعد فشل القمع الجماعي، يلجأ الطغيان إلى خطة تصفية القائد ظنًا منه أن الفكرة تموت بموت حاملها.
2.كشف الاهتزاز الداخلي للطاغية: الآية لا تصور فرعون متجبرًا واثقًا، بل مهزوزًا خائفًا يستجدي الإ ذن من حاشيته لقتل موسى، مما يفضح الخوف الكامن في قلب كل ظالم.
3.تزييف المفاهيم: الصراع هو في جوهره صراع مفاهيم .فرعون يقلب الحقائق، ويصور دعوة العدل

على أنها فساد، ودعوة التوحيد على أنها تبديل للدين، ليخدع الجماهير ويحشدهم خلفه.
4.سلاح المؤمن الأخير: في مواجهة كل هذه المؤامرات، يلجأ موسى إلى الله، إلى الرب الذي يحمي ويرعى، ليكون هذا الالتجاء هو الحصن الحصين الذي لا يُقهر.

الأمر الأول: المرحلة الثالثة – مؤامرة تصفية القائد) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ(

تأمل معي قول الله جل جلاله: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ" .إنه إعلان مدوٍ بالانتقال إلى أعلى مستويات الصراع .بعد أن فشلت مرحلة "الدعاية الإعلامية" التي قادها هامان وأعوانه، والتي ظهرت في قولهم "ساحر كذاب") الآية(24 ، وبعد أن فشلت مرحلة "القمع الجسدي الجماعي" الذي تمثل في ا لأمر الشنيع "اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم") الآية(25 ، وبعد أن ثبت المؤمنون وصبروا، ها هو فرعون يصل إلى قناعة بأن كل تلك الوسائل لم تنجح في إيقاف المد الإيماني .الناس ما زالت تؤمن، والدعوة ما زالت تنتشر، والفكرة ما زالت حية.

ما مغزى قوله "ذَرُونِي" وهو الملك الذي لا يُسأل عما يفعل؟
هنا تكمن اللطيفة العظيمة التي كشفها القرآن .فرعون القوي، الطاغية الذي قال "أنا ربكم الأعلى"، و الذي كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء دون تردد، يقف الآن أمام حاشيته ووزرائه) هامان وقارون وأمثالهما (وكأنه يستأذنهم! "ذَرُونِي" أي اتركوني ودعوني وشأني .إنه يكشف عن حوار داخلي مرير كان دائرًا بينه وبين أركان دولته العميقة .هؤلاء الذين كانوا أضلاع مثلث الشر: المال) قارون(، والإعلام و النفوذ) هامان(، والجنود والوزراء .لقد كان هناك تردد وخوف في هذه الجلسة السرية.

لماذا كان هذا التردد؟ وما الذي تخشاه أركان الدولة العميقة؟
هم يرون ما لا يراه فرعون في ثورة غضبه وكبريائه المجروح .هم خائفون من أمرين، كلاهما يدل على أنهم مهزوزون من الداخل:

1.الخوف من حماية الله لموسى: لقد رأوا الآيات البينات) العصا، اليد، وانتصاره على السحرة .(هم يعرفون في قرارة أنفسهم أنه ليس ساحرًا كذابًا، بل هو نبي مؤيد من السماء .يخافون إن قتلوه أن تدعو عليهم السماء فتحل بهم اللعنة والهلاك .إنه خوف دفين من القوة الإلهية التي تحمي النبي.
2.الخوف من انتفاضة أتباعه: مع كل هذا القمع والتعذيب، أعداد المؤمنين تزيد .قتل القائد قد يكون الشرارة التي تفجر ثورة عارمة لا يمكن السيطرة عليها.

هذا التردد بين أعوان فرعون هو الذي جعله يصرخ فيهم: "اتركوني أقتله!" .إنه يريد أن يتجاوز خوفهم، أن يتحمل هو وحده التبعات .وهذا المشهد بذاته يُظهر لنا حقيقة نفسية مهمة: الطاغية مهزوز من الداخل! مهما بلغ جبروته، ومهما علا صوته، فإن الحق يزلزله، وصمود المؤمنين يفتت ثقته .إنه يشعر أن المعركة ليست معركة سيوف وجنود فقط، بل هي معركة أعصاب وإرادات وعزائم، وهو يخسرها ببطء.

وهو ما نراه في واقعنا المعاصر تمامًا!
سبحان الله! تتطابق الآية تمامًا مع ما نراه اليوم .لقد شاهدنا بأعيننا كيف يلجأ أعداء الحق إلى هذه الاستراتيجية بالضبط عندما يفشلون في كسر إرادة الشعوب والمقاومة .ألم يغتال الاحتلالُ الشيخَ أحمد ياسين وهو قعيد على كرسيه لا يملك سلاحًا؟ ألم يغتالوا خلفه الرنتيسي؟ ألم يغتالوا إسماعيل هنية وقادة كبارًا؟ ظنوا، كما ظن أسلافهم الفراعنة، أن الفكرة تموت بموت القائد .ظنوا أنهم بقتل الجسد يقتلون الروح .وهل ماتت الفكرة؟ هل انتهت المقاومة؟
كلا، لقد زادت اشتعالًا، وخرجت أجيال جديدة أكثر تمسكًا بالحق، وأكثر استعدادًا للتضحية .إنها سنة الله: الفكرة الحق لا تموت، بل تسقى بدماء قادتها لتنمو وتكبر .هذا هو الدرس الذي تريد هذه الآية أن تحفره في وجدانك: لا تخف على الحق، فحاميه هو الله .إن قتل القادة الربانيين ليس نهاية المعركة، بل هو غالبًا بداية مرحلة جديدة من مراحل النصر.

الأمر الثاني: صراع المفاهيم – قلب الحقائق وتزييفها) إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ(

والآن، وقد أعلن فرعون عزمه على القتل، كيف يبرر هذه الجريمة النكراء؟ كيف يقنع حاشيته وشعبه بأن قتل نبي الله هو عمل صائب؟ هنا نصل إلى قمة العبقرية الشيطانية في التضليل، إلى جوهر الصراع بين الحق والباطل: تزييف المفاهيم.

يقول فرعون: "إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ" .انظر بعين قلبك وعقلك إلى هذه الجريمة المركبة .إنه لا يكتفي بأن يريد القتل، بل يحاول أن يصور ضحيته على أنه هو المجرم،

وهو المفسد، وهو مصدر الخطر! هذه هي سياسة قلب الحقائق التي تستخدمها كل الأنظمة الا ستبدادية عبر التاريخ.

أولا ً: "أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ" – الخوف على نظام الحياة القائم.
ما هو "دينهم" الذي يخاف عليه فرعون؟
دينهم الذي يخاف عليه ليس العقيدة بمعناها النقي، ففرعون نفسه يدعي الألوهية! إنما هو "النظام العام" الذي تسير عليه البلاد، النظام الذي يضمن لفرعون وملئه المصالح والمنافع والمزايا، نظام العبودية لغير الله، نظام الطبقية والظلم .إنه يخاطب المنتفعين من هذا النظام، ورجال الدولة العميقة، وعامة الناس الذين يخدعهم إعلامه قائلا ً: "موسى يريد أن يغير نظامكم! يريد أن يبدل طريقتكم في الحياة! يريد أن يزعزع أمنكم واستقراركم!".
وهذا يحدث اليوم! كم من مصلح نادى بالحرية والعدالة، فاتهمه الطغاة بأنه "يهدد أمن البلد"، و"يعبث باستقرار المجتمع"، و"يغير هويتنا"!

ثانيًا: "أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ" – الزعم بأن العدل هو الفساد بعينه.
هذه هي أقصى درجات تزييف المفاهيم .موسى جاء ليحارب الفساد، ليقيم القسط، ليحرر الناس من العبودية! فماذا يسمي فرعون ذلك؟ يسميه "فسادًا"! .كيف؟
لأن تصور فرعون للمصالح قائم على الكبر والأنانية والذات .إنه يرى في إعطاء الضعفاء لحقوقهم وفي نيلهم حريتهم تهديدًا لمكانته وسلطانه، وهذا التهديد هو "الفساد" في نظره .إنه يعتبر النظام القائم على الاستبداد هو "الصلاح"، لأن هذا الصلاح يحقق السعادة الشخصية للمتسلطين، وأي محاولة لتغييره هي "إفساد في الأرض" .هو يصور للمجتمع أن العبيد سيصبحون حكامًا، وأن الأغنياء سيفقدون أموالهم، وأن الأشراف سيساوَوْن بالعامة، وكأن هذا هو الخراب والدمار بعينه.

**ولاحظ يا أخي الحبيب، كيف يفضح الله هذا المنطق الأعوج في سورة أخرى على لسان فرعون عندما قال: "أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ"] الزخرف: [52 إنه يقرن حجته بالمادة و الملك، "فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب"، لأنه لا يملك حجة على الحق، فيلجأ لتزييف مفهوم القيمة والعظمة .العظيم عنده هو من يملك المال والسلطان لا من يحمل الحق والبيان.

ماذا يعني مفهوم تزييف المفاهيم؟
إنه يعني أن يغير الطاغية من معاني الكلمات ودلالاتها لخدمة أغراضه.

· العدل عنده فساد.
· الحرية عنده فوضى.
· المصلح عنده مخرّب.
· الإرهابي) في مصطلحهم الحديث (هو من يقاوم الاحتلال، والمحتل هو من يدافع عن نفسه!
هكذا يكون الكبر قد أعمى بصيرته، وأفسد تصوره، فصار يرى الأمور بعين مقلوبة، عين الشيطان التي ترى النور ظلامًا والظلام نورًا .إنه أسير لرغباته وشهواته، وأسير لخوفه من زوال منصبه وجاهه .
إنه يرفض الحق لا لأنه غير مقتنع به، بل لأنه يتعارض مع مصالحه، فيخترع هذه التهم ليبقى في مكانه.

الأمر الثالث: سلاح المؤمن الأخير – الالتجاء إلى الله) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ(

في خضم هذه العاصفة الهوجاء، وقد بلغ السيل الزبى، وأعلن عن قرار الاغتيال صراحة، ماذا يفعل موسى عليه السلام؟ هل يخطط لمواجهة؟ هل يجمع جيشًا؟ هل يحاول الهرب؟ كلا .إنه يلجأ إلى مصدر القوة الوحيد الذي لا يُغلب .إنه نموذج للقائد الرباني الذي يعرف أن المعركة ليست معركة عض لات، بل معركة إيمان وتوكل.

"وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم".

· "عُذْتُ": كلمة جامعة .معناها التجأت، تحصنت، استجرت، احتميت .إنه إعلان الفرار من كل قوى الأ رض إلى قوة السماء .إنه تسليم مطلق بأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله .هذا هو منطق الأنبياء: بعد أن يستنفدوا كل الأسباب الدعوية) الآيات والسلطان المبين(، وبعد أن يصبروا على كل الأذى) التشويه الإعلامي، القتل، التعذيب(، وبعد أن يواجهوا الموت المحقق) مؤامرة الاغتيال(، فإنهم لا يحزنون ولا ييأسون، بل يزدادون إيمانًا وتسليمًا، ويلجأون إلى الله.
· "بِرَبِّي وَرَبِّكُم": انظر إلى البلاغة، لم يقل "بربي" فقط، بل أضاف "وربكم" .إنه يذكرهم ولو في هذه

اللحظة الحرجة بحقيقة الألوهية! كأنه يقول لهم: أنا لا أعوذ بقوة قبلية أو عسكرية، بل أعوذ "بالرب"، الخالق، المربي، الحامي، الذي هو ربي وربكم أنتم أيضًا، ولو أنكرتم ذلك .إنه يفضح كفرهم في نفس اللحظة التي يستجير فيها بربهم الحق!

ومم يستعيذ بالله؟ من شر ماذا؟
"مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ" .هنا يكشف القرآن عن أصل الداء.
لم يقل "من فرعون"، بل قال "من كل متكبر"، ليجعل هذا الدعاء خالدًا لكل زمان ومكان .ثم وصف المتكبر بصفة واحدة هي علة كل علله: "لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ".

إنه تشخيص دقيق:

· الكبر هو الذي يمنعه من قبول الحق، لأنه يرى أن اتباع موسى يحط من قدره.
· عدم الإيمان بيوم الحساب هو الذي يجعله لا يخاف عاقبة ظلمه، ولا يرجو ثوابًا على ترك الكبر .لقد أنكر الآخرة، فصار همه الوحيد هو الدنيا ومصالحها وملكها .لو كان يؤمن بيوم الحساب، لخاف أن يقف بين يدي الله ذليلا ً حقيرًا، فكان ذلك رادعًا له عن كبره .هذا هو الفارق بين قارون الذي قال "إنما أوتيته على علم عندي"، وموسى الذي علق أمله ورجاءه بالله رب العالمين.

إن عدم الإيمان بيوم الحساب هو الذي يجرئ الطغاة على كل هذه الجرائم .إنهم لا يتصورون أن هنالك عدالة مطلقة ستقتص للمظلوم من الظالم، فيظنون أنهم قادرون على الإفلات من العقاب . موسى يعلن أنه سيحتمي بالله من هذه الآفة، آفة الكبر المتولدة عن نسيان الآخرة.

الرسائل التربوية والنفسية والعقائدية:

· عقائديًا: ترسخ الآية أن الحماية الحقيقية هي من الله .وأن الدعاء واللجوء إلى الله هو أقوى سلاح في ترسانة المؤمن، خاصة عندما تنقطع كل الأسباب المادية.
· نفسيًا: تعطي الآية المؤمن طمأنينة عجيبة .مهما كان الطاغية قويًا، ومهما بلغت مؤامراته، فإنك تستطيع أن تعوذ بربك وربه منه .هذا يمنحك شجاعة هائلة، ويحررك من الخوف.
· تربويًا: علم أبناءك هذا الدعاء، واغرس فيهم معنى أن يلجأوا إلى الله في كل شدة، وخاصة عند مواجهة الظلم والغطرسة .قل لهم: انظروا كيف كان موسى يفعل، لم يخاف فرعون لأنه واثق بربه.

الأبعاد المتكاملة للآيتين: كيف تبنيان الإنسان؟

والآن، بعد هذا الغوص، دعنا نرسم معًا خريطة الأبعاد التي تفتحها هاتان الآيتان في كيانك الفردي و الجمعي:

.١الأبعاد العقائدية) اليقين في الله(:

· كمال القدرة الإلهية: الله هو القوي الذي يحمي عباده المؤمنين .موسى وحده في مواجهة إمبراطورية، لكنه مع الله، فكانت كفة الله هي الراجحة .هذا يبني يقينًا مطلقًا بأن نصر الله آتٍ لا محالة، حتى لو بدت كل الأسباب الظاهرية مع الباطل.
· حتمية نصرة الحق: الآية تؤكد أن الباطل مهما بلغ من القوة، فهو في النهاية مهزوم من الداخل، خائف، مرتبك .قرارهم بقتل موسى هو إعلان إفلاسهم من أي حجة، وهو ليس دليل قوة في الحقيقة بل دليل ضعف واهتزاز.

.٢الأبعاد العقلية والفكرية) فهم الصراع وتحليل الواقع(:

· منهج تحليل الصراع: تمنحنا الآية إطارًا فكريًا متكاملا ً لفهم أي صراع .الصراع ليس فقط عسكريًا، بل هو صراع على المفاهيم أولا ً .العدو يسعى دائمًا لقلب الحقائق وتزييف المصطلحات .فإذا فهمت ذلك، أصبحت واعيًا لحرب الإعلام والدعاية، وأدركت معاني الكلمات الحقيقية خلف ستارها الزائف.
· الدولة العميقة: ترينا الآية هرمية الباطل التي تشكلت من فرعون وهامان وقارون .إنها أداة تحليلية تنطبق على واقعنا، حيث نرى تحالف السلطة والمال والإعلام في مواجهة أي إصلاح حقيقي .هذا الفهم يزيل عنك الحيرة والغفلة.

.٣الأبعاد النفسية والتربوية) بناء القوة الداخلية والثبات(:

· علاج الخوف والقلق: الآية عيادة نفسية متكاملة .علمتنا أن الطاغية خائف، وأنه مهزوز، وأن قوته

الظاهرية قشرة رقيقة تخفي رعبًا دفينًا .هذا المعنى وحده كفيل بأن ينزع هيبة الظالم من قلبك.
· بناء الصبر والثبات: الثبات على المبدأ في وجه التعذيب والتنكيل هو قوة بحد ذاتها؛ قوة تفتت معنويات العدو وتجعله يائسًا من إخضاعك، فيضطر إلى التفكير في الاغتيال بعد أن يفشل في كسر إرادتك .الآية تعلمنا أن الصبر والإرادة والعزيمة هي عناصر قوة المؤمن، لا المال ولا الجاه ولا السلطان.
· تعزيز التوكل والالتجاء إلى الله: أعظم درس عملي هو أن تتعلم الالتجاء إلى الله في كل شدة . "عذت بربي وربكم" هي كلمة السر التي تمنحك السكينة والثبات والقوة في مواجهة أعتى الطغاة.

.٤الآفاق الفكرية والحضارية) صناعة الوعي الجمعي(:

· التحرر من وهم القوة المادية: الآية تحطم صنمية القائد والقوة .ففرعون "الإله" المزعوم يخور ويخاف ويلجأ للمؤامرة القذرة .هذا يحرر العقول من الخضوع للطواغيت المعاصرين، مهما بلغت قوتهم التكنولوجية والعسكرية.
· إعادة تعريف النصر: النصر ليس فقط في البقاء الجسدي .القائد الذي يغتال هو شهيد حي عند ربه، وقضيته التي ضحى من أجلها تستمر وتنتصر .هذا المنظور الحضاري يحرر الأمة من حالة اليأس التي تعتريها عند استشهاد قادتها، ويحول لحظة الحزن إلى وقود للاستمرار.

خاتمة: كيف نطبق الدروس عمليًا؟

إذن، ما الذي يريده منا المولى في هاتين الآيتين بالضبط؟

.1في واقعنا المعاصر: انظر إلى ما يحدث من اغتيالات للقادة الصادقين حول العالم .لا تنظر إليها بعين الهزيمة، بل بعين هذه الآية .هؤلاء القادة هزمت إرادتهم الصلبة وصمودهم الأسطوري أعتى آلة عسكرية في التاريخ، فلم يجد العدو بدًا من اغتيالهم لأنه عجز عن كسرهم .هذا هو النصر بعينه، ف العدو يعلن فشله بيده التي تضغط على الزناد.
.2في حياتك الشخصية: عندما نواجه بأساليب تزييف المفاهيم، مثل أن تتهم بالإرهاب أو الرجعية أو التطرف لأنك تدافع عن الحق أو عن قيمك، تذكر فرعون .لا تنخدع بمصطلحاتهم المقلوبة، واثبت على مبادئك .كن واضحًا في دعوتك، صبورًا على أذاهم، مدركًا أن هذه التهم دليل على أنك على الطريق الصحيح.
.3في مواجهة الاضطهاد: إذا تعرضت للظلم أو التعذيب أو التضييق بسبب إيمانك أو أفكارك، فتذكر ثبات المؤمنين مع موسى، وتذكر أن صبرهم هو الذي هز عرش فرعون وجعله يصرخ "ذروني اقتل موسى" .صمودك هو سلاحك .وكلما اشتدت بك المحنة، ردّد بقلب موقن: "إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب".

الخلاصة: إن هاتين الآيتين ليستا مجرد قصة تاريخية، بل هما بوصلة لقلبك، ودليل لعقلك، وسند لنفسك .إنهما تهمسان لك: لا ترهبك قوة الباطل، ولا تخدعك دعايته، ولا تيأس لاستشهاد قادتك .ربك هو الحامي، وهو الناصر، وحده القوي المتين، وكيد الكافرين في النهاية ...في ضلال.
رابعا
حسنًا، سنقف الآن مع آية هي واحدة من أروع مشاهد الصراع بين الحق والباطل .بعد أن سمعنا تهديد فرعون العلني بتصفية موسى عليه السلام، وسمعنا تزييفه للمفاهيم بأنه يخاف على "دينهم" من "الفساد" الذي سينشره موسى، وقبل أن نصل إلى دعاء موسى والتجائه بربه، تأتي هذه الآية لتضيء لنا زاوية مدهشة من المعركة .إنها تكشف لنا أن نور الله لا يحده مكان، وأن الحق يمكن أن ينبت في قلب أمير في قصر الطاغية نفسه.

تأمل معي كيف يصوغ الله هذا المشهد: "وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ") غافر:.(28

إنها آية محورية، تعرض لنا وجهًا آخر للحق، وتقدم درسًا استراتيجيًا في الدعوة ومواجهة الطغيان . إنها تكشف عن اتساع دائرة الإيمان لتصل إلى البلاط الملكي، حيث قذف نوره في قلب هذا الرجل، فأصبح يرى حقائق الأمور، وأوصلته فطرته إلى تيجان الحكمة وغور العلم واليقين، فانبرى لمواجهة الباطل وتفنيد حججه.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآية

هذه الآية الكريمة ترسم لنا خريطة متكاملة للنضال الفكري والسياسي من داخل معسكر الباطل،

وتتمحور حول الأفكار الجوهرية التالية:

1.اتساع دائرة الإيمان لتشمل "البلاط الملكي": الإيمان ليس حكرًا على طائفة أو طبقة، بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، حتى لو كان "من آل فرعون".
2.نموذج "الرجولة المؤمنة" في أخطر المواقع: إنها تقدم صفات الرجل المؤمن الحق، الذي تتوفر فيه معاني الذكورة والعزيمة والإرادة والشجاعة، ولكنه أيضًا يتحلى بالذكاء الاستراتيجي فيكتم إيمانه ليخدم الدين من موقع التأثير.
3.فن تفنيد الحجج وفضح تزييف المفاهيم: الرجل المؤمن لم يكتف بالرفض الصامت، بل واجه الطاغية وحاشيته بالمنطق والعقل، مفندًا حججهم وموضحًا زيف اتهاماتهم.
4.منهج الحكمة في الدعوة والجدال: يعلمنا أسلوبًا متوازنًا في الحوار مع الخصم، يجمع بين الحجة القاطعة والأدب الرفيع، دافعًا للوصول إلى الحقيقة بغض النظر عن العواقب الشخصية.

الأمر الأول: سر من أسرار الإيمان – كيف ينبت النور في قلب الظلام؟) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ(

لنبدأ رحلتنا مع الكلمات الأولى:"وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ" .إنه مشهد يهز الوجدان ، ويؤكد أن الله قادر على أن يستخرج الحق من قلب أقسى بيئات الباطل.

أولا ً: لماذا لم يُذكر اسمه؟ دلالات بلاغية وعملية:
تأمل معي: القرآن لم يذكر اسم هذا البطل .لم يقل "وقال حزقيل" أو "شمعون" كما تذكر بعض التفاسير .لماذا؟ هناك دلالات عظيمة في هذا الإبهام:

· حماية له: إخفاء اسمه هو تكريم له، وحماية لذريته أو لمن قد يعرفهم من بعده .فالدعوة في أوقات الخطر قد تتطلب الكتمان حتى على المستوى الشخصي.
· تعميم للدرس: لكي لا يكون النموذج شخصًا واحدًا مرتبطًا بزمانه فقط، بل ليصبح "رمزًا" لكل إنسان يعيش في نظام فاسد، ويجد في نفسه القدرة والشجاعة والإيمان لأن يقف مع الحق، ولو كان متربعًا في عقر دار الباطل .أنت اليوم تستطيع أن تكون أنت ذلك "الرجل المؤمن من آل فرعون" في موقعك ومكانك.

ثانيًا: دلالة وصفه بـ "رجل":
لماذا وصفه بـ "رجل" بالتحديد؟ هذا الوصف عظيم الدلالة .إنه يشير إلى أن هذا المؤمن توفرت فيه معاني "الرجولة" الحقيقية:

· الذكورة الإيمانية: ليست مجرد ذكورة جسدية، بل هي رجولة الفكر والموقف، رجولة العزيمة والإ رادة.
· حمل الحق والدفاع عنه: الرجل هو من يحمل همّ الحق، ويتخلى عن الكبر والشهوات والمصالح الشخصية في سبيل الله .إنه الرجل الذي يخاف الله ولا يخاف في الله لومة لائم.
· الشجاعة العاقلة: إنه شجاع بما يكفي ليواجه فرعون، وذكي بما يكفي ليكتم إيمانه حتى اللحظة الحاسمة .فكتمانه لإيمانه لم يكن جبنًا أبدًا، بل كان تخطيطًا استراتيجيًا لخدمة الدين من داخل مصدر القرار .ألم يخف النبي ﷺ أمر الدعوة في بداياتها عن المشركين خوفًا على أتباعه وحفاظًا على سرية التنظيم؟ هذا هو فقه المرحلة.

ثالثًا: دلالة "مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ":
هذه الكلمة هي مفتاح المفاجأة .لم يكن هذا الرجل من بني إسرائيل المستضعفين، ولا من عامة الأ قباط .كان "من آل فرعون" .أي من بيت فرعون نفسه، من الأسرة الحاكمة، من البلاط الملكي، من الطبقة العليا، ربما كان مستشارًا أو قريبًا أو أحد كبار رجال الدولة .إنه من نفس الدائرة التي يهابها الجميع، دائرة "فرعون وهامان وقارون" .ومع ذلك، ها هو ذا يؤمن ويكتم إيمانه.

ما الذي نتعلمه من ذلك في حياتنا العملية وفي مسيرتنا الدعوية؟

1.لا تيأس من أحد: لا تحكم على أحد أنه أبعد ما يكون عن الخير لمجرد انتمائه للنظام الفاسد .ف الله قادر أن يهدي قلوبًا في عمق معاقل الباطل .هذا يعطينا أملا ً في إصلاح الواقع.
2.أهمية العمل من الداخل: هذا الرجل يمثل نموذجًا للداعية الذي يعمل تحت الأرض، أو في مواقع حساسة داخل الأنظمة، ليؤثر في مسار الأحداث ويكون مصدر تغيير من حيث لا يتوقع أحد .كم من شخص يعيش بيننا اليوم، في مواقع إعلامية أو سياسية أو اقتصادية، يكتم إيمانه الحقيقي أو مبادئه، وينتظر اللحظة المناسبة ليخدم بها الحق؟ إنهم "جند الله المجهولون".

3.التوازن بين الكتمان والإعلان: عاش هذا الرجل حياته في القصر مواليًا في الظاهر، وكرهًا للحق حتى قذف الله النور في قلبه، فبدأ يعمل بصمت .ولكن عندما حانت اللحظة الفارقة، تلك اللحظة التي قد يُقتل فيها نبي الله، لم يستطع السكوت أكثر .أعلن عن جزء من إيمانه بطريقة ذكية غير مباشرة ليدافع عن الحق .هذا يعلمنا أن كتمان الإيمان له ضوابط، وأن السكوت عن الحق في اللحظات المصيرية خيانة.

الأمر الثاني: مواجهة تزييف المفاهيم – تفنيد التهمة وتحرير الساحة) أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ(...

والآن، وقد كشف لنا القرآن عن هوية المتحدث، نأتي إلى جوهر الخطاب وعبقريته .إنه يقف أمام الطاغية وحاشيته، ويبدأ حجته باستفهام تعجبي استنكاري: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟"
ما أبلغ هذا السؤال! إنه يختصر القضية كلها .إنه يعيد تأطير المشهد الذي زيفه فرعون .يسألهم بدهشة: ألهذه الدرجة؟! أتقتلون إنسانًا ليس جرمه إلا أنه قال: "ربي الله"؟! إنه يبرز لهم تفاهة التهمة، وسفاهة الجريمة التي يوشكون على ارتكابها.

إنه يواجه تزييف فرعون للمفاهيم مباشرة .فرعون قال: "إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في ا لأرض الفساد" .لقد صور موسى على أنه مصدر خطر وفساد .أما هذا الرجل المؤمن فيقول لهم: كلا، موسى ليس مفسدًا، بل هو مصلح .إنه يقول الحق: "ربي الله" .فما الضرر في هذه الكلمة؟ ما الجريمة في إعلان التوحيد؟
ثم يضيف أمرًا ثانيًا: "وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ" .إنه لا يكتفي بالدفاع عن موسى، بل يقدم أدلة الإثبات على صدقه .يقول لهم: انظروا! ليس هو مجرد رجل يدعي النبوة، بل قد أتاكم بتسع آيات واضحات، معجزات قاطعات من عند الله .فكيف تجمعون بين أمرين متناقضين: شخص يقول كلمة الحق) ربي الله(، ويؤيده الله بالبينات الواضحات من عنده، ثم تنوون قتله؟! أين العقل؟ أين المنطق؟

الدرس العملي في مواجهة التضليل الإعلامي:
هذا هو بالضبط ما نحتاجه في زماننا .في خضم سيل الأكاذيب التي يطلقها إعلام الطغاة، واتهامهم المصلحين بالإرهاب والفساد وزعزعة الأمن، واجبنا أن نعيد تعريف القضية كما فعل هذا الرجل المؤمن .أن نقول للناس بمنتهى البساطة والمنطق: "انظروا ماذا يقول هذا الرجل) أو هذه الحركة، أو هذه الدعوة(؟ هل يدعو إلا إلى الخير والعدل والتحرر من العبودية؟ وما هي بيناته؟ أليست أخلاقه وإخلاصه وصبره وتضحياته؟ فكيف يكون هكذا ثم تسمونه إرهابيًا مفسدًا؟" .هذه هي الجرأة الفكرية التي تنزع أقنعة الباطل وتكشف زيفه.

الأمر الثالث: الحجة المنطقية المفحمة – معادلة الصدق والكذب) وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ(...

ثم يرتقي الرجل المؤمن في حجته إلى مستوى أعلى، فيقدم لهم معادلة منطقية عادلة لا يستطيع عقل منصف رفضها .إنه يخاطبهم بطريقة فيها حكمة وتغليب لمصلحة الحقيقة، بعيدًا عن التعصب الأ عمى:

1."وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ":
هذا هو أسلم الاحتمالات وأكثرها حذرًا .يقول لهم: أسوأ الاحتمالات، في عقولكم، أن يكون موسى كاذبًا .فإذا كان الأمر كذلك، فإن ضرر كذبه سيعود عليه هو لا عليكم .هو الذي سيتحمل إثم افترائه على الله، وسيحاسبه الله على ذلك .فلماذا تقتلونه إذا كان الله هو الذي سيتولى أمره؟ لماذا تتدخلون أنتم وتتحملون وزر قتله؟ إنه يذكرهم هنا بشكل غير مباشر بما جاء في الآية السابقة، أنهم هم الذين سيقع عليهم سوء العاقبة إن كان صادقًا.

2."وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ":
هذا هو الاحتمال الراجح في ضوء البينات .يقول لهم: ولكن، ماذا لو كان صادقًا؟ هل فكرتم في هذه النتيجة الكارثية؟ إنه لا يقول "يصبكم كل"، بل قال "بعض الذي يعدكم" .هذا منتهى الأدب والحكمة . إنه يكفيهم تحذيرًا وتهديدًا بـ"بعض" العذاب الذي ينذرهم به موسى) كالخسف أو الطوفان أو الجراد، حيث كان الهلاك الجزئي هو المقدمة .(إنه يحذرهم من أن بعضًا من هذا العقاب الموعود به في الدنيا قبل الآخرة، سيكون عظيمًا بما يكفي .فإن كنتم لا تؤمنون بالآخرة، خافوا على الأقل من هذا "البعض" الذي قد يصيبكم إذا قتلتم نبي الله.

3.الخلاصة المنطقية: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ":
ثم يختم حجته بهذا القانون الإلهي .يقول: أنا لا أستطيع أن أتصور أن رجلا ً يكون "مسرفًا"

)يتجاوز الحد في الكذب على الله (و"كذابًا" في ادعائه، ثم يؤيده الله بكل هذه البينات الواضحة، وينصره ويهديه إلى هذا الحق .إن الله لا يهدي إلى الحق ولا يوفق في دعوته إنسانًا هذا شأنه .هذه حجة عقلية بليغة، لأن البينات الظاهرة على يديه هي دليل قطعي على أنه ليس مسرفًا كذابًا، بل هو صادق مهتدٍ.

الدروس والرسائل والتوجيهات من هذا الأسلوب الحواري:

· فن الجدال بالتي هي أحسن: انظر كيف خاطبهم الرجل المؤمن بـ "يا قوم"، فذكرهم بأنهم قومه، فاستعطفهم، وجعل الحوار داخليًا لا خارجيًا.
· استخدام المنطق والعقل: لم يهددهم بالسيف، ولا بالشتائم، بل استعمل العقل والمنطق .وهذا يعلمنا أن العقل السليم هو حجة قوية ضد الباطل.
· فقه الأولويات وتفنيد الحجة: لأول وهلة، قد يخاف الداعية من مناقشة فكرة "لعله كذاب"، لأنه يريد أن يثبت الحق بشكل قاطع .لكن الرجل المؤمن أخذ القضية من زاوية أوسع، وانتقل من مرحلة إثبات صدق موسى) وهي ثابتة عنده (إلى مرحلة إثبات سخف قرار قتله حتى على افتراض كذبه . إنه يتنزل إلى مستوى عقولهم ليبين لهم أن موقفهم "غبي" بكل المقاييس! وهذا هو عين الحكمة.

الأمر الرابع: الدروس العملية والتطبيقية – ماذا تريد منا هذه الآية؟

والآن، بعد أن أبحرنا في أعماق هذه الآية، حان وقت التطبيق .كيف ننزل هذه المعاني إلى أرض الواقع، ونحن نواجه فراعنة عصرنا وهاماناته وقاروناته؟

.١في حياتك الشخصية وموقعك العملي:
أنت لديك موقع، مهما كان صغيرًا .هذه الآية تقول لك: لا تقلل من شأن موقعك .هذا الرجل كان في البلاط الملكي، وكان يسمع ويرى، ولما حانت اللحظة المناسبة، نطق بكلمة الحق .أنت أيضًا، في عملك، في جامعتك، في عائلتك، في مواقع التواصل الاجتماعي، قد تكون محاطًا بمن يتبنون فكرًا باطلا ً أو يمارسون الظلم .لا تبرر صمتك بأنك لن تغير شيئًا، أو بالخوف .تعلم من "مؤمن آل فرعون":

· كيف تخفي بعض قناعاتك إذا تطلب الأمر: ليس نفاقًا، بل تكتيكًا لتبقى في الموقع وتؤثر وقت الحاجة.
· كيف تختار توقيت كلمة الحق: كلمة واحدة في التوقيت المناسب قد تغير مجرى الأحداث.
· كيف تكون شجاعًا: الشجاعة ليست التهور، بل هي اتخاذ القرار الصعب في اللحظة الحاسمة، مع التحسب للعواقب والتضحية في سبيل الله.

.٢في مسيرتنا الدعوية المعاصرة:
أعظم درس هو أهمية العمل من داخل المؤسسات .كم نحن بحاجة إلى "مؤمني آل فرعون" في عصرنا! إلى إعلاميين مخلصين يخفون توجههم الإصلاحي قليلا ً ليكتسبوا ثقة الجماهير ثم يوجهونهم بلطف! إلى خبراء اقتصاديين وقانونيين يعملون بصمت على تعديل الأنظمة من الداخل نحو ما يرضي الله! إلى أساتذة جامعات ينفخون في طلابهم روح النقد والسؤال والبحث عن الحق دون أن يعلنوها صراحة فتقطع أعناقهم باكرًا! الدعوة إلى الله ليست فقط من على المنابر، بل تكون من غرف الأخبار، ومن قاعات المحاكم، ومن استوديوهات السينما، ومن مجالس الإدارة، حيث يحتاج كل مكان إلى رجاله المؤمنين الشجعان الأذكياء.

.٣في مواجهة حرب المصطلحات) تزييف المفاهيم(:
فرعون اتهم موسى بأنه "يريد أن يظهر في الأرض الفساد" .وهذا ما نعيشه اليوم، حيث أصبح "المحافظ" متطرفًا، و"المقاوم" إرهابيًا، و"المصلح" مزعزعًا للأمن .الدرس الذي يعطينا إياه الرجل المؤمن هو: انزعوا غطاء المفاهيم أولا ً .لا تتركوا العدو يتحكم في تعريف الكلمات .خاطبوا الناس بمنطق بسيط: "هذا الرجل يقول: ربي الله، ويدعو للعدل، ويأمر بالمعروف، فأين الإرهاب في هذا؟" . تذكروا أن منطق "مؤمن آل فرعون" هو الذي هز القصر، لا قوة السلاح.

خلاصة الآية: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

الله سبحانه وتعالى يريد منا بهذه الآية ثلاثة أمور أساسية:

.1أن نوقن بأن نصره آتٍ من حيث لا نحتسب: لا أحد يعرف كيف سينصر الله دينه .قد يكون النصر على يد رجل من قلب معسكر أعدائك .لا تحصر أسباب النصر في إطارك الضيق، وثق بـالله، واعمل أنت في مكانك.

.2أن نكون "رجالا ً مؤمنين" بكل ما تحمله الكلمة من معنى: رجالا ً في فكرنا، في حكمتنا، في صبرنا، في تخطيطنا، وفي شجاعتنا .رجالا ً لا يغرهم الجاه ولا يخيفهم التهديد، يجمعون بين الكتمان الاستراتيجي والجهر بالحق في وقته.
.3أن نمتلك أداة الحجة والمنطق: لا يكفي أن تكون على حق، بل يجب أن تجيد تقديم الحق بـ الحكمة والموعظة الحسنة، وتفنيد حجج الباطل بالمنطق الذي يفهمه الخصم قبل الصديق.

إن هذه الآية ليست مجرد مشهد تاريخي، بل هي دعوة مفتوحة لك أيها المؤمن أينما كنت: كن أنت الرجل المؤمن في زمنك .لا تقل إن الطغيان أقوى مني، فإن كنت لا تستطيع مواجهته باليد أو اللسان ، فواجهه بقلبك وكتمانك، وخطط وانظر وانتظر، واعلم أن "دوام الحال من المحال"، وأن فرعون سيسقط، وأنك سترى نصر الله ولو بعد حين
سادسا
.والآن، وقد وقفنا بقلوب خاشعة على مشهد "مؤمن آل فرعون" وهو يعلن كلمة الحق من داخل البلاط الملكي، ويفند حجج الطغاة بتلك الحكمة الباهرة، دعنا ننتقل إلى الجزء الثاني من خطبته .لقد دافع عن موسى عليه السلام، والآن ينتقل إلى تحذير قومه وإنذارهم، واصفًا لهم المصير المحتوم الذي ينتظرهم إن هم أقدموا على قتل نبي الله .إنه مشهد تتجلى فيه أسمى معاني اللين والتودد في الدعوة، وفي المقابل تتكشف فيه طبيعة الطغيان الدكتاتورية التي لا تقبل الرأي الآخر.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يصف هذه اللحظة الفارقة:

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ
]غافر:[29

إن هذه الآية تقدم لنا خلاصة الصراع بين منهجين: منهج الناصح المشفق الذي يخاطب العقول و القلوب، ومنهج الطاغية المتعالي الذي يصادر العقول ويحتكر الرأي .فلنبدأ رحلتنا مع هذه الآية، مستلهمين منها الدروس لواقعنا المعاصر.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآية

الآية التاسعة والعشرون من سورة غافر هي لوحة متكاملة الأركان، ترسم لنا ملامح الصراع الفكري و النفسي في أروقة السلطة، وتعرض لنا الأفكار الجوهرية التالية:

.1قمة اللين والتودد في الدعوة: نرى كيف يستخدم المؤمن آل فرعون أسلوب النداء بـ "يا قوم" ليحرك مشاعر الود والقرابة، ممهدًا الطريق لقبول النصح، وهذا درس بالغ الأهمية لكل داعية ومصلح.
.2زوال الملك الدنيوي وفناء القوة الظاهرية: يحذرهم المؤمن بأن هذا التمكين والملك والسيطرة ما هو إلا أمر مؤقت) "الْيَوْمَ"(، وأنه لا قدرة لأحد على رد بأس الله إذا نزل، مهما بلغت قوته.
.3طبيعة المتسلطين ورفضهم للنصيحة: يظهر رد فرعون الطبيعة الدكتاتورية للمستبدين، فهم لا يقبلون الرأي الآخر، ويدّعون احتكار الحق لأنفسهم، ويرفضون أي مشورة صادقة.
.4الوقوع في استدراج الله: غرور الطاغية وادعاؤه أنه الهادي الوحيد إلى سبيل الرشاد، هو عين الضلال الذي يهلكه ويهلك قومه، كما قال الله في موضع آخر: "فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ" . وهذا هو الاستدراج الإلهي.

الأمر الأول: سحر الكلمة الطيبة – منهج اللين والتودد في الدعوة) يَا قَوْمِ(

دعنا نقف أولا ً وقفة تأمل وإجلال مع هذا الافتتاح العجيب: "يَا قَوْمِ" .تأمل معي كم مرة تكرر هذا النداء على لسان الرجل المؤمن في هذه السورة) الآيات29 ،30 ،32 ،38 ،(41 ! إنها ليست صدفة، بل هي استراتيجية خطابية محكمة .الرجل المؤمن لم يقل "يا فرعون" أو "يا أيها الملأ" أو "يا أصحاب القصر"، بل قال "يَا قَوْمِ".

لماذا هذا التودد؟ وما أهميته في الدعوة؟
إن كلمة "يا قوم" تحمل معاني سامية .إنه يخاطبهم لا بوصفهم الوظيفي أو الطبقي، بل بوصفهم أهله وناسه وعشيرته .إنه يمد جسور المودة والقرابة ليذيب ما ترسب في قلوبهم من شكوك في نيته .إنه يقول لهم بلسان حاله: أنا فرد منكم، لحمي من لحمكم، دمي من دمكم .أنا لا أتكلم من منطلق حاقد عليكم، ولا أريد بكم سوءًا .إن ما أقول لكم هو من منطلق حرصي عليكم، كما يحرص المرء على أهله وقومه .هذا الأسلوب ينزع الفتيل، ويُشعر المستمع أن المتكلم ليس طرفًا خارجيًا معاديًا، بل هو منهم، يشاركهم همومهم ويخاف عليهم مما هم قادمون عليه.

لقد أراد الله سبحانه أن يعلمنا درسًا عمليًا عظيمًا في الدعوة: علينا أن ننتقي الألفاظ التي تحرك مشاعر الود والقرابة لتعود الناس إلى جادة الصواب، وأن نبتعد عن ألفاظ التنفير التي تغلق القلوب وتوغر الصدور .ألم يقل الله لموسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون: "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ") طه:(44 ؟ إنها القاعدة الذهبية في الدعوة والإصلاح.

أمثلة واقعية من حياتنا المعاصرة:
تخيل أنك ترى أخًا لك أو صديقًا مقربًا يقع في خطأ عقدي أو سلوكي كبير .لو هاجمته وقلت له: "يا ضال!" أو "يا منحرف!"، كيف سيكون رده؟ الغالب أنه سينفر منك، وسيغلق سمعه وقلبه عنك .لكن لو جئته بلطف وقلت له: "يا حبيبي، يا ابن العم، يا صديقي، أنا أخاف عليك، وأريد مصلحتك..."، ألن يكون هذا أدعى للاستماع؟ هذا هو الأسلوب القرآني في التغيير.
وكم من مصلح اليوم يخسر قضيته لأنه يستخدم لغة قاسية جافة في مخاطبة الجماهير أو حتى خصومه! وكم من داعية استطاع أن يصل إلى قلوب لم يصل إليها غيره، لأنه تحلى بالرفق واللين و التودد، وجعل الناس يشعرون أنه واحد منهم!

الرسائل التربوية والنفسية والفكرية من هذا الأسلوب:

· تربويًا: الآية تعلمنا أن نبدأ بالإصلاح دائمًا من أقرب الناس إلينا، وأن نستثير فيهم عاطفة الأخوة و القرابة.
· نفسيًا: هذا الأسلوب يريح نفس المتكلم من ثقل العداء، ويجعله متساميًا على نفسه، ويخفف من حدة التوتر عند المتلقي، مما يجعل كلامه أكثر قبولا ً.
· فكريًا: هو إدراك أن الهدف ليس الانتصار للذات، بل هداية الناس وإنقاذهم .فإذا كان الهدف نبيلا ً، وجب أن تكون الوسيلة نبيلة.

الأمر الثاني: التذكير بزوال الملك وفناء القوة الظاهرية) لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ(...

والآن، بعد أن مهد بهذا النداء الحنون، انتقل الرجل المؤمن إلى صلب التحذير .إنه يذكرهم بحقيقة دامغة، حقيقة سريعًا ما ينساها أصحاب السلطة والقوة: "لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ" .تأمل معي كل كلمة من هذه العبارة البليغة:

· "لَكُمُ الْمُلْكُ": إقرار بالواقع .هو يعترف لهم بأن الملك والسلطان لهم الآن، وهذه حقيقة لا ينكرها.
· "الْيَوْمَ": هنا مربط الفرس! بكلمة واحدة، يذكرهم أن هذا الملك مقيد بـ "اليوم" .إنه ظرف زماني محدود .بالأمس، قبلكم، كان الملك لغيركم، وغدًا سيكون لغيركم .إنه ليس ملكًا أبديًا، بل هو عارية مستردة.
· "ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ": أي غالبين، مستعلين، متحكمين في مقاليد البلاد .نعم أنتم كذلك، ولكن هل تظنون أن هذا الظهور هو حماية لكم من بأس الله؟ كلا!

ثم يأتي السؤال الذي يزلزل القلوب: "فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا؟" .لاحظ كيف استخدم ضمير "نا" في "ينصرنا" و"جاءنا"! لم يقل "فمن ينصركم"، بل أدخل نفسه معهم .لماذا؟ لأنه واحد منهم، وهو أيضًا ربما يلحقه بعض الأذى إذا نزل البأس الشامل، أو لأنه يريد أن يوهمهم أنه لا يزال منهم ليكون لكلامه وقع أعمق .إنه يسألهم سؤالا ً لا جواب لهم عليه: بأي قوة، بأي جيش، بأي حصن، بأي تكنولوجيا، نستطيع أن ندفع عن أنفسنا عذاب الله إذا جاء؟! إنه يحيلهم إلى العجز المطلق، بعد أن كانوا في قمة الشعور بالقدرة المطلقة .إنه ينقلهم من نشوة "لَكُمُ الْمُلْكُ" إلى حقيقة "لا ملك مع بأس الله".

أمثلة واقعية تقرب الصورة:
انظر حولك في عصرنا هذا .كم من دولة وقوة عظمى قالت "لنا الملك اليوم" و"نحن ظاهرون في الأ رض"؟ ألم ينهار الاتحاد السوفيتي الذي كان يملك ترسانة نووية مرعبة، بين عشية وضحاها، دون أن تنفعه قوته؟ أليست هناك إمبراطوريات مالية وشركات كبرى ظنت أنها تتحكم في اقتصاد العالم، فجاءها الانهيار من حيث لم تحتسب؟ كم من حاكم طاغية كان يقول "من أشد منا قوة"؟ أين هو الآ ن؟ أين بشار الأسد الذي كان جيشه الرابع في العالم كما يزعمون؟ أين القذافي الذي تباهى بخيامه وحرسه الأمازيغ؟ أين غيرهم من الطغاة الصغار والكبار؟ إن سنة الله ماضية: كل ملك مقيد بـ "اليوم"، وكل جبروت له نهاية .لا أحد يستطيع أن يدفع بأس الله إذا جاء، لا بجيش، ولا بمال، ولا بحلفاء .هذا التحذير هو لكل طاغية في كل زمان.

الأمر الثالث: طبيعة المتسلط – الدكتاتورية وادعاء احتكار الرأي) قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ(...

والآن نصل إلى المشهد الأكثر تعبيرًا عن طبيعة النفس البشرية عندما تفسد بالملك والسلطان .بعد أن أرعب الرجل المؤمن قومه بسؤال "فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ"، ماذا كان رد فعل فرعون؟ هل تفكر في كلامه؟ هل استشار حاشيته كما فعل من قبل عندما قال "ذروني اقتل موسى"؟ كلا .لقد انقلب موقفه رأسًا على عقب.
"قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ".

إن هذا الرد هو تجسيد حي لطبيعة الدكتاتور المستبد .فرعون هنا قد شعر بالخطر .لقد شعر أن كلام الرجل المؤمن المنطقي قد يهز ثقة حاشيته به، وقد يؤثر على وزرائه ومستشاريه، وقد يزرع بذور الشك في قلوبهم .خاف من تأثير الداعية المنطقي، فما كان منه إلا أن قطع الحديث فورًا، وتدخل بصفاقة ليفرض رأيه بالقوة.

الرسائل والمفاهيم التي نستخلصها من هذا الرد:

.1رفض الرأي الآخر جملة وتفصيلا ً: "ما أريكم إلا ما أرى" تعني أن رأيي هو الرأي الوحيد .أنا الذي أرى لكم، وأنتم ليس لكم حق الرؤية .لقد أغلق باب الشورى الذي فتحه بقوله "ذروني" .في البداية كان يريد استشارتهم ليشاركوه القرار وتبعاته، ولكنه الآن يحس أنهم قد ينقلبون عليه، فيعود إلى مصادرة الرأي بالكلية.
.2ادعاء احتكار الحقيقة: "وما أهديكم إلا سبيل الرشاد" .هو لا يكتفي بفرض رأيه، بل يدعي بأن رأيه هو "الهدى" والطريق الوحيد للرشاد .كل ما عداه ضلال وباطل .إنه يستخدم لغة دينية ليقدس قراره السياسي.
.3طبيعة المستبد: لا يريد بطانة سوء، بل يريد مستشارين يوافقونه على كل ما يطرح: حتى لو كان قراره يقودهم إلى الهلاك .هو لا يريد عقولا ً ناقدة، ولا آراء صادقة، بل يريد أتباعًا مقلدين، يصفقون له ويؤيدونه .إنه يعتبر أي رأي مخالف مؤامرة تحاك ضد سلطته، ومحاولة للنيل منه ومن مكانته .المستبد مصاب بجنون العظمة، يرى نفسه الأذكى والأعلم، ويرى من حوله أغبياء لا يفهمون مصلحته.

وهذا ما نراه في واقعنا المعاصر تمامًا!
انظر إلى الزعماء الطغاة في التاريخ الحديث والمعاصر .ألا تجدهم يجتمعون حولهم بمستشارين منافقين لا يجرؤون على قول "لا"؟ ألا يطردون كل من ينصحهم بصدق، ويصفونه بالخائن أو العميل؟ ألا نراهم يظهرون في خطاباتهم الإعلامية وهم يلقنون شعوبهم بأنهم وحدهم من يعرفون الطريق إلى "سبيل الرشاد"، وأن أي معارضة هي مؤامرة خارجية؟ هذا هو فرعون في كل عصر، لا يتغير ولا يتبدل .فطبيعة المستبد واحدة، وسلوكياته واحدة.
الأمر الرابع: عاقبة الغرور – الاستدراج الإلهي والهلاك المحتوم

انتهى كلام فرعون عند هذا الحد، ولكن الله سبحانه وتعالى يكشف لنا في موضع آخر ماذا كانت عاقبة هذا الغرور وهذا الادعاء .لقد قال فرعون "وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ"، فأين أوصلهم هذا السبيل؟ يجيب القرآن في سورة هود: "فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ") هود: .(98 إنه قادهم بكل ثقة إلى ...النار! إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .هذا هو الاستدراج الإلهي بعينه .لقد كان فرعون وأتباعه في قمة جبروتهم، يشعرون بالقوة المطلقة، حتى إنه ادعى الألوهية وقال لقومه "ما أريكم إلا ما أرى" .كان معجبًا بنفسه، مسحورًا بقوته، يرى أنه الأحق بالقيادة والرأي .هذا الإعجاب بالنفس والا ستغناء عن هداية الله هو الذي جعله يقع في الفخ الإلهي، فأغرقه الله وقومه في البحر.

ما الذي نتعلمه من هذه الخاتمة؟

· الغرور بداية السقوط: عندما يصل الطاغية إلى حالة من الإعجاب المطلق برأيه، ويرفض أي نقد أو مشورة، فاعلم أن نهايته قد اقتربت .هذه هي سنن الله في الأرض.
· الاستدراج الإلهي خطير جدًا: وهو أن يمد الله الظالم بالنعم والسلطان والقوة، وهو في حقيقة الأمر يزيده بها طغيانًا وإصرارًا على الباطل، ليكون سقوطه بعد ذلك أعظم وأكثر إيلامًا .قال تعالى: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً".
· لا يحزنك كفر الطاغية ورفضه للحق: تذكر أن هذا الرفض هو جزء من سنن الله، وأن العاقبة المحتومة للمتكبرين هي الهلاك .اصبر واثبت على حقك، فالله يمهل ولا يهمل.

خلاصة الآية: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

الله سبحانه وتعالى يريد منا في هذه الآية ثلاثة دروس عملية كبيرة:

.1في مجال الدعوة والإصلاح: تعلموا فن "القول اللين" و"يا قوم" .لا تنفروا الناس بألفاظكم القاسية، بل استثمروا في مشاعر الأخوة والقرابة الإنسانية .كونوا حكماء في خطابكم، فلا تطلبوا من الناس أن يستجيبوا لكم بينما أنتم تنفروهم .إن القلوب إذا نفرت، سدت كل أبواب الفهم والاقتناع.
.2في قراءة التاريخ والواقع: لا تنبهر أبدًا بملك الجبابرة "اليوم" .قل لنفسك دائمًا: "لهم الملك اليوم، ولكن ماذا عن غد؟" .تذكر أن الملك ظل زائل، وأن الذي يبقى هو ملك الله .هذا المنظور يحررك نفسيًا من الخوف منهم، ويجعلك تستعظم بأس الله لا بأسهم .انظر دائمًا إلى نهاياتهم التاريخية، لتأخذ منها العبرة.
.3في فهم طبيعة الطغاة: لا تستغرب عندما ترى طاغية لا يقبل النصيحة، ويصر على رأيه حتى لو قاده إلى الهلاك .هذه هي صفاتهم .إنهم يعيشون في سجن شهواتهم، وهم في استدراك من الله .لا تحزن عليهم، ولا تنكسر نفسك لرفضهم الحق .واجبك أنت أن تؤدي النصيحة بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الهداية فهي بيد الله وحده .إياك أن تطمع في أن تكون من بطانة طاغية على أمل أن تغير من الداخل، فقد يجرك ذلك إلى التهلكة والتنازلات .ولكن إذا كنت في موقعك الذي أنت فيه، فكن كمؤمن آل فرعون؛ حكيماً في خطابك، صادقاً في نصيحتك، شديداً في لحظات الحسم.

إن هذه الآية هي مرآة لوجهين: وجه المؤمن المشفق الذي يريد لقومه النجاة، ووجه الطاغية المغرور الذي يظن أنه هو طريق الرشاد .فاختر لنفسك أي الوجهين تريد أن يكون لك .وخاتمة كل وجه واضحة: الأول إلى جنة ونصر، والآخر إلى نار وبئس القرار

سابعا

لقد شاهدنا في الآية السابقة كيف قاطع فرعون حديث الرجل المؤمن بصفاقة، وكيف أعلن دكتاتوريته قائلا ً: "مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ". في هذه اللحظة، يتوقع المرء أن يصمت هذا الرجل، أو أن يخاف، أو أن ييأس. ولكن انظر ماذا حدث!

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يكمل لنا هذا المشهد المهيب:

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) [غافر: 30-33].

إنها ليست مجرد كلمات، بل هي خطبة مؤمن مشفق، يصرخ في وجه الطغيان بكل حكمة وثبات. إنه لم يتوقف، بل استمر، وبنفس أسلوب التودد والحرص، بل وبأسلوب أكثر قوة وتفصيلا ً في الطرح. إنه ينتقل بهم من التحذير المنطقي (فمن ينصرنا من بأس الله) إلى التحذير التاريخي (مثل يوم الأ حزاب)، ثم إلى التحذير الأخروي (يوم التناد). إنه يستخدم كل ما أوتي من حكمة لإنقاذهم.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيات

هذه الآيات الأربع هي خاتمة خطبة الرجل المؤمن، وتشكل وحدة متكاملة، وتتمحور حول الأفكار الجوهرية التالية:

.1الإصرار على الحق واستمرار النصح بعد المقاطعة: المؤمن الصادق لا يثنيه عن واجبه طغيان الطاغية ولا مقاطعته .بل يصر على كلمة الحق ويستمر في النصح، وهذا درس عظيم للدعاة و المصلحين في كل زمان.
.2استخدام الأمثال ودورها في الدعوة: وظف الرجل المؤمن "مثل يوم الأحزاب" و"دأب" الأمم السابقة كأمثلة تقريبية تلامس الأذهان، وتهز المشاعر، وتزول عنها غشاء الكبر والغرور بالدنيا.
.3لغة التودد والحرص المتواصلة: لم يتخل عن "يا قوم" رغم كل شيء، ليؤكد لهم أن تحذيره ونصحه هو من باب الحرص على سلامتهم، وأنه منهم وإليهم.
.4الجمع بين التحذير الدنيوي والأخروي: ربط لهم بين الهلاك الدنيوي الذي وقع على الأحزاب السابقين) قوم نوح وعاد وثمود(، وبين الهلاك الأخروي) يوم التناد (ليكون التحذير شاملًا لا يدع للقلب منفذًا للغفلة.
.5بيان كمال عدل الله: أكد على أن الله لا يريد ظلمًا للعباد، بل هم من يجلبون الهلاك على أنفسهم بأفعالهم، وهذه هي المسؤولية الشخصية.
.6فضح قيادة فرعون وكشف زيفها: كل هذا الكلام هو رد غير مباشر على قول فرعون "وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ"، ليثبت أن قيادة فرعون تقود إلى الهلاك، وأن الهداية الحقيقية هي بيد الله وحده.
الأمر الأول:
الإصرار على الحق واستمرار النصح بعد المقاطعة – من أين نستمد هذه القوة؟

دعنا نقف أولا ً مع هذه النقطة العظيمة: "وَقَالَ الَّذِي آمَنَ...". تأمل معي! فرعون قاطعه، فرعون رفض رأيه، فرعون أعلن أنه وحده مصدر الرأي، ومع ذلك... لم يصمت هذا الرجل! لقد كان يعلم أن فرعون قد يقتله في أي لحظة، لكنه استمر. لماذا؟

ما الذي نتعلمه من هذا الأسلوب؟
إنه يعلمنا أن موقف الداعية ليس مجرد مهمة يؤديها ما دام الطريق سالكا، بل هو أمانة ورسالة لا تسقط بالمقاطعة أو بالرفض أو حتى بالتهديد. طالما أن هنالك فرصة لإنقاذ نفس، أو لإقامة الحجة، أو لزرع بذرة شك في الباطل، فعلى المؤمن أن يستمر. إنه درس في الصلابة النفسية والإصرار على الخير. إنه يخبرنا: لا تنتظر الإذن من الطاغية لتنطق بالحق، ولا تتوقف عن النصح لمجرد أنهم أعرضوا أو قاطعوك. واجبك أن تؤدي ما عليك، وتبقى قريبًا منهم ما استطعت، وتستمر في طرح الأ دلة والبراهين.

مثال واقعي:
كم من مصلح أو ناصح في مجتمعنا، على مستوى الأسرة أو العمل أو الوطن، حاول أن ينصح المسؤول أو المدير أو الأب، فقوبل بالرفض والاستكبار والمقاطعة، فشعر بالإحباط وتوقف وقال: "لا فائدة منهم". هذا الرجل يعطينا درسًا آخر: لا تفقد الأمل. وظف أساليب جديدة، واستخدم لغة أوضح، وقدم أمثلة أقوى، واجتهد في أن تجد مدخلا ً آخر إلى القلوب. ربما كلمة في وقت آخر تصنع ما لم تصنعه الكلمات الأولى.

الأمر الثاني:
دور الأمثال وأهميتها في الدعوة – لماذا استخدم "مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ" و"دَأْبِ" الأقوام؟

والآن، لاحظ التطور في أسلوب الخطاب. بعد أن قدم الحجة المنطقية في الآية السابقة، ينتقل هنا إلى أسلوب آخر: ضرب الأمثال.

"إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ". ثم يفصل هذا المثل: "مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ".

ما هو المثل هنا؟ وما هو "يوم الأحزاب" و"دأبهم"؟
"يوم الأحزاب" ليس يومًا واحدًا، بل هو جنس الأيام التي تحزبت فيها أمم الكفر على أنبيائهم، فأهلكهم الله. "الدأب" هو العادة المستمرة، والسنن الجارية. إنه يقول لهم: إياكم أن تظنوا أنكم فريدون في جبروتكم! انظروا إلى التاريخ! هناك أمم من قبلكم، مثل قوم نوح وعاد وثمود والذين بعدهم، تحزبوا وتجمعوا على محاربة الحق، وكانوا أشد منكم قوة وبطشًا، فماذا كانت عاقبتهم؟ لقد أهلكهم الله بذنوبهم. فقولوا لي: ما الذي يميزكم أنتم عنهم؟ لماذا تظنون أنكم ستنجون وقد فعلتم مثل أفعالهم بل وأشد؟!

أهمية استخدام الأمثال التقريبية في الدعوة:
انظر يا أخي الحبيب إلى عبقرية هذا الأسلوب:

.1الأمثال تلامس الأذهان: بدلا ً من أن يلقي عليهم محاضرة نظرية في فلسفة التاريخ، ضرب لهم مثلا ً من التاريخ الذي يعرفونه .هو يقول لهم: "أنتم تعرفون قصة نوح، أنتم تعرفون قصة عاد وثمود ...فاجعلوها مرآة لكم!" .هذا يجعل الفكرة أكثر وضوحًا وسهولة في الفهم.
.2الأمثال تهز المشاعر والقلوب: عندما تسمع قصة هلاك عاد بالريح العقيم، وقصة ثمود بالصيحة، وغرق قوم نوح، فإن هذه الصور الحسية المرعبة تهز الوجدان، وتزيل غشاوة الكبر والغرور بالدنيا . إنها تجعل المستمع يتخيل المشهد وكأنه يراه، فيرتعد قلبه.
.3الأمثال تزيل الأوهام: هم يظنون أنهم استثناء من القوانين الإلهية .المثل يقول لهم: كلا، إنها سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا ً .إن مفهوم "الأحزاب" ينطبق عليكم تمامًا كما انطبق على من قبلكم، لأن مقدمات الهلاك هي ذاتها: التكذيب، والكفر، والاستكبار، والتحزب على الحق.

مثال واقعي:
في عصرنا، عندما نريد أن نحذر أمة من عواقب الفساد والظلم، هل نكتفي بإلقاء المواعظ المجردة؟ أم نذكرهم بأمثلة حية؟ أن نقول لهم: "انظروا إلى ألمانيا النازية، كيف تجمعت وتحزبت واغترت بقوتها وكانت نهايتها الدمار". أو "انظروا إلى الاتحاد السوفيتي". أو "انظروا إلى دول إسلامية مجاورة ابتليت بالحروب والفتن والدمار". هذا هو منهج القرآن: استخدموا التاريخ كأمثلة، فالتاريخ يعيد نفسه، و

النهايات تتشابه، والعبر فيها لمن اعتبر.
الأمر الثالث:
تفعيل لغة التودد والحرص – "يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ"

لاحظ كيف أنه لم يمل من تكرار: "يَا قَوْمِ". قالها في الآية 28، ثم في 29، وها هو يكررها في 30 و 32. إنه يربط على قلوبهم بهذه الكلمة. إنها تذكير دائم بأنه ليس عدوًا، بل هو منهم، يحب لهم ما يحب لنفسه.
وقوله: "إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ" هو تعبير عن أسمى درجات النصح والحرص. هو لا يقول "أنا أحذركم" فقط، بل يقول "أنا خائف عليكم". إنه يعيش همّهم، ويتألم لما ينتظرهم. هذا هو قلب المؤمن؛ يخاف على من يضلون، ويتمنى لهم النجاة، حتى لو كانوا أعداءه وطغاته.

كم نحتاج هذا الأسلوب اليوم!
كثيرًا ما نخسر الناس لأننا نخاطبهم من منطلق "أنتم المخطئون، ونحن على صواب"، بينما لو شعر الناس منا أننا خائفون عليهم ومشفقون، وأن تحذيرنا هو من منطلق الحرص لا من منطلق الشماتة أو التعالي، لفتحت قلوبهم قبل آذانهم. علم أبناءك هذا: إذا أردت أن تنصح أحدًا، أشعره بحبك له وخوفك عليه أولا ً، ثم قدم له النصيحة.
الأمر الرابع:
بيان كمال عدل الله – "وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ"

وهنا تأتي واحدة من أعمق اللمسات العقدية في هذا الخطاب. بعد أن ذكر لهم هلاك الأمم السابقة، قد يتساءل سامع: أوَلم يكن في هذا الهلاك ظلمًا؟ فيجيب الرجل المؤمن فورًا: "وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ".

ما دلالة هذا المفهوم وأهميته في حياتنا؟
إنه يرسخ قاعدة عظيمة: الله لا يظلم أحدًا. هلاك الأمم لم يكن ظلمًا، بل كان عدلا ً. "دأبهم" أي أفعالهم وعادتهم في الكفر والطغيان، هي التي استدعت هذا العقاب. إنهم بذنوبهم هم الذين ظلموا أنفسهم. الله غني عن العالمين، لا يريد ظلمًا لعباده لأنه حرم الظلم على نفسه، ولأن رحمته وعدله يمنعانه من ذلك. هذا يعلمنا أن أي عقوبة تحل بنا، فردًا كنا أو جماعة، هي بسبب ذنوبنا وأفعالنا. هذا المفهوم يرسخ فينا المسؤولية الشخصية: لا تتعلل بالظروف، ولا تلم القدر، بل راجع نفسك وأعمالك، فالله لا يريد بك ظلمًا.

الأمر الخامس:
التذكير بالآخرة وأهوالها – "يَوْمَ التَّنَادِ"

بعد أن حذرهم بالتاريخ، انتقل إلى تحذير أشد وأبقى، ليكمل لهم صورة المصير: "وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ". ثم يصف هذا اليوم المهول: "يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ".

ما هو "يوم التناد"؟ ولماذا اختار هذا الوصف بالذات؟
سمي يوم القيامة بـ "يوم التناد" لأن فيه أنواعًا من النداء:

- نداء الفراق: حين ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة.
- نداء الحسرة: حين ينادي الظالم "يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ً".
- نداء الفزع: حين ينادي الناس بعضهم بعضًا طلبًا للنجدة والمساعدة فلا يجدونها.
- ونداء الملائكة: بأمر الله لفصل القضاء.

وهو يوم "تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ"؛ إنه مشهد الهروب والفرار. سيولون الأدبار محاولين الهرب من العذاب، ولكن هيهات! "مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ" لا تجدون ملجأ ولا مانعًا ولا حاميًا من بأس الله. إنه مشهد العجز المطلق، تمامًا كما كانوا في الدنيا في قمة القوة والجبروت!

ثم يختتم بقاعدة كلية: "وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ".
هذه هي النتيجة الحتمية لمن يصر على الضلال ويختاره لنفسه. فرعون يدّعي أنه الهادي إلى سبيل الرشاد، والحقيقة أن الله هو الهادي وحده. ومن يضلله الله بسوء اختياره، فلا هادي له. هذا هو الرد المبطن على فرعون: لست أنت الهادي، بل أنت الضال المضل، والهداية الحقيقية هي هداية الله للحق والعمل الصالح.

الأمر السادس:
مناسبة الخطاب وأهميته – كيف نتعلم مواصفة الخطاب الدعوي المؤثر؟

تأمل معي في روعة هذا الخطاب وتدرجه. هذا هو النموذج العملي لكيفية مخاطبة الطغاة والعصاة:

1.بدأ بالدفاع عن الحق وإبطال التهمة) "أتقتلون رجلا ً أن يقول ربي الله".(
2.ثم قدم الحجة المنطقية) "وإن يك كاذبًا فعليه كذبه...".(
3.ثم حذرهم من زوال ملكهم وعجزهم) "لكم الملك اليوم ...فمن ينصرنا من بأس الله".(
4.ثم، لما قاطعوه وأصروا، لم ييأس، بل انتقل إلى ضرب الأمثال التاريخية) "مثل دأب قوم نوح..." (ليكون التاريخ شاهدًا ومخوفًا.
5.ثم ختم بالتحذير من يوم القيامة) "يوم التناد" (ليجمع لهم بين خوف الدنيا وخوف الآخرة.
6.وطوال الخطاب لم تفارقه لغة التودد) "يا قوم" (والتعبير عن الحرص) "إني أخاف عليكم".(
7.وجعل خطابه مناسبًا للعقول والعواطف معًا، فلم يخاطبهم كفلاسفة، بل كقوم يحبهم ويخاف عليهم ، وقدم لهم صورًا محسوسة تزلزل القلوب.

الدرس العملي:
إن فن الدعوة والحوار يتطلب منا هذا الفقه: أن ننوع الأساليب، وأن ننتقل من الحجة العقلية إلى المثال التاريخي إلى التذكير بالآخرة، وألا نيأس من تكرار النصح ولو قوبلنا بالجفاء. وأن تكون قلوبنا ممتلئة حبًا وشفقة لا حقدًا وكراهية.
الأمر السابع:
قيادة فرعون للهلاك مقابل هداية الله

كل هذا الكلام من الرجل المؤمن هو في الحقيقة تفنيد لدعوى فرعون: "وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ". إنه يقول لقومه بالحال والمقال: انظروا! فرعون يقول لكم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد. وأنا أحذركم من هذا السبيل! إنه سبيل الأحزاب من قبلكم، سبيل قوم نوح وعاد وثمود، سبيل من سار في ركب الكبرياء والجبروت فكان مصيره الهلاك. إنه يقودكم إلى أن تكونوا مثلهم، إلى "يوم التناد"، إلى يوم لا عاصم فيه ولا هادي. فاتركوا قيادة فرعون الضال، واتبعوا هداية الله التي جاء بها موسى. فالقوة الحقيقية والنجاة والسلامة ليست بقيادة فرعون، بل بالايمان والعمل الصالح.
خلاصة الآيات:
ماذا يريد منا المولى في هذه الآيات؟

الله سبحانه وتعالى يريد منا بهذه الآيات الأربع دروسًا عملية وإيمانية عظيمة:

1.لا تيأس من النصح: استمر، وكرر، ونوّع أساليبك، حتى لو قوبلت بالرفض والمقاطعة .واجبك أن تؤدي الأمانة، ولا تملك أنت النتائج.
2.استخدم لغة الود والحرص: "يا قوم إني أخاف عليكم" هي مفتاح القلوب .اجعل الناس يشعرون أنك تحبهم وتخاف عليهم، لا أنك تتعالى عليهم.
3.الأمثال من أفضل طرق الإقناع: استحضر التاريخ، واسرد القصص، واضرب الأمثال مما يراه الناس ويسمعونه، ليكون الكلام أوقع في النفوس وأثبت في العقول.
4.وازن بين الخوفين: ذكر الناس بعواقب الذنوب في الدنيا) زوال النعم، الهلاك، الدمار (وفي الآخرة)أهوال يوم القيامة (ليكون ذلك رادعًا شاملا ً.
5.اثبت أن القيادة الطاغية تقود إلى الهلاك مهما زينت كلامها: فرعون يقول "سبيل الرشاد"، ومصير من يتبعه هو "يوم التناد" .حذّر الناس من قادة الضلال الذين يزينون لهم الباطل ويدفعونهم إلى الهاوية.
6.النجاة الحقيقية هي بيد الله وحده: "وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" .فالزم طاعة الله، واطلب هدايته، واعتصم به، فهو وحده الهادي إلى سواء السبيل.

هذه الآيات هي خاتمة خطبة بطلها "مؤمن آل فرعون"، الذي قدم لنا أعظم دروس الشجاعة الأدبية و الحكمة الدعوية، وهو يواجه فرعون في عقر داره، بقلب ملؤه الحب لقومه، والإخلاص لربه، والإصرار على الحق حتى آخر نفس. فلنجعل من نهجه لنا قدوة في كل زمان ومكان.

المبحث الثانى
بقيه مشهد خطبه الرجل المؤمن من ال فرعون
لقد تابعنا خطبة الرجل المؤمن، التي بدأت بإنكار قتل موسى، ثم الحجة المنطقية، ثم التذكير بزوال الملك، ثم ضرب الأمثال بالأمم السابقة، ثم التذكير بيوم القيامة. إنه ينتقل من محطة إلى أخرى،

وكأنه طبيب حاذق يفحص المريض، فيشخص الداء بدقة، ثم يصف الدواء المناسب. والآن، نصل إلى ذروة خطبته، حيث يغوص في أعماق النفوس، ليكشف عن الداء الخفي الذي يمنع قومه من رؤية الحق.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يختتم هذه الخطبة البليغة:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) [غافر: 34-35].

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيتان

هاتان الآيتان تشكلان خلاصة مركزة لأمراض القلوب التي تحول بين الإنسان وبين الحق. إنهما تقدمان لنا:

.1تشخيص داء "الشك والارتياب" وخطورته: الرجل المؤمن، كالطبيب الماهر، يكشف أن المشكلة ليست فقط في الكبر والعناد، بل في مرض الشك الذي ينخر في القلب ويفقد العزيمة، ويجعل صاحبه يعيش في ظلمة حالكة لا يخرج منها إلى نور اليقين.
.2ضرب المثل بقصة يوسف عليه السلام: يستخدم أسلوب ضرب الأمثال ليبين لهم أن هذا الداء)الشك بعد وضوح البينات (هو داء مزمن فيهم، توارثوه من أسلافهم، وكيف قادهم هذا الشك و التعصب إلى إنكار رسالة موسى.
.3بيان أن العبرة ليست بموت القائد: يذكرهم بأن يوسف مات، وفعلوا كل ما بوسعهم لمنع ظهور نبي من بعده، ولكن مشيئة الله نافذة .فالفكرة لا تموت بموت صاحبها، وقتل موسى لن يغير شيئًا.
.4تسليط الضوء على علة "الجدال بغير سلطان" الناتجة عن الكبر والجبروت: ينتقل من تشخيص داء الشك والارتياب عند الأتباع، إلى تشخيص علة فرعون الخاصة: الجدال في آيات الله بغير حجة، المقرون بالتكبر والجبروت، وهو سلوك ممقوت عند الله وعند المؤمنين.
.5بيان سنة الطبع على القلوب: إن الإصرار على هذه الأمراض) الإسراف، الارتياب، التكبر، الجبروت (يؤدي بصاحبه إلى أن يطبع الله على قلبه، فلا يرى الحق أبدًا، وهذا هو الخذلان بعينه.

الأمر الأول: تشخيص الداء – الشك والارتياب يفقدان العزيمة (فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ)

والآن، وقد وصل الرجل المؤمن إلى خاتمة خطبته، لم يكتفِ بضرب الأمثال، بل أراد أن يشخص لهم مرضهم بدقة متناهية. إنه يقول لهم: "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ".

تأمل معي في هذه العبارة الدقيقة: "فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ". إنه يصف حالة مزمنة، حالة مستمرة من التردد والحيرة والريب. لم يقولوا "آمنا" فاستراحوا، ولم يقولوا "كفرنا" فاستقر أمرهم. بل ظلوا في المنطقة الرمادية، منطقة الشك القاتلة.

ما خطورة الشك والارتياب؟ وكيف تكون سببًا في الضلالة؟
الرجل المؤمن هنا يعلمنا درسًا عظيمًا في علم النفس الدعوي. الشك ليس مجرد حالة ذهنية عابرة، بل هو:

· مرض يفقد العزيمة: الإنسان الشاك لا يملك قرارًا، ولا إرادة، ولا همة .إنه يعيش مترددًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .وهذا يجعله عاجزًا عن اتخاذ موقف الحق.
· ظلمة تمنع الرؤية: الشك ظلمة تغلف القلب، تحجب عنه نور اليقين .صاحبه يعيش في ليل بهيم، لا يصبح نهارًا، لا يخرج من ظلمات الحيرة إلى نور الإيمان .البينات واضحة كالشمس، لكن عينيه المريضتين بالشك لا تبصران.
· أرض خصبة للهوى والتعصب: عندما يفرغ القلب من اليقين، يمتلئ بالهوى .ولهذا، فإن الشك عندهم لم يكن شكًا بريئًا يبحث عن الحقيقة، بل كان شكًا متولدًا من العصبية للجنس والطائفية .لقد أحبوا ما كان عليه آباؤهم، وتعصبوا لقوميتهم، فجعلهم هذا التعصب يشكون في كل ما يخالف أهواءهم، حتى لو كان حقًا واضحًا.

إنه يقول لهم: هذه هي حالتكم منذ زمن يوسف! البينات تتوالى، والرسل يتعاقبون، وأنتم في نفس المكان، في مستنقع الشك الآسن. إنه تشخيص دقيق لأصل الداء قبل أن يصف لهم الدواء.

الدرس العملي للدعاة:
على الداعية أن يكون كالطبيب. قبل أن يقدم الدواء، عليه أن يشخص الداء بدقة. كم من داعية يخطئ لأنه يخاطب الناس على أنهم مصابون بداء العناد والكفر الصريح، بينما هم في الحقيقة مصابون بداء الشك والارتياب والحيرة! كل داء له دواؤه. الشاك يحتاج إلى من يأخذ بيده بالحجة و المنطق والرفق لا بالعنف والتخويف فقط. تشخيص الداء نصف الدواء.

الأمر الثاني: إفلاس محاربة القدر – قصة يوسف وإخفاق محاولاتهم (حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ...)

ثم ينتقل الرجل المؤمن إلى نقطة في غاية الأهمية، ليكشف لهم إفلاسهم التام في محاربة مشيئة الله. "حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ" أي مات يوسف عليه السلام، وبدلا ً من أن يفيقوا من غفلتهم، ازدادوا ضلالا ً. "قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا".

انظر كيف أن الشك تطور إلى إنكار وجحود. بعد موت يوسف، وقد كان آخر رسول فيهم، ظنوا أن سلسلة النبوات قد انقطعت، فاستقرأوا الواقع الخالي من رسول ليقولوا لأنفسهم: "لن يبعث الله من بعده رسولا ً". وهذا الإعلان منهم لم يكن عن دليل، بل كان عن رغبة ولهو.

ثم ماذا فعلوا بعد هذا القرار؟
يقول القرآن على لسان الرجل المؤمن كيف أن هذا الاعتقاد قادهم إلى أبشع الجرائم:

· استعباد بني إسرائيل وإذلالهم: لقد حولوهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية، وجعلوهم طوائف مشتتة.
· قتل الأبناء واستحياء النساء: لقد قاموا بقتل أبناء بني إسرائيل لتقليل أعدادهم، وسحق طاقاتهم، ومنعهم من أن تنهض لهم قائمة، أو أن يخرج منهم رسول .لقد جعلوهم عبيدًا، ومنعوا عنهم وسائل العلم والقوة، خوفًا أن يظهر فيهم مصلح أو نبي.
· منتهى الغرور: لقد ظنوا أنهم بجبروتهم استطاعوا أن يمنعوا قدر الله، وأن يغلقوا باب السماء.

ولكن انظر كيف أن مشيئة الله نافذة رغم أنوفهم!
إنه يقول لهم: يا قوم، لقد فعلتم كل هذا الشر، وسعيتم بكل ما أوتيتم من قوة لمحاربة رسالة إلهية قادمة. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد صنع الله موسى على عينه! لقد نجا موسى من سيوفكم بأعجوبة، وتربى في قصوركم، وتعلم أفضل العلوم، وتم إعداده وتأهيله من قبل ربه ليكون رسولا ً إليكم! أنتم منعتم العلم عن بني إسرائيل، فأتاه الله العلم من بين أظهركم، في بيت فرعون نفسه!

إنه يذكرهم بهذه الحقيقة ليقول لهم: الفكرة لا تموت، والمشيئة الإلهية لا تغلب. يوسف مات، فظننتم أن نور الله قد انطفأ، ولكن نور الله لا يطفأ بموت أحد. أتعبتكم المؤامرات والدسائس، وسفكتم الدماء ، وقتلتم الأبناء، ولكن كل هذا لم يمنع خروج موسى. فما بالكم الآن تريدون قتل موسى؟! هل تظنون أنكم بقتل موسى ستنهون الأمر؟ كلا، والله الذي لا إله إلا هو، لو قتلتم موسى، فسيأتي من بعده رسول آخر، لأن الله غالب على أمره، ونوره لا يطفئه قتل قائد أو استشهاد داعية.

مثال واقعي يرسخ هذه الحقيقة:
انظر إلى واقعنا المعاصر. كم من مشروع إصلاحي أو دعوي حورب بكل قسوة، وقتل رموزه، وشرد أتباعه، وظن أعداؤه أنهم قضوا عليه. ثم ماذا حدث؟ لقد نمت البذرة في تربة جديدة، وظهر جيل أكثر قوة وبصيرة، يحمل نفس الفكرة بوسائل وأساليب متجددة. إن قتل القادة لا يقتل الأفكار، بل يمنحها حياة جديدة ووقودًا متقدًا. هذا هو قانون التاريخ الذي يذكره بهم.

الأمر الثالث: الجدل العقيم وعلته – التكبر والجبروت (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ... كَبُرَ مَقْتًا...)

وبعد أن شخص داء الشك والارتياب عند الأتباع، وعالجهم بالتاريخ، ينتقل إلى تشخيص داء "القيادة"، داء فرعون نفسه، ولكنه لا يسميه، بل يصف صفاته لتنطبق عليه وعلى كل من يشاكله.

"الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ".
انظر! إنه يستخدم كلمة "يجادلون" وليس "يناقشون". الجدل هنا هو الجدل المذموم، الذي يقوم على العناد والمكابرة، وليس على طلب الحقيقة. وهو جدل "بغير سلطان أتاهم" أي بغير حجة ولا برهان و لا دليل. إنهم يجادلون في آيات الله الواضحات البينات، وماذا لديهم؟ لا شيء سوى رأيهم وكبريائهم وجبروتهم. إنهم يعيشون أسرى أوهامهم وخرافاتهم، متمسكين بشرف الذات والكبرياء الزائف.

إنه يقول لفرعون بصورة غير مباشرة: إن نقاشك أنت وأعوانك، واعتراضكم على الحق، هو جدل فارغ، يفتقد إلى العلم والحجة. إنه ليس ناتجًا عن قناعة عقلية، بل عن عجز عن مواجهة الحجة، و التمسك بكبرياء زائفة.

ثم يصدر حكمه الإلهي على هذا السلوك: "كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا".
"مقتًا" هو أشد البغض والكره. هذا الجدال العقيم، وهذا الإصرار على الباطل بغير حجة، هو من أشد ما يبغضه الله، ومن أشد ما يبغضه المؤمنون ذوو الفطرة السليمة. وهنا قاعدة مهمة: إذا مقت الله شيئًا، وجب على المؤمنين أن يمقتوه كذلك. فانظر إلى الأشياء، فإنك تجد شخصًا يناقش ويدافع عن فكرة باطلة، لتحقيق فكرة سديدة قائمة على أدلة واضحة، في حين أن نقاشه هو جدال يفتقد إلى الحجة والعلم، فهذا يعيش أسير الخرافات والجهل، متمسكا بشرف الذات والكبرياء. وإذا غضب، رجع إلى فرض رأيه بالقوة والقتل. وهذا هو عين الجبار.

ماذا يعني "جبار"؟
الجبار هو الذي يقتل على الغضب، الذي يبطش ويسفك الدماء دون تورع. إنه يبين لهم سوء فعل فرعون، وأن قراره بقتل موسى ليس ناتجًا عن قوة أو حكمة، بل هو ناتج عن العجز عن مواجهة الحجة، واللجوء إلى القوة الغاشمة التي هي سلاح الجبابرة.

الأمر الرابع: سنة الله في الطبع على القلوب – النتيجة الحتمية (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

والآن، يختم الرجل المؤمن خطبته بهذه القاعدة الإلهية المحكمة: "كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ".

إنه يقول لهم: هذا الذي ترونه من حال فرعون، ومن حالكم أنتم في الشك والارتياب، ليس إلا تطبيقًا لسنة الله. إن الإنسان عندما يمعن في التكبر (رفض الحق واحتقار الناس) ويصبح جبارًا (سفاكًا للدماء ، متغطرسًا)، فإن الله تعالى يعاقبه عقوبة من جنس عمله: يطبع على قلبه. يختم عليه، ويمنع عنه نور الإيمان، ويحجب عنه رؤية الحق. إنه استدراج إلهي، يتركهم في ظلماتهم يعمهون، ليكون أخذ الله لهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.

إنه يحذرهم تحذيرًا أخيرًا: إن الاستمرار في هذا الطريق، طريق العناد والجبروت، لن يؤدي إلا إلى هذه النهاية: قلب مطبوع عليه، لا يرى نورًا، ولا يهتدي سبيلا ً. فلا قيمة للعناد، ولا نجاة في الجبروت.

خلاصة الآيتين: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

بهاتين الآيتين، يختم الله لنا هذا المقطع العظيم من خطبة الرجل المؤمن، وهو يريد منا أن نخرج بعدة دروس وعبر عملية:

.1تطهير القلب من الشك: الشك داء قاتل، يفرغ القلب من اليقين، ويسلب العزيمة، ويدخله في ظلمات لا يخرج منها .فاسأل الله دائمًا اليقين والثبات على الحق .وإياك والتردد المذموم الذي لا يورث إلا الحيرة والضياع.
.2اليقين بأن الفكرة لا تموت: لا يرتبط إيمانك بالأشخاص مهما علت مكانتهم .القادة يموتون، والرسل يموتون، ولكن دين الله باقٍ .لا تخف على الحق إذا مات عالم أو استشهد داعية، فوعد الله نافذ، وسيبعث الله من يجدد الدين ويحمل الراية .اصبر واثبت، فقتل القادة ليس النهاية بل البداية.
.3تشخيص الداء قبل وصف الدواء: تعلم فن الحكمة .إذا أردت أن تنصح أحدًا، أو تدعو إلى الله، فـلا تكن كمن يرمي الدواء عشوائيًا .ادرس حال من أمامك، وافهم ما هو الداء الذي يعاني منه: أهو كبر وطغيان، أم هو شك وحيرة، أم هو اتباع لهوى وعصبية؟ لكل داء دواؤه المناسب .كن كالطبيب المشفق، تعالج القلوب بلطف وحكمة.
.4الحذر من الجدل بغير علم: لا تكن ممن يجادل في الحق بغير حجة ولا دليل، فإن هذا سلوك ممقوت عند الله وعند عباده الصالحين .إذا لم تكن تملك علمًا وحجة، فالصمت أولى بك، ولا يكن دافعك في النقاش هو الكبرياء والعناد.
.5الخوف من الطبع على القلب: إن أعظم عقوبة يمكن أن تصيب إنسانًا هي أن يطبع الله على قلبه، فلا يعود يميز بين الحق والباطل، ولا ينتفع بموعظة .وهذه العقوبة مرتبطة بالتكبر والجبروت .فـاللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع.

ختامًا، أيها الحبيب، إن هذه الآيات ليست مجرد تاريخ يروى، بل هي مرآة نرى فيها أحوالنا وقلوبنا.

فلتكن منا وقفة صدق مع النفس: هل في قلوبنا ذرة من شك يمنعنا من الانقياد التام للحق؟ هل فينا ذرة من كبر وجبروت يمنعنا من قبول النصح؟ فلنحذر، ولنداوِ قلوبنا باليقين والتواضع، عسى أن يفتح الله لنا من بركات فهم كتابه ما نكون به من الفائزين.

ثامنا

لقد وقفنا في الآيات السابقة مع نهاية خطبة الرجل المؤمن، ذلك الخطاب الذي هز أركان البلاط الفرعوني، وجعل الحوار ينتقل من منطق القوة إلى منطق العجز .لقد شخص الرجل المؤمن الداء ووصف الدواء، وحذّر وأنذر .والآن، وقد شعر فرعون بالخطر، خطر اهتزاز صورته أمام حاشيته، وخطر أن يتأثروا بمنطق ذلك المؤمن، ماذا يفعل؟

إنه ينتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل الصراع، مرحلة "الكيد الضعيف" الذي يُظهر الاهتزاز الداخلي . تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يصور لنا هذا المشهد بكل أبعاده النفسية والعقلية وكأنه يحدث الآن أمام ناظريك:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) غافر:36 -.(37

إنها آيتان ترسمان لنا لوحة نفسية متحركة لطاغية يعيش لحظة انكشاف حقيقته، ويسقط في تناقضاته، ويكشف عن هشاشته.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيتان

الآيتان 36 و 37من سورة غافر تقدمان لنا خاتمة هذا المشهد من الصراع، وتكشفان عن أعماق جديدة في تحليل نفسية الطغيان، وتركزان على الأفكار الجوهرية التالية:

.1التنكر للحق والهروب إلى الوهم: فرعون، بدلا ً من أن يواجه الحق، يلجأ إلى حيلة صبيانية، طالبًا من هامان أن يبني له صرحًا ليصعد إلى السماء، في تنكر واضح لكل الحقائق والبديهيات.
.2تزييف المفاهيم واستخفاف بعقول الأتباع: إنه يخاطب هامان وحاشيته من منطلق "العالم الذي سيكتشف الحقيقة بنفسه"، محاولا ً تمويه فشله أمامهم، ومضللا ً إياهم بأنه قادر على بلوغ "إله موسى".
.3التراخي والاهتزاز النفسي: أسلوب الترجي "لعلي أبلغ" ليس أسلوب الواثق القوي، بل هو أسلوب المرتبك الذي يبحث عن أي قشة يتعلق بها .إنه يعترف ضمنيًا بأنه لا يعرف "إله موسى" ولا يستطيع الوصول إليه، وهذا اعتراف خطير منه.
.4إظهار التحدي بالكيد الضعيف: ما يفعله فرعون ليس سوى "كيد ضعيف"، وهو في الحقيقة مقدمه لخسارته الفادحة وهلاكه المحتوم.
.5الكشف عن سنة التزيين والصد: الآية تفضح لنا كيف أن الله تعالى يزيّن لفرعون سوء عمله ليستدرجه إلى الهلاك، فيُصَدُّ عن سبيل الحق، ويكون كيده في تباب وخسار.

الأمر الأول: الخوف من اهتزاز المستشارين – لماذا لجأ فرعون إلى هذه الحيلة الآن؟

دعنا نقف أولا ً مع سؤال مهم: لماذا خرج فرعون بهذا الطلب الغريب في هذا التوقيت بالذات؟
بعد أن انتهى الرجل المؤمن من خطابه، الذي استخدم فيه كل أساليب الإقناع) الحجة المنطقية، ضرب الأمثال، التذكير بالتاريخ، الترهيب بيوم القيامة(، شعر فرعون أن الجو في القصر قد تغير .لقد رأى بأم عينيه كيف أن كلام الرجل المؤمن قد يكون له تأثير على بعض المستشارين والحاشية .خاف فرعون أن تهتز صورت "الإله" أو "الرب الأعلى" أمامهم .خاف أن تسقط هيبته وكرامته الزائفة التي بناها على مدى السنين.
وهذه هي عادة المستبدين في كل زمان ومكان: عندما يفشلون في مواجهة الفكرة، وعندما يشعرون بأن أتباعهم بدأوا يتأثرون بكلام المصلحين، فإنهم لا يتراجعون ولا يعترفون بالخطأ، بل يلجأون إلى:

- تزييف المفاهيم.
- استخفاف عقول الأتباع.
- التنكر للحق الظاهر.
- إظهار أنفسهم بأنهم أصحاب العلم والقدرة الغيبية.

فرعون هنا لم يرد على حجج الرجل المؤمن لأنه لا يملك ردًا .فماذا فعل؟ تجاهل كل الحجج المنطقية والتاريخية والأخروية، وفتح جبهة جديدة وهمية تمامًا ليلهي بها الحاشية، وليوحي لهم بأنه

لا يزال المسيطر، صاحب الكلمة العليا.

الأمر الثاني: تحليل نفسي وعقلي لشخصية فرعون في هذا الموقف

الآية ترسم لنا تحليلا ً نفسيًا دقيقًا لفرعون في هذه اللحظة .إنه يواجه تحديًا وجوديًا: الرجل المؤمن هز عرشه الفكري .فلننظر كيف تعامل معه هذا الطاغية:

.1التنكر للحق واللجوء إلى التمويه:
فرعون يعرف في قرارة نفسه أن موسى على حق .لقد رأى الآيات، وشهد المعجزات، وسمع الحجج . لكنه لا يستطيع أن يعلن إيمانه لأنه سيخسر كل شيء: ملكه، سلطانه، جاهه، وهيبته .لذلك، عندما ضاقت به السبل الفكرية، لجأ إلى الفعل المادي العبثي: بناء صرح عظيم .إنه يريد أن يصرف أنظار الحاشية عن مناقشة الأفكار إلى الانبهار بالمشاريع .هذا تكتيك قديم ومتجدد: عندما تفشل في المنطق ، ألهِ الناس بالمشاريع الضخمة والإنجازات الوهمية.

.2إظهار التحدي واستخفاف العقول:
"يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا" .تأمل! إنه ينادي هامان بالذات، وزيره وذراعه الأيمن، الذي يمثل الجهاز الإ داري والإعلامي .إنه يطلب منه بناء "صرح"، أي بناء شاهق عظيم، ليصل إلى "الأسباب" .إنه يتظاهر بأن الأمر بسيط: فقط ابْنِ لي صرحًا، وسأحل المسألة بنفسي .إنه يستخف بعقول الحاشية، ويتوقع منهم أن يصدقوا هذا الهراء .وكثيرًا ما يفعل الطغاة هذا؛ يطرحون حلولا ً وهمية لمشاكل حقيقية، ويطلبون من شعوبهم التصفيق والانبهار!

.3التراخي في الطلب: "لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ":
هذه الكلمة "لعلي" هي المفتاح لتحليل نفسية فرعون في هذا المشهد .هل هذه لغة الواثق المتأكد؟ أبدًا! إنها لغة المتردد، الشاك، الذي يتحسس طريقه في الظلام.

· لغة الترجي لا التوكيد: إنه لا يقول "سأبلغ الأسباب"، بل يقول "لعلي أبلغ" .إنه ليس متأكدًا من شيء، إنه يمني نفسه وحاشيته بالأماني .أين ذهب ذاك الذي قال "أنا ربكم الأعلى" و"ما علمت لكم من إله غيري"؟ الآن يقول: "سأحاول أن أصل إلى إله موسى"! إنه اعتراف ضمني بأنه لا يعرف هذا ا لإله، ولا يستطيع الوصول إليه بقوته الذاتية.
· الاهتزاز الداخلي: هذا التعبير يكشف أن فرعون مهزوز من الداخل .كلام الرجل المؤمن قد فعل فعله .لقد زرع الشك في قلبه، فلم يعد فرعون متأكدًا من موقفه .إنه يحاول أن يتماسك، وأن يظهر بمظهر القوي الباحث عن الحقيقة، لكن كلماته تفضحه .إنه مرتبك، خائف، يبحث عن أي مخرج وهمي.

الأمر الثالث: إنكار الألوهية وتزييف الحقيقة أمام الأتباع) فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا(

ثم يكمل فرعون خطته: "أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ".
انظر إلى هذا المنطق الأعوج!

· هو يقر بأن لموسى "إلهًا" في مكان ما، يحتاج إلى الصعود إلى السماء للوصول إليه .وهذا في حد ذاته إنكار لإلهيته هو! فإذا كان لموسى إله في السماء، ففرعون ماذا يكون؟ إنه متناقض، ينقض نفسه بنفسه.
· ثم يقول: "وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا" .انظر! بدأ ب ـ"لعلي أبلغ"، وانتهى ب ـ"لأظنه" .إنها لغة الظن والتخمين، لا لغة اليقين .إنه يحاول أن يحسم الموقف مسبقًا لصالحه، فيقول لحاشيته: قبل أن أصعد) وهو يعلم أنه لن يصعد! (أقول لكم إنني أظن موسى كاذبًا .إنه يجزم بالنتيجة قبل أن يبدأ التجربة! إنه يريد أن يبرر فشله المستقبلي مقدمًا.

كيف يتجدد هذا السلوك في كل زمان ومكان؟
هذا هو دأب الطغاة دائمًا:

· يطرحون مشاريع وهمية كبرى) "سنبني قنبلة نووية"، "سنصنع سلاحًا سريًا"، "سنحقق الاكتفاء الذاتي في عام" (ليلهوا بها الناس عن المشاكل الحقيقية.
· يدّعون أنهم يمتلكون الحلول السحرية.
· يجزمون بأن أعداءهم كاذبون، دون أن يقدموا دليلا ً واحدًا.
· يعدون أتباعهم ب ـ"النجاة" و"استمرار السلطة" و"النصر العظيم" وكلها أوهام، تمامًا كما وعدهم فرعون بأن بناء الصرح سيؤكد كذب موسى ويحل المشكلة.

الأمر الرابع: الكشف عن سنة التزيين والصد والكيد في تباب) وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ(...

وهنا تأتي الجملة القرآنية المعجزة التي ترفع الستار عن حقيقة ما يجري وراء الكواليس النفسية و الكونية: "وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ".

"زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ":
من الذي زين له سوء عمله؟ إنه الشيطان، وقرناء السوء، ونفسه الأمارة بالسوء، واستدراج الله له .لقد رأى القتل والظلم والكبر والجبروت والتحدي الوهمي بالصرح ...رأى كل هذا "حسنًا" في عينيه .لقد انقلبت المفاهيم في قلبه تمامًا، فصار يرى القبيح جميلا ً، والباطل حقًا .وهذه عقوبة من جنس العمل، نتيجة للإسراف والارتياب والجدال بغير سلطان الذي تحدثت عنه الآيات السابقة.

"وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ":
والنتيجة الحتمية: صُدّ عن سبيل الله، عن طريق الحق والهداية .ولم يعد قادرًا على الرجوع .كلما تقدم خطوة في غروره، ازداد بعدًا عن الهداية .إنه يسير في نفق مظلم، يظن أنه سيوصله إلى النور، وهو في الحقيقة يوصله إلى الهاوية.

"وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ":
ما هي حصيلة كل هذه المؤامرات والدسائس والخطط والمشاريع الوهمية؟ "تباب" أي خسار وهلاك ودمار .كيده هذا، طلبه من هامان أن يبني له صرحًا، هو في حد ذاته إعلان عن فشله .إنه كيد ضعيف، مقدمه للخسارة الفادحة .لقد ظن أنه يواجه التحدي بالتحدي، لكنه في الحقيقة كان يوقع نفسه في التهلكة .إنه يعبث، والله يمكر به .وهذه نهاية كل كيد ضد دين الله.

خلاصة الآيتين: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

الله سبحانه وتعالى يريد منا بهاتين الآيتين أن نقرأ أبعد من مجرد كلمات فرعون، في هذه الآيات دروس عملية عظيمة:

.1طبيعة الطغيان واحدة لا تتغير: عندما يهتز الطاغية، يلجأ إلى التمويه والمشاريع الوهمية والا دعاءات الكاذبة .فلا تنخدع بها .انظر إلى جوهر أفعاله لا إلى ضجيج كلماته .فرعون الذي قال "أنا ربكم الأعلى" تحول فجأة إلى باحث وهمي عن الله! فافهم هذا.
.2لا تنبهر بـ "صرح" الطغاة: الطغاة في كل زمان يبنون صروحًا عظيمة، مادية أو إعلامية، ليدللوا على قوتهم وليصرفوا أنظار الناس عن الحقائق .لا تنخدع بهذه الصروح، فهي مجرد "كيد في تباب"، وستكون وبالا ً على بانيها .إن الأبراج الشاهقة التي تناطح السحاب لم تمنع الموت والهلاك عن أحد.
.3لغة الترجي والظن تفضح الكاذبين: تذكر أن فرعون قال "لعلي" و"لأظنه" .فاحذر ممن يبيعونك الأ وهام بلغة غير واثقة، ويجزمون بالنتائج قبل أن يبدأوا العمل .كن على بصيرة، واطلب البراهين لا الأ ماني.
.4سنة الاستدراج ماضية: "زين لفرعون سوء عمله" .إذا رأيت ظالمًا يزداد طغيانًا وغرورًا، ويظن أنه على صواب، فاعلم أن هذا قد يكون استدراجًا له .فلا تحزن عليه، ولا تحسد ما هو فيه، فما هو إلا كالسم في الطعام اللذيذ.
.5نهاية الكيد الضعيف إلى تباب: مهما بدت مؤامرات الطغاة وكيدهم قوية، فهي في حقيقتها "في تباب" أي إلى زوال وهلاك .ثق بالله، واطمئن، واصبر .إن العاقبة للمتقين، وليس لمن يبنون الصروح ليطلعوا إلى السماء بالباطل .إن فرعون بهذا الموقف لا يعلن قوته، بل يعلن نهايته .وهكذا كل طاغية، فإن لحظة الهذيان والادعاءات الوهمية هي بداية سقوطه المدوي

تاسعا

لقد رأينا في الآيات السابقة كيف انتهى فرعون إلى طلب بناء الصرح، ذلك الكيد الضعيف الذي أعلن عن هزيمته النفسية قبل هزيمته الفعلية. لقد صُدّ عن السبيل، وزُيّن له سوء عمله، وكان كيده في تباب.

والآن، وبعد أن فشل فرعون في مواجهة الحجة، وبعد أن أظهر عجزه، يعود الرجل المؤمن ليوجه الخطاب إلى قومه مباشرة، بعد أن رأى أن كلمة الحق قد بدأت تجد طريقها إلى بعض القلوب، أو على الأقل ليقيم الحجة كاملة.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يمضي بنا في هذا المشهد العظيم:

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) [غافر: 38-40].

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيات

هذه الآيات الثلاث هي الإعلان الرسمي من الرجل المؤمن عن مشروعه الإيماني. بعد أن دافع عن موسى، وبعد أن حذّر قومه، وبعد أن شخص أمراضهم، ينتقل الآن إلى مرحلة الدعوة الصريحة و الترغيب. إنها تمثل خلاصة رسالته، وتتمحور حول الأفكار الجوهرية التالية:

.1الدعوة الصريحة إلى اتباعه هو: يصل الرجل المؤمن إلى ذروة شجاعته فيعلن: "اتبعوني"، بعد أن أثبت لهم صدقه وحكمته، ليقودهم إلى طريق النجاة .إنه يقدم نفسه كبديل عن قيادة فرعون.
.2الحصر والموازنة بين الدنيا والآخرة: بأسلوب الحصر "إنما"، يقلل من شأن الحياة الدنيا ويصفها بأنها مجرد "متاع" زائل، بينما الآخرة هي "دار القرار" الدائمة.
.3قاعدة العدل الإلهي المطلق: يوضح لهم قانون الجزاء العادل: السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أضعافها إلى أضعاف كثيرة، مع اشتراط الإيمان لقبول العمل الصالح.
.4الترغيب في رزق الجنة بغير حساب: يصور لهم مشهد الجنة، حيث الرزق الوفير الدائم بلا عناء و لا حساب ولا انتظار، ليكون ذلك دافعًا قويًا للإيمان والعمل.

الأمر الأول: الإعلان الصريح – تقديم البديل (وَقَالَ الذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرّشَادِ)

بعد كل هذا الصراع المرير، وبعد أن سمع الجميع ما جرى، وبعد أن رأوا فرعون يلجأ إلى وهم الصرح ، يقف الرجل المؤمن ليعلنها صريحة مدوية: "يَا قَوْمِ اتبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرّشَادِ".

تأمل معي في هذا التطور العظيم. في البداية، كان يكتم إيمانه. ثم لما حانت اللحظة، بدأ بالدفاع عن موسى بطريقة غير مباشرة. ثم حذّر وأنذر. ثم شخص الداء. أما الآن، وقد انكشف عجز فرعون، وظهر كيده في تباب، يعلنها صريحة: أنا مؤمن، وأنا أدعوكم لاتباعي.

لماذا قال "اتبعون" ولم يقل "اتبعوا موسى" مباشرة؟
هنا تكمن الحكمة البالغة. هو يعلم أن قومه قد يكون لديهم تحفظ أو عناد تجاه موسى لأنه من بني إسرائيل، أو لأنهم اعتادوا على عداوته. لكنهم يعرفون هذا الرجل، هو منهم، من آل فرعون، من أشرافهم. لقد أثبت لهم على مدار خطابه أنه ناصح أمين، حكيم عاقل، لا يريد بهم سوءًا. فكأنه يقول لهم: إذا كان اتباع موسى صعبًا عليكم نفسيًا، فاتبعوني أنا، أنا الذي تعرفونه، أنا سأهديكم إلى نفس الطريق، طريق موسى، إلى "سبيل الرشاد" الحقيقي.

وانظر إلى المفارقة العظيمة! فرعون قال: "وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلّا سَبِيلَ الرّشَادِ" (الآية 29). وهنا يقول المؤمن: "أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرّشَادِ". إنه صراع على المصطلحات. من هو صاحب "سبيل الرشاد" الحقيقي؟ فرعون الذي يقودكم إلى التباب والنار، أم أنا الذي أدعوكم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر؟ إنه ينتزع من فرعون ادعاءه، ويرد المصطلح إلى معناه الحقيقي. الهداية إلى سبيل الرشاد ليست في اتباع الطاغية، بل في اتباع الإيمان.

الدرس العملي:
على الداعية، بعد أن يمهد ويحذر ويشرح، أن يصل إلى لحظة الإعلان الصريح والدعوة المباشرة. وبعد أن يزيف الباطل مفهوم "الرشاد"، واجب المصلح أن يقدم البديل الحقيقي، وأن يقول للناس بوضوح: "هذا هو سبيل الرشاد الحق". لا تترك الناس في حيرة، بل قدم لهم خارطة طريق واضحة، وكن قدوة لهم فيها.

الأمر الثاني: الموازنة بين الدنيا والآخرة – لماذا يبدأ بالترغيب في الآخرة؟ (يَا قَوْمِ إِنّمَا هَٰذِهِ الحَيَاةُ الدّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ)

والآن، بعد أن دعاهم إلى اتباعه ليسير بهم إلى سبيل الرشاد، ما هو أول معالم هذا السبيل؟ إنه إعادة ترتيب الأولويات، وتصحيح النظرة إلى الوجود. إنه يقدم لهم معادلة الحياة والموت، الدنيا والآ خرة.

"يَا قَوْمِ إِنّمَا هَٰذِهِ الحَيَاةُ الدّنْيَا مَتَاعٌ".

- "إِنّمَا": أداة حصر وتوكيد .إنها تقصر حقيقة الدنيا على صفة واحدة: أنها مجرد متاع.
- "مَتَاعٌ": ما هو المتاع؟ هو الشيء الذي يتمتع به لوقت قصير ثم يزول .كالطعام الذي يؤكل، و

الشراب الذي يشرب، والثوب الذي يلبس حتى يبلى .إنها متعة مؤقتة، سرعان ما تنقضي .إنها ليست دار قرار ولا خلود.

"وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ".

- "وَإِنَّ": للتوكيد.
- "هِيَ": ضمير الفصل الذي يفيد الحصر والتوكيد.
- "دَارُ الْقَرَارِ": أي الدار التي يستقر فيها الناس، دار الخلود، دار لا زوال لها ولا فناء.

لماذا يبدأ بهذه الموازنة بالذات؟
لأنه يعالج الداء الجذري عند قومه، وهو تعلقهم الشديد بالدنيا. فرعون يخاطبهم بالمصالح والمنافع و السلطة والملك، وهم متعلقون بـ "الملك اليوم" و"ظاهرين في الأرض". هذا التعلق بالدنيا هو الذي يمنعهم من قبول الحق، لأنهم يظنون أن الإيمان سيفقدهم هذه المتعة الزائلة.
فجاء المؤمن ليقول لهم: ما أنتم متعلقون به هو مجرد "متاع" رخيص زائل. لا تساوموا على "دار القرار" الدائمة من أجل "متاع" الدنيا الفانية! إنه يعيد تعريف القيمة الحقيقية. إنه يحررهم فكريًا من عبودية الدنيا.

الدرس العملي:
كم منا من يبيع دينه وآخرته من أجل متاع دنيوي زائل! هذه الآية هي صرخة في وجدان كل إنسان: لا تغتر بالدنيا، ولا تجعلها همك الأكبر. إنها محطة عبور، لا دار إقامة. اجعل قلبك معلقًا بـ "دار القرار"، وخذ من الدنيا بقدر ما يعينك على بلوغ تلك الدار بسلام.

الأمر الثالث: قانون العدل الإلهي المطلق – الترغيب والترهيب (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا...)

ثم، بعد أن بين لهم حقيقة الدارين، ينتقل إلى بيان قانون الجزاء، قانون العدالة المطلقة الذي لا يظلم أحدًا، والذي يمثل خلاصة "سبيل الرشاد":

"مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا".
هذا هو منتهى العدل. السيئة تجازى بمثلها فقط، لا زيادة. ذنب واحد = عقاب واحد. إنه يطمئنهم أن الله لا يظلم أحدًا، ويفتح لهم باب التوبة: إذا أقلعتم عن سيئاتكم، فإن الجزاء سيكون عادلا ً.

"وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ".
وهنا قمة الترغيب والكرم الإلهي. مقابل السيئة التي تجازى بمثلها، الحسنة تجازى بأضعاف مضاعفة. و التعبير بـ "بِغَيْرِ حِسَابٍ" يفتح للقلب أبوابًا من الطمع في رحمة الله. رزق بلا حد، بلا عدد، بلا انتظار ، بلا تعب، بلا خوف من نفاد. إنه يصور لهم الجنة بأنها دار الكرم المطلق بعد دار العدل.

ما دلالات هذه الآية العميقة؟

- العدل أساس الجزاء: السيئة بمثلها، وهذا يمنع اليأس والقنوط، فالله لا يظلم.
- عظمة الكرم الإلهي: الحسنة بأضعافها، بل بغير حساب، وهذا يمنع الغرور والاعتماد على العمل، ويدفع إلى الاستكثار من الخير.
- شرط الإيمان: "وَهُوَ مُؤْمِنٌ" .هذا هو الشرط الجوهري .فالعمل الصالح، مهما كان عظيمًا، لا قيمة له بدون الإيمان .الإيمان هو الروح، والعمل هو الجسد .وهذا يبين لهم لماذا يدعوهم إلى اتباع موسى؛ لأ ن الإيمان هو مفتاح الجنة.
- المساواة في الكرامة الإنسانية: "مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ" .لا فرق في الجزاء على العمل الصالح بين رجل وامرأة .كلاهما على قدم المساواة في الكرامة والثواب عند الله، وهذه ثورة على النظرة الجاهلية للمرأة.

خلاصة الآيات: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

هذه الآيات الثلاث تمثل جوهر رسالة كل الأنبياء، وخلاصة دعوة الرجل المؤمن. الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نفهم ونطبق:

.1تحديد المسار: "اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ" .الحياة تحتاج إلى قدوة وإمام .اختر لنفسك من تتبع من العلماء الربانيين والدعاة الصادقين، الذين يهدونك إلى طريق الله، لا الذين يزيّنون لك الدنيا ويقودونك إلى التهلكة.

2.إعادة ترتيب الأولويات: "الدنيا متاع والآخرة دار القرار" .اجعل هذه الجملة نصب عينيك دائمًا . عندما تغريك الدنيا بزخارفها، تذكر أنها مجرد "متاع" سيزول .وعندما تثقل عليك الطاعات، تذكر أنها ثمن "دار القرار" الدائمة.
3.اليقين بالعدل الإلهي: لا تحمل همّ مظلمة أوقعها بك أحد، ولا تحمل همّ تقصيرك في حق نفسك . عد إلى الله، واعمل صالحًا، وثق بأن الله سيجزي كل نفس بما كسبت، وهو أعدل العادلين.
4.الطمع في كرم الله: "يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ" .فليكن هذا هو محركك للعمل الصالح .اعمل ولا تلتفت إلى قلة العمل أو كثرته، بل التفت إلى عظم من تعمل له، وإلى كرمه الذي لا حدود له .اعمل صالحًا، مؤمنًا بالله، وأبشر برزق بغير حساب.

وهكذا، نرى الرجل المؤمن، بعد أن هدم عرش فرعون بالحجة والمنطق، يبني للمؤمنين قصرًا من اليقين في الجنة، ويدعوهم دعوة المشفق: تعالوا، اتركوا هذا المتاع الزائل، واسعوا معي إلى دار القرار ، حيث الكرامة والرزق بلا عد ولا حد. إنها دعوة مفتوحة لكل عاقل إلى يوم الدين

بقيه مشهد خطبه الرجل المؤمن من ال فرعون

لقد تابعنا خطبة الرجل المؤمن، ذلك الناصح الأمين، الذي بدأ بالدفاع عن موسى، ثم حذّر قومه وأنذرهم، ثم شخص أمراضهم ووصف دواءها، ثم دعاهم صراحة إلى اتباعه، ثم رغّبهم في الآخرة ورهّبهم من عدل الله .لقد بذل كل ما في وسعه، واستخدم كل أساليب الإقناع .فماذا بقي له؟

الآن، وقد وصل إلى نهاية الطريق مع قومه، يقف ليعلن خاتمة دعوته وكلمة الفصل .إنها لحظة المفاصلة، لحظة إعلان البراءة من الكفر وأهله، والالتجاء الكامل إلى الله .تأمل معي قول الله جل جلاله:

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ] (44) غافر:41 -.44[

إنها آيات أربع، لكنها تحمل في طياتها خلاصة الصراع، ومنتهى الحكمة، ونموذجًا رائعًا لكيفية إنهاء الدعوة والمفاصلة على الحق.
مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيات

هذه الآيات تمثل المرحلة الختامية من قصة هذا البطل الإيماني، وهي ترسم لنا خريطة متكاملة لكيفية التعامل مع المعرضين بعد استنفاد كل الوسائل، وتتمحور حول الأفكار الجوهرية التالية:

1.أسلوب الاستنكار الحواري وأهميته: يستخدم الرجل المؤمن أسلوب الاستفهام الاستنكاري لتحريك العقول وإظهار المفارقة العجيبة بين الدعوتين: دعوته لهم إلى النجاة، ودعوتهم له إلى النار.
2.المقارنة بين الحالين: يقارن بين ما يدعوهم إليه) الله العزيز الغفار (وما يدعونه إليه) الكفر و الشرك بغير علم(، ليكشف الفرق الشاسع بين من يملك النفع والضر، ومن لا يملك.
3.الجزم برفض الباطل وبيان ضعفه: يعلنها صريحة حاسمة أن ما يدعونه إليه لا يملك أي دعوة أو سلطان في الدنيا ولا في الآخرة.
4.إعلان المفاصلة والبراءة والتوكل على الله: بعد إقامة الحجة، يفوض أمره كاملا ً إلى الله، ويعلن البراءة منهم، متوكلا ً على ربه البصير بالعباد، في ختام يفيض إيمانًا وتضحيةً ويقينًا.

الأمر الأول: الاستنكار الحواري – كيف تقابلون النجاة بالنار؟) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ(

بعد أن سمع قومه كل نصيحته، ولم يستجيبوا، بدلا ً من أن يغضب أو ييأس، يفتح معهم حوارًا أخيرًا من نوع خاص، حوار الاستنكار والتعجب .إنه لا يريد ردًا منهم، بل يريد أن يوقظ عقولهم بهذا السؤال المنطقي العجيب: "وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ".

تأمل معي في هذا الأسلوب الحواري البليغ:

· "مَا لِي": استفهام تعجبي استنكاري .وكأنه يقول: ما الذي يحدث؟! أي عقل هذا الذي يفعل هكذا؟! إنه لا يستنكر رفضهم لدعوته فقط، بل يستنكر رد فعلهم العكسي تمامًا: أنهم لا يكتفون بالرفض، بل يدعونه هو إلى اتباع الكفر!
· المقارنة الصادمة "النجاة" مقابل "النار": لقد وضع لهم الصورة في أبشع تقابل .هو يدعوهم إلى

النجاة الأبدية، وهم يدعونه إلى النار المحرقة .هل هذا معقول؟! هل هذا منطقي؟! إنه إظهار لقمة السفه والضلال الذي هم فيه.

ما أهمية هذا الأسلوب الحواري للداعية؟
الله سبحانه وتعالى لم يقص علينا هذه القصة للتسلية، بل لنستفيد ونعيش معها، ونرى هذا الداعية العظيم على وجه الإجلال والتقدير فنقتدي به ونحبه .وهذا الأسلوب يعلمنا:

.1تحريك العقل: قبل أن تخاطب العاطفة، حرك العقل .أسئلة الاستنكار تجعل المتلقي يراجع نفسه ولو للحظة.
.2إظهار المفارقة: ضع الخيارات أمام الناس بشكل واضح وصادم .هذه دعوة للنجاة، وتلك للهلاك . فاختر لنفسك.
.3عدم اليأس: حتى في أشد لحظات الرفض، يمكن للداعية أن يودع قومه بكلمة تبقى في أذهانهم، لعلها تثمر بعد حين.

الأمر الثاني: تفصيل المقارنة وبيان الحجة – العزيز الغفار أم الشرك بغير علم؟) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ(...

ثم ينتقل من الإجمال إلى التفصيل، ليوضح لهم بالضبط ما هي "النجاة" التي يدعوهم إليها، وما هي "النار" التي يدعونه إليها .إنه يفعل ذلك بأسلوب منطقي واضح، وكأنه طبيب يشرح للمريض طبيعة المرض وطبيعة الدواء.

أولا ً: تفصيل دعوتهم الباطلة) دعوة النار(:
"تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ".

• "لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ": هذا هو أصل الجريمة .إنكار الخالق، إنكار المنعم، إنكار الإله الحق.
• "وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ": ثم الشرك بهذه الآلهة المزعومة التي لا دليل عليها، لا من عقل ولا من نقل .إنها مجرد أهواء وظنون .وهو ينفي أن يكون له "علم" بها، وهذا إفحام لهم: إن كان عندكم دليل فهاتوه، وإلا فهي دعوى باطلة لا تستند إلى شيء.

ثانيًا: تفصيل دعوته الحق) دعوة النجاة(:
"وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ".
تأمل! لم يقل "إلى الله" فقط، بل وصفه باسمين عظيمين هما لب ما يحتاجونه:

• "الْعَزِيزِ": العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، الذي بيده العزة الحقيقية .كأنه يقول لهم: أنتم تريدون العزة، تريدون السلطان، تريدون المنعة ...فلماذا تطلبونها من آلهة ضعيفة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا؟ اطلبوها من العزيز الذي بيده ملكوت كل شيء .إن السبيل إلى العزة ليس بالكفر والتكبر، بل بالإيمان والتوبة والتقرب إلى الله .فتنالون العزة من العزيز الذي لا يغلب.
• "الْغَفَّارِ": الغفار الذي يغفر الذنوب العظام، الذي يقبل التائبين، الذي لا يتعاظمه ذنب .كأنه يقول: لا يمنعكم ما سلف منكم من كفر وطغيان من الرجوع إليه .هو غفار، يقبلكم ويغفر لكم .إن هذا لترغيب عظيم، يجمع بين الأمن) العزة (والأمل) المغفرة.(

الدرس العملي للداعية:
انظر كيف يقدم الداعية الحق: ليس مجرد أوامر ونواهٍ جافة، بل هو تعريف بالله بأسمائه الحسنى التي تلامس حاجة المدعو النفسية .هم يريدون العزة، فيقول لهم: العزة لله جميعًا .هم مثقلون بـ الذنوب، فيقول لهم: الله غفار .اختر من أسماء الله ما يناسب حال من تخاطبه.
الأمر الثالث: الجزم برفض الباطل وبيان وهنه المطلق) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ(

ثم يصل إلى مرحلة الجزم والحسم، بعد أن أقام الحجة ووضح السبيلين ."لَا جَرَمَ" أي حقًا ويقينًا لا شك فيه.

"أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ".

• "لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ": أي ليس له حق في أن يُدعى، ولا استجابة لمن دعاه .لا يستحق العبادة، ولا يملك النفع والضر .فهو باطل محض، لا في الدنيا ولا في الآخرة.
• إنه يعلن بكل وضوح أن هذه الأوثان والأصنام والطواغيت والكبر والجبروت ...كلها لا تملك من الأ

أمر شيئًا .لا تستطيع أن تمنح عزة في الدنيا، ولا أن تدفع عذابًا في الآخرة .إن العزة المتوهمة في اتباع فرعون هي زائلة لا محالة، ونهايتها الذل والمهانة والهلاك.

ثم يؤكد الحقيقة الكبرى:
"وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ".

· "مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ": جميعنا سنعود إلى الله، للحساب والجزاء .هذه حقيقة لا مفر منها.
· "وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ": أي المتجاوزين للحد في الكفر والطغيان والإجرام.
· "هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ": هم أهل النار حقًا، خالدون فيها .هذا هو المصير المحتوم، وهذا هو الرهيب الذي يجب أن يهربوا منه.

الأمر الرابع: المفاصلة وإعلان التوكل – النهاية التي تليق بالصادقين) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(

وهنا نصل إلى الخاتمة المهيبة .بعد أن أقام الحجة كاملة، وأسمعهم الحق، يختم بأمرين:
.١"فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ":
إنه إعلان ثقة مطلقة بصحة ما قاله .ستذكرون كلامي هذا حين يقع بكم العذاب، وحين لا ينفع الندم .ستعلمون أني نصحت لكم، وأني أردت بكم الخير .إنها كلمة تشبه كلمات الأنبياء: "قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" .إنه يودعهم بهذا التحذير الأخير.

.٢"وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ":
هذه هي ذروة الإيمان ."التفويض" هو التسليم الكامل، والتوكل المطلق، وإلقاء النفس بين يدي الله .لم يعد يملك لهم شيئًا، ولم يعد يخاف منهم شيئًا .لقد خرج من دائرة الصراع تمامًا، ودخل إلى دائرة الحماية الإلهية .إنه يعلن اعتزالهم، ومقاطعة طريقهم، والبراءة من كفرهم .لقد ضحى بموقعه في البلاط، وبمكانته كمستشار، مقابل الإيمان بالله .وهذا يعلمنا أن هذه المرحلة من الإيمان تتطلب التضحية بكل شيء في سبيل الله، والزهد في الدنيا، والإقبال على الله وحده .إنها الفاعلية الإيجابية بالشعور برقابة الله، وليس الانسحاب السلبي.

.٣"إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ":
يختم بهذه الحقيقة المطمئنة .الله بصير بي وبكم .بصير بمن يستحق الهداية فيهديه، وبمن يستحق الضلال فيضله .بصير بصدق نيتي، وبكيدكم .بصير بمن ينصره، وبمن يخذله .هذه الكلمة هي سنده الوحيد، وحسبه وكفى.

خلاصة الآيات: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

بهذه الآيات الأربع، يقدم الله لنا خلاصة طريق الدعوة إلى الله، ويريد منا أن نبني حياتنا عليها:

.1فن الحوار والإقناع: تعلم أسلوب الاستفهام الاستنكاري والمقارنة العقلية لتحريك العقول .لا تكتفِ بإلقاء المعلومة، بل ناقش، واسأل، واجعل المدعو يكتشف الحقيقة بنفسه.
.2مبدأ المفاصلة عند اللزوم: هناك مرحلة يصبح فيها الصمت أو الاستمرار في الجدال غير مجدٍ، بل قد يكون ضارًا .حينئذ، يجب إعلان البراءة من الباطل وأهله، والتفويض إلى الله، والانصراف إلى تزكية النفس وإصلاح المؤمنين.
.3قانون حقيقة العزة: لا تطلب العزة من غير الله .فكل من في الأرض يريد العزة، ولكنها لا تنال بـ التكبر والطغيان، بل بالتوبة والإيمان والعمل الصالح .فالله هو العزيز، وهو يهب العزة لمن يشاء من عباده المؤمنين.
.4التوكل الصادق: "وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ" هي كلمة السر في حياة المؤمن .عندما تنقطع بك الأسباب، وتظلم الطرق من حولك، قلها بقلب موقن: "أفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد" .إنها تمنحك سكينة وطمأنينة وقوة لا توصف.
.5التضحية والفاعلية الإيجابية: لقد تخلى الرجل المؤمن عن كل شيء: منصبه، وجاهه، علاقاته، وربما حياته .وذلك لأن الإيمان يتطلب منك أن تكون على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل الله، مع الاستمرار في الشعور برقابة الله، والعمل الإيجابي في الحياة وفق ما يرضيه.

وهكذا، تسدل سورة غافر الستار على هذه الشخصية العظيمة، "مؤمن آل فرعون"، الذي قدم لنا أروع دروس الإيمان والحكمة والدعوة والصبر والمفاصلة والتوكل .إنه ليس مجرد قصة تروى، بل هو قدوة حية، ومنهج متكامل لكل داعية وكل مؤمن يعيش في زمن الطغيان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

عاشرا

لقد تابعنا قصة الرجل المؤمن، ذلك البطل الإيماني الذي جاهر بالحق في وجه الطاغية فرعون، ودعا قومه بكل حكمة ورفق، وحذّرهم وأنذرهم، ثم فوض أمره إلى الله وأعلن المفاصلة. لقد انتهى دوره في هذا المشهد. ولكن القصة لم تنتهِ بعد. فما الذي حدث بعد ذلك؟ كيف انتهى المطاف بفرعون وملئه؟ وكيف كانت عاقبة هذا المؤمن الصادق؟

الآن، تأتي هاتان الآيتان لتخبرانا عن النهاية، لترسما لنا المشهد الختامي للصراع، ولتؤكدا لنا سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير. تأمل معي قول الله جل جلاله:

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) [غافر: 45-46].

إنهما آيتان كفيلتان بأن تملآ قلب المؤمن طمأنينة، وقلب الظالم رعبًا. فلنبدأ رحلتنا معهما.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيتان

الآيتان 45 و46 من سورة غافر تشكلان الخاتمة الحاسمة لقصة الصراع بين موسى والمؤمنين من جهة، وفرعون وملئه من جهة أخرى. إنهما تقدمان لنا الثمرة النهائية، وتكشفان عن سنة الله الماضية، وتتمحوران حول الأفكار الجوهرية التالية:

1.سنة الحماية الإلهية للمؤمنين: "فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا". لقد نجا الرجل المؤمن، وحفظه الله من كل شر دبره له فرعون وملؤه. إنها بشارة لكل من اعتمد على الله وفوض أمره إليه، أن الله لا يضيعه.

2.الهلاك المحقق للطغاة: "وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ". لقد أحاط بهم العذاب السيئ إحاطة السوار بالمعصم. فغرقوا في البحر، وهلكوا عن آخرهم. وما أغنى عنهم ملكهم ولا جبروتهم ولا صروحهم شيئًا.

3.العلاقات الحقيقية هي علاقات الأعمال والنسب الإيماني وليست نسب الدم: الآية تخبرنا أن العذاب حاق بـ "آل فرعون". من هم آل فرعون؟ ليسوا فقط أقاربه بالدم، بل كل من اتبعه وسار على دربه من الكفر والطغيان، حتى لو لم يكن من بيته. وكذلك "آل موسى" هم أتباعه المؤمنون، ومنهم هذا الرجل الذي كان "من آل فرعون" نسبًا، لكنه صار من آل موسى إيمانًا.

4.حقيقة عذاب القبر وإثباته: "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا". هذا هو الدليل القرآني القاطع على عذاب القبر. فمنذ لحظة موتهم وهم يعذبون في البرزخ، يُعرضون على منازلهم في النار صباحًا ومساءً. ثم يوم القيامة يدخلون أشد العذاب.

5.قيمة الدنيا الحقيقية لمن تركها: لقد ترك فرعون وقومه الأموال والقصور والأرض والنعم التي كانوا فرحين بها، يظنون أنها تحميهم وتمنحهم الملك الدائم. فماذا نفعتهم؟ لقد أصبحت وبالاً عليهم، وورثها غيرهم. بينما نجا المؤمنون بإيمانهم، وفازوا برضوان الله.

الأمر الأول: الحماية الإلهية للمؤمنين – ماذا تعني "فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا"؟

بعد أن سمعنا إعلان الرجل المؤمن تفويض أمره إلى الله في الآية السابقة: "وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ"، يأتي الرد الإلهي العملي فورًا: "فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا".

تأمل معي في دلالات هذه العبارة البليغة:

- "فَوَقَاهُ": الفاء للتعقيب السريع. مباشرة بعد تفويضه وتوكله، جاءته الوقاية. والوقاية هي الحفظ و الصيانة والمنع. لم يقل "فنجاه" فقط، بل قال "فوقاه". أي أن الله لم يكتفِ بإنجائه من المكر، بل وقاه حتى من أن يصيبه أدنى أذى أو سوء من ذلك المكر. لقد حوطه الله بسور من الحماية.
- "سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا": أي أسوأ وأقبح ما خططوا له ودبروه. كان فرعون وملؤه يخططون لقتله، للتنكيل به، لتشويه سمعته. ولكن كل هذه السيئات والمؤامرات لم تصله، بل وقاه الله إياها. لقد خرج منها سالمًا، ليس فقط في بدنه، بل في دينه وعقله وقلبه.

هل نجا الرجل المؤمن وحده؟

لا، بل السياق التاريخي والقرآني يخبرنا أنه نجا مع موسى وبني إسرائيل. لقد آمن هذا الرجل، و التحق بركب المؤمنين، وكان معهم عندما عبروا البحر، ونجا معهم، بينما أغرق الله فرعون وجنوده. إنه تطبيق عملي لقوله تعالى في موضع آخر: "فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ". لقد حمى الله موسى والمؤمنين معه، وكان هذا الرجل منهم، ممن سبقت لهم الحسنى من الله.

الدرس العملي والإيماني:
هذه هي ثمرة التوكل على الله. هذا هو جزاء الصبر والثبات على الحق. من اعتمد على الله، وفوض أمره إليه، وحمل هم دينه، وتجرد من الخوف من الطواغيت، فإن الله هو كافيه وواقيه. قد يمر المؤمن بلحظات صعبة، وقد يحيك له الأعداء المؤامرات، ولكن تأكد أن الله إذا أراد أن يحمي عبدًا، فلن يصله أذاهم أبدًا. "وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ".

الأمر الثاني: الهلاك المحقق للطغاة – "وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ"

في المقابل، وبنفس سرعة الاستجابة، يأتي المصير الآخر، مصير فرعون وملئه: "وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ".

ما معنى "حاق"؟
"حاق" فعل يدل على الإحاطة والنزول الحتمي. تقول: حاق به العذاب، أي نزل به وأحاط به من كل جانب، فلا مفر له ولا مهرب. إنه ليس عذابًا عابرًا، بل هو عذاب شامل، محكم، يغلق على صاحبه كل منافذ النجاة.

من هم "آل فرعون"؟
هنا تكمن إحدى أهم دلالات الآية. "آل فرعون" ليسوا مجرد أقاربه بالدم، بل هم أتباعه وأشياعه وحزبه الذين ساروا على نهجه. فقارون -كما تعلم- كان من بني إسرائيل، من قوم موسى، لكنه لما بغى وتكبر وسار في ركاب فرعون، صار من "آل فرعون" وناله ما نالهم من العذاب. قال تعالى: "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ". وكذلك هذا الرجل المؤمن، كان في الأصل من "آل فرعون" نسبًا وبيتًا وطبقة، لكنه لما آمن وصدق واتبع موسى، خرج من "آل فرعون" وصار من "آل موسى" ومن حزب الله، فنجا.

وهذا يعلمنا درسًا عظيمًا: العلاقات الحقيقية التي يعتبرها الله هي علاقات العقيدة والعمل، وليس علاقات الدم والنسب. قد يكون الابن من صلب أب كافر، ولكنه إذا آمن وعمل صالحًا، فهو من حزب الله. وقد يكون المرء في بيت نبي، كما كانت امرأة نوح وامرأة لوط، ولكنهما كانتا من أهل النار. إن الميزان الحقيقي هو الإيمان والعمل الصالح. الأخوة في الدين فوق كل رابطة.

ما هو "سوء العذاب" الذي حاق بهم؟
هو عذاب الغرق في الدنيا، ثم عذاب القبر في البرزخ، ثم عذاب النار في الآخرة. لقد طاردهم موسى بقومه، فلما وصلوا إلى البحر، انفلق البحر لموسى فعبر، وعندما دخل فرعون وجنوده خلفه، انطبق البحر عليهم، فكان الغرق. إنه عذاب مهين، جعلهم عبرة لمن خلفهم. لقد تركوا الأموال والقصور والأرض الخصبة والنعم التي كانوا فرحين بها، يظنون أنها تحميهم وتمنحهم الملك الدائم، فماذا تركت لهم؟ لم تترك لهم شيئًا. لقد خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

الأمر الثالث: إثبات عذاب القبر – "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا"

ثم تأتي الآية السادسة والأربعون لتكشف لنا عن حقيقة مخيفة يغفل عنها الكثيرون، وهي عذاب البرزخ. "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا". هذا هو النص القرآني الصريح الذي لا يحتمل التأويل في إثبات عذاب القبر.

تأمل معي في المشهد:

- "النَّارُ": هي نار جهنم. لم يقولوا "يُعذّبون بالنار" بل قال "يُعرضون عليها". أي يُقربون منها، ويُشاهدون مقاعدهم فيها، ويرون أهوالها. هذا العرض بحد ذاته عذاب نفسي رهيب. إنهم يُحضرون أمام لهيبها كل صباح ومساء، فيرون مصيرهم المحتوم، فيزدادون حسرة ورعبًا.
- "غُدُوًّا وَعَشِيًّا": أي في طرفي النهار، صباحًا ومساءً. وهذا يعني أن عذابهم دائم متكرر، لا ينقطع. هم في قبورهم، بعد أن غرقوا، وجدوا هذه النار تعرض عليهم.
- ثم تأتي الطامة الكبرى: "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ". يأمر الله الملائكة أن يدخلوا آل فرعون أشد العذاب، بعد أن كانوا يُعرضون عليه فقط. فانتقلوا من مرحلة "العرض" إلى مرحلة "الدخول والإذاقة". وهذا يدل على أن عذاب القبر هو بداية العقاب، ويوم القيامة هو العقاب الأكبر.

إن هذه الآية ترد بقوة على كل من ينكر عذاب القبر. كيف يُنكر عذاب القبر والنص القرآني واضح كل الوضوح؟ إن المؤمن الصادق يمر على هذه الآية فيرتجف قلبه، ويسأل الله النجاة. ويستيقن أن الموت ليس نهاية المطاف، بل هو بداية مرحلة جديدة، إما نعيم وإما عذاب.

الأمر الرابع: الدروس والمفاهيم العملية – كيف نبني حياتنا على ضوء هذه الآيات؟

بعد هذا العرض المفصل، ما الذي يريده منا المولى في هاتين الآيتين؟

.1اليقين المطلق بالحماية الإلهية: إذا كنت مع الله، وفوضت أمرك إليه، فثق تمام الثقة أن الله سيحميك .لا يعني هذا ألا تمر بمصاعب، ولكن يعني أن العاقبة لك .قد يحاول أعداء الحق بكل قوتهم، ولكن إذا أراد الله وقايتك، فلن يستطيعوا إليك سبيلا ً .هذه الآية تبني في قلب المؤمن جدارًا من الطمأنينة لا يخترقه خوف.
.2قراءة نهايات الظالمين: لا تنظر إلى صعود الطغاة وعلوهم، بل انظر إلى نهاياتهم .أين فرعون؟ أين هامان؟ أين قارون؟ لقد دارت عليهم الدوائر، وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به .هذه النظرة إلى النهايات تحررك من الخوف منهم في الحاضر.
.3إعادة تعريف العلاقات والانتماءات: لا تغتر بانتماءاتك العائلية أو القبلية أو الوطنية المجردة .ليس المهم من تكون بالولادة، بل المهم من تكون بالإيمان والعمل ."آل فرعون" هم أتباعه، حتى لو كانوا من بني إسرائيل .و"آل المؤمنين" هم أتباعهم، حتى لو كانوا من بيت الفراعنة .وهكذا، في زماننا، ليست العبرة بأن تكون من أسرة كذا أو قبيلة كذا، بل العبرة بأن تكون على طريق الإيمان والتقوى.
.4استحضار عذاب القبر ويوم القيامة: تذكر دائمًا أن الموت ليس نهاية .هناك حياة برزخية، وهناك حساب، وهناك جنة ونار .آل فرعون الآن يعذبون في قبورهم .هذا الاستحضار هو أكبر رادع عن المعاصي، وأكبر دافع للعمل الصالح .اقرأ هذه الآية بتدبر دائم، واجعلها أمام عينيك كلما راودتك نفسك لفعل سيئة.
.5الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة: لقد ترك فرعون كل شيء: الأموال، القصور، السلطان .كل ما كان يظنه قوة، لم يغن عنه من الله شيئًا .فلماذا تتعلق أنت بدنيا زائلة؟ خذ من الدنيا ما يعينك على طاعة الله، واجعل قلبك معلقا بالآخرة، بدار القرار التي لا تزول ولا تفنى.

خلاصة الآيتين: نهاية الطريق

بهاتين الآيتين، يتم الله لنا مشهدًا بديعًا من مشاهد الصراع بين الحق والباطل. لقد بدأت القصة برسالة موسى بالبينات إلى فرعون وهامان وقارون، وتخللتها خطبة الرجل المؤمن البليغة، وانتهت بهذه النهاية الحاسمة:

· المؤمن الذي فوض أمره لله: وقاه الله سيئات ما مكروا، ونجا.
· الطاغية الذي تكبر وجادل بغير حجة: حاق به وبأتباعه سوء العذاب، من الغرق إلى عذاب القبر إلى عذاب جهنم.

إنها ليست نهاية قصة فحسب، بل هي إعلان عن قانون إلهي ثابت: من تولى الله بحفظه حفظه، ومن تولى الشيطان وكفر بالله أهلكه. فاختر لنفسك أي الطريقين تسلك. وقل دائمًا بقلب المؤمن الصادق: "حسبي الله ونعم الوكيل، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد".

القسم الثالث

تنتقل سياق النصوص الى بيان حاله الكفار الذين ينتسبون الى بيت الكفر واسره الكفر فياتي النصوص شارحه كيف هى اوضاعهم في نار جهنم وكيف تقطعت علاقاتهم و الروابط بينهم لقد اجتمعوا في الدنيا على العناد والكبر واغتروا بما لديهم من الدنيا وشهواتها ورفضوا الايمان وكذبوا الرسل وجادلوا بالباطل واجتمعوا على محاربه الحق ومنع الناس من اتباعه فانظر كيف هى النهايه كيف يكون التمزق والخصام واللعن والسب بينهم في جهنم ولهذا جاءت النصوص مجمله لذكر الكفار وحالهم في النار والذين منهم فرعون ومن معه ومن سيلحق بهم

اولا

لقد تركنا آل فرعون في الآيات السابقة وهم يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا، ورأينا بأعين بصائرنا نهاية الطغيان وجبروته. لقد انتهى دورهم في الدنيا، وبدأ مشوارهم في الآخرة. ولكن هل هذه هي النهاية الأخيرة للأتباع الذين ساروا خلفهم؟ هل انقطع حبل العلاقات التي جمعتهم في الدنيا على الكفر والعناد؟

كلا، فالقرآن الكريم لا يتركنا عند هذا الحد، بل يأخذنا بيدنا إلى مشهد أكثر إثارة وأشد رهبة. إنه مشهد من داخل جهنم نفسها، حيث تتقطع كل الأواصر، وتنقلب كل العلاقات، وينقلب الحب بغضًا، و

الصداقة عداوة. إنه مشهد الخصومة الكبرى.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يصوّر لنا هذا الحوار المخيف الذي يدور في أطباق النار:

وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) [غافر: 47-48].

إنهما آيتان ترسمان مشهدًا يزلزل القلوب، ويكشفان لنا عن أخطر أنواع العلاقات: علاقة التبعية العمياء التي تنتهي إلى هذا المصير المحتوم.

مقدمة: الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيتان

هاتان الآيتان تنقلاننا نقلة نوعية من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، لتقدما لنا دروسًا بليغة، وتتمحوران حول الأفكار الجوهرية التالية:

1. رسم مشهد الخصام والتنازع في النار: حيث يتخاصم الأتباع مع القادة والمستكبرين، وتتقطع كل الأواصر والروابط التي جمعتهم في الدنيا على الكفر والظلم.
2. الكشف عن حقيقة دوافع الأتباع: تبين الآية أن الأتباع (الضعفاء) اتبعوا المستكبرين لا عن علم، بل عن مجاملة، أو خوف، أو رغبة في العزة والمصالح.
3. إعلان المستكبرين تبرؤهم من الأتباع: رد المستكبرين جاء قاسيًا مخيبًا للآمال، ومؤكدًا أن العذاب مقسوم بين الجميع، وأن لا أحد يستطيع تحمل ذرة من عذاب أحد.
4. التحذير من التقليد الأعمى: الدرس الأكبر أن الله منحنا العقول لنتدبر ونفكر، لا لنكون تبعًا لأحد إلا على أساس علم قوي وبصيرة ترشدنا إلى الحق.

الأمر الأول: مشهد الخصومة الكبرى – عندما تنقلب العلاقات إلى عداوات (وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي النَّارِ...)

تأمل أولا ً معي في ظرف الزمان: "وَإِذْ يَتَحَاجُونَ فِي النَّارِ". إنها صورة مرعبة. "يتحاجون" من المحاجة والمجادلة والخصام. إنهم لا يتناقشون في قصر فرعون، ولا في ناد من أندية الدنيا، بل هم "فِي النَّارِ"! لقد أحاطت بهم النار من كل جانب، ومع ذلك هم يتخاصمون. هذا الخصام نفسه هو جزء من العذاب النفسي المضاعف.

ثم يبدأ الحوار: "فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا...". انظر إلى التقسيم: "الضعفاء" وهم الأتباع الذين كانوا في الدنيا ضعاف العقول والإرادات، تنازلوا عن كرامتهم وآدميتهم واستقلالهم الفكري، وساروا خلف "الذين استكبروا" وهم السادة والقادة والرؤساء وأهل الجاه والمال.

لماذا تبعوهم في الدنيا؟
الآية تختصر دوافعهم في كلمة واحدة: "إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا". "تبعًا" أي أتباعًا نسير خلفكم، لا نناقش ولا نفكر ولا نعترض. ولكن ما الذي جعلهم "تبعًا"؟ إنه مزيج من الأمراض النفسية والروحية:

· الخوف من بطشهم: خشيوا إن خالفوهم أن يقع بهم الضرر، أو أن يُسلبوا أرزاقهم ووظائفهم، أو أن يُضطهدوا.
· الطمع في مصالح الدنيا وزينتها: اتبعوهم مجاملة وابتغاء للعزة، أو رغبة في المال والجاه والوظائف . ظنوا أن القرب من القادة المستكبرين يمنحهم أمانًا أو قوة.
· الوقوع في أسر الشهوات والتعلق بالدنيا: لقد تعلقوا بالدنيا الفانية، فجعلوها أكبر همهم، وقدموها على طاعة الله، فباعوا دينهم بعرض زائل.

مثال واقعي يقرب الصورة:
ألا نرى هذا المشهد يتكرر اليوم؟ كم من إنسان يتنازل عن مبادئه، ويسكت عن الحق، ويجامل الظالمين، بل ويشاركهم في ظلمهم، خوفًا من بطشهم، أو طمعًا في وظيفة أو منصب أو صفقة! كم من شخص ضعف أمام ضغط مديره الفاسد، أو رئيسه الظالم، أو المجتمع المنحرف، ففضّل السلامة على الصدع بالحق، وفضّل المصلحة الشخصية على طاعة الله! إنه يسلك طريق "الضعفاء" الذين ساروا خلف فرعون وهامان وقارون، وغدًا سيقف في هذا الموقف الرهيب.

الأمر الثاني: الطلب المستحيل – هل يتحمل عنكم القادة شيئًا من العذاب؟ (فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ)

في هذه اللحظة، بعد أن اعترفوا بأنهم كانوا تبعًا لهم، يتقدمون بطلب يملؤه اليأس والضعف والمذلة: "فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ". هل تستطيعون أن تدفعوا عنا ولو جزءًا يسيرًا من هذا العذاب ؟ كما كنا ندفع عنكم ونخدمكم في الدنيا، كما كنا جنودًا لكم، هل اليوم تتحملون عنا قسطًا من العذاب؟

انظر إلى منطقهم المقلوب! لقد كانوا في الدنيا يظنون أن هؤلاء القادة هم مصدر القوة والحماية. والآ ن، في النار، وقد تجرد القادة من كل قوتهم المزعومة، يكتشف الأتباع أنهم وحدهم عراة، وأن هؤلاء القادة لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فضلا ً عن أن يملكوه لغيرهم. إنه طلب يعكس حجم الخديعة التي عاشوها.

الأمر الثالث: الرد القاسي المخيّب – إعلان البراءة والخذلان (إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)

والآن، يأتي الرد من "الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا"، رد يثلج الصدر للمؤمن، ويمزق القلوب للأتباع الضالين:
"إِنَّا كُلٌّ فِيهَا". كلنا في النار! لا أحد يستطيع أن يدفع عن أحد شيئًا. إنه اعتراف متبادل بالعجز و الهوان. لن نتحمل عنكم شيئًا، يكفينا ما نحن فيه من العذاب الأليم.
"إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ". العذاب قد قسم بيننا جميعًا بالعدل الإلهي. لكل واحد نصيبه المقدور من العذاب، ولن يستطيع أحد تغيير هذا الحكم أو تخفيفه. إنها كلمة يائسة من قادة ضلوا وأضلوا. لقد اغتروا في الدنيا بقوتهم وسلطانهم، وظنوا أنهم يستطيعون كل شيء، والآن يعترفون أن الأمر كله بيد الله وحده، ولا أحد يستطيع أن يغير شيئًا مما حكم به.

تذكر نصح الرجل المؤمن:
هنا بالضبط تتحقق كلمات الرجل المؤمن الصادق عندما قال لهم: "فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ" (الآية 44). وها هم قد تذكروا، ولكن في وقت لا ينفع فيه التذكر! لقد قال لهم: "اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ"، لكنهم فضلوا اتباع فرعون وملئه خوفًا وطمعًا. لقد حذرهم من اتباع المستكبرين، لكنهم أغلقوا آذانهم وقلوبهم. والآن، ها هي النتيجة أمام أعينهم! هم في النار، ولا مجير لهم منها.

الأمر الرابع: الدروس والرسائل التربوية والنفسية والفكرية – كيف نبني حياتنا على ضوء هذا المشهد؟

الله جل جلاله لم ينقلنا إلى هذا الموقف المهيب لنقرأه كقصة تاريخية، بل جعله حاضرًا أمامنا لنعتبر ونستيقظ. فما الذي يريده منا؟

.١الحفاظ على الكرامة باستعمال العقل:
كرامة الإنسان هي في عقله الذي منحه الله إياه، وفي القوامة التي جعلها له. إن الله خلقك حرًا، مفكرًا، مختارًا، وطالبك أن تتدبر وتتفقه. فلا تكن إمعة، لا تكن تبعًا لأحد إلا إذا كان يقودك إلى الحق بدليل وعلم واضح. اتباعك لأي إنسان، كائنًا من كان، لا يكون إلا على أساس "علم قوي" بأن هذا الطريق يرضي الله. فلا تجعل حياتك ونظام حياتك مبنيًا على التقليد الأعمى، بل على البصيرة والعلم الشرعي.

.٢لا تجامل أحدًا على حساب دينك، ولا تخف من أحد في إعلاء كلمة الحق:
لا تبحث عن مصالح أو وظائف يكون ثمنها اتباع سادة وقادة يستعملونك في الانحراف عن طريق الله. لا تجامل أحدًا في الحق، مهما كان منصبه. لا تخف من بطش أحد، ولا تتطلع إلى جاه أحد، فتسكت عن الحق أو تشارك في الباطل. تذكر أن هؤلاء السادة لن يغنوا عنك شيئًا يوم القيامة، بل سيتخلون عنك في الموقف الذي تحتاجهم فيه أشد الحاجة.

.٣وهم "الحماية" و"المصلحة":
ما فائدة الاعتزاز بهم في الدنيا؟ في النهاية، سوف تذوق الهوان، ولن ينفعك خدمتك للمستكبرين، بل ستكون قيودًا تربط أعناقك وتقذف بك إلى النار. كل خدمة قدمتها لهم ستكون ثقلا ً عليك لا خفة. إن هؤلاء القادة قد يمنحونك وظيفة أو راتبًا أو حماية مؤقتة في الدنيا، ولكنهم سيكونون سبب شقائك الأبدي. فاعرض هذه الرشوة الدنيوية الحقيرة على عرض الآخرة، وانظر أيهما أحق بالاختيار؟

.٤التذكر الدائم لنهاية هذه التبعية:
انظر إلى هذا الخصام، وتخيل نفسك في هذا الموقف. كلما راودتك نفسك لاتباع الظالمين، أو السكوت عن الحق، أو مداهنة الكفار والمستكبرين، تذكر هذا المشهد. تذكر سؤال الضعفاء اليائس، ورد المستكبرين القاسي. وتذكر كيف أن الرجل المؤمن كان يدعوهم صراحة إلى اتباعه لينجو، ويحذرهم من اتباع فرعون لأنه طريق النار. لكنهم رفضوا، وفضلوا المصالح الآنية على النجاة الأبدية. لقد آثروا مصالحهم مع فرعون، فصاروا من "آل فرعون"، ومصير "آل فرعون" هو النار التي فيها المذلة والمهانة.

خلاصة الآيتين: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

بهاتين الآيتين، يكشف الله لنا بأفضل بيان كيف أن التحالفات الدنيوية القائمة على الكفر والظلم و المصالح تنهار في لحظة، وتنقلب إلى عداوات أبدية. إنهما يصرخان في آذاننا وقلوبنا قائلين:

.1كن عبدًا حرًا: لا تكن عبدًا لشهوتك، ولا عبدًا لوظيفتك، ولا عبدًا لخوفك، ولا عبدًا لطاغية .كن عبدًا لله وحده، تكن حرًا من كل رق.
.2لا تبع نفسك: لا تتنازل عن مبادئك وإيمانك، ولو بلمسة صغيرة، في مقابل عرض دنيوي زائل.
.3تذكر أن الجميع سيرجع إلى الله: وفي ذلك اليوم، سينفعك نصح الصادقين، وسيضرك غرور المتكبرين.
.4اقبل نصيحة المؤمن واطرح طاعة المستكبر: لقد قال الرجل المؤمن الحق ونصح، فآمن البعض ونجوا .وقال فرعون الكذب وغرر، فهلك وأهلك قومه .فاختر أي الفريقين تريد أن تكون معه في الآخرة قبل أن تختار في الدنيا، فإن مصير الفريق الأول الجنة، ومصير الفريق الآخر النار.
ثانيا
لقد تركنا أهل النار في الآيات السابقة وهم في خصام مرير، يتبادلون الاتهامات، وينقلب الحب الذي جمعهم في الدنيا على الكفر إلى عداوة وبغضاء. لقد طلب الضعفاء من المستكبرين أن يتحملوا عنهم جزءًا من العذاب، فجاءهم الرد القاسي المخيب: "إِنَّا كُلٌّ فِيهَا". فانقطعت بهم كل الآمال في الخلاص عن طريق من كانوا يعتقدون فيهم القوة والقدرة. والآن، وهم في هذا اليأس المطبق، إلى من يلتفتون؟ وإلى من يلوذون؟

يأتي الجواب في هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تنقلان لنا مرحلة جديدة من مراحل عذابهم النفسي والجسدي. إنهم يتجهون هذه المرة إلى خزنة جهنم، إلى السجانين أنفسهم، طالبين منهم ما عجز عنه السادة والكبراء. إنه مشهد تتجلى فيه كل معاني الذل والهوان، ويكشف عن حقيقة الوساطات الباطلة التي كانوا يعتقدون بها في الدنيا.

تأمل معي قول الله جل جلاله، وهو يصوّر هذا الموقف المهين:

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) [غافر: 49-50].
مقدمة:
الأفكار الرئيسية التي تتحدث عنها الآيتان

هاتان الآيتان تقدمان لنا لوحة حية من داخل جهنم، وتكشفان عن حقائق عقدية ونفسية بالغة الأهمية ، وتتمحوران حول الأفكار الجوهرية التالية:

.1انهيار كل آمال الشفاعة الباطلة: بعد فشل التوسل إلى المستكبرين من البشر، يتجهون إلى الملائكة)خزنة جهنم (لعلهم يشفعون لهم .وهذا يبين بطلان ما كانوا يعتقدونه في الدنيا من أن الملائكة ستشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى.
.2حقيقة الملائكة: الآية توضح أن الملائكة هم جنود مطيعون "شِدَادٌ غِلَاظٌ" لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يشفعون إلا لمن أذن الله له وارتضى.
.3إقامة الحجة من جديد: رد الملائكة لم يكن شفاعة، بل كان تذكيرًا لهم بسبب وجودهم هنا: تكذيبهم للرسل الذين جاءوهم بالبينات .فالنجاة كانت ممكنة لو اتبعوا الوحي لا الوسائط.
.4إقرار المجرمين واعترافهم: "قَالُوا بَلَىٰ" هو اعتراف منهم بإقامة الحجة، وهو جزء من عذابهم النفسي، وعذاب الندم حيث لا ينفع الندم.
.5حتمية الخذلان: "فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" .دعاؤهم لا يستجاب، وشفاعتهم لا تقبل، لأن الدعاء المقبول عند الله له شروط: الصدق، والإيمان، والطاعة، واتباع منهجه.
الأمر الأول:
انهيار وهم الشفاعة – التوسل إلى خزنة جهنم (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...)

بعد أن أدرك أهل النار أن سادتهم وكبراءهم في الدنيا لا يملكون لهم شيئًا، تحولوا بوجوههم إلى جهة أخرى. إنهم يطرقون بابًا جديدًا، باب من ظنوا فيهم القرب من الله.

"وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ" .تأمل معي في هذه الصورة الحية! إنهم لا يطلبون من الله مباشرة، فهم يشعرون أنهم منقطعون عنه، محجوبون بذنوبهم . بدلا ً من ذلك، يلجأون إلى "خزنة جهنم"، إلى الملائكة الموكلين بالعذاب، إلى السجانين أنفسهم!

لماذا يطلبون من خزنة جهنم الدعاء؟
هذا المشهد يفضح حقيقتين كانتا سائدتين في الدنيا عند كثير من الكفار والمشركين:

.1عبادة الملائكة لغرض التوسط: كثير من الأمم الكافرة كانت تعبد الملائكة، وتصورهم على هيئة تماثيل، وتزعم أنهم لله بنات، وكانوا يعتبرونهم شفعاءهم عند الله، ويقولون: "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى" .لقد ظنوا أن للملائكة مكانة خاصة تجعلهم وسطاء بينهم وبين الله .والآن، وهم في النار، يتوجهون إلى هؤلاء الملائكة بالذات ليشفعوا لهم! إنه بقايا التفكير الشركي نفسه.
.2طلب التخفيف ولو ليوم واحد: انظر إلى درجة العذاب التي جعلتهم لا يطلبون الخلاص التام، بل فقط "يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ" .إنهم يتوسلون لساعة راحة، ليوم واحد فقط! هذا يبين أن العذاب دائم لا ينقطع، وأنهم بلغوا من اليأس مبلغًا جعلهم يستجدون أي شيء يريحهم ولو قليلا ً، حتى ولو كان على أيدي من يعذبونهم! إنها صورة منتهى الذل والهوان.

الدرس العملي:
انظر كيف أن المعتقدات الباطلة التي يموت عليها الإنسان قد تلازمه في أهوال الآخرة. لقد كانوا في الدنيا يعتقدون بنفع الملائكة وشفاعتهم المستقلة، وها هم في الآخرة يطلبونها منهم! لكن هيهات. إن هذا تحذير لنا: أن ننقي عقيدتنا من كل أنواع الشرك والوساطات الباطلة، وألا نعتمد في نجاتنا على أحد غير الله، أو على أعمالنا الصالحة وحدها التي أمرنا الله بها. فالأعمال الصالحة القائمة على شرط الإيمان هي التي تنفع، لا عبادة الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء ليقربونا إلى الله.
الأمر الثاني:
رد الملائكة – لا شفاعة، بل إقامة للحجة (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ...)

والآن، تأمل معي كيف كان رد خزنة جهنم. إنه رد قاس، لكنه عادل. إنهم لا يتكلمون من عند أنفسهم، بل هم جنود لله، يقولون ما يأمرهم به ربهم.

"قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ".
لم يلتفتوا إلى طلبهم، ولم يعدوهم خيرًا. بل بادروهم بسؤال استنكاري توبيخي يعيدهم إلى نقطة البداية، إلى سبب وجودهم في هذا العذاب.
إنهم يذكرونهم بالرسل، الذين أرسلهم الله رحمة بهم. فيقولون لهم: ألم تأتكم رسلكم من جنسكم، يفهمون لغتكم، ومعهم "البينات"، أي الحجج الواضحات والآيات القاطعات التي لا تدع مجالا ً للشك؟ ألم تكن تلك فرصتكم للنجاة؟ فلماذا تبحثون عن الشفاعة الآن، وقد جاءكم البلاغ المبين؟

هنا تتجلى حقيقة كبرى: الوحي الذي ينزل من السماء (وآخره القرآن الكريم) هو الذي كان يحملهم من الوقوع في النار. لا الوساطة، ولا المحسوبية، ولا عبادة الملائكة. "حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" هي بداية السورة التي تؤكد أن الطريق إلى نيل رحمة الله هو اتباع ما أنزل، لا اختراع الشفعاء والوسائط.
الأمر الثالث:
الاعتراف المُرّ – "قَالُوا بَلَى" (جزء من العذاب النفسي)

ثم يأتي الرد من أهل النار: "قَالُوا بَلَى".
إنها كلمة واحدة، لكنها تحمل أطنانًا من الحسرة والندم. إنهم يعترفون، ولم يعد بإمكانهم الإنكار كما كانوا يفعلون في الدنيا. لقد أقرّوا أن الرسل قد جاءتهم بالبينات، ولكنهم لم يتبعوهم. لم يشهدوا بألسنتهم فقط، بل شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

هذا الإقرار هو جزء من العذاب النفسي المضاعف. إنهم لا يستطيعون الكذب، ولا يملكون حجة. إنهم يعترفون بأن الله أقام عليهم الحجة، وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم. إن عذاب الجحيم يقترن بعذاب الندم، وندم لا ينفع. لقد حذّرهم الرسل، وأقاموا عليهم الحجة، فكذبوا وأعرضوا. والآن لا تنفعهم شفاعة، ولا يستجيب لهم رب.
الأمر الرابع:
الخذلان المطلق وحقيقة قبول الدعاء (فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

عندما اعترفوا بذنبهم، وبأن الحجة قد قامت عليهم، ماذا كان رد الملائكة؟ هل دعوا لهم؟ هل رقوا لحالهم؟ كلا.

"قَالُوا فَادْعُوا" .إنه أمر يفيد التخلية والترك .ادعوا أنتم بأنفسكم! لم نعد نسمع منكم، ولا نملك لكم نفعًا .فلتذهب توسلاتكم هباءً.

ثم يختم الله الآية بالحكم القاطع: "وَمَا دُعَاءُ الكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ". ضلال أي في ذهابٍ وهلاك وضياع وخسار. لا يستجاب لهم، ولا يقبل منهم. لأن شروط قبول الدعاء مفقودة: الإيمان والصدق و الطاعة واتباع المنهج الذي شرعه الله.

الرسالة التربوية والعقدية:
هنا درس بليغ: لقبول الدعاء، لا بد من الصدق مع الله، والإيمان به، وطاعته، واتباع رسله. أما دعاء الكافرين، حتى لو كان في أحرج المواقف، فهو في ضلال. إنهم في الدنيا قد يدعوهم الشيطان إلى أن الله غفور رحيم، وسيستجيب لهم لو دعوه رغم كفرهم. لكن الآية تبين أن رحمة الله تنال من يستحقها بالإيمان، وأن منهج الله واحد لا يتبدل. كما أن النجاة في الدنيا والآخرة لا تكون بقوة أو نسب أو شفاعة، بل باتباع البينات التي نزلت من السماء.

خلاصة الآيتين: ماذا يريد منا المولى بالضبط؟

من خلال هذا المشهد المهيب، يريد الله سبحانه وتعالى منا أمورًا أساسية:

.1تنقية العقيدة من شوائب الشرك: تذكر دائمًا أن عبادة الملائكة أو الأولياء أو الأنبياء، ليكونوا وسطاء بينك وبين الله، هي عبادة باطلة .هؤلاء هم عباد لله لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا .يوم القيامة، لن يشفعوا لك إلا إذا أذن الله لهم، ولن يأذن الله إلا لمن كان موحدًا.
.2قيمة القرآن والرسالات السماوية: لا نجاة لك إلا بالتمسك بما جاء به الرسل من البينات .هذا هو حبل الله المتين، وهذا هو الصراط المستقيم .لا تبحث عن النجاة في الأوهام والأهواء والمصالح.
.3أهمية الإخلاص والدعاء الصادق: دعاء الكفار في ضلال، لأنهم لم يتوجهوا إلى الله بقلب موحد . فإذا أردت أن يستجيب الله لك، فطهّر قلبك من الشرك، واصدق في توجهك إليه، واعمل بطاعته، واتبع منهجه الذي يحب.
.4الأعمال الصالحة مع الإيمان هما المنجيان: لا حسب ولا نسب ولا وساطة يوم القيامة .إنما تنجيك أعمالك الصالحة التي بنيتها على أساس الإيمان) .إلا من أتى الله بقلب سليم (والقلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك والشك وحب المعاصي.

هذه الآيات ليست مجرد قصص عن عالم غيبي بعيد، بل هي مرآة نرى فيها حقيقة ما نفعله في الدنيا. إنها تحذير لنا، لنصحح بوصلة قلوبنا الآن، قبل أن نأتي يومًا لا تنفع فيه شفاعة شافع، ولا دعاء داعٍ، ولا بكاء نادم. فاللهم إنا نسألك التوفيق والهداية.

المقطع الثالث
اولا
بكل خشوع وتدبر، لندخل أعماق آية عظيمة، نزلت لتكون ميثاقًا ونورًا، آية تجعلك تشعر أن الكون كله يعمل وفق وعد إلهي لا يتخلف:} إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ{ غافر:.[51

مقدمة: في رحاب الآية

تخيل أنك في أشد لحظات الضعف الإنساني، حيث الباطل يعلو ويصول، وتتساءل: أين النصر؟ هنا، لا يأتيك الجواب كتحليل بشري، بل كوحي إلهي قاطع .هذه الآية ليست مجرد خبر، بل هي إعلان عن قانون كوني، وهي دستور للثبات، وبوصلة للفكر .مقاصدها تتجلى في تثبيت قلب المؤمن، وتحرير مفهوم النصر من الأطر المادية الضيقة، وربطه بأفق أخروي أبدي يجعل من الحياة الدنيا مجرد جولة في معركة النهاية المحتومة للحق .لنغص في كل أمر من أمورها السبعة.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "إنّا" و "لَنَنصُرُ" - من الاحتمال إلى اليقين القاطع

تأمل معي مطلع الآية:} إِنَّا لَنَنصُرُ .{إنها ليست مجرد كلمات، بل هي كالصاعقة التي تزلزل جبال الشك في نفسك.

· "إنّا" : هذا ضمير العظمة .إنه توكيد بأن المتحدث هو الله، القوة المطلقة، مالك الملك .لم يقل "إنّي" فقط، بل "إنّا"، ليجمع كل صفات الجلال والجبروت والقدرة .وكأنه سبحانه يتقدم بنفسه ليعلن هذا القرار، فتستقر في قلبك حقيقة: هذا الوعد صادر من مصدر لا يُغلب.
· "لَنَنصُرُ" : اللام هنا هي اللام الموطئة للقسم .تخيل! هناك قسم إلهي مضمر تقديره: "والله لَنَنصُرَنَّ رسلنا" .إنها مبالغة في التوكيد، تخرج الخبر من حيز الاحتمال والإمكان إلى حيز اليقين المطلق و الفرض المحتوم .النصر ليس مكافأة قد تأتي أو لا، بل هو قرار رباني أبرم في السماء ونفذ في الأ رض.

اللمسات البيانية والبلاغية:
البلاغة هنا ليست في جمال اللفظ فقط، بل في قوته النفسية .لقد انتقل الخطاب من أسلوب الخبر العادي إلى أسلوب القسم المؤكد، مما يحول الوعد إلى "قانون وجودي" .إنها صياغة تلغي كل ظرف، وتهدم كل تردد، وتجعل المؤمن يشعر بأن النصر آتٍ لا محالة، كما يأتي النهار بعد الليل.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· ١. النصر حتمي ووعد حق لا شك في تحقيقه: هذه هي القاعدة الصلبة .الرسالة التربوية هنا هي دعوتك إلى أن تبني نظرتك للحياة على هذا اليقين .لا تجعل إيمانك رهينة للنتائج الآنية، بل اجعله قاعدتك الصلبة التي تنطلق منها.
· الدعوة إلى اليقين والثقة والأمل: الرسالة النفسية هي أن تستبدل القلق بالسكينة، والخوف بالأمل . إنها تمنحك ثقة عظيمة، لا في نفسك، بل في وعد الله .أن تعيش بقلب مطمئن، موقنًا بأن الباطل زائل والحق منصور مهما طال الزمن.
· الدروس العملية في حياتنا:
· لا تيأس أبدًا: مهما بلغت شدة الكرب أو تسلط الظالمين .المؤمن يعيش بأمل النصر وثقة بـالله، وهذا هو الدرع الواقي من الإحباط.
· دعوة إلى الثبات وقت الأزمات: الآية تمنحك طمأنينة بأن الظلم زائل، مما يمنحك الصبر والثبات على الحق رغم كثرة الباطل .إنها تربي فيك معنى عزة النفس والتعالي على ضغوط الواقع.

السؤال التدبري وتطبيقه العملي:
الله يقول} إِنَّا لَنَنصُرُ{، فماذا لو كان طريق هذا النصر يمر بالبلاء والموت؟ هنا يكمن التطبيق العملي ا لأعمق .قد تظن، بقصور نظرك، أن النصر هو التمكين المادي .لكن الآية تعلمك أن تقديم حياتك أو مصلحتك في سبيل الله هو قمة النصر .إن الشهادة هي "عصمة"، وهي الحياة الحقيقية .فاسأل نفسك: عندما أواجه البلاء، هل أعتبره هزيمة تقعدني، أم تكفيرًا للسيئات ورفعة للدرجات، بل هو طريق رباني للتمكين قد يكون أعظم من أي تمكين أرضي؟

الأمر الثاني: دلالة المعية المستمرة وقرن نصر الرسل بالمؤمنين

ينتقل الخطاب الإلهي ليرسم لك خارطة النصر وأهله .لاحظ قوله} رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا {بصيغة الفعل المضارع "نَنْصُر" .لم يقل "نصرنا" بصيغة الماضي، بل "ننصر" التي تفيد الاستمرار والتجدد في كل زمان ومكان .هذا يعني أن وعد النصر ليس حدثًا تاريخيًا مضى، بل هو نهر جارٍ لا يتوقف، يناله كل من سار على درب الرسل في أي عصر.

لماذا قرن الله نصر الرسل بنصر الذين آمنوا؟
هذا هو الإعجاز العظيم! الربط هنا يعني أن حبل النصر موصول .أنت، أيها المؤمن الصادق، لا تستمد نصرك من مصدر مختلف، بل من نفس المصدر الإلهي الذي استمد منه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام نصرهم .إنه إعلان بأن الأمة الوارثة، العلماء والمجددون والدعاة، هم في صف واحد مع الأنبياء في معركة الحق.

وما هو الإيمان الذي يستحق هذا الوعد؟
إنه ليس مجرد إيمان ادعائي .الآية تضع شرطًا ضمنيًا: إنهم} الَّذِينَ آمَنُوا {إيمانًا صادقًا يتبعه عمل ص الح وثبات .ليس كل من ادعى الإيمان ينصره الله، بل من صدق إيمانه وثبت عليه.

اللمسات البيانية والبلاغية:
إن اقتران "الذين آمنوا" بـ "رسلنا" في سياق الوعد بالنصر، هو تكريم عظيم للمؤمنين .إنه يرفع من شأنهم ويجعلهم في معية الرسل .هذا جمع قلبي وروحي، يؤكد وحدة الصف والهدف.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· ١. النصر لمن يحمل الرسالة: الوعد الإلهي بتحقيق النصر هو لكل من يحمل لواء الرسالة من العلماء والمجددين والتابعين من المؤمنين، في الحياة الدنيا والآخرة.
· ٢. النصر مرتبط بالإيمان الحقيقي: لا تنتظر النصر إذا كنت مقصرًا في جنب الله .هذه تربيتنا على توطين النفس على الصبر والجلد عند المحن، وأن نجاهد أنفسنا أولا ً.

الدروس العملية:

· تثبيت قلوب المؤمنين وتذكيرهم بأن النصر آتٍ لا محالة، سواء بإظهار الحق في الدنيا أو بالانتصار النهائي يوم الحساب .فاسأل نفسك: في مواقفي اليومية، في أمانتي في العمل، في ثباتي على المبدأ، هل أنا ممن ينطبق عليهم وصف} الَّذِينَ آمَنُوا {حقًا؟

الأمر الثالث: دلالة أن الوعد من الله، وطبيعة النصر الموعود) التطبيق العملي لمشكلة قتل الأنبياء(

هنا نواجه السؤال الجوهري الذي قد يكون فتنة للبعض: إذا كان الوعد من الله الذي لا يخلف وعده، فلماذا نرى رسلًا مثل يحيى عليه السلام قُتلوا، وتعرضوا للأذى؟ لماذا لم يحمهم الله من القتل الجسدي؟

هنا يتجلى الدرس الأعظم في فهم طبيعة النصر .النصر الموعود ليس محصورًا في الغلبة العسكرية الفورية أو سلامة الجسد .إن مقياس البشر المادي قاصر، يرون السراب ماءً .أما أنت، فالآية تدعوك للنظر بالبصيرة لا بالبصر .النصر الإلهي يتجلى في صور أسمى:

· نصر الأثر والفكرة: يُقتل الجسد، وتبقى الفكرة خالدة .يحيى عليه السلام قُتل، لكن منهجه ظل حيًا، وقتلته ذهبوا إلى مزبلة التاريخ .هذا هو نصر الأثر الذي لا يزول .لقد وصف الله الشهداء بأنهم أحياء يُرزقون، أفليست هذه حياة حقيقية؟
· الانتصار الداخلي) السكينة والثبات(: أن يمنحك الله طمأنينة وسكينة في قلبك، بينما يعيش خصمك في ضنك وضيق رغم كل مظاهر قوته .هذا نصر عظيم.
· نصر الحجة والبيان: أن تكون صاحب حجة قوية تظهر الحق، كما نصر الله مؤمن آل فرعون.
· النصر الأعظم في الآخرة: هناك، يوم يقوم الأشهاد، يكون النصر فصلا ً وحسابًا، وجنة عرضها السماوات والأرض .المؤمن باع نفسه لله، فسواء انتصر ماديًا في الدنيا أو قُتل، فهو منتصر لأنه قبض الثمن في الجنة.

الرسائل النفسية والعقلية:

· لا تيأس إذا تأخر النصر المادي .العاقبة دائمًا للمتقين.

· النصر عطاء من الله، والعطاء لا يملكه إلا الله .لذلك لا تطلب النصر إلا منه، وعش في اطمئنان لقضائه وقدره .ثق بربك أن وراء الشر الظاهري خيرًا عظيمًا، كما قال تعالى:} وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.{

السؤال التدبري والتطبيق العملي:
هل أثق بنصر الله حتى في أحلك الظروف، حتى عندما أرى كل مؤشرات المادة تقول إنني مهزوم؟
التطبيق الحقيقي هو أن تركز على واجبك وتترك النتائج لله .إذا أديت ما عليك ولم تنتصر ماديًا، فأنت منصور معنويًا لأنك أديت الأمانة .أن تكون شجاعًا في قول الحق، وتعمل ليرضى الله عنك، لا لترى النتائج الفورية.

الأمر الرابع: من هم "الأشهاد" ودلالتهم وشمولية النصر في الدارين

بعد أن قرر الله نصره في الدنيا، يعطف عليه بقوله:} وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.{

· من هم الأشهاد؟ هم جمع "شاهد"، وهم كل من يشهدون على الخلائق يوم القيامة: الملائكة، الأنبياء والرسل، المؤمنون، بل والجوارح والأرض .سُمُّوا بذلك لكثرة شهاداتهم وتنوعها وعظمها في ذلك الموقف المهيب، حيث تقام المحكمة الإلهية الكبرى.
· لماذا سُمُّوا "الأشهاد" ولماذا هذه الصيغة؟ "أشهاد" صيغة مبالغة على وزن "فعّال"، وهي تدل على كثرة الشهود وتنوعهم وقوة شهادتهم .إنها أبلغ من "الشهداء" أو "الشاهدين" لأنها تختزل هيبة الموقف وعدالته المطلقة.
· كيف يكون النصر يوم يقوم الأشهاد؟ النصر هناك هو الفصل النهائي .إنه نصرٌ بالجزاء الأبدي، حيث ينتقم للمظلوم من الظالم، ويدخل المؤمنون الجنة .هذا هو النصر الذي لا يشوبه كدر، النصر الأكبر و العدالة المطلقة.

اللمسات البلاغية والبيانية:

· المقابلة) الطباق الخفي(: بين "فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" و "وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" . إنها مقابلة بين دارين، توحي بشمولية النصر في الزمان والمكان .فالنصر ليس محصورًا في الدنيا الفانية، بل يمتد ليشمل الآ خرة الباقية.
· الإيجاز: لقد اختصرت "في الحياة الدنيا" كل صور النصر المتنوعة) ظفر، تمكين، حجة(، واختزلت "ويوم يقوم الأشهاد" مشهد الحساب والجزاء الأبدي الهائل في كلمتين، مما يضفي على الآية قوة وج لالا ً.

ماذا يعني شمول النصر في الدارين؟
يعني أن المعركة ليست منتهية بانتهاء العمر .إنها تعطيك بُعدًا جديدًا للصبر والثبات .فحتى لو لم تر التمكين في دنياك، فإن نصر الآخرة آتٍ لا محالة.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· هذه الآية ميثاق إلهي بالدعم والثبات للمؤمنين إلى النهاية، سواء في الدنيا أو في الآخرة.
· هي توجيه للمؤمن بأن ينظر إلى عواقب الأمور لا إلى ظواهرها .إن رأيت الباطل منتفخًا، تذكر أن العاقبة للمتقين، وأن مشهد "الأشهاد" قادم ليكشف كل زيف.
· تغيير النظرة للدنيا: عندما تستحضر مشهد الآخرة عند كل محنة، تزهد في ملذات الدنيا وتتقبل الابت لاءات، وتكون شجاعًا في الحق، كما حدث مع مؤمن آل فرعون الذي سيقت الآية بعد قصته.
· تعزيز قيمة العزوف عن الدنيا: إذا كان النصر الأكبر مؤجلا ً للآخرة، فلماذا التعلق الشديد بالدنيا وزخرفها؟

الأمر الخامس: ماذا يريد الله تعالى من هذه الآية؟

يريد الله منك، من خلال هذه الآية، أن تحدث ثورة في مفاهيمك وسلوكك:

· تغيير نظرتك للحياة: يريدك أن تتجاوز الأزمات فلا تفرح بنعيم زائل إذا كنت ظالمًا، ولا تقنط من شقاء عابر إذا كنت مظلومًا .فالدنيا دار ابتلاء، والظالم لا ينفعه معذرة يوم القيامة.
· استحضار يوم القيامة: يريدك أن تتذكر} يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ{عند كل قرار .أن تخشى شهادة الله والم لائكة على أفعالك الخاصة قبل العامة .هذا يمنحك، إن كنت مظلومًا، طمأنينة بأن العدالة قادمة.

· غرس اليقين والثقة: يريد أن يزرع في نفسك يقينًا راسخًا لا يتزعزع بنصر الله، ويدفعك للثبات على الحق.
· دعوتك للشجاعة: يريدك أن تكون شجاعًا في قول الحق، لأن الآية وردت بعد ذكر قصة مؤمن آل فرعون ومواجهته للطاغية، لتعرف أن الشجاعة في الإيمان هي سبيل النصر.
· الالتزام بالإيمان الصادق: يريد منك أن تلتزم بالإيمان الصحيح والعمل الصالح لتستحق هذا النصر العظيم.
· فهم الآية بعيدًا عن السطحية: يريد منك أن تدرك ثلاثة مفاهيم متكاملة:
1. نصر الأثر، لا نصر الجسد: قد يهزم المؤمن جسديًا، لكن فكرته ومنهجه ينتصران.
2. النصر سُنّة وليس طفرة: إنه قانون إلهي مرتبط بتحقيق شروط الإيمان والعمل والإعداد والصبر، لا يأتي مجاملة.
3. شمولية الزمن: النصر في الدنيا تمكين أو حسن ذكر، والنصر يوم الأشهاد هو الأكبر.

الأمر السادس: القيم المستفادة وكيف نطبقها في حياتنا العملية

لا قيمة للفهم النظري إن لم يتحول إلى سلوك عملي يومي .هذه الآية منهج حياة كامل.

.١على المستوى النفسي والشخصي:

· لا لليأس: مهما بلغت قوة الباطل، سواء كان ظلمًا سياسيًا أو ضيقًا ماديًا أو تنمرًا اجتماعيًا .استشعر أنك مع القوة التي لا تُغلب، فهذا يمنحك ثباتًا فعليًا وقوة في الحق.
· الإحسان في العمل: بما أن النصر مرتبط ب{ الذينَ آمَنُوا {وعملوا، فعليك تجويد إيمانك بإتقان عملك .العامل المتقن، الموظف الأمين، الطبيب الناجح، كلهم يمارسون أسباب النصر في تخصصاتهم.

.٢على المستوى الفكري والمنهجي:

· التحول من عبودية النتائج: طبق الآية بأن تركز على واجبك وتترك النتائج لله .إذا بذلت وسعك ولم تنتصر ماديًا، فأنت منتصر معنويًا لأنك أديت الأمانة.
· بناء الحجة: نصر الرسل دائمًا ما يبدأ بالحجة والبيان .طبق ذلك بأن تكون صاحب فكر مستنير، قادرًا على إقناع الآخرين بمنطقك وأخلاقك قبل قوتك.

.٣على المستوى المجتمعي وبناء الإنسان:

· دعم المصلحين: كما نصر الله رسله، علينا أن نكون ظهيرًا لكل من يسعى للإصلاح في مجتمعاتنا.
· رفع الوعي المجتمعي: صيغة الجمع} وَالذينَ آمَنُوا {تدعونا لبناء مؤسسات ومجتمعات متماسكة تقوم على الحق، لأن العمل الجماعي هو طريق النصر.

تأمل ختامي واقعي:
عندما ترى الظلم ينتفش، تذكر فرعون الذي قال: "أنا ربكم الأعلى" .أين هو الآن؟ وأين مؤمن آل فرعون؟ لقد مضى الطاغية إلى مزبلة التاريخ، وبقي المؤمن علمًا يُقتدى به .التطبيق الحقيقي للآية هو أن تنام قرير العين، موقنًا بأن للباطل جولة، ولكن للدولة للحق دولة إلى يوم القيامة.
الامر السابع
السنن التى تضمنتها الايه وكيفيه تطبيقها
يقول الله تعالى في سورة غافر: **{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}** (الآية 51).
تضع هذه الآية قاعدة إلهية ثابتة (سنة) لا تتخلف، وهي أن النصر حتمية إيمانية، لكن هذا النصر ليس مجرد "معجزة" تهبط من السماء بلا مقدمات، بل هو ثمرة لسنن وقوانين وضعها الله في الكون.
إليك شرح مفصل لهذه السنن وكيفية تحققها:
1. مفهوم النصر في الآية
النصر في هذه الآية لا يقتصر على الغلبة العسكرية أو المادية فحسب، بل يتسع ليشمل معاني أعمق:
* **نصر الحجة والبرهان:** أن يظل الحق ظاهرا وقوياً حتى لو اضطهد أصحابه.
* **نصر البقاء والأثر:** فناء الطغاة وبقاء ذكر الأنبياء والمصلحين ومبادئهم.
* **نصر الانتقام من الظالمين:** إهلاك الله للمكذبين في الدنيا قبل الآخرة.

* **النصر الأخروي:** وهو الفوز الأكبر يوم يقوم الأشهاد.
2. سنن النصر المستنبطة
لتحقيق الوعد الإلهي بالنصر، حدد الوحي عدة قوانين (سنن) يجب تفعيلها:
أ- سنة الإيمان والارتباط بالله
الآية قيدت النصر بصنفين: **"رسلنا"** و **"الذين آمنوا"**.
* **الدروس المستفادة:** النصر ليس حليفاً للعرق أو الأرض، بل هو حليف "المنهج". كلما كان المجتمع أقرب لصفات الإيمان الحقيقي (العمل الصالح، التوكل، الإخلاص)، استحق هذا الوعد.
ب- سنة التدرج والابتلاء
وعد الله بالنصر في **"الحياة الدنيا"** لا يعني أنه نصر فوري وسهل.
* السياق القرآني يوضح أن النصر يأتي بعد زلزال واختبار ليميز الله الخبيث من الطيب. فالتدافع بين الحق والباطل سنة ضرورية لاستخراج طاقات المؤمنين وصقل معادنهم.
ج- سنة الأخذ بالأسباب
رغم أن النصر من عند الله، إلا أن الآية تخاطب "الرسل" و"المؤمنين" وهم الفئة التي تبذل أقصى جهدها البشري.
* لا يتحقق نصر لمن قعد عن التخطيط، الإعداد، والعلم. فالإيمان ليس بديلا ً عن العمل، بل هو دافع لإتقانه.
د- سنة الثبات واليقين
النصر مرتبط باليقين بأن وعد الله حق. هذا الثبات هو الذي يجعل المؤمنين يصمدون أمام فتن الدنيا وضغوط الباطل، وبدون هذا الثبات النفسي لا يمكن تحقيق النصر المادي.
3. شمولية النصر (الدنيا والآخرة)
من بلاغة الآية أنها جمعت بين نوعين من النصر لتطمئن قلوب المؤمنين:
1. **في الحياة الدنيا:** نصر قد يراه الإنسان بعينه (تمكين، فتوحات، أو اندحار للظلم).
2. **يوم يقوم الأشهاد:** نصر معنوي وأبدي حيث يفتضح الظالمون على رؤوس الخلائق، ويُرفع شأن من صمدوا على الحق.
4. لماذا يتأخر النصر أحيانا؟
إذا كانت السنة هي النصر، فلماذا نرى انكسارات؟ العلماء يستنبطون من مفهوم السنة أن التأخير يكون لخلل في أحد الشروط:
* نقص في حقيقة الإيمان أو العمل.
* عدم استكمال الإعداد المادي المطلوب.
* رحمة من الله لتربية المؤمنين وتطهير صفوفهم من المنافقين.
> **خلاصة القول:**
> الآية 51 من سورة غافر هي **إعلان دستوري إلهي**؛ فالنصر ليس صدفة، بل هو استحقاق يُنال بتحقيق الإيمان والعمل واليقين، وهو نصر شامل يبدأ بانتصار المبدأ في القلب، وينتهي بتمكينه في الأرض، وتخليده في الآخرة.

الأمر الثامن : أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

، سنستخلص أبعاد الآية العميقة، فهي ليست مجرد وعد، بل دستور كامل للبناء الحضاري.

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسيًا: مفهوم الأمن المطلق .الآية تغرس في النفس الصلابة النفسية .فالمؤمن لا يستمد شعوره بالأمان من توازن القوى المادي، بل من كونه في معية الله .هذا يلغي القلق من المستقبل ويستبدله بـ السكينة.
· فكريًا: تحرير مفهوم النصر .تنقل الآية العقل من التفكير السطحي القائل "النصر = غنائم ومناصب" إلى التفكير الاستراتيجي القائل "النصر = بقاء الأثر وامتداد المنهج" .الفكرة التي لا تموت هي أعظم صور النصر.
· تربويًا: صناعة الجيل الصامد .تربي الآية الأجيال على عزة النفس والتعالي على ضغوط الواقع .إنها درس في الاستقلالية، حيث لا يكون المؤمن إمّعة يتبع القوي، بل يتبع الحق لأنه يعلم أنه الغالب في النهاية.

المحور الثاني: اسس ومقومات بناء الحضارة
الحضارة الإسلامية هي حضارة "قيَم" قبل أن تكون حضارة "طين" .وهذه الآية تضع أعمدتها:

· ١. مشروعية المنهج) الثقة بالقدرات(:} إنا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا .{أي حضارة لا تقوم على قيم سماوية وأخلا

اقية هي حضارة آيلة للسقوط، ولو بلغت عنان السماء .وعندما ترتبط الحضارة بالوعد الإلهي، فإن العاملين فيها يكتسبون ثقة مطلقة بقدراتهم، مما يجعلهم قادرين على مواجهة الأزمات بصلابة.
· .٢ المشاركة المجتمعية) تكوين فريق عمل مشترك(:} وَالَّذِينَ آمَنُوا .{النصر ليس مجهودًا فرديًا لقائد أو نبي، بل هو جهد جماعي لكتلة مؤمنة تحمل المشروع .وهذا يرسخ قيمة العمل الجماعي.
· .٣ البُعد الرقابي الأخلاقي) الإحساس بالمسؤولية(:} وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .{الحضارة الإسلامية تتميز بأنها حضارة مسؤولة أمام الله .فكل مسؤول، سياسي، أو اقتصادي يعمل وهو يعلم أن هناك محاكمة كبرى، مما يمنع الطغيان والفساد.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها

· وفق الزمان: الآية تمتد من} الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (الممر (إلى} يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (المقر الأبدي .(هذا يجعل المؤمن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ولأخراه كأنه يموت غدًا.
· وفق المكان: النصر الموعود ليس له حدود، فهو يشمل كل بقعة يرفع فيها الحق، مما يمنح المؤمن رؤية عالمية لقضيته.

المحور الرابع: كيف تعزز القوة النفسية وتمنع اليأس؟
هذه الآية هي مصل الوقاية من الإحباط عند رؤية انتفاش الباطل، وذلك من خلال:

· تحطيم أسطورة قوة الباطل المطلقة: حين يقول ملك الملوك} إِنَّا لَنَنصُرُ {، تتهاوى عنده كل أساطير جيوش الباطل في عين المؤمن، لتصبح مجرد أدوات زائلة لا تملك من الأمر شيئًا إلا بإذن الله.
· اليقين في أجر المحسنين: الآية تربط النصر بحمل الرسالة والإيمان .فالمؤمن يعلم أن جهده وعرقه وصبره وحتى آلامه هي استثمار مضمون الربح عند الله.
· فلسفة الانتظار الإيجابي: المؤمن لا ينتظر النصر وهو نائم، بل ينتظر وهو محسن في عمله، موقن بأن ساعة النصر قدر من الله، ودوره هو الإحسان فقط.

المحور الخامس: خلاصة الربط بقصة مؤمن آل فرعون
الآية تختتم سياقها في سورة غافر مع قصة الرجل الذي جهر بالحق في قلب دار الظلم .وهذه القصة هي نموذج تطبيقي حي:

· لتخبرنا أن الشجاعة في قول الحق هي أول درجات النصر المعنوي.
· لتُعلمنا أن حمى الله لعبده قد لا تكون دائمًا بمنع الأذى، بل بأن يجعل الأذى سلمًا لرفعة الدرجات وتخليد الذكر، كما خلد القرآن ذكر هذا الرجل.
· لتؤكد أن النهاية السعيدة هي للمتقين حتمًا، ولو بعد حين.

ختامًا: رسالة إلى قلبك وروحك
من يتشرب معاني هذه الآية لا يمكن أن ييأس .إنه يسير في الأرض بقلب ملك، لأنه يعلم أن الجهة التي تدعمه هي التي خلقت الكون وما فيه .عندما ترى الظلم ينتفش، تذكر أن فرعون قال "أنا ربكم الأعلى" فماذا كانت نهايته؟ وأين هو اليوم؟ لقد ذهب إلى مزبلة التاريخ .ارقد ونام قرير العين، فالحق له دولة، والباطل له جولة .إن وعد الله حق، وهو ناصرك ما دمت معه
ثانيا
تفسير قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: 52]،
مقدمة: مقاصد الآية وأهدافها الكبرى

في قلب سورة غافر، وبعد أن أرانا الله مشهد الصراع الأبدي بين الحق والباطل، وضرب لنا مثل مؤمن آل فرعون الذي جهر بالحق في وجه الطاغوت، ثم جاء الوعد العظيم في الآية التي قبلها (51) بأن العاقبة للمؤمنين في الدنيا والآخرة... تأتي هذه الآية لتكمل المشهد. إنها ليست مجرد خبر عن المستقبل، بل هي ميثاق إلهي بالعدالة المطلقة.

أهدافها تتجاوز مجرد الإخبار، بل تتجه إلى:

1.تثبيت قلوب المؤمنين وتطهيرها من الغل والحقد، بضمان أن العدالة آتية لا محالة.
2.زرع الرعب في قلوب الظالمين، أحياءً وأمواتًا، وجعل الآية سوطًا يجلد ضمائرهم.
3.تأسيس قاعدة حضارية كبرى: أن بقاء الأمم وازدهارها مرهون بإقامة القسط، لأن الظلم مؤذن بخرابها في الدنيا وسوء الدار في الآخرة.

4.تغيير نظرة الإنسان للوجود، فيفهم أن البطش المادي ليس انتصارًا، بل هو مؤشر خسران إذا قام على ظلم.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "يَوْمَ" وأسلوب "لَا يَنفَعُ" – من الاحتمال إلى صدمة اليقين

تأمل معي كيف تبدأ الآية بكلمة واحدة تخطف الأنفاس وتنقلك نقلة زمانية هائلة: {يَوْمَ}. إنه ظرف زمان، متعلق بقوله {لَنَنصُرُ} في الآية السابقة، أي: ننصرهم في الحياة الدنيا ويوم لا ينفع الظالمين معذرتهم. هذا الابتداء ينقلك فورًا من زحام الدنيا وضجيجها، ومن صولات الباطل وجولاته، إلى هدوء محكمة الآخرة المهيب. إنه تذكير بأن هناك موعدًا لا مفر منه، حيث تنقطع كل الحيل.

ثم يأتي الفعل {لَا يَنفَعُ} . إنه نفي قاطع ومؤكد، بأداة "لا" النافية للجنس، مما يفيد استغراق النفي وشموله. لم يقل ربنا "قد لا تنفع" أو "ربما لا تنفع"، بل قال: {لَا يَنفَعُ} بأسلوب يفيد أن النفع مستحيل الوقوع في ذلك اليوم.

اللمسات البيانية والبلاغية:
البلاغة هنا هي بلاغة الصدمة الإيجابية لقلب المؤمن، والصدمة المرعبة لقلب الظالم. لقد أخرجت الآية الخبر من حيز الاحتمال إلى حيز الوقوع المحتوم. كأنها تقول لك: لا تراهن على أعذارهم في الدنيا، ولا تغتر ببلاغتهم وتبريراتهم، فتلك كلها ستصبح هباءً منثورًا في يوم لا ينفع فيه إلا الصدق.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· تثبيت قلب المظلوم: حين تسمع {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ}، يبرد قلبك، وتسكن جوارحك. أنت لست بحاجة للانتقام الآن، فالعدالة المطلقة في انتظارهم.
· ترسيخ مفهوم العدالة الإلهية المطلقة: تعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأن كل تبريرات الظالمين التي طالما علت في الدنيا ستتحطم على صخرة الحقيقة في ذلك اليوم.

التطبيق العملي والسؤال التدبري:
عندما تظلم، أو ترى الظالم يصول ويجول ويبرر أفعاله، هل تلجأ إلى استدعاء هذه الآية في قلبك؟ التطبيق الحقيقي هو أن تقول لنفسك: "هذا يومه قادم، هذه معذرته التي يصول بها الآن لن تنفعه يوم يقوم الأشهاد". هذا هو الدرع النفسي الذي يحميك من الحقد ويدفعك للصبر.

الأمر الثاني: دلالة وصف "الظَّالِمِينَ" – من هم؟ ولماذا هذه الصيغة؟

انظر إلى كلمة {الظَّالِمِينَ}. لم يقل "الكافرين" فقط، مع أن الكفر هو الظلم الأعظم، بل قال {الظَّالِمِينَ} بصيغة اسم الفاعل، لتشمل كل أنواع الظلم: ظلم النفس بالشرك، وظلم العباد بغصب الحقوق، وظلم الضمير بتزوير الحقائق، وظلم الأقوال والأفعال.

اللمسات البيانية والبلاغية:
اسم الفاعل "الظَّالِمِينَ" يدل على الثبوت والرسوخ في الظلم، فكأن الظلم صار صفة لازمة لهم، ومهنة يمارسونها. لم يقل "الذين ظلموا" بصيغة الفعل الماضي التي قد تدل على حدث مرة وانتهى، بل قال {الظَّالِمِينَ} ليدل على استمرارهم على هذا النهج حتى صار سمة مميزة لهم.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· التحذير الشامل: الآية تحذرك من كل أشكال الظلم، صغيره وكبيره. ظلم الموظف لمراجعه، ظلم الزوج لزوجته، ظلم الصديق لصديقه، ظلم الحاكم لشعبه، ظلم الأبناء للآباء. لا تظن أن هذا الوعيد خاص بفرعون وهامان فقط! كل من لبس ثوب الظلم فهو داخل في هذا الوعيد.
· صناعة الضمير الحي: الآية تربي في نفس المؤمن رقابة ذاتية دائمة، فيسأل نفسه قبل كل فعل: "هل أنا من الظالمين بهذا التصرف؟".
الأمر الثالث: دلالة "مَعْذِرَتُهُمْ" وسقوط كل حججهم

كلمة {مَعْذِرَتُهُمْ} تشير إلى كل ما سيتعللون به من أعذار، وكل ما سيسوقونه من تبريرات. إنها تشمل قولهم: {رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} (الأنعام:23)، وقولهم: {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} (الأنعام:23) فيكذبون على الله، وقولهم: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا} (فاطر:37)، وكل محاولاتهم اليائسة للتهرب من الحقيقة. ولكن

في ذلك اليوم، {يَوْمَ لَا يَنفَعُ}، سيتم هذا السقوط المدوي لأقنعتهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:
إضافة كلمة "مَعْذِرَتُهُمْ" إلى ضميرهم "هم" تزيد المعنى دقة؛ فهي أعذارهم التي اخترعوها بأنفسهم، وصنعوها بأيديهم، والتي كانوا يظنون أنهم بها يفلحون. لكنها في ذلك اليوم ستنقلب عليهم وبالا ً.
إنها إيجاز معجز يختصر كل سيناريوهات الدفاع الوهمي في كلمة واحدة، ثم يحطمها بكلمة: {لَا يَنفَعُ}.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· العبرة بالحقائق لا بالمظاهر: الآية تعلمك أن لا تغتر ببلاغة المبررات في الدنيا، فكم من باطل تغلف بغلاف الحقيقة، وكم من ظلم زُيّن برداء العدل. تعلم أن هناك يومًا تنكشف فيه السرائر، وتبلى فيه الحقائق.
· التوبة الآن وليس غدًا: الآية تدعوك للإسراع بالتوبة وترك اختلاق الأعذار لنفسك في ارتكاب المعاصي. فما بالك بالأعذار التي تخترعها لظلم الآخرين؟ إنها لن تنفعك.

الأمر الرابع: دلالة "وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ" – الطرد والإبعاد

بعد سقوط معذرتهم، يأتي الحكم الإلهي الأول: {وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ}. واللعنة في اللغة تعني الطرد والإبعاد عن رحمة الله. هي غضب الله الذي يطاردهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:
تقديم الجار والمجرور {لَهُمُ} على المبتدأ {اللَّعْنَةُ} يفيد الاختصاص والحصر. كأنه قيل: "اللعنة لهم وحدهم، لا يشاركهم فيها أحد تجب له الرحمة". هذا الحصر يزيد من شدة الإهانة والعذاب النفسي. لقد خسروا معذرة النجاة، فكان نصيبهم الخاص المحض هو اللعنة.

ما هي الرسالة من هذا؟
إنها إعلان بأن الظالمين في ذلك اليوم يكون مصيرهم النهائي هو القطيعة التامة عن الله، فلا نور ولا راحة ولا أمان. هذا هو الخسران المبين.

الأمر الخامس: دلالة "وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ" – المصير الأسود والعاقبة الوخيمة

ثم يضيف الله إلى لعنتهم وطردهم، مصيرًا ماديًا ومعنويًا أبديًا: {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}.

· "سُوءُ" : نكرة للتعظيم والتهويل، فهي تشمل كل سوء لا يمكن للعقل البشري تصوره.
· "الدَّار" : هي جهنم، عياذاً بالله. سميت بذلك لأنها محل إقامتهم الأبدية التي لا يفارقونها.

اللمسات البيانية والبلاغية:
مرة أخرى، تقديم {لَهُمْ} يفيد أن سوء الدار هو ملكهم الخالص، وقدرهم المحتوم. وفي المقابلة بين هذا المصير ومصير المؤمنين في الجنة (نِعْمَ الدَّار)، يتبين لك الفرق الشاسع بين عاقبة الظلم وعاقبة الإيمان. إنها لوحة فنية متكاملة بالأضداد: هناك نعيم ونور، وهنا بؤس وسوء وظلام.

الأمر السادس: ماذا يريد الله منا من خلال هذه الآية؟

هذا هو السؤال الجوهري الذي أهملته، وهو لب التدبر. ماذا يريد المولى سبحانه وتعالى منك أنت تحديدًا من هذه الآية؟ إنه يريد أن يحدث فيك انقلابًا شاملا ً في المفاهيم والسلوك:

.1يريد أن يطهّر قلبك من الحقد والرغبة في الانتقام: بأن يكل إليك أمر العدالة فيه، فلا تشغل بالك بالظالم، فمصيره بيد الله الذي لا ينسى .هذا يحررك لتتفرغ لعبادته وعمارة الأرض.
.2يريد أن يغرس فيك الخوف من الظلم، لا الخوف من الظالم: أن تخاف أن تكون أنت من الظالمين ، فتراقب تصرفاتك مع أهلك، زملائك، من هم تحت يدك، بل ومع نفسك .فالوعيد هنا لك قبل أن يكون لفرعون.
.3يريد أن يمنحك الأمان الداخلي: حين تعلم أن هناك يومًا للفصل، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إ لا من أتى الله بقلب سليم، تطمئن نفسك، وتوقن أن الحق لا بد أن يعلو، وأن الباطل لا بد أن يندثر.
.4يريد أن يعيد تشكيل نظرتك للنجاح والفشل: فالظالم الذي يبدو ناجحًا في الدنيا هو في الحقيقة

أسوأ الناس حالا ً، لأنه يكدس لنفسه اللعنة وسوء الدار .والمظلوم الصابر الذي يبدو مهزومًا هو الرابح الحقيقي .يريدك أن تنظر للأمور بعين الآخرة، لا بعين الدنيا الفانية.
.5يريد أن يؤسس لقاعدة حضارية: وهي أن بقاء الأمم واستقرارها مرهون بإقامة العدل ونبذ الظلم، لأن عاقبة الظلم وخيمة ليس فقط في الآخرة، بل في الدنيا قبلها.
الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

الآن نستخرج الأبعاد العميقة التي غفلت عنها، والتي تجعل من الآية دستورًا كاملا ً.

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسيًا: مفهوم الأمان النفسي والتحرر من الخوف. الآية تغرس في نفس المؤمن شعورًا بأن هناك قاضيًا عادلا ً، مما يحرره من الخوف من جبروت الظالمين. كما أنها تولد في نفسه صلابة نفسية، فلا ينهار عند رؤية الظلم متفشيًا، لأنه يوقن بنهايته الحتمية.
· فكريًا: تحرير مفهوم العاقبة. تنقل الآية عقل المؤمن من التفكير المرحلي القاصر (من غلب في الدنيا فقد ربح) إلى التفكير الاستراتيجي الشامل (من نجا في الآخرة فقد ربح ولو خسر الدنيا كلها). هذا يبني عقلية نقدية لا تنخدع بالمظاهر.
· تربويًا: صناعة الفرد الرقيب على نفسه. الآية هي أعظم أداة تربوية لبناء الضمير. إنها تربي الفرد على مراقبة ذاته قبل مراقبة الآخرين، فيسأل: "هل أنا ظالم؟ هل معذرتي هذه حقيقية؟". إنها تنقل المسؤولية من الخارج (الشرطة، القانون) إلى الداخل (الضمير الحي).

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية
الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية قيمية، والآية تضع حجر الزاوية لهذا البناء:

.1العدل أساس العمران: الآية تعلن أن الظلم مؤذن بالخراب وسوء المصير .فلا يمكن أن تقوم حضارة على ظلم، مهما بلغت من تقدم مادي .فالحضارة التي لا تحمي ضعفاءها، وتسمح بأكل القوي للضعيف، هي حضارة طريقها إلى "سوء الدار" معجلة في الدنيا قبل الآخرة.
.2المسؤولية والشفافية:} يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ .{هذا يبني مبدأ "المسؤولية المطلقة" .كل فرد ، وخاصة القادة والعلماء وأصحاب القرار، يعمل وهو يعلم أن هناك محاكمة كبرى لا تنفع فيها محاباة ولا رشوة ولا تبرير .هذا يخلق مجتمعًا قائمًا على الشفافية والخوف من الله قبل الخوف من الرقابة البشرية.
.3مركزية القيم السماوية: بقاء الحضارة مرهون بإيمانها باليوم الآخر .الإيمان بـ "يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم" هو الضمانة الوحيدة لعدم تحول الحضارة إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف .إنه البوصلة الأخلاقية التي تحفظ توازن المجتمع.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية

· الأبعاد النفسية: الآية بلسم شافٍ لجراحات المظلومين على مر التاريخ. إنها تمنحهم تعويضًا نفسيًا فوريًا، وتجعلهم يشعرون بالعزة والكرامة، لأنهم على حق والله معهم. كما أنها علاج للاكتئاب والإحباط الناتج عن رؤية ازدهار الظالمين.
· الأبعاد الفكرية: الآية تؤسس لفلسفة تاريخية متفائلة. التاريخ ليس عبثيًا، بل هو صائر إلى غاية هي تحقيق العدالة. هذا يعطي للفكر الإنساني بوصلة واضحة، ويمنع العبثية والعدمية.
· الأبعاد العقائدية: الآية ركن ركين في عقيدة الإيمان باليوم الآخر. إنها تفصيل لما سيحدث في ذلك اليوم، مما يزيد إيمان المؤمن ويقينه به، ويجعله يعيش معادلات الدنيا بعينين: عين على الواقع، وعين على المآل.
· الأبعاد الاجتماعية: الآية تدعو إلى بناء مجتمع يقوم على الإنصاف. عندما يتربى أفراد المجتمع على أن "معذرتهم لن تنفعهم" عند الله، فإنهم سيكونون أكثر حرصًا على أداء الحقوق، وأقل لجوءًا إلى التبريرات الكاذبة. هذا يخلق مجتمعًا صحيًا متماسكًا.

المحور الرابع: خلاصة الربط بالآية السابقة
لقد وعدك الله في الآية (51) بالنصر، وهنا في الآية (52) يريك بعض ملامح هذا النصر. إنه نصرٌ يتجلى في الدنيا بإظهار الحق والتمكين له، ويكتمل بشكل لا يوصف في الآخرة بفضيحة أعداء الحق وإذلالهم. إنها لوحة كاملة: نصر المحسنين، وخذلان الظالمين. فلا تحزن أيها المؤمن، فالطاغية قد يملأ الدنيا ضجيجًا، لكنه سيأتي يوم لا ينفعه فيه أي كلام، وسيكون مصيره الخلود في دار البوار.
خاتمة: رسالة خاصة إلى قلبك

أيها المؤمن، يا من تؤرقه رؤية الظلم، هذه الآية هي رسالة خاصة من الله إليك. إنها وعدٌ ضمني بأن الله لم ينسك، وأن ما تراه من استعلاء الباطل هو مجرد فصل مؤقت في مسرحية الوجود. النهاية قد كتبها الله: للظالمين اللعنة وسوء الدار. فلا تحمل في قلبك غلا ً، واعفُ واصفح، وكل أمرهم إلى الله.

في المقابل، أمسك بهذه الآية كمرآة في كل يوم. قبل أن تنام، اسأل نفسك: "هل أنا اليوم من الظالمين؟ هل ظلمت أحدًا بكلمة؟ بغيبة؟ بنظرة؟ بمنع حق؟". اجعل هذه الآية رقيبك الخاص، فهي الضمانة الوحيدة لكي لا تكون يوم القيامة من أولئك الذين لا تنفعهم معذرتهم. عش حياتك على قاعدة: "الظلم ظلمات يوم القيامة"، واجعل من هذه الآية العظيمة نورًا يضيء دربك إلى الله، ودرعًا يحميك من أن تكون من أصحاب سوء الدار.

ثالثا.

بيان الغايه من إرسال الرسل وانزال الكتب السماويه لإرشاد الناس الى طريق الايمان الهدايه ومن المنتفعين به وبيان واجبات الاستخلافه في الارض وراثه الكتاب السماوي وعقوبه الانحراف المنهج الكتاب وتلوث الفطره وشروط تحقيق النصر

نحن الآن أمام جوهرة قرآنية تخبرك عن أعظم نصر، لا يتعلق بغلبة جيش أو سقوط عرش، بل بنور يملأ القلوب، ويقيم الحضارات، ويؤسس للحياة الطيبة. يقول الله عز وجل بعد أن وعد المؤمنين بـ النصر، مبينًا غايته العظمى:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54)} [غافر].

إنها آيتان تختزلان فلسفة التاريخ الإنساني، وترسمان لك خارطة الطريق نحو التمكين الحقيقي. لقد جاءتا في هذا الموضع من سورة غافر، بعد الحديث عن نصر الرسل والمؤمنين، لتجيبا على سؤال قد يثور في ذهنك: ما الغاية من كل هذا النصر؟ وما هو النصر الحقيقي الذي يجب أن نسعى إليه؟ تأتي الإجابة قاطعة: إن الغاية هي الهداية، وإن أعظم نصر هو أن يهديك الله، وأن يجعل منك وارثًا لكتابه، عاملًا به، قائدًا به للبشرية. إن النصر المادي ليس إلا وسيلة لغاية أسمى، هي إقامة منهج الله في الأرض. فلنغص معًا في أعماق هاتين الآيتين، لنستخرج منهما الدستور الإلهي للنهضة والتمكين والعاقبة الحميدة.

الأمر الأول: دلالة "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ" – أعظم عطاء ونصر مبين

تبدأ الآية بقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ}. وتأمل معي كل حرف فيها، وكأنه يخاطب قلبك المليء بأسئلة النصر والتمكين.

- "لَقَدْ" : هي اللام الموطئة للقسم، وقد دخلت على حرف التحقيق "قد" .إنه قسم مضمر من الله العظيم، وتوكيد بأن ما سيأتي هو الحق اليقيني .إنها الصيغة التي تجعلك تستقبل الخبر وكأنه حقيقة كونية لا تقبل الجدل.
- "آتَيْنَا" : فعل الإعطاء والتمليك .لم يقل "أعطينا" أو "وهبنا" فقط، بل قال "آتينا" التي تفيد التمليك الدائم والاختصاص الكامل .إنه عطاء من الله، ليس له عوض، ولا ينتظر من ورائه جزاءً ولا شكورا . هو عطاء محض، بدافع الرحمة الإلهية، ليسعد الإنسان في الدنيا والآخرة.
- "مُوسَىٰ" : هو النبي الكريم، الذي أرسل إلى قوم مستضعفين، يسومهم فرعون وقارون وهامان سوء العذاب .وفي ذكره هنا تحديدًا إشارة واضحة إلى ارتباط الهداية بالنصر على الطغاة .لقد كان موسى في مواجهة أعتى قوى الشر في زمانه، قوى المال) قارون(، والسلطة) فرعون(، والإدارة الفاسدة)هامان(، ورغم هذا كله فإن الله آتاه الهدى.
- "الْهُدَىٰ" : هي الكلمة المركزية .ما هو هذا الهدى؟ إنه ليس مجرد بوصلة، بل هو ذلك النور الذي يفرق به المرء بين الحق والباطل، وهو مجموعة المعارف والقوانين والشرائع التي تنظم حياة الإنسان وتوصله إلى سعادة الدارين .إنه أعظم نصر، وأجل عطاء، لأن من ملك الهدى ملك مفتاح النجاة من المرهوب، والفوز بالمطلوب .فالله لم يرسل الرسل لعبًا، ولم ينزل الكتب باطلًا، بل لسعادة الإنسان ونجاته.

اللمسات البيانية والبلاغية:

تقديم الجار والمجرور في "ولقد آتينا" يفيد الحصر والتوكيد، فالله وحده هو مصدر الهدى. واختيار اسم "موسى" بالذات يستحضر أمام عينيك قصة النصر الكبرى: كيف أن الله نصر الهدى على الغطرسة ، والعقيدة على القوة المادية. إن هذا ليجعلك تدرك أن الهداية بحد ذاتها هي النصر الذي مهد لانتصار

موسى المادي على فرعون. فالوحي هو السلاح الأعظم، والهدى هو الطريق الوحيد للوصول إلى النصر الحقيقي.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية من هذه الدلالات:
.١الهداية هي النصر الأعظم: تغرس الآية في نفسك أن لا تحصر مفهوم النصر في الغلبة المادية فقط .فأنت إذا هداك الله للإيمان والعمل الصالح، فأنت منتصر حقيقةً، حتى لو بدت لك الدنيا بخلاف ذلك.
.٢النصر عطاء من الله يبدأ بالهدى: التطبيق العملي هنا هو أن تجعل سعيك الأول ودعاءك الدائم هو طلب الهداية والسير على طريقها، لأنها الضمانة الوحيدة لأن يكون لك النصر والعاقبة الحميدة.
الأمر الثاني: دلالة "وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ" – من الهدى الفردي إلى التمكين الجماعي

ثم تأتي النقلة العظيمة: {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ}.

· "أَوْرَثْنَا" : الإيراث هو انتقال الشيء من قوم إلى قوم آخرين، أو بقاؤه فيهم جيلاً بعد جيل .والله هو الذي أورث، مما يدل على أن ملكية الكتاب لله، وهو الذي يجعله ميراثًا لمن يشاء من عباده .إنها إشارة واضحة إلى التدخل الإلهي المباشر في تحقيق النصر للمستضعفين.
· "بَنِي إِسْرَائِيلَ" : هم القوم الذين كانوا مستضعفين، يُذبح أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، فإذا بهم بعد الصبر والابتلاء يرثون الأرض ويصبحون القادة .وهذا يذكرك بقوله تعالى:} وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) {القصص: .(5إنه تحقيق حرفي للوعد، حيث أصبح الكتاب ميراثهم، والملك والقيادة حليفهم.
· "الْكِتَابَ" : هو التوراة، التي اشتملت على الهدى والنور والشريعة، وهي التي ستنظم حياتهم وتقيم حضارتهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:
الانتقال من "آتينا موسى الهدى" إلى "أورثنا بني إسرائيل الكتاب" يمثل نقلة من الهداية الفردية (للرسول) إلى الهداية الجماعية (للأمة)، ومن مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين. هذا الترتيب يربيك على أن الهداية هي مفتاح التمكين، والكتاب هو أداة الحضارة والاستخلاف في الأرض.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:
.١سنة الابتلاء قبل التمكين: بنو إسرائيل لم يرثوا الكتاب والملك إلا بعد أن تجرعوا مرارة العذاب، وابتلاهم الله بأنواع البلاء، حتى إذا رأى صدق صبرهم وتحملهم في سبيله، جاء النصر .وهذا يثبت في قلبك أنه لا تمكين بلا ابتلاء، ولا سيادة بلا تضحية وصبر .إنها سنة ماضية .فهل أنت مستعد لدفع ثمن التمكين؟
.٢الكتاب أمانة ومسؤولية: إن توريث الكتاب لهذه الأمة هو ذروة النصر .والرسالة لك أن النصر ليس للراحة والرفاهية فقط، بل لحمل أمانة الكتاب وتطبيقه .التطبيق العملي: اسأل نفسك: كيف أرث كتاب الله حقًا؟ أباكتفائي بقراءته، أم بتطبيقه في حياتي وواقعي؟

الأمر الثالث: دلالة "هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ" – المهمة المزدوجة للكتاب السماوي

بعد أن أخبرنا أنه أورثهم الكتاب، يبين الله لنا وظيفة هذا الكتاب وغايته الكبرى فيقول: {هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

· "هُدًى" : هو الإرشاد والدلالة إلى طريق الحق، الذي يوصل إلى المطلوب) الجنة ورضوان الله(، وينجي من المرهوب) النار وغضب الله .(مهمة الكتاب الأولى هي أن يكون منظمًا لشؤون حياتك كلها، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعبادة، لتكون عبدًا لله في متجرك وفي مصنعك وفي إدارتك للدولة وفي بيتك وفي كل عمل تقوم به .الهداية هي إقامة منهج الله في الأرض.
· "وَذِكْرَىٰ" : هي التذكير الدائم الذي يوقظ الفطرة السليمة، ويبقي القلب حيًا متصلاً بربه .فالكتاب يذكر المؤمن بحقائق الإيمان، ويمنعه من الغفلة، ويجعله في حال يقظة دائمة، خائفًا من الله، مستحضرًا لرقابته.
· "لِأُولِي الْأَلْبَابِ" : هم أصحاب العقول الصحيحة المستنيرة، التي ترى بعين البصيرة لا بعين الرؤيا فقط .إنهم الذين ينتفعون بالهدى والذكرى .وهذا قيد مهم: فالانتفاع بالكتاب مشروط بوجود العقل الراجح، والبصيرة النافذة .فالذين انحرفوا عن الكتاب، أو جعلوه سلعة للمتاجرة والتباهي، أو حرفوه عن غايته، قد فقدوا وصف "أولي الألباب" الحقيقي، فلم يعد الكتاب ينفعهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:

تقديم "هدى" على "ذكرى" يرينا أن الغاية الأولى والأساسية هي إرشاد الناس إلى الطريق الصحيح لأ ول مرة أو تفصيلا ً، ثم تأتي وظيفة التذكير لمن عرف وربما غفل. كما أن ختم الآية بـ "لأولي الأ لباب" يشير إلى أن قيمة الكتاب لا تتحقق إلا بمن يستوعبونه بعقولهم ويعملون به. إنها تربية على أهمية الفهم والتدبر لا مجرد التلاوة.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:
١.شمولية الهداية: الكتاب ليس لممارسات روحية في المسجد فقط، بل هو دستور حياة .التطبيق العملي هنا أن تحكم شرع الله في كل دقيقة في حياتك، في بيعك وشرائك، في تربية أبنائك، في أمانتك في وظيفتك .هذا هو معنى وراثة الكتاب.
٢.دوام اليقظة: أنت بحاجة دائمة إلى "الذكرى" لأن الفطرة تصدأ .فعليك أن تجعل لك وردًا يوميًا من القرآن، لا للقراءة فقط، بل للتذكر والاتعاظ، لتظل يقظ الضمير.

الأمر الرابع: السنن المستخلصة – شروط التمكين وواجبات الاستخلاف

من خلال هذه الآيات، ومع ربطها بما جاء في الآيات السابقة من وعد بالنصر، نستخلص سننًا إلهية غاية في الأهمية، وهي قواعد لا تتغير ولا تتبدل.

· سنة الابتلاء قبل التمكين: هل يصير تمكين بلا ابتلاء؟ كلا .فقد ابتُلي بنو إسرائيل بالعذاب المهين، وابتُلي المؤمنون في مكة بأنواع الأذى، حتى إذا رأى الله صدق صبرهم وتحملهم، تحقق التمكين .هذه سنة ربانية لتطهير النفوس وتمحيص الصفوف.
· شروط التمكين وواجبات الاستخلاف: إن التمكين ليس غنيمة باردة، بل هو مسؤولية عظمى .وقد بين الله شروطه وواجباته بوضوح في كتابه، والتي يفهم ضمنا من إيراث بني إسرائيل الكتاب:
· تحقيق العبودية الخالصة لله: كما قال تعالى:} وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ {)النور: .(55الإيمان والعمل الصالح هما الأساس .والإيمان يعني تطهير القلب من الشرك، وإفراد الله بـ الربوبية والألوهية .فمن كفر بعد ذلك، أو أدخل الشرك في أي أمر من أمور حياته، فتمكينه مهدد بـ الزوال.
· إقامة الصلاة: التي هي صلة العبد بربه، وفيها حكمة التواضع والخضوع لله.
· إيتاء الزكاة: التي تطهر المال، وتطهر النفس من الشح والطمع والتعلق بالدنيا .إنها تربي فيك الإ حساس بالآخرين، وتزيل الضغائن من قلوب الفقراء على الأغنياء، وتولد القناعة والرضا .فالزكاة تذكرك أن المال مال الله، وهو الذي يعطي ويمنع.
· الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو أساس القوامة على الناس بالحق، وتحقيق العدل في المجتمع .بهذا يستقيم أمر الأمة، وبه يتحقق الأمن والاستقرار.
· خطورة الانحراف عن المنهج وزوال التمكين: هذه السنة واضحة .إن أي انحراف عن شروط الاستخ لاف هو سعي في الفساد في الأرض، وموجب لزوال النعمة .لقد حذرنا الله مما حدث لبني إسرائيل حين اتخذوا الكتاب وسيلة للتباهي والتعالي، وحرفوه عن غايته، واعتبروه سلعة لإثبات أحقيتهم بـ القيادة دون عمل .فماذا كانت النتيجة؟ نزع الله عنهم الخلافة والقيادة، ونقلها إلى أمة الإسلام .قال تعالى:} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) {آل عمران: .(68فالمعيار ليس النسب، بل الاتباع والعمل.

الأمر الخامس: التحذير الإلهي لهذه الأمة – درس من التاريخ

الخطر نفسه يتهددنا نحن أمة محمد ﷺ، إذا وقعنا فيما وقع فيه بنو إسرائيل. لقد حذرنا الله في سورة محمد بقوله: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} (محمد:38). إنه تحذير رهيب.
فإذا اتخذنا هذا القرآن للتباهي والتعصب، وادعينا أننا أحق بالقيادة بسبب نسبنا أو تاريخنا، ثم انحرفنا عن منهجه عمليًا، فسوف يزول ما لدينا من نعم الهداية ونعمة التمكين، كما زالت عن بني إسرائيل.

آلية زوال التمكين وهنا دقة التنبيه:
عندما يتحول التمكين إلى "تمكين أرضي" فقط، خالٍ من الروح والمنهج، ويصبح مجرد سلطة ومتاع، يصبح له أمد معين لحكمة من الله يريدها، ثم يحصل الزوال بعده حتمًا. وقد بين الله هذا في قوله: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} (الأنعام:44). فالفرح الذي هو التعالي والتطاول بالنعمة، والاغترار بها، هو مؤذن بالهلاك.
إن الهداية الحقة هي أن تقوم بالاستقامة على منهج الله، بإخلاص النوايا، وتوحيد الألوهية والربوبية،

وامتثال كلماته، والتوكل عليه، والاستعانة به. هذه الاستقامة هي التي تحقق النصر والتمكين المستمر، كما قال تعالى: {وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا} (الجن:16).

الأمر السادس: ماذا يريد الله منا من هذه الآيات؟ (الغايات العظمى)

بعد كل هذا، ما الذي يريده المولى عز وجل منك ومن هذه الأمة من خلال هذه الآيات؟

1.إدراك الهدف الأسمى: يريدك أن تفهم أن الهداية هي أعظم عطاء والنصر الأكبر .فلا تنشغل بقشور التمكين عن لبه .الهدف هو أن تحيا بالهدى، وتموت عليه، وتقيم الحضارة عليه.
2.التهيؤ لمرحلة التمكين: السورة مكية، نزلت في فترة الإعداد، وهي تعد الأمة روحياً وفكرياً لمرحلة ما بعد التمكين .إنها تريد أن تحضر المؤمنين ألا ينشغلوا بالسلطة فيطغوا، ولا ينحرفوا عن منهج الله بعد أن عرفوه، حتى لا تقع المصيبة الكبرى وهي زوال النعمة.
3.التحذير من التحول بالكتاب إلى إرث جامد: يريدك أن تجعل القرآن هدى وذكرى، لا مجرد تراث تفاخر به، أو سلعة للمتاجرة، أو أداة للتعصب .إنه يريدك أن تكون من "أولي الألباب" الذين ينتفعون به.
4.ربط التمكين بالمسؤولية: يريد أن يغرس في ضميرك أن التمكين ليس مغنمًا لبناء الثروات فقط، بل هو أمانة لأداء الحقوق وإقامة القسط .التطبيق العملي: راقب علاقتك بالكتاب .هل هو هدى لك في تجارتك؟ في أخلاقك؟ في سياستك؟ أم أنك هجرته؟

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

هذه الآيات، بقدر ما هي قصص تاريخية، فهي دستور لبناء الحضارة الإسلامية القادمة:

· مركزية الوحي) الكتاب(: لا يمكن أن تقوم حضارة إسلامية متمكنة إلا على أساس الكتاب .إنه الذي يمنحها المشروعية، ويحدد لها الغايات، ويرسم لها الوسائل .مهمته تنظيم حياة الناس، وربطهم بربهم، ليكون كل عمل يقوم به الإنسان عبادة لله.
· دور القيادة المؤمنة) أولو الألباب(: الحضارة تحتاج إلى صفوة من أولي الألباب، العلماء والمفكرين و القادة الذين يفهمون الكتاب، ويعملون به، ويقودون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .إنهم ورثة الأ نبياء الحقيقيون.
· التزكية قبل التمكين: بناء الإنسان الصالح، المربي على العبودية الخالصة، المطهر من الشح والطمع، هو الأساس .فلا حضارة بلا إنسان صالح .التزكية والتربية الإيمانية هي عملية "تهذيب وتدريب وتأديب وتأهيل" دائمة للمؤمنين، حتى يكونوا مؤهلين لحمل الأمانة.
· الارتباط الوثيق بين الهداية والتمكين في الدنيا والآخرة: الحضارة التي تريد النجاح الدنيوي والأ خروي لا بد أن تقوم على "الهدى"، وأن تظل في حالة "ذكرى" دائمة، فلا تطغى ولا تفسد .إن الدولة التي تحكم بالكتاب، وتقيم شرع الله، هي التي تستحق وعد الله بالاستخلاف والأمن.

الخلاصة ورسالة ختامية إلى قلبك:
يا من تقرأ هذه الآيات، إنها تخبرك أن النصر الحقيقي الذي وعد الله به رسله والمؤمنين هو أن يرثوا الكتاب علمًا وعملا ً وقيادة. إنها تدعوك إلى أن تكون من "أولي الألباب" الذين ينتفعون بالهدى و الذكرى، فتعيش بالقرآن، وتحيا به، وتحكمه في كل شؤونك. لا تنظر إلى التمكين كهدف في ذاته، بل كوسيلة لإقامة دين الله.

واحذر أشد الحذر من الانحراف عن المنهج، ومن انشغالك بزينة السلطة عن جوهر الهداية. إن الأمة التي تهجر قرآنها، وتترك العمل به، أو تتخذه للتباهي والتعالي، مصيرها محتوم، وهو أن يستبدل الله بها قومًا آخرين، يحبونه ويحبهم. فتمسك بالكتاب، فهو درعك من الزوال، وسبيلك إلى النصر في الدنيا والآخرة. اسأل الله أن يجعلك من ورثة كتابه، العاملين به، القائمين بحقه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

رابعا

شروط تحقيق النصر

المبحث الأول

تفسير الايه 55

تخيل نفسك، أيها المؤمن المجاهد في طريق الدعوة، وقد أنهكتك الجروح، وأضناك السهر، وتكالبت عليك الهموم، وطال ليل البلاء، فصرت تترقب الفجر. في هذه اللحظة، وقد سمعت وعد النصر، ووعيد الظالمين، وقصة التمكين، يأتيك الخطاب الإلهي مباشرة، لا يحمل لك خبرًا فقط، بل يصف لك الدواء،

ويرسم لك خارطة الطريق نحو تحقيق الوعد. إنه خطاب يخاطب روحك المتعبة ليرممها، وعقلك الحائر ليهديه، وإرادتك المتعثرة ليقويها. يقول الله عز وجل بعد أن بشرك بالنصر، وكشف لك عن سننه في الابتلاء والتمكين:
{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [غافر: ٥٥].

يا لها من آية! إنها ليست مجرد توجيه، بل هي خلاصة وصفة النصر، ودستور الثبات الإيماني. لقد أراد الله أن تكون هذه الكلمات زادك في طريقك، لذا دعنا نشرحها ونغوص في أعماقها، لتكون لقلبك مرهمًا ولطريقك منهجًا، دون أن نغفل عنها شيئًا.

مقدمة: في رحاب الآية

نزلت هذه الآية لتكون محطة تزود بالوقود الروحي والعملي للنبي ﷺ ولأمته من بعده. فبعد أن أخبره الله عن نصره الحتمي لرسله والمؤمنين، وذكر قصة موسى وما آتاه من الهدى وما أورث بني إسرائيل من الكتاب، يأتي التوجيه الإلهي بأربعة أركان هي أساس كل تمكين وكل نصر: الصبر، والثقة بوعد الله، والاستغفار، والتسبيح. إنها منظومة متكاملة متلازمة، لا يغني بعضها عن بعض.
الأمر الأول: دلالة الأمر بالصبر – الركن الأول لبناء النفس المجاهدة

}فَاصْبِرْ{: الفاء هنا للربط والتفريع، كأنه يقول: بناءً على كل ما سبق من وعد بالنصر وسنن التمكين، فعليك الآن بالصبر .إنه أمر إلهي مباشر، فيه إعداد للنفس لتحمل تبعات الطريق.

ما هو الصبر المطلوب هنا؟ ولماذا هو ضروري لتحقيق النصر؟
تأمل معي، أيها المؤمن، أنك حين تطلب أمرًا عظيمًا كالنصر والتمكين، فأنت مقبل على طريق طويل مفروش بالأشواك. الجيوش تقهر بسلاح الصبر قبل السلاح المادي، فكيف بجيوش الروح والدعوة؟ الصبر هو الذي يقوي همتك على تحمل الأداء والثبات على الحق، ويُزهدك في الدنيا حين تلمح نعيم الجنة، ويجعلك تكف عن المحارم حين تخاف النار. بالصبر يخفف الله عنك وطأة المصائب، لأنك تعلم أنها من قضائه وبيده، فتطمئن وتسكن.

· تخيل أنك في غربة، لا تجد أنيسًا ولا صديقًا .هنا يأتي الصبر والاعتماد على الله ليجعله أشد أنيسًا لك من كل أليف، فهو أنس الموجودات، فيذهب عنك وحشة الغربة .ألم يقل تعالى:} سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا} {مريم:(96 ؟

الفرق بين الصبر كطبيعة بشرية والصبر كحالة خلقية:
هنا تكمن اللمسة البيانية والتربوية العميقة. قد يصبر الإنسان عادة عندما يعجز عن دفع الضر، فهذا صبر اضطراري، صبر المغلوب على أمره. لكن الصبر الإيماني مختلف تمامًا. إنه صبر اختياري، وحالة خلقية راسخة. أن تصبر من أول لحظة، مختارًا، محتسبًا الأجر عند الله، راضيًا بقضائه، لأنك تعلم أنك تعبد الله بهذا الصبر كما تعبده بالصلاة. هذا هو صبر الكرام، صبر من يرى بعين البصيرة ما هو أبعد من اللحظة الراهنة.

الصبر والامتحان الذي يسبق النصر (سنة الابتلاء):
أتدري لماذا كان الصبر شرطًا أول؟ لأن التمكين له ثمن، والابتلاء هو ذاك الثمن. الله يمتحن عباده ليختبر صدقهم. في سورة العنكبوت: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} (العنكبوت: ٢). فالله يبتليك قبل أن يعطيك. فإذا رأى الله منك جد الصبر على الأذى في محبته، واحتمال المكروه من خشيته، جعل لك من كل ضيق مخرجًا، وهيأ لك من بعد الذل عزًا، ومن بعد الخوف أمنًا، وجعلك ملكًا وحاكمًا ونلت الدرجات العلا. إنها معادلة ربانية واضحة.

الصبر يقوي العزيمة ويهدي للصواب، وهو ضد العجلة:
لماذا حذّر الله من العجلة؟ لأن العجلة تقود إلى التهور، وإلى إسقاط المبادئ شيئًا فشيئًا. المتعجل كمن يمتطي صهوة جواد وهو مسترخ، يوشك أن يسقط. إنه يتحرك بلا رؤية، فيصاب باللجاجة والإصرار على الخطأ. أما الصابر، فهو كالفارس المتيقظ، المشدود الوثاق، يضع كل أمر في موضعه، وينتظر أمر الله. الصبر يعطيك الحكمة، بينما العجلة تولد التخبط والفشل. فالصابر يرى بعين عقله وقلبه، فيختار أحسن القرارات، ويوفق في مقاصده.
الأمر الثاني: دلالة "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" – ركن الثقة واليقين

}إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ{: هذا هو الركن الثاني .إنها جملة معترضة بين الأوامر، ولكنها تحمل سرًا عظيمًا . إنها كالوقود الذي يغذي محرك الصبر .أنت تصبر لأنك على يقين بأن وعد الله لك بالنصر حق لا

يخلفه .إنها تولد في قلبك ثقة مطلقة.

· ماذا تولد هذه الثقة في نفسك؟ إذا عرفت أن وعد الله حق، وتيقنت بذلك، تولدت فيك الحكمة . فتعيش وكأنك قد عشت التاريخ كله، فتأخذ العبر والدروس من الحوادث السابقة، وتتحرك في حياتك عن علم وبصيرة .هذه الثقة تولد الإرادة والعزيمة التي لا تقهر.
· نور اليقين: أن ترى بنور الله مقاصد الأمور، فتختار زهرة الأحكام وأحسنها، فتوافق الصواب في كل خطوة .أن تعيش محمودًا من الله ومن الناس، وتعلو همتك، فتربطك هذه الثقة برباط وثيق بالله، رابط دائم يجعلك متصلا ً به في كل حين.

هذه الثقة هي الترياق المضاد لليأس والقنوط. هي التي تجعلك تنظر إلى جبروت فرعون وهامان وقارون، فتراها مجرد فقاعة هواء، لأن وعد الله حق. هي التي تجعلك تنظر إلى ضعفك وقلة حيلتك، فترى فيها قوة الله التي لا تغلب. التطبيق العملي: أن تردد في كل ملمة: "إن وعد الله حق"، فيسكن قلبك، وتطمئن جوارحك.

الأمر الثالث: دلالة "وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ" – ركن التطهير الداخلي ومنع العجب

}وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ{: هذا هو الركن الثالث العجيب .يأمر الله نبيه المعصوم، صاحب المقام المحمود، بالا ستغفار! فما بالك أنت وأنا؟ السر هنا عظيم:

· الذنوب والتقصير من معوقات النصر: إن أمره بالاستغفار مع طلب النصر يبين لنا أن الذنوب حجاب، وأن التقصير في جنب الله معطل للوعود .فالاستغفار الدائم هو تنظيف للطريق من كل عائق.
· الاستغفار لمنع العجب: عندما يأتي النصر، أو حتى عند السعي إليه، قد يتسلل العجب بالنفس و العمل .هنا يأتي الاستغفار ليكسر هذا العجب، ويذكرك بأنك عبد مقصر، وأن النصر من الله وحده .إن الله يريد أن ينظف الإنسان من الداخل، فالاستغفار فيه نصر للمسلم لأنه ينال به درجات العليين.
· المعاني الستة للاستغفار الصادق) التطبيق العملي(:
1. الندم: أن تعتصر قلبك ألمًا وندمًا على أي خطأ، أو تقصير في العمل.
2. العزم على الترك: أن تعزم بصدق ألا تعود إلى ذلك الفعل أو التقصير.
3. رد حقوق المخلوقين: أن تحاسب نفسك على كل مظلمة، فترد الحقوق لأهلها، وتمنع نفسك عن الظلم والتطاول والإعجاب.
4. قضاء حقوق الله: أن تتدارك كل فريضة ضيعتها، فتعيدها وتعطيها حقها من وقتك وقلبك.
5. محاسبة الجسد: أن تنظر إلى هذا الجسد الذي نبت من السحت أو الحرام، فتدينه وتذيقه مرارة الجوع والحزن، حتى يذوب ذلك اللحم الحرام، وينشأ مكانه لحم طاهر من الحلال.
6. إذاقة النفس من مشقة الطاعة: كما أذقها لذة المعصية، فتجعل لها نصيبًا من قيام الليل، وصيام النهار، لتعلم أن الطريق إلى الله محفوف بالمكاره كما أن طريق الشيطان محفوف بالشهوات.

من حقق هذه الشروط، صار مستقيماً على منهج الله، متقبلا ً للنصيحة والموعظة والتذكير، لأن عقله صار صحيحًا مستنيرًا.

الأمر الرابع: دلالة "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ" – ركن الصلة الدائمة بالله

}وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ{: هذا هو الركن الرابع، وهو غذاء الروح اليومي.

· "سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ" : أي نزه الله وقدسه وأثن عليه .إنه مقام التنزيه) سبحان الله (مقترنًا بمقام الإ ثبات والحمد) الحمد لله .(فأنت تنفي عن الله كل نقص، وتثبت له كل كمال .لماذا؟ لأنه المنعم عليك بالهدى والنصر، وهو الخالق الرازق الحامي المربي .أن تعترف بفضله في كل صغيرة وكبيرة.
· "بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ" : العشي هو آخر النهار، والإبكار هو أوله .أي في جميع الأوقات، وفي تعاقب الليل والنهار .أن تتأمل هذا التعاقب البديع، الذي هو آية من آيات عظمة الخالق وإبداعه، فيظل عقلك مستيقظًا، وقلبك موصولا ً بالله، فلا يغفل ولا يضل) .وهذا ما أشار إليه السياق في السورة نفسها عن آياته في الآفاق.(

الحكمة من التسبيح في هذين الوقتين:
أن تبدأ يومك بالتسبيح ليكون زادك ونورك، وأن تختمه به لتطهر ما علق بقلبك من شوائب الدنيا. هذا التسبيح المستمر يزيل من النفس العُجب والغرور، ويجعلك دائم التذكر أن القوة لله جميعًا، فلا تنسب لنفسك نصرًا. إنه يوصلك بمنبع القوة والنور، فتظل على صراط مستقيم لا تضل عنه.

الأمر الخامس: ماذا يريد الله منا من هذه الآية الكريمة؟

بعد أن فصّلنا الأركان الأربعة، نقف لنرى: ماذا يريد المولى سبحانه وتعالى منا من خلال هذه الآية الجامعة المانعة؟

.1يريد أن يصنع منك إنسانًا متوازنًا: لا يكتفي بالعمل الخارجي) الجهاد والدعوة(، بل يربط ذلك كله بعمل داخلي عميق) الصبر، الاستغفار، التسبيح .(يريدك أن تبني قوتك من الداخل أولا ً.
.2يريد أن يربطك به في كل مراحل النصر: في زمن الابتلاء والشدة) عليك بالصبر(، وفي زمن التمكين والنصر) عليك بالاستغفار والتسبيح لئلا تصاب بالعجب والطغيان .(إنها وصفة للقوة في الحالين.
.3يريد أن يعلمك أن الطريق إلى النصر ليس سحرًا، بل سنة وعمل: النصر لا ينزل من السماء على قوم جبناء متعجلين مغرورين .النصر يصنع في مدرسة الصبر، وفي محراب الاستغفار، وفي مجالس التسبيح.
.4يريد أن يزرع فيك الأمل الدائم والثقة المطلقة: بقوله} إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ{، هو يخبرك أن العاقبة مضمونة، فلا تخف ولا تحزن.
.5يريدك أن تصبر صبر الكرام لا صبر العجزة: صبرًا نابعًا من إيمان ويقين وتعبُد، لا صبرًا ناتجًا عن يأس أو عجز .يريدك أن تكون أنت الفاعل بإيمانك، لا المفعول به بظروفك.
الأمر السادس: الرسائل التربوية والنفسية والعقلية والتطبيقات العملية

هذه الآية منهج حياة كامل، فلنستخلص رسائلها وتطبيقاتها بشكل عملي:

.١على المستوى النفسي والشخصي:

· بناء الصلابة النفسية: درب نفسك على الصبر الاختياري .إذا حزنت أو أصابك مكروه، قل فورًا: "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها" .هذا يحول رد فعلك من مجرد انفعال بشري إلى عبادة.
· التطهير اليومي: لنجعل الاستغفار وردًا يوميًا لا ينقطع .في كل ليلة، قبل النوم، حاسب نفسك محاسبة الشريك الشحيح لشريكه، واستغفر من كل تقصير .هذا سيجدد إيمانك ويمنع قسوة القلب.
· زيادة الإنتاجية بالاتصال بالله: ابدأ يومك بالتسبيح) أذكار الصباح (ليزداد تركيزك وطاقتك الإيجابية ، واختمه به) أذكار المساء (لتنام بقلب سليم طاهر.
· التحرر من ضغط النتائج: أنت مأمور بالصبر والعمل، لا بتحقيق النتائج .إن وعد الله حق، فلا تحمل همّ النصر، بل احمل همّ القيام بواجبك.

.٢على المستوى الفكري والمنهجي:

· التخطيط الاستراتيجي القائم على اليقين: خطط لمستقبلك ومشاريعك وأنت واثق أن وعد الله بـ النصر لمن أطاعه حق .هذه الثقة تجعلك لا تنهار عند أول عقبة، بل تتعلم من الدرس وتواصل، لأنك تعلم أن الطريق إلى التمكين طويل ويحتاج صبرًا.
· فهم التاريخ: عند قراءة التاريخ، لا تنظر إليه كأحداث ميتة، بل استخلص السنن .لماذا انتصر صلاح الدين؟ لأنه استوفى شروط الصبر والاستغفار والتسبيح والقوة.

.٣على المستوى المجتمعي وبناء الأمة:

· تربية الأجيال على الاستغفار والتسبيح: ازرع في أبنائك منذ الصغر ألا يناموا قبل أن يستغفروا، وألا يخرجوا قبل أن يسبحوا .هذا يبني جيلًا قويًا من الداخل.
· بناء مجتمع متماسك: مجتمع يكثر فيه الاستغفار يرفع الله عنه البلاء، ويفتح عليه بركات السماء وا لأرض .مجتمع يؤمن أن وعد الله حق، لا تفتنه قوة الباطل، ولا تستذله سطوة الظالمين.
الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

هذه الآية هي لبنة أساسية لبناء أي حضارة تريد التمكين. فلنستخلص أسسها وفق محاورها الكاملة:

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة من الآية:

· نفسيًا:
· مفهوم الأمن الداخلي: المؤمن المتصل بالله استغفارًا وتسبيحًا، يشعر بالأمن الحقيقي، لأنه في

كنف من لا تضيع عنده الودائع .وهذا يلغي القلق الوجودي من المستقبل.
· التحرر من العُجب والغرور: الاستغفار يقضي على مرض "الأنا" المتضخمة، فالمؤمن المستغفر يرى عيوبه ولا يرى فضل نفسه، مما يجعله متواضعًا قابلا ً للنصح.
· فكريًا:
· الربط السببي بين العمل الداخلي والنتيجة الخارجية: الآية تعلمك أن النصر ليس طفرة، بل نتيجة محتومة لعملية بناء روحي) صبر واستغفار وتسبيح .(هذا يبني عقلية علمية سببية.
· مفهوم التوازن بين اليقين والعمل:} إن وعد الله حق {تمنحك اليقين، و}فاصبر {تأمرك بالعمل .فلا تكتف باليقين فتتكاسل، ولا تكتف بالعمل فتتواكل، بل كن بينهما.
· تربويًا:
· صناعة الفرد الرباني: الآية تصنع إنسانًا دائم الصلة بالله، في حله وترحاله، في ليله ونهاره .هذه هي التربية الإيمانية المتكاملة.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية (دستور التمكين):

1.القيادة الصابرة الواثقة: أي حضارة تقوم على قيادة تتحلى بصبر استراتيجي، وثقة راسخة بوعد الله .هذه القيادة لا تهتز عند الأزمات، ولا تنهار عند الهزائم، لأنها تنظر إلى ما هو أبعد من اللحظة.
2.الأخلاق الفردية كمشروع مجتمعي: الاستغفار والتسبيح ليسا عبادة فردية فقط، بل هما مشروع مجتمعي .مجتمع يكثر فيه الاستغفار تنهار فيه أسباب الفساد الأخلاقي والمالي، لأن كل فرد يراقب ربه.
3.الشفافية والمحاسبة الذاتية: الاستغفار يبني ثقافة الاعتراف بالخطأ وتصحيحه .هذه هي أعلى درجات الشفافية .الحضارة القوية هي التي يزرع أفرادها ثقافة "مراجعة الذات"، فلا يصرون على خطأ ، ولا يتعاظمون على الحق .وهذا يمنع الطغيان والفساد.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها (النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية):

· البعد النفسي: الآية علاج نفسي رباني .الصبر يعالج القلق، والاستغفار يعالج الشعور بالذنب، والتسبيح يعالج الاكتئاب ويملأ القلب نورًا وفرحًا بالله.
· البعد الفكري: الآية تؤسس لفلسفة متفائلة وآمنة .لا وجود للعبثية، فكل ما يحدث) البلاء، التمكين، النصر (له سبب ونتيجته، وهو واقع ضمن وعد الله الحق .هذا يعطي للعقل بوصلة واضحة.
· البعد العقائدي: الآية تربط إيمانك العملي بصفات الله وأفعاله .أنت تصبر لأن الله مع الصابرين، وتستغفر لأنه الغفور الرحيم، وتسبح لأنه الخالق العظيم ذو الجلال والإكرام .إنها ترجمة عملية للعقيدة.
· البعد الاجتماعي: حين يطبق المجتمع هذه الأركان، يسوده التراحم والعدل .فالغني يستغفر من شحه، والفقير يصبر على فقره ويسبح ربه، ويتغير الحال بالاستغفار والدعاء، وينتظر الجميع وعد الله الحق بالتمكين.

خلاصة: الربط بين الآية وقصة موسى وفرعون:
عد ببصرك إلى ما قبل الآية. لقد تدخلت الإرادة الإلهية وحققت النصر لبني إسرائيل على الطغاة الذين اجتمع لهم المال (قارون)، والسلطة (فرعون)، والإدارة (هامان)، والرخاء (أنهار مصر). كيف حدث هذا؟ حدث لأن موسى صبر، ووثق بوعد ربه، واستغفر لقومه، وسبح بحمد ربه آناء الليل وأطراف النهار. كانت تلك هي العدة الخفية التي هزمت كل تلك القوة المادية.

فيا أيها المؤمن: إن كنت تبحث عن النصر الفردي على نفسك وشيطانك، أو النصر الجماعي لأمتك، ف الوصفة بين يديك. لا تتعجل، واصبر صبر الكرام. لا تيأس، فـ {إِنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ}. لا تغتر، واستغفر لذنبك وتقصيرك. لا تغفل، وسبح بحمد ربك في كل حين.

نم قرير العين، موقنًا بأن الطريق إلى التمكين يمر حتمًا من هنا، من هذه المدرسة الربانية. اجعل من هذه الآية رفيق دربك، ترددها بلسانك، وتعيشها بوجدانك، وتترجمها بجوارحك، حتى يأتي وعد الله، وهو الحق المبين.

المبحث الثانى

من شروط النصر ايضا التواضع واستشعار قدره الله في الخلق واتصال الارواح بالله للحصول على العلم وذلك بالاعمال الصالحه والايمان المتصل أرواحهم بالله فلا ينازعون بالباطل دون علم فالكفر يجعل صاحبه يسلك طريق الخطا والاساءه ويجعلهم يعيشون في قلق وحيره واضطراب فلا تنفع معهم الذكرى لان عقولهم خاليه من العلم التي يمتاز بها اصحاب العقول السليمه الصحيحه المستنيره وكذلك فإن الكفر يولد الكبر والغرور والحسد وهو مانع عارض من قبول الحق ولهذا فإن الايه

التاليه تناقش هذه العله وتعطى الدواء لمن الدواء فيا من تبحث عن دواء القلوب، ويا من تريد أن ترى الحقائق كما هي، بعيدًا عن غشاوات الهوى، أقبل بقلبك وعقلك وتأمل معي هذه الآية التي نزلت كالمشرط الإلهي، لتكشف عن أخطر الأمراض ء وأشدها فتكًا بالأفراد والأمم والحضارات. إنها الآية السادسة والخمسون من سورة غافر، حيث يقول الحق تبارك وتعالى، بعد أن بين سنن النصر والهداية، محذرًا من أعظم عوائقه:
{إِنّ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ۖ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ البَصِيرُ} [غافر: 56].

إن هذه الآية ليست مجرد وصف لحال المكذبين، بل هي تشريح دقيق لآفة تحطم العقول، وتقضي على القلوب، وتحط من مكانة الإنسان ومنزلته، فتجعل صاحبها معاندًا بلا عقل كالبهائم. إنها دعوة ملحة لك لتنظر في مرآتها، لترى إن كان في صدرك شيء من هذا الداء الذي أهلك إبليس وفرعون وكل جبار عنيد.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "إِنّ الذِينَ يُجَادِلُونَ" و "بِغَيْرِ سُلطَانٍ" – تشريح الخصومة الجوفاء

تأمل معي كيف تبدأ الآية بوابل من التوكيد والتجريم: {إِنّ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلطَانٍ أَتَاهُمْ}.

· "إِنّ" : هي أداة التوكيد التي تقرع سمعك، فتنتبه أيها المؤمن أن ما سيأتي خطير، وأن المتكلم هو الله العليم بذات الصدور.
· "الذِينَ يُجَادِلُونَ" : صيغة الفعل المضارع هنا ترسم لك مشهدًا حيًا متكررًا .إنهم لا يجادلون مرة واحدة، بل ديدنهم الجدل والعناد .والجدل هنا ليس جدلًا للوصول إلى الحق، بل هو جدل المكابرة و المعاندة، جدل من يريد أن يطفئ نور الله بفمه، ويدحض الحجة بالشبهات الفاسدة .إنه الجدل الذي يرفض التوحيد والاحتكام لمنهج الله وأوامره ونواهيه.
· "فِي آيَاتِ اللهِ" : تشمل كل آية؛ سواء كانت آية كونية مرئية في السماء والأرض والأنفس، أو آية مقروءة في القرآن .إنهم يجادلون في أصل التوحيد، في البعث، في ضرورة تحكيم شرع الله . يرفضون إخلاص العبادة لله، وتوحيد ربوبيته بالاستعانة والتوكل عليه، والإيمان بقضائه وقدره .كل ذلك يعارضونه بدون حجة سوى إثارة الشبهات الفاسدة لدحض الحق.
· "بِغَيْرِ سُلطَانٍ أَتَاهُمْ" : هنا تكمن علة الخصومة ."السلطان" هو الحجة والبرهان والعلم والتمكين من الله .إنهم يجادلون بلا علم، بلا حجة من الله، بلا عقل رشيد .جدالهم قائم على الهوى والظن و الشبهات الواهية.

اللمسات البيانية والبلاغية:
إن وصف جدالهم بأنه {بِغَيْرِ سُلطَانٍ} هو إيجاز معجز يفضح عجزهم وجهلهم في كلمتين. إنها استعارة بديعة؛ فهم يريدون أن يكونوا كالملوك والسلاطين في فرض آرائهم، ولكنهم في الحقيقة "جياع" في أرض المعرفة، لا يملكون ما يثبتون به حقًا أو يدفعون به باطلًا. هذا التعبير يهدم كل هيبة متوهمة لهم، ويكشف أن كل ضجيجهم وعنترياتهم ما هي إلا فقاعة هواء. إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بتلك الأقوال، وما هم ببالغيه.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· فضح حقيقة الجدل العقيم واللجاجة في الخصومة: إن الجدل بلا دليل مهلكة للعقل ومضيعة للوقت .الآية تدعوك لأن تحتكم للدليل والبرهان والعلم، وتنبذ الجدل الذي يقوم على التشكيك و التعصب واللجاجة.
· تحصين العقول من الانخداع بالمظاهر: الرسالة التربوية هنا هي أن تعلم نفسك وأبناءك ألا تنخدعوا بكثرة الكلام وعلو الصوت، بل اطلبوا البرهان والسلطان العلمي .فكم من كلام زائف قدّم في قوالب فخمة! وكم من حاكم يغتصب السلطة ويرفض تحكيم شرع الله بحجة أنه لا يواكب العصر، وهذا جدال بغير سلطان! وكم ممن ينحرفون في مجتمعاتنا، فيلجؤون إلى القبور لطلب العون، أو يأولون النصوص لخلاف ما تحمله من معاني للدفاع عن آرائهم! كل هؤلاء يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

الأمر الثاني: دلالة "إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ" – تشخيص الداء القاتل

ثم يأتي التشخيص الإلهي الدقيق: {إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ}. يا لها من جملة فاصلة تزلزل القلوب!

· "إِنْ ...إِلَّا" : أسلوب قصر وحصر قاطع، يعني: ما في صدور هؤلاء المجادلين شيء البتة سوى الكبر! ليس فيهم طلب حقيقة، ولا رغبة في هداية، بل لا يوجد دافع حقيقي سوى هذا المرض الخبيث: الكِبْر .إنه أصل الداء، وأساس كل ضلال، وأول ذنب عُصي الله به .إنه بطر الحق وغمط الناس.
· "فِي صُدُورِهِمْ" : تأمل دقة التعبير! لم يقل "في قلوبهم" فحسب، بل قال "في صدورهم" .الصدر هو الوعاء الذي يحوي القلب، وهو موضع الوسوسة والهواجس والأسرار والنوايا .الكبر ليس مجرد شعور عابر، بل هو حالة متجلبة في الصدر، حالة بطر وعظمة وامتلاء بالنفس تملأ كيانهم وتتحكم في أفكارهم وأفعالهم .إنه ورم سرطاني خبيث يستقر في الصدر، ويمنع عن صاحبه رؤية النور والحق.

من أين يبدأ هذا المرض؟
أساسه قول إبليس: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ}. اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بأصله وتعصب لنفسه. إنه أمام المتعصبين وسلف المتكبرين عبر التاريخ. وكذلك هو حال اليهود الذين حسدوا النبي ﷺ من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، عندما نُزعت عنهم الخلافة ونقلت إلى أمة الإسلام. رفضوا الا نتقال لقراءة مراد الله الحضاري الجديد في القرآن، فأصيبوا بعلة الكبر والجدال، وسلموا قيادة أنفسهم للهوى والشهوات. وكذلك نجد في مجتمعاتنا من الأحزاب المتناحرة التي أصابها العمى بالتنازع و التعصب والإعجاب بالرأي والغرور الذي يسكن صدورهم.

كيف يؤدي الكبر إلى العمى؟
الإيمان نور يقذفه الله في الصدر، فتبصر به حقائق الأشياء. فإذا سكن الكبر الصدر، صار حجابًا كثيفًا يطفئ نور الإيمان، فتصاب حاسة الإبصار الصدرية بالعمى! عندها يولد الجهل، والتعصب للباطل، و الدفاع عنه، واستعمال القوة في الفساد والضلال. وهكذا يصبح صاحب الكبر معاندًا بلا عقل، كالبهيمة التي لا تميز بين الحق والباطل.

اللمسات البيانية والبلاغية:
أسلوب القصر {إِنْ... إِلَّا} يسلط الضوء على علة واحدة لا غيرها، ليقول لك: إن علاج المشكلة ليس في الرد على الشبهة فقط، بل في استئصال أصل الداء وهو "الكبر". ما لم يُشف الصدر من هذا المرض، فستتولد الشبهات والجدالات بغير علم بلا توقف.

الأمر الثالث: دلالة "مَّا هُم بِبَالِغِيهِ" – سقوط المشروع الخاسر

بعد أن شخص الداء، يأتي الحكم الإلهي القاطع على غايتهم ومآلهم: {مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}.

· "مَّا" : نافية قاطعة لا ريب فيها.
· "بِبَالِغِيهِ" : أي لن يصلوا إلى ما يريدونه ويتوهمونه من وراء هذا الكبر .مرادهم هو: إطفاء نور الله، دحض الحق، نيل العز والتمكين والرفعة، وإثبات أنهم على صواب .فالله يخبرك أنهم خاسرون حتمًا . لن يستطيعوا إطفاء نور الله، ولن يستطيعوا التقليل من الحجة، ولن يستطيعوا دحض الحق، ولن ينالوا العز والكبر الذي يسعون إليه .بل إن ما هم فيه من كبر هو عين الذلة والهوان، ونهايته الصغار والعذاب، كما صغّر الله إبليس بقوله:} إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ {وطرده إلى عذاب السعير.

اللمسات البيانية والبلاغية:
في إبهام "ما يبغون" وإحالته إلى ضمير، إشارة إلى أن مطلوبهم ليس شيئاً واحداً، بل هو حزمة من الأماني الخبيثة. والآية تنسف كل هذه الأماني بكلمة واحدة: {مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}. إنها أقوى تعبير عن فشلهم المحتوم، فكأن مشروعهم قد انتهى قبل أن يبدأ.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· طمأنة المؤمنين وسلوة لهم: هذه الآية سلوة عظمى لأهل الحق .لا ترعبنّك كثرة جدالهم وعلو أصواتهم، فإنهم شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .مشروعهم فاشل حتماً.
· قانون التاريخ: إن كل محاولة عبر التاريخ لإطفاء نور الله أو منع النصر عن دينه باءت بالفشل .هذا يعطيك ثقة ويقيناً بأن الباطل مهما طغى فهو زائل، فلا تستسلم للإحباط.

الأمر الرابع: دلالة "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ" – العلاج الإلهي لداء الكبر

لما كان هذا الداء خبيثًا وخفياً، وكان الشيطان هو أول من سنّه، وكان سريع العدوى، يوجهك الله مباشرة إلى العلاج الوحيد: {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}.

· "فَاسْتَعِذْ" : الفاء للتفريع، أي بسبب كل هذا، وبسبب خطورة هذا المرض القاتل، وبسبب أن الشيطان يدخل إلى النفس من هذا المدخل، فالجأ إلى الله، والتجئ إليه وحده .إنه أمر إلهي صريح ومباشر با لاستعاذة.
· لماذا الاستعاذة بالله تحديدًا؟ لأن إبليس هو أول من وضع حجر الأساس لهذا الداء بقوله:"أنا خير منه" .وهو يجرد كل إمكانياته لملامسة مشاعرنا وإثارة الحمية الجاهلية والعصبية في قلوبنا .إنه يريد أن يصيب الناس بعدوى دائه، فهو كالأجرب الذي يخالط الأسوياء لينقل لهم مرضه .سلاحه الخبيث هو إثارة الحميّة في القلوب ليحقق ما توعد به من إغواء بني آدم .أول أهدافه إيتاء الحمية الجاهلية وأخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية .فلا نجاة من كيده إلا بالاستعاذة بالله، فالله وحده هو القادر على صرف كيده عنك.
· التطبيق العملي: كما تستعيذ بالله من كوارث الزلازل والبراكين، فعليك أن تستعيذ به من "لواقح الكبر" و"محدثاته في النفوس" .عليك أن تخلع التكبر من عنقك، وتتخذ التواضع سلاحًا لمواجهة عدوك ، فالكبر نهايته الذل والندامة.

اللمسات البيانية والبلاغية:
الانتقال من الحديث عن المرض وخطورته إلى وصف الدواء والعلاج (الاستعاذة) هو قمة الرحمة الإ لهية. إنه يريك الهاوية السحيقة للمرض، ثم يمد لك على الفور حبل النجاة. الأمر "فاستعذ" فيه شدة وطلب مباشر، مما يدل على أن الأمر ليس مجرد ترديد كلمات باللسان، بل هو توجه قلبي كامل، و التجاء روحي صادق إلى الله لصرف هذا الداء.
الأمر الخامس: دلالة "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" – الرقابة الإلهية الكاملة

تختم الآية باسمين من أسماء الله الحسنى في هذا المقام المحدد:{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

· "إِنَّهُ هُوَ" : توكيد بعد توكيد، يفيد القصر والتخصيص .هو وحده سبحانه المتصف بصفات السمع و البصر المطلقين.
· "السَّمِيعُ" : يسمع تلك المجادلات الباطلة التي يرددونها، ويسمع كلمات الكبر والاستعلاء التي تتفوه بها ألسنتهم .إنه يسمع خفقات قلوبهم، وهواجس صدورهم، وخواطر نفوسهم .لن يضيع عنده صوت مظلوم، ولن تخفى عليه كلمة باطل .كما أنه يسمع استعاذتك ودعاءك، فيجيبك ويعيذك .فاشعر برقابته ، فهو أقرب إليك من حبل الوريد.
· "الْبَصِيرُ" : يرى نياتهم الخبيثة، ويرى ذلك الكبر الذي ملأ صدورهم .يرى استكبارهم عن الحق وإعراضهم عنه .يرى من يستعيذ به مخلصًا، فيحوطه بعنايته .إنها رقابة مطلقة، ووعد ضمني بأن كل ما يفعلونه ليس في خفاء عنه، ولن يمر دون حساب.

اللمسات البيانية والبلاغية:
ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين هو غاية في الإعجاز. إنه يجيب على سؤال قد يخطر في بالك: هل علم الله بحالهم وجدالهم وكبرهم؟ الجواب: إنه هو السميع البصير. هذا الختام يزرع في قلبك الطمأنينة والأمان بأن الله مطلع على كل شيء، وسينصرك. وفي الوقت نفسه يزرع الرعب في قلب الظالم المتكبر، لأنه يدرك أن لا مهرب له من سمعه وبصره.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· غرس الرقابة الذاتية: استشعار أن الله سميع بصير يجعلك تراقب لسانك وقلبك وخواطرك .أنت في الحقيقة تتعامل مع من يسمع همسك ويعلم سرك وجهرك .فهذا يمنعك حتى من مجرد الخواطر والأ فكار التي تحمل الكبر أو التعالي على الآخرين .ولولا أن الله كره التكبر لسمح به لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه كرهه إليهم، وأحب إليهم التواضع، فلصقوا خدودهم بالأرض، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وقبلوا بالمستضعفين .فاشعر برقابة الله، واطلب منه العون والمدد لصرف الكبر وخواطره عن قلبك.
· ثقة مطلقة بالمستقبل: بما أن الله يسمع ويرى، فهو سينصر الحق وأهله لا محالة .فلا تخف ولا تحزن .إنه معك، يسمع دعاءك، ويرى صبرك، ويحصي على عدوك كلماته ونواياه.

الأمر السادس: ماذا يريد الله منا من هذه الآية؟

والآن، بعد أن تعمقنا في كل لفظة، نقف ونسأل: ماذا يريد المولى سبحانه وتعالى منك شخصيًا من خ لال هذه الآية التي تعالج أخطر الأمراض القلبية والعقلية؟

.1يريد أن يطهر قلبك من الكبر: يريد منك أن تكون متواضعًا لين الجانب، عالمًا أن الكبر إزاره، فمن

نازعه فيه قصمه .يريدك أن تنظر إلى عيوب نفسك لا إلى محاسنها، وأن تتذكر دائمًا أصلك: من نطفة مذرة، وآخرك: جيفة قذرة .يريدك أن تخاف من هذا الداء الخفي، وتستعيذ بـالله منه في كل حين.
.2يريد أن ينير عقلك بالحجة والبرهان: لا تكن ممن يجادلون بغير علم .ابن إيمانك على اليقين و السلطان المبين، ودافع عن الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالتعصب الأعمى واللجاجة في الخصومة.
.3يريد أن يمنحك الأمان النفسي: بأن يخبرك أن أصحاب الكبر والجدال الباطل مشروعهم فاشل، وأمانيهم لن تتحقق .هذا يزيدك ثباتًا واطمئنانًا، ويجعلك تمضي في طريق الحق غير مبالٍ بضجيجهم.
.4يريد أن يحصنك من إبليس وجنوده: بأن أمرك بالاستعاذة به، فهو وحده الذي يعيذك ويحفظك من مكائد الشيطان التي يدخل بها عليك من باب الكبر والحمية والعصبية.
.5يريدك أن تكون من الصالحين المصلحين: أن تنظر إلى مجتمعك، فترى أمراض الكبر والجدل و الخصومة التي تفرق الأمة، فتعالجها بالتواضع والدعوة إلى الله بالحسنى، وتكون أنت النموذج الحي للمؤمن المتواضع.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

هذه الآية ليست مجرد درس في الأخلاق، بل هي دستور لبناء الفرد القوي والمجتمع المتماسك و الحضارة الراسخة. فلنستخلص أسسها وأبعادها العميقة، محورًا محورًا، دون أي دمج أو حذف.

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة من الآية:

· نفسياً:
· مفهوم التحرر من "الأنا" المتضخمة: الآية تمنحك دواء "الاستعاذة" للتخلص من الغرور والعُجب، وتغرس فيك "التواضع" كحالة نفسية دائمة، مما يجعلك تعيش في سلام داخلي بعيداً عن صراعات الكبر وإثبات الذات.
· الأمن من الخوف من الباطل: إدراك أن الباطل وأهله} مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ {يزيل الخوف والقلق من قلبك، ويمنحك شعوراً بالعزة والثبات وأنت مع الحق.
· فكرياً:
· تحرير العقل من الجدل العقيم: الآية تدعوك للتفكير البرهاني والعلمي، ورفض الجدل القائم على الهوى واللجاجة .فكرك يجب أن يكون تابعاً للدليل والسلطان، لا لخدمة كبرك وعنادك.
· فهم فلسفة التاريخ: أن الباطل مهما علا فهو زائل، وأن الكبر هو أول معصية وأساس كل انحراف وفساد، هذا يعطيك مفتاحاً لفهم أحداث التاريخ وتفسير سقوط الحضارات والأمم.
· تربوياً:
· صناعة الإنسان المتواضع: الآية تربي فيك التواضع كخلق دائم وأساسي .تعلمك أن الشجاعة الحقيقية ليست في الغضب والانتصار للنفس، بل في قول الحق بالحكمة، وقبول الحق من أي كان، حتى لو كان صغيراً أو مستضعفاً.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية:

.1سيادة العلم والحجة) رفض السلطان الزائف(: أي حضارة تقوم على أنصاف العقول، والجدل الهزلي، والتسليم للموروثات بلا برهان، هي حضارة إلى زوال .هذه الآية تؤسس لمبدأ حضاري عظيم، وهو أن السيادة لمن يملك "السلطان" أي العلم والحجة والبرهان، وليس لمن يغتصب القوة أو المال أو النسب . إنها دعوة لبناء حضارة العلم واليقين.
.2مركزية التواضع ونبذ الكبر في الحياة العامة: الكبر داء اجتماعي مدمر .حين يتكبر الحاكم على رعيته، والموظف على المراجع، والطبيب على المريض، والعالم على المتعلم، تنهار الحضارة وتتفكك الأ واصر .هذه الآية ترسخ التواضع كشرط أساسي للعمران، وتجعل من الكبر جريمة حضارية، لأنه يؤدي إلى الجدل بغير علم، ورفض الحق، ونشوء الأحزاب المتناحرة التي تعميها الأهواء.
.3الرقابة الإلهية كضمانة للعدل والشفافية: الإيمان بأن الله} السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {هو أكبر رادع عن الفساد والظلم، وهو أقوى حافز على الإتقان والإخلاص .هذه هي الشفافية المطلقة، والمسؤولية العظمى، التي تجعل الحضارة الربانية حضارة قيم وأخلاق، لا حضارة مصالح ومنافع.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها (النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية):

· البعد النفسي: هي علاج رباني لمرض الشك والقلق والغضب الناتج عن رؤية الباطل .إنها تمنحك السكينة والثبات، وتطهر قلبك من وساوس الكبر وتعاظم الأنا.

· البعد الفكري: الآية تحررك من عبودية السلطان الزائف) الجدل واللجاجة بدون علم (لتنتقل إلى رحاب اليقين والبرهان .إنها ترفع من مستواك الفكري، وتجعلك تبحث عن الحقيقة بالدليل، لا بالتقليد والتعصب.
· البعد العقائدي: إنها تؤصل لعقيدة أن الله وحده هو السميع البصير، وأن الشيطان عدو مبين يوقظ في النفس داء الكبر، وأن الاستعاذة بالله هي الحصن الحصين .إنها ترجمة عملية للعقيدة في الحياة اليومية.
· البعد الاجتماعي: مجتمع يطبق هذه الآية يقل فيه النزاع والجدل العقيم، وتختفي منه ظاهرة الأ حزاب المتناحرة على الدنيا، ويزداد فيه التواضع والمحبة، ويسوده الحوار الهادئ القائم على الدليل و البرهان.
خلاصة ورسالة إلى قلبك وعقلك

أيها المؤمن، يا من تريد النصر والتمكين، هذه الآية نزلت لك لتكون مرآة لقلبك، ودرعًا لعقلك، وسلاحًا لمواجهة أخطر عدو لك بعد الشيطان، ألا وهو "نفسك" إذا تلبست بالكبر. إنها تضع يدك على الداء العضال الذي أهلك إبليس وفرعون وكل جبار، ألا وهو "الكبر" الذي يولد الجدال بغير علم، واللجاجة في الخصومة، ورفض الحق. لقد رأيت كيف انتهى بهم الكبر إلى الذل والصغار، وكيف صُغّر إبليس وطُرد بعد أن كان في الملأ الأعلى.

فاجعل من هذه الآية زاداً يوميًا لك. قبل أن تجادل أحدًا، اسأل نفسك: هل معي سلطان من علم؟ أم أن في صدري كبرًا أريد أن أنصره؟ كلما شعرت بحركة الكبر أو لسعة الحمية الجاهلية في صدرك، فاستعذ بالله فورًا من الشيطان الرجيم، وقل: "اللهم إني أعوذ بك من الكبر والعجب والرياء و السمعة". تواضع لله، يرفعك. واخفض جناحك للمؤمنين، يزدك الله عزًا. عش حياتك وأنت تشعر أن الله سميع بصير، يرقب خواطرك وأقوالك، فتصفو سريرتك، ويستقيم لسانك، وتنال بذلك النصر في الدنيا، وحسن الدار في الآخرة. نم قرير العين، موقنًا بأن راية الحق منصورة أبداً، وأن نور الله لن يطفئه كبر متكبر، ولا جدال مجادل، لأن الله تكفل بحفظه، وهو السميع البصير.

المبحث الرابع

يا من تعاهد نفسك على محاربة الكبر، ويا من أدركتَ للتو من الآية السابقة أن هذا الداء خبيث، وأن أول علاج له هو الاستعاذة بالله والشعور برقابته، اسمع وع .إن الله لم يدعك وحيدًا في هذه المعركة، بل أمدك بجيش من الأدلة والبراهين التي تحطم حصون الكبر في نفسك، وتقذف في قلبك نورًا تبصر به الحقائق .تأتي الآيات الثلاث التاليات57) ،58 ، (59 من سورة غافر لترسم لك خارطة متكاملة من الوسائل الربانية لمقاومة هذا الداء، وتربط مصيرك في الدنيا والآخرة بمدى انتصارك في هذه المعركة الداخلية .يقول الله عز وجل بعد أن حذر من الكبر والجدال بغير علم:
}لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ{(59)
إنها ثلاث آيات، ثلاث وسائل، وسلاح واحد يسلحك به ربك لتقاوم به مرض القلوب والعقول .فلنغص فيها معًا، ولنستلهم منها الدروس والرسائل.

الأمر الأول: الوسيلة الثانية لمقاومة الكبر - التفكر في عظيم قدرة الله في خلقه) الآية(57

بعد أن أمرك الله في الآية (56) بأن تستعيذ به من الكبر، وهو العلاج الإيماني الغيبي، يأتيك هنا بالع لاج العقلي المشاهد، فيقول:} لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ{

· اللام في "لَخَلْقُ" : هي لام الابتداء للتوكيد، لتقرع سمع المتكبر وتوقظه من سباته .كأنه يقول: والله، وحق ربي، إن هذا الأمر أوضح من الشمس، ولكن أين من يعقل؟
· "خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" : انظر حولك! هذه السماوات المرفوعة بلا عمد، هذه النجوم والمجرات التي تحير العقول، هذه الأرض وما فيها من بحار وجبال ...إنها شواهد عظمة الخالق، وآيات قدرته الباهرة.
· "أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ" : هنا تكمن الصدمة العلاجية! أيها الإنسان المتكبر، أيها الذي يجادل في آيات الله ويستكبر عن طاعته، هل تفكرت في حقيقتك؟ بدايتك من نطفة مهينة، ونهايتك إلى جيفة قذرة . أنت لا تساوي شيئًا أمام هذا الكون الفسيح، فكيف تطاولت وتجبرت؟ ألك قدرة على خلق ذبابة فضلا ً عن خلق السماوات والأرض؟

اللمسات البيانية والبلاغية:
في هذه الآية من التصوير الفني ما يزلزل كيان المتكبر .استعمل الله أسلوب التفضيل) أكبر (ليضع الإ نسان في موضعه الصحيح .قارن بين خلق مهين ضعيف، وخلق هائل لا يدرك العقل مداه، فظهرت

حقيقة الإنسان الضئيلة .إنه أسلوب يحطم الأنا المتضخمة، ويدفعك دفعًا إلى التواضع والخضوع للخالق العظيم.

ولكن ...لماذا لا يرى كثير من الناس هذه الحقيقة؟
يجيبك الله:} وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .{الكبر يولد الجهل! الجهل بحقيقة النفس، والجهل بعظمة الخالق .إنه غطاء كثيف على العقول، يجعل صاحبه كالأنعام بل أضل سبيلا ً .الذي لا يتفكر في هذا الكون، ويعيش حالة من الإعجاب بنفسه والثقة بكمالها، هو في الحقيقة لا يزيدها إلا نقصانًا .إن اللجاجة في الخصومة والعصبية للباطل ما هي إلا ثمرة هذا الجهل .فهذا المتكبر الذي يظن نفسه عظيمًا، لو تأمل وسأل نفسه سؤالا ً واحدًا: "من أخلق؟ أأنا أم السماوات والأرض؟"، لظهر له الحق جليًا، ولانكسر كبره .لكنه جاهل فاقد للعلم والرشد، لا يضع الشيء في موضعه.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· التداوي بالعلم والتفكر: هذه الآية تفتح أمامك أعظم جامعة علاجية للكبر، ألا وهي التفكر في الأ نفس والآفاق .كلما شعرت بحركة الكبر في صدرك، فاخرج إلى الطبيعة، وانظر في السماء، واقرأ في كتاب الكون، لتدرك مقدارك وضعفك.
· قاعدة الحكمة: "من عرف نفسه عرف ربه" .معرفة الإنسان لنفسه وحقارتها وضعفها هي أول خطوات التواضع والتعبد لله.
· لا تغتر بالغالبية: قوله} وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {يعلمك درسًا عظيمًا: لا تغتر بكثرتهم، ولا تخف من أغلبيتهم، فهم جاهلون .وكن مع الحق حتى لو كنت أقلية .فالعبرة بالعلم والبصيرة، لا بعدد الرؤوس.

الأمر الثالث: الوسيلة الثالثة - الإيمان والعمل الصالح لاستنارة البصيرة) الآية(58

بعد أن عالج الكبر بتصغير النفس عبر التفكر في الكون، يأتي العلاج الثالث وهو أعظم علاج: الإيمان . إنه النور الذي يطرد ظلمة الجهل والكبر .يقول الله:} وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ.{

· "الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ" : هذا تشبيه وتصوير رائع .الأعمى هو الكافر المتكبر، الذي لا يبصر الحق .أما البصير، فهو المؤمن الذي قذف الله في قلبه نور الإيمان .فالإيمان ليس مجرد كلمة باللسان، بل هو نور يُقذف في القلب، يجعلك ترى الحقائق كما هي .وهذا يُذكرك بقوله تعالى:} فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) {محمد: .(١٩ فالعلم أولا، ثم يتبعه الاستغفار والعمل.
· "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" : عطف العمل الصالح على الإيمان يبين أن النور لا يكتمل إلا بـ الحركة والعمل .العلم يسبق العمل، والإيمان النافع هو الذي يتبعه عمل صالح .ذلك أن العمل الصالح هو ثمرة طبيعية للإيمان، ودليل على وجود النور في القلب.
· "وَلَا الْمُسِيءُ" : يقابله المسيء، وهو صاحب العمل القبيح الناتج عن ظلمة الكفر والكبر .فلا يمكن أن يستوي المحسن والمسيء في المنزلة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

اللمسات البيانية والبلاغية والمثال التقريبي:
تأمل المقابلة بين الأعمى والبصير، وبين المؤمنين والمسيء .إنه تصوير بديع يريك الفرق شاسعًا كما ترى الفرق بين النور والظلمة .والمثال التقريبي: لو أن ملكًا له خادمان، أحدهما متفانٍ في خدمته، والآ خر عاقٌ كسول .ثم جاء الملك وساوى بينهما في العطاء، ماذا سيفعل المحسن؟ سيتوقف عن إحسانه، وسيقول: "لماذا أتعب وأنا مثل الكسول؟"، وسيفرح المسيء ويتمادى في إساءته .هذا هو منطق العقل والشرع .فكيف بـالله أحكم الحاكمين؟ إنه لا يمكن أن يساوي بين البر والفاجر، ففي ذلك تزهيد لأهل الإحسان في إحسانهم، وتشجيع لأهل الإساءة على إساءتهم .وهكذا هو حال المجتمعات التي يختل فيها ميزان الثواب والعقاب، فتفقد سعادتها وتكثر فيها الفوضى والناس السيئين.

العلاقة بالكبر:
هذا النور الإيماني الذي يهدي إلى العمل الصالح، هو الترياق المضاد للكبر، لأن الكبر يؤول بصاحبه إلى عمى البصيرة وإساءة العمل .فالمتكبر منقطع الروح عن النفخة العلوية، محروم من نور الله الذي يرى به الحق .إنه يعيش في ظلمة نفسه وهواه .فإذا أردت الرفعة والعزة، فعليك بالإيمان والعمل الصالح . الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، بل إلى قلوبكم وأعمالكم .التمكين الحقيقي في الأرض مرهون بأن نقيم حكمنا بالعدل، فنعطي المحسن ثوابه ونحفزه، ونعاقب المسيء لردعه وزجره.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· اطلب النور بالإيمان والعمل الصالح: المداومة على الأعمال الصالحة هي التي تبقي نور الإيمان متقدًا في قلبك، فتبصر بها حقائق الأمور، فتعيش محمودًا في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى:} يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) {المجادلة:.(11
· قانون العدالة الإلهية: آمن بأن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأنه سينزل كل واحد منزلته، فهذا يجعلك لا تغتر بمنظرك أو مالك أو جاهك، بل تسعى لتحسين جوهرك وعملك.
الأمر الرابع: الوسيلة الرابعة - التصديق باليوم الآخر وأثره في تزكية النفس) الآية(59

الوسيلة الرابعة هي الحائط الأخير المنيع، والركن الذي يقوم عليه السلوك كله: الإيمان باليوم الآخر .
يقول الله:} إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ.{

· "إِنَّ" و "اللام" في "لَآتِيَةٌ" : توكيدان قاطعان بأن يوم القيامة آتٍ لا محالة .إنها الحقيقة الكبرى التي لا مرية فيها.
· "لَّا رَيْبَ فِيهَا" : نفي مطلق لأي شك، فهي كالشمس في رابعة النهار.
· "وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ" : على الرغم من وضوح هذه الحقيقة وتأكيدها، إلا أن أكثر الناس لا يؤمنون بها إيمانًا حقيقيًا يغير سلوكهم .لماذا؟ لأنهم لو آمنوا بها حقًا، لانتهوا عن الكبر والمحرمات فورًا .كثير منا يدعي الإيمان بهذا اليوم، ولكنه لا يتوقف عن ارتكاب المحرمات! فهذا دليل على أن إيمانه ضعيف، أو أنه يشك فيه أو في وقوع العقاب.

المثال التقريبي:
من يدرك أن الإناء الذي فيه عسل مخلوط بسم قاتل، فلن يشربه أبدًا، ولو بلغ من الجوع مبلغًا .ومن يدرك أن نهاية الطريق ستؤدي به إلى مغارة مليئة بالثعابين والوحوش، فلن يسلكه أبدًا .وكذلك من يؤمن حقًا بأنه سيقف بين يدي الله للحساب، وأن النار عذابها أليم، فسيجعله هذا الخوف من الكبر و المعاصي، ويحمله على المسارعة في الأعمال الصالحة.

خطورة الشك:
الشك خطير لأنه يفقد الإنسان إرادته، ويجعله مترددًا بلا عزيمة، يعيش في الترف والنعيم، ويميل للشهوات الحيوانية .الشك هو الذي يجعله يجادل بالباطل لدحض الحق تمسكًا بشهواته، ويجعله يرفض الخضوع لمنهج الله، ويتطاول بالجدل والكبر .ولذلك هم يستبعدون حصول إعادتهم بعد الموت، ولذلك تجرؤوا على الكبر .فالذي يريد النجاة، عليه أن ينتقل من ظلمات الشك إلى نور اليقين .الإيمان باليوم الآخر يستلزم اليقين الذي لا ريب فيه .فهو الذي يزكي النفس من الإفراط والانحراف والتخبط، ويقضي على الكبر وأسبابه.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· اليقين دافع للعمل: درب نفسك على استحضار مشاهد اليوم الآخر في حياتك اليومية .قبل أن تفعل أي شيء، اسأل نفسك: ماذا سأكتب في صحيفتي؟ أين سأذهب بعد الموت؟ هذا الاستحضار وقود لا ينفد للعمل الصالح، وسياج منيع ضد الكبر.
· الموت رقيبك: مراقبة الموت، وتذكره في كل لحظة، لأنه قد يحل بك في أي لحظة، يجعلك تسارع في التوبة والأعمال الصالحة، وينزع الكبر من قلبك، فتعيش متواضعًا مستعدًا للقاء الله.

الأمر الخامس: الربط بين الآيات الثلاث وما قبلها - منظومة متكاملة لمقاومة الكبر

الآن، وقد تعمقنا في كل آية على حدة، نقف لنرى اللوحة كاملة.
لقد حذّر الله في الآية (56) من الكبر والجدال بغير علم، وأخبرنا أن أصحابه} مَّا هُم بِبَالِغِيهِ.{
ثم أعطانا أربع وسائل لمقاومة هذا الداء، مترابطة متكاملة:

.1الوسيلة الأولى) في الآية(56 : الاستعاذة بالله والشعور برقابته .فالله سميع بصير، يراقب الخواطر قبل الأقوال .الكبر سبب زوال النعمة والنصر والتمكين، لأن المتكبر ينازع الله في عظمته وجبروته، فيكون في حرب مع الله حتى يُنزع منه كل ما يظنه عزًا.
.2الوسيلة الثانية) في الآية(57 : التفكر في عظيم القدرة .أن تنظر في خلق السماوات والأرض، فتعرف قدر نفسك الضئيلة، فتنكسر لكبرياؤك، وتهرب من الجهل الذي هو أساس الكبر.
.3الوسيلة الثالثة) في الآية(58 : الإيمان والعمل الصالح .أن تمتلئ بالنور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، فيبصر الحقائق، ويفرق بين الخبيث والطيب، فلا يستوي عنده المحسن والمسيء، ويصير همه الوحيد العمل للدار الباقية.

.4الوسيلة الرابعة) في الآية(59 : التصديق باليوم الآخر .أن توقن بيوم الحساب، فتتزكى نفسك، وتخاف من الظلم والكبر، وتسارع في الخيرات.
الأمر السادس: ماذا يريد الله منا من هذه الآيات؟

بعد هذا البيان الشافي، ماذا يريد المولى سبحانه وتعالى منك أنت تحديدًا؟

.1يريد أن يشفيك من داء الكبر: بأن جعل لك مستشفى ربانيًا متكاملا ً .قسم الاستقبال فيه "الا ستعاذة"، وقسم التشخيص "التفكر في خلق السموات والأرض"، وقسم العلاج "الإيمان والعمل الصالح"، وقسم المتابعة "اليقين باليوم الآخر" .فلا عذر لك بعد اليوم.
.2يريد أن يبصرك بالحقائق: أن يخرجك من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فتعرف أنك عبد ضعيف، وأن الكبر لا يليق بك، وأن مصيرك إلى الله.
.3يريد أن يطمئنك على مستقبل الحق: بأن الباطل الذي يقوم على الكبر والجهل، مشروعه فاشل حتمًا .فلا تنخدع بكثرتهم، ولا تهن لعنادهم .كن مع الحق ولو كنت أقلية.
.4يريد أن يبني فيك إنسانًا متوازنًا: إنسانًا يعرف ربه فيزداد له تواضعًا، ويعرف نفسه فيزداد لها تحقيرًا، ويعرف الآخرة فيعمل لها، ويعرف الدنيا فيزهد فيها.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسياً: الآيات تبني "الصلابة النفسية" في وجه إغراءات الكبر .أنت الآن تملك عدة متكاملة: عينك على الكون ترى عظمة الله، وعينك على قلبك ترى نور الإيمان أو ظلمة الكفر، وعينك على الآخرة ترى الجزاء .هذا يخلق منك إنسانًا هادئًا مطمئنًا، متواضعًا عن قناعة لا عن ضعف.
· فكرياً: تحرر العقل من "الجهل" الذي هو عدو العلم .التفكر في الكون يجعلك عالمًا، والإيمان والعمل الصالح يجعلك بصيرًا، واليقين بالآخرة يجعلك حكيمًا .هذا يبني عقلا ً ناضجًا يستطيع التمييز بين الحق والباطل.
· تربوياً: الآيات تعلمنا منهج "التدرج في علاج أمراض القلوب" .تبدأ بالاستعاذة، ثم بالتفكر، ثم بالإيمان والعمل، ثم بالتذكير بالعاقبة .هكذا نربي أنفسنا وأبناءنا، بأسلوب يجمع بين الترهيب والترغيب، والعقل والروح.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة

.1العدل أساس الملك: الحضارة لا تقوم على قاعدة صلبة إلا بإقامة العدل، فلا يستوي المحسن و المسيء .تنزيل كل واحد منزلته هو ضمانة بقاء أي حضارة .اختلال ميزان الثواب والعقاب يؤدي إلى الفوضى وتشجيع المنحرفين وتزهيد المحسنين، وهو بداية انهيار الأمم.
.2العلم والمعرفة:} لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ {دعوة للحضارة إلى البحث والدراسة والتفكر، لبناء حضارة تقوم على العلم، لا على الجهل والخرافة .الحضارة التي تقوم على سنن الله في الكون هي الحضارة الراسخة.
.3الرقابة بالإيمان باليوم الآخر: الإيمان بأن الساعة آتية لا ريب فيها هو الضمانة الوحيدة لاستقامة الحضارة على طريق الحق والخير .إنه الشرطي الداخلي الذي يمنع الفساد ويحفز على الإنتاج.
.4لا تغتر بالغالبية:} أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {تعلمنا ألا نجعل الكثرة هي المقياس .الحضارة التي تسير خلف التيار العام بلا تمييز، طريقها إلى الفشل .مقياس صحة أي حضارة هو مدى موافقتها للحق و العلم، لا كثرة أتباعها أو ضجيجهم.

خاتمة ورسالة إلى قلبك وروحك
أيها المؤمن الباحث عن النصر، أيها الساعي للتمكين، لقد أنعم الله عليك بهذه الآيات لتكون لك عُدتك في معركتك مع نفسك ومع الباطل من حولك .لا تيأس إن رأيت أكثر الناس في باطل يعمهون، فهم لا يعلمون .لا يحزنك أنهم لا يؤمنون بالآخرة، فالساعة آتية لا ريب فيها، وهناك سينكشف كل شيء . عليك أنت أن تكون بصيرًا، ممن آمنوا وعملوا الصالحات، فتعيش في نور، حتى لو كان العالم من حولك في ظلام.

فاستعذ بالله من الكبر في كل حين، وانظر في ملكوت السماوات والأرض كل صباح، وجدد إيمانك بـ العمل الصالح كل يوم، وعش وكأنك ترى مشهد القيامة أمام عينيك .عندها، سيسقط الكبر من قلبك حتمًا، وستستنير بصيرتك، وترى الطريق جليًا واضحًا، فتعيش حميدًا في الدنيا، وتلقى الله آمنًا في ا لآخرة.

المبحث الخامس

يا أيها المؤمن، يا من سلكت بنا طريق مقاومة الكبر، واطلعت على وسائل التداوي الربانية من هذا الداء، أقبل بقلبك وعقلك .لقد رأيت في الآيات السابقة كيف حذرنا الله من الكبر والجدال بغير علم، وكيف أرشدنا إلى وسائل أربع لمحاربته: الاستعاذة به، والتفكر في خلقه، والإيمان والعمل الصالح، و التصديق باليوم الآخر .والآن، تأتي الوسيلة الخامسة، وهي التاج والختام، والروح التي تسري في كل الوسائل السابقة، ألا وهي الدعاء، الذي هو جوهر العبادة ولبها .إنها الآية الستون من سورة غافر، حيث يفتح الله لك أبواب السماء، ويناديك بنداء المحب لعبده، فيقول:
}وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[{غافر: 60].

إنها الآية التي تحول النصر من مجرد وعد إلى واقع معاش، وتربط التمكين في الدنيا والآخرة بمدى تذللك لله وتعلقك به .إنها الوسيلة الخامسة، بل هي الأساس الذي يضمن لك الحماية والنصر ودوام التمكين .فلنغص في أعماق هذه الآية الكريمة، لنستخرج منها الدروس والرسائل التي تبني الإنسان الواعي، العابد، الخليفة في الأرض.

الأمر الأول: دلالة "وَقَالَ رَبُّكُمُ" و "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" – النداء المفتوح والوعد المطلق

تبدأ الآية بنداء يأسر القلوب:} وَقَالَ رَبُّكُمُ .{تأمل معي كل كلمة هنا وكأنها تخاطبك وحدك:

· "وَقَالَ" : صيغة فعل ماض تفيد الثبوت والتحقق، كأن هذا النداء قد صدر منذ الأزل، وهو قائم ومتكرر إلى الأبد .لم يقل "ويقول" بل "وقال" ليزيدك يقيناً بأن هذا العهد والوعد قد أبرم ولا رجعة فيه.
· "رَبُّكُمُ" : لماذا اختار اسم "الرب" هنا دون غيره من الأسماء الحسنى؟ لأنه الاسم الذي يجمع صفات الخلق والملك والتربية والإصلاح والرزق والحماية .هو الرب الذي خلقك، ورزقك، ورباك بنعمه، وسخر لك الكون، وأمدك بالهدى .إنه المتولي لشأنك، القائم على إصلاحك، فكيف لا يدعوك إلى سؤاله وهو الذي تولاك منذ كنت جنينًا في بطن أمك؟ إن في هذا النداء تربية عظيمة على الأنس بالله، والثقة بحبه ورعايته.
· "ادْعُونِي" : أمر إلهي مباشر، ولكنه أمر محفوف بالحب والترغيب .إنه إذنٌ مفتوح، وتصريح دائم بأن تطلب حاجتك من ربك، مهما صغرت أو كبرت .والدعاء هنا يشمل نوعين عظيمين:
1. دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفعك من خيري الدنيا والآخرة، وطلب دفع ما يضرك .فالله هو الذي بيده العطاء والرزق والحماية والنصر، فاسأله الفتح على أعدائك، فهو العزيز الذي لا يغلب . واسأله النجاح في أعمالك، فهو الذي لا نهاية لما لديه من المواهب .إنه لا تنقص خزائنه شيء، ولا يحجب عنك عطاءه حجاب، فلماذا تلجأ لغيره؟
2. دعاء العبادة: وهو امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإظهار الذل والخضوع والتوكل عليه .وهذا هو المعنى الأعمق، فأنت عندما تصلي أو تصوم أو تتصدق، فأنت تدعو ربك بلسان حالك، مطبقًا منهجه في حياتك.
· "أَسْتَجِبْ لَكُمْ" : هذا هو الوعد الإلهي الحق .جواب الأمر "ادعوني" مرتبط بجواب "أستجب لكم" .إنه وعد مطلق بالاستجابة .ولكن، أتدري ما معنى الاستجابة الحقيقي؟ إنها ليست فقط أن يعطيك الله عين ما طلبت، فالله حكيم يعلم ما يصلحك .قد تكون الاستجابة بأن يدخر لك الثواب في الآخرة، أو يصرف عنك سوءًا لا تعلمه .المهم أن باب الفوز مفتوح، فلا تتردد في طرق هذا الباب.

اللمسات البيانية والبلاغية:
إن إضافة "رب" إلى ضمير المخاطبين "كُم" تجعل العلاقة حميمية ومباشرة .هو ربكم، القريب منكم، العالم بحالكم .إنه أسلوب يغرس الأمان، ويجعلك تندفع إلى الدعاء حبًا لا خوفًا فقط .ثم إن صيغة "افعل") ادعوني (و "أفعل") أستجب (تدل على سرعة الاستجابة والارتباط الوثيق بين الفعل والنتيجة . كأنه يقول: ما إن تدعوني حتى تبدأ الاستجابة!
الأمر الثاني: الدعاء يجعلك الخليفة الواعي – الفرق بين المؤمن والكافر في الوعي

هنا لباب الآية وجوهرها} .ادْعُونِي {ليست مجرد طلبات، بل هي إعلان عن حالة نفسية وروحية عميقة .إنها حالة الوعي التي تميز المؤمن عن الكافر.

· كل المخلوقات تعيش على إنعام الله: الطير في السماء، والدواب في الأرض، والكائنات كلها ...هي لا تستطيع أن توفر حاجاتها بذاتها، هي بحاجة إلى عون الله ورزقه في كل لحظة .لكنها لا تشعر بذلك ولا تعيه.

· الفرق الأساسي: الله أعطى الإنسان ميزة الوعي .المؤمن هو الذي يستخدم هذا الوعي، فيشعر بحاجته وفقره إلى الله في كل لحظة .إنه يعرف نفسه الضعيفة، ويعرف ربه الغني الكامل .هذا الشعور يدفعه إلى الدعاء، أي إلى إظهار الفقر والحاجة والتذلل والخضوع والطاعة لله .المؤمن لا يتكبر بما أنعم الله عليه من جاه أو سلطان أو مال، بل تزيده هذه النعم خضوعًا واستسلامًا لله .إنه يعلم أن ما به من نعمة فمن الله، وأن الله قادر على سلبها في طرفة عين، فيزداد انكسارًا وتواضعًا . هذا هو الوعي الذي استحق به أن يكون خليفة لله في الأرض.
· أما الكافر: فهو يعيش أيضًا على إنعام الله، ولكنه يفتقر إلى هذا الوعي .إنه يعيش بلا عقل يميز به ، فيرى ما لديه من نعم وينسبها إلى نفسه: قوته، ذكائه، جاهه ...إنه يجحد نعمة الله وما صنع له . ولذلك فهو يرفض الخضوع والاستسلام لمنهج الله، لأنه يرى نفسه عظيمًا، ويتفاخر بنسبه وحسبه . هذا هو عين مرض الكبر الذي نتحدث عنه!

المثال التقريبي:
تخيل مديرًا أعطى موظفًا سيارة فارهة وراتبًا عاليًا .الموظف المؤمن الواعي، كلما ركب السيارة قال: "الحمد لله، لولا فضل مديري ما كنت لأمتلك هذا" .هذا الشعور يجعله محترمًا مخلصًا في عمله .أما الموظف المتكبر الأعمى، فيقول: "هذا كله بذكائي وجهدي، المدير محظوظ بوجودي!" .هذا الشعور يجعله متمردًا متعالياً، معرضاً لأن يطرده المدير في أي لحظة .وهكذا حال المؤمن والكافر مع نعم الله.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:

· الدعاء ترياق مضاد للكبر: لا يمكن للكبر أن يسكن في قلب يكثر فيه الدعاء والتذلل لله .فالدعاء يجعلك دائمًا في مقام العبد الفقير، ويذكرك بحقيقتك أمام عظمة الله .من هنا تفهم لماذا كان الدعاء هو الوسيلة الخامسة والأساسية لمكافحة الكبر.
· الوعي بالنعمة: تدرب على أن تنظر إلى كل نعمة في حياتك) بصرك، صحتك، مالك، مكانتك (وتراها كعطاء من الله صِرف، وتقول: "ربي هو الذي أعطاني"، فيزداد حبك له وتواضعك لخلقه.

الأمر الثالث: وعيد المتكبرين – "سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ"

بعد وعد الاستجابة، يأتي التحذير والوعيد:} إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ.{

· "إِنَّ" : توكيد مؤذن بوقوع الخبر لا محالة.
· "يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي" : تأمل دقة التعبير! قال "يستكبرون عن عبادتي" ولم يقل "يستكبرون عن دعائي" أو "مسألتي" .وهذا يفسر لنا أن الدعاء هو العبادة .رفض الدعاء هو استكبار عن عبادة الله بكل أشكالها .الصلاة عبادة، وفيها أعظم الدعاء .الصيام عبادة .والتذلل لله والخضوع لتوحيده في ربوبيته وألوهيته هو العبادة .فالذين يستكبرون عن ذلك هم الذين رفضوا دين الله، رفضوا الالتزام بمنهجه، رفضوا امتثال كلماته، وتطاولوا بالجدال بغير علم.
· "عِبَادَتِي" : أضاف العبادة إلى نفسه جل وعلا، ليبين عظم هذا الذنب .فليست عبادة لصنم أو ملك، بل هي عبادة لله رب العالمين .فالاستكبار عنها استكبار عن الله نفسه!
· "سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ" : هذا هو المصير المحتوم .إنها نار موقدة، تطلع على الأفئدة.
· "دَاخِرِينَ" : هذه هي اللمسة البيانية المعجزة ."داخرين" من الفعل "دخر" أي صغُر، ذلّ، هان .إنهم سيدخلونها صاغرين أذلاء .ما أبلغ هذه المقابلة! لقد أرادوا الكبر والعزة، فكان جزاؤهم الذل والصغار . أرادوا أن يتعالوا على منهج الله، فأدخلهم الله جهنم أذلاء محتقرين .إنها نهاية كل متكبر عبر التاريخ: من إبليس) إنك من الصاغرين (إلى فرعون وهامان .هؤلاء المتكبرون، في الحقيقة، هم موطئ قدم إبليس ومأخذ يديه، ينطقون بلسانه .لقد استرق إبليس عقولهم عندما تخلوا عن الوعي، واستكبروا عن طاعة الله .فيجب الحذر من طاعة هؤلاء المتكبرين، وعدم الاغترار بمالهم أو جاههم أو سلطانهم، لأن مصيرهم دخول جهنم داخرين.

الأمر الرابع: ماذا يريد الله منا من هذه الآية الكريمة؟

بعد هذا البيان، ماذا يريد المولى سبحانه وتعالى منك أنت، أيها المؤمن المجاهد في طريق الحق؟

.1يريدك أن تعيش عبدًا فقيرًا إليه: أن تدرك أنك المحتاج إليه في كل شيء، وأن تستشعر هذا الفقر في كل لحظة .هذا هو معنى "الوعي" الذي استحق به الإنسان الخلافة .الله غني عن طاعتك، فطاعتك لا تزيده شيئاً، ومعصيتك لا تنقصه شيئاً .أنت المحتاج لهذا الدعاء، المحتاج لهذه العبادة.
.2يريد أن يمنحك مفتاح النصر والتمكين: الدعاء هو الذي يوفر لك الحماية والنصر ودوام التمكين .

أنت تسأل الله الفتح على أعدائك، وتسأله التوفيق في أعمالك .فمن كان معه الله، فمن عليه؟ ومن كان الله ناصره، فلن يغلبه أحد.
.3يريد أن يشفيك ويحميك من الكبر: أن يجعل الدعاء والتضرع سلاحك اليومي ضد هذا الداء .ط الما أنت تدعو وتتذلل، فلن يجد الكبر طريقه إلى قلبك.
.4يريدك أن تكون من جند الرحمن لا من جند الشيطان: أن تحذر من طاعة المتكبرين، وألا تغتر بمالهم وجاههم، فإبليس هو سلفهم، ونهايتهم معه في النار.

الأمر الخامس: الرسائل التربوية والنفسية والعقلية والتطبيقات العملية

· نفسيا) صناعة الأمل والثقة(: أبدل قلقك وخوفك من المستقبل بدعاء الله وحده .هو ربك، وهو القادر على كل شيء .هذا يمنحك سكينة وطمأنينة لا توصف.
· فكريا) التحرر من الأسباب المادية(: الدعاء يعلمك ألا تكون أسيراً للأسباب .أنت تعمل وتأخذ بالأ سباب، ولكنك تتوجه بالدعاء إلى مسبب الأسباب، فتعلم أن النصر والرزق بيده وحده.
· تربويا) تطبيقات عملية يومية(:
.1 حول كل عمل إلى دعاء: لا تأكل حتى تقول "بسم الله"، ولا تنتهي حتى تقول "الحمد لله" .لا تلبس ثوباً جديداً حتى تقول: "اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه"، لا تركب سيارتك حتى تقول: "سبحان الذي سخر لنا هذا" .هذا يجعلك في حالة دعاء دائم.
.2 اطلب حوائجك كلها من الله: حتى رباط حذائك إذا انقطع، ادع الله أن ييسر لك إصلاحه .هذا ليس تفاهة، بل هو تحقيق للعبودية .إنك بذلك تشعر بأنك فقير إلى الله حتى في أبسط الأشياء، وهذا هو قمة الوعي والتواضع.
.3 استشعر النعم: كل صباح، قل: "اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر" .هذا يبني عقلا ً شاكرًا واعيًا.

الأمر السادس: اللمسات البلاغية الشاملة في الآية

· أسلوب الالتفات: جاء السياق في الآيات السابقة بصيغة الغائب) أكثر الناس لا يعلمون، لا يؤمنون (ثم التفت فجأة بصيغة الخطاب المباشر:} وَقَالَ رَبُّكُمُ .{هذا الالتفات يوقظ قلبك وينبه عقلك، وينقلك من مقام المتفرج إلى مقام المخاطب المباشر.
· المقابلة العجيبة: بين جملة} ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ {التي تفيض بالرحمة والوعد والجبر، وجملة }سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ {التي تمتلئ بالوعيد والتهديد .إنها مقابلة بين طريقي العزة والذل، بين من اختار العبودية رفعة، ومن اختار الكبر ذلة.
· جناس الاشتقاق: بين لفظ "يستكبرون" و"داخرين" .هم طلبوا الكبر) استكبروا (فكان جزاؤهم الصغار)داخرين .(هذا تناسق بديع في اللفظ يضاعف المعنى في القلب.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

هذه الآية هي العمود الفقري لبناء الحضارة الإيمانية.

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسياً: "مفهوم الأمان الوجودي": المؤمن الذي يوقن بأن له ربًا قال له "ادعوني استجب لكم"، لا يمكن أن يشعر بالضياع أو العبثية في هذا الكون .هو يشعر بالطمأنينة لأنه في كنف من يتولاه ويرعاه.
· فكرياً: "شبكة الأسباب": الآية تعلمك أن أعظم سبب لتحقيق ما تريد هو الدعاء .فهي تعيد تعريف السببية، وتجعلك ترى أن السبب الحقيقي هو إرادة الله، والتي تفتح أبوابها بالدعاء.
· تربوياً: "صناعة الخليفة الواعي": التربية هي عملية نقل للإنسان من حالة الغفلة إلى حالة الوعي الدائم بحاجته وفقره إلى الله .هذه الآية هي منهج تربوي كامل، تطبقه عندما تعلم أبناءك أن كل شيء في حياتهم هو سبب للدعاء والتوجه لله.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة

· دوام التمكين مرتبط بدوام الدعاء: الحضارات السابقة التي استكبرت وسقطت، لو أنها دعت ربها وتذللت لأدام الله عليها نعمه .مجتمع "الدعاء" هو مجتمع "الوعي" الذي يحمي النعم من الزوال .إنه مجتمع يدرك أن ما به من تقدم ورخاء هو محض فضل من الله، فيركن إليه بالشكر والدعاء، لا بـ البطر والتكبر.

· القضاء على الفساد والطغيان: الدعاء يغرس في النفس مراقبة الله، والخوف منه، مما يمنع الحاكم من الظلم، والغني من الكبر، والموظف من الخيانة .إنه السلاح الذي يبني حضارة الأخلاق والعدل.

المحور الثالث: كيف تعزز هذه الآية القوة النفسية وتمنع اليأس؟

· تحطيم عقدة العظمة الفارغة للمتكبرين: حين ترى متكبراً طاغية، تتذكر أنه سيدخل جهنم داخرًا، أذل صاغرًا .هذا يملأ قلبك بالعزة بالله، ويذل صورة المتكبر في عينك، فتستحقر صنيعه ولا ترهبه.

الخلاصة ورسالة ختامية إلى قلبك

يا أيها المؤمن، هذه الآية هي هدية ربك إليك .إنها بطاقة دخول إلى قصر النصر والتمكين، ومفتاح باب الحماية من الكبر .لقد أرادك الله أن تكون خليفة واعيًا في أرضه، لا يغفل عن نعمه، ولا يستكبر عن عبادته.

كلما ثقلت عليك هموم الدنيا، وادهمت خطوب الأعداء، واستشعرت قوتهم، فالجأ إلى هذه الآية .تذكر أن قوتهم التي اغتروا بها ما هي إلا سراب، ونهايتهم محتومة بدخول جهنم صاغرين .أما أنت، فبين يديك سلاح لا يهزم: أن تمد يديك إلى السماء وتقول: يا رب .نم قرير العين، موقناً أن من كان معه الله فلن يغلبه كبر متكبر، ولن تقهره جيوش الباطل .افتح قلبك للدعاء، واجعل حياتك كلها لله، تكن عبدًا واعيًا مستحقًا للخلافة في الأرض، والسعادة في الآخرة

خامسا

يعود السياق الى توجيه الأنظار إلى انعام الله كوسائل لاستعاده الوعى الانسانى ليعرف الغايه من وجوده وليتخلص من الكبر والجهل من خلال توطين النفس على الشكر لله على النعمه ومشاهده حسن الله واحسانه وجلاله وجماله فى انعامه

المبحث الأول

يا من بدأت تدرك حقيقة نفسك وضعفها، ويا من بدأت تتعرف على ربك وعظمته وجلاله، اسمع لهذه الآيات التي تخاطب وجدانك وعقلك معًا. لقد حذرنا الله من الكبر، وأعطانا وسائله الخمس لمقاومته، وكان آخرها الدعاء الذي يجعلك واعيًا فقيرًا إلى الله. والآن، تأتي هذه الآيات (61، 62، 63) لتغرس فيك هذا الوعي، وتلفت انتباهك إلى نعم الله التي تعيش فيها ليل نهار، لترى إحسانه إليك، فتشعر بحاجتك وافتقارك إليه، فتخر له ساجدًا شاكرًا، لا متكبرًا جاحدًا. إنها دعوة لرحلة في كتاب الكون، مع كتاب الوحي، لنصل إلى حقيقة التوحيد.

يقول الله جل وعلا، بعد أن بين مصير المتكبرين:
{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (62) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)} [غافر].

الأمر الأول: دلالة نعمة الليل والنهار – آية الإحسان الدائم (الآية 61)

تبدأ الآية باسم الجلالة {اللَّهُ}، وكأنها تضع أمامك عنوان الرسالة: إن الذي سنذكر صفاته وأفعاله هو الله وحده. {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ} هذا الجعل هو جعل تسخير وإنعام. والنعم المسخرة بين أيديكم لا تحصى، ولكن الله يختار نعمتين ترتبطان بحياتك اليومية ارتباطًا لا ينفك: الليل والنهار.

أولًا: نعمة الليل – السكن للروح والبدن: {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ}
تأمل معي قوله: {لِتَسْكُنُوا}. الليل، أيها المؤمن، ليس مجرد ظلام، بل هو "سكن". إنه الراحة والطمأنينة بعد عناء يوم طويل. إنه اللحاف الذي يغلف الكون، فتسكن فيه الأصوات، وتخلد الأنفس إلى الراحة. والسكون يشمل سكون البدن بالرقاد والنوم، وسكون الروح من ضوضاء المعاش.
ولكن، أتدري ما هي عظمة هذه النعمة التي كشف عنها العلم الحديث؟ لقد أثبت العلم أن الليل والنوم ليس مجرد تعطيل للجسد، بل هو عملية إعادة بناء معقدة.

· فوائد الليل) النوم (للجسم والعقل: أثناء نومك، يقوم دماغك بعمليات تنظيف وصيانة لا تتوقف .يتم إفراز هرمونات النمو لإصلاح الخلايا التالفة وبناء أنسجة جديدة، فيعود لك نشاطك وحيويتك بعد تعب النهار .إن الذاكرة تتعزز، والمعلومات التي اكتسبتها تفرز وتخزن، وكأن عقلك يُرتب أدراجه أثناء نومك .فالنوم ليس موتًا أصغر، بل هو حياة متجددة.
· تخيل لو كان الوقت كله ليلا ً سرمديا! لتعطلت مصالح الحياة، ولأصبحت الأرض كالمستشفى الكئيب، تختنق فيه الأنفس، وتموت فيه المخلوقات من شدة البرد والظلام والرطوبة، ولما استطاع

أحد أن يكسب قوته .فهذا الليل، الذي تظنه مجرد غياب للشمس، هو في الحقيقة مصنع رباني لإعادة تأهيلك للحياة .فهل شكرت الله على نومة هانئة في ليلة ساكنة؟

ثانيًا: نعمة النهار – مسرح الحياة والعمل: {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا}
ثم يأتي النهار، فينسحب الليل بسكونه ليحل محله النور. وصف الله النهار بأنه {مُبْصِرًا}. إنها استعارة بديعة! فالنهار وكأنه يبصر، أو هو سبب إبصارك. فيه تنطلق لطلب الرزق، وتسعى في مناكب الأرض، وتمارس عباداتك وعلاقاتك. النهار يجعلك تنشط، لأن ضوءه يؤثر على هرمونات اليقظة والطاقة، فيجعل الحركة والعمل ممكنين ومحببين.

· وتخيل لو كان الوقت كله نهارًا سرمديا! لاحترقت الأرض، ولأ ُنهكت الأبدان، ولما كان للراحة مكان .ولكنها الرحمة الإلهية، جعلت تعاقب الليل والنهار ليوفر لك احتياجاتك المتضادة: الراحة والعمل، البناء والصيانة للنفس والجسد .كل ذلك بمواقيت دقيقة لا تتقدم ولا تتأخر.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:
.١الوعي بالإحسان الإلهي اليومي: هذه النعم اليومية المتكررة، التي لا تنقطع، هي أعظم دليل على فضل الله ورحمته بك .إنه يعتني بك وأنت نائم، ويمدك بالحياة وأنت مستيقظ .فهل عشت يومًا وأنت تستشعر سيل النعم هذا؟ الشعور بهذا يجعلك دائم الوصل بالله، لأنه لا تمر عليك لحظة إلا وفيها نعمة متجددة.
.٢قبح مقابلة الإحسان بالإساءة: تأمل قوله:} إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .{إن ربك يغدق عليك بالنعم، وأكثر الناس يقابلون هذا الفضل العظيم بالغفلة والنسيان و الجحود، بل وبالاستكبار عن طاعة المنعم .وهذا هو غاية اللؤم وقمة التكبر .إن الذي يقابل الحسنة بـ السيئة يعد لئيمًا ناكرًا للجميل .والشكر هو دليل المروءة وعلامة الوعي.
.٣توطين النفس على الشكر: عليك أيها المؤمن أن توطن نفسك على أن تكون من القلة الشاكرة .أن تقول بلسانك وقلبك وجوارحك: الحمد لله الذي جعل لنا الليل سكنًا والنهار مبصرًا .الشكر ليس مجرد كلمة، بل هو طاعة للمنعم، واستعمال لنعمه فيما يرضيه.

الأمر الثاني: دلالة "ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ" و "فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ" – التذكير بالخالق ومنطق الحوار بالعقل (الآية 62)

بعد أن لفت نظرك إلى النعمة، ينقلك مباشرة إلى المنعم: {ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ}.

· "ذَٰلِكُمُ": اسم إشارة للبعيد، مع أن الله أقرب إلينا من حبل الوريد .إنها إشارة إلى عظيم منزلته وعلو مقامه .الذي فعل كل هذه الأفعال العظيمة، وسخر لكم الليل والنهار، هو الله!
· "رَبُّكُمْ": مرة أخرى، تأتي صفة "الرب" الجامعة لكل معاني التربية والرعاية والملك والتدبير .هو الذي رباكم بنعمه، وتولى شأنكم بإحسانه .هو الذي توجه له وحده لا شريك له.
· "خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ": صفة عموم وشمول .خلق الليل والنهار، وخلق السماوات والأرض، وخلقكم أنتم . خلق الخلائق على غير مثال سابق ولم يستعن بأحد .فإذا كان هو خالق كل شيء، فكل ما سواه مخلوق.
· "لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ": هذه هي النتيجة الحتمية والمنطقية .ما دام هو الخالق، والرازق، والمالك، والمدبر، فهو وحده المستحق للعبادة .لا معبود بحق إلا هو .توحيد الألوهية مبني على توحيد الربوبية .فكل ما سواه باطل، لا يملك نفعًا ولا ضرًا.
· "فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ": هنا سؤال استنكاري يخاطب العقل والمنطق: "فأين تُصرفون عن هذا الحق الواضح؟" . بعد أن عرفتم أن الله هو الخالق الرازق المسخر، لماذا تنحرفون عنه إلى عبادة غيره؟ لماذا لا تخلصون أعمالكم له؟ لماذا لا تمتثلون أوامره وتجتنبون نواهيه؟ لماذا تلجؤون إلى الاستعانة بغيره، وتتوكلون على سواه، وهو الحامي والناصر وبيده العطاء؟ هذا تحريف للفطرة، وصدود عن المنطق.

الرسائل التربوية والعقلية وأهمية أسلوب الحوار:

· تعليم فن الخطاب الدعوي: هذه الآية تعلمك كيف تخاطب الآخرين .لا تخاطبهم بالتعصب والعاطفة فقط، بل خاطب العقول بالمنطق والأدلة .ابدأ بتذكيرهم بالنعم) الآية(61 ، ثم أربطهم بالمنعم) الآية (62، ثم اسألهم سؤالا ً منطقيًا يهز الوجدان: "فأنا تؤفكون؟" .إنه أسلوب حواري يبني الإيمان على قاعدة صلبة من البرهان والتساؤل العقلي .علينا أن نتعلم كيف نقيم الحجة على الناس بمثل هذا الأ سلوب القرآني.
· فساد نظرية الأغلبية: انظر إلى السياق:} وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ {ثم} فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ .{الأكثرية لا تشكر، الأكثرية منصرفة عن الحق .إذن، فمعيار الحق ليس الكثرة! هذه الآية تعلمنا فساد النظرية التي

تقوم على تقديس رأي الأغلبية لمجرد كونها أغلبية .إن الحق هو ما وافق الوحي والعقل والفطرة السليمة، ولو كان معه أقل القليل .فاحذر أن تتأثر بالأغلبية في حياتك، وكن مع الحق أينما كان .هذه من أهم الرسائل التي تحملها الآية في نقاشها لإعادة الحق.

الأمر الثالث: دلالة "كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" – تشخيص علة الانحراف (الآية 63

وهنا تأتي النتيجة والتشخيص النهائي:{كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}.

· "كَذَٰلِكَ": أي مثل هذا الصرف والإفك والانحراف العجيب، يُصرف عن الحق أولئك الذين ديدنهم وصفهم الثابت أنهم} بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ{
· "يَجْحَدُونَ": الجحود ليس مجرد جهل، بل هو إنكار للحق مع العلم به .إنه مرض القلب، ورفض للحقيقة بعد أن عرفوها .إنه جحود للنعم، وجحود للآيات) الكونية والمقروءة(، وجحود لمنهج الله.
الرابط بين هذه الآية وما سبق:
هو رابط دقيق ومهم .هذا السلوك) سلوك الصرف والانحراف عن الحق (ليس سلوك المؤمنين الذين لهم وعد الله بالنصر والتمكين في الدنيا والآخرة، بل هو سلوك الكفار المكذبين الجاحدين بآيات الله . فسلوك المجادلة والخصام في آيات الله بغير علم، إنما هو سلوك الجاحد للنعم، الناكر للجميل .هؤلاء المتكبرون، الذين يجادلون ويستكبرون ويعرضون عن الدعاء، هم في الحقيقة صارفون عن الحق، مفترين على الله، لأن داءهم الأصلي هو الجحود.

الرسائل النفسية والعقلية والتربوية:
.١الانحراف عن التوحيد سببه الجحود: هذه الآية تضع يدك على أصل المشكلة .لماذا ينحرف البشر عن عبادة الله مع كل هذه النعم؟ الجواب هو الجحود .إنهم يعيشون على نعم الله، لكنهم يجحدونها وينكرونها بقلوبهم وألسنتهم وأفعالهم .فهذا هو الكبر بعينه، وهذا هو مرض القلب القاتل.
.٢تحذير المؤمن: هذه الآية تحذرك أشد الحذر من أن تكون من الجاحدين .أن تمتلك نعمة ولا تنسبها إلى الله .أن تقرأ آية ولا تعمل بها .أن تعرف الحق وتصرف عنه .هذا هو الإفك والضلال المبين.

الأمر الرابع: ماذا يريد الله منا من هذه الآيات؟

بعد هذه الرحلة في رحاب الآيات، يقف العقل ليسأل: ماذا يريد الله مني؟
.١يريد أن يصنع منك إنسانًا واعيًا: ينظر إلى الكون فيرى المنعم، وينظر إلى النعم فيشعر بالشكر، وينظر إلى نفسه فيعرف فقره وحاجته الدائمة إلى الله.
.٢يريد أن يطهر قلبك من الجحود والكبر: بأن يربط كل نعمة تراها بالله وحده، فتنكسر نفسك، وتتواضع جوارحك .فلا يمكن أن يتكبر من يعلم أنه يعيش على عطاء الله وإحسانه في كل لحظة.
.٣يريد أن يعلمك كيف تكون داعيًا إليه: بأن تخاطب الناس بالعقل والمنطق، وتذكرهم بنعم الله، وتربطهم بالخالق، وتسوق لهم الأدلة الواضحة التي لا تترك لهم حجة ولا عذراً.

الأمر الخامس: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة:

· نفسياً: الشعور بالطمأنينة والأمان: عندما تدرك أن تعاقب الليل والنهار هو بتقدير من رب رحيم، لتوفير سبل عيشك وراحتك، تشعر بسكينة نفسية عميقة .أنت لست في كون فوضوي، بل في كون مُسخر لك بأمر من ربك.
· فكرياً: تأسيس منهج التفكير السببي والغائي: الآيات تعلمك أن ترى الغاية من كل شيء) الليل للسكن ، النهار للعمل(، وأن ترى المسبب الحقيقي) الله (وراء كل سبب .هذا منهج عقلي رفيع يبني العقل العلمي المستنير بالإيمان.
· تربوياً: تربية القلب على الشكر الدائم: تدرب على ربط النعم بالمنعم في لسانك وقلبك .قل عند النوم: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا"، وعند الاستيقاظ: "الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي" .هذه التربية تجعل الشكر خلقًا ملازمًا لك.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة:

· قيام الحضارة على العلم والملاحظة) التسخير(: لقد سخر الله لنا هذا الكون .والواجب علينا أن ندرس سننه ونكتشف قوانينه) مثل فوائد النوم والنشاط التي اكتشفها العلم الحديث (لنبني حضارة عظيمة .الإيمان بأن الكون مُسخر من الله هو الحافز الأكبر للبحث العلمي عند المسلمين الأوائل.

· الحضارة القيمية القائمة على الشكر لا الجحود: الحضارة التي تكفر بالنعمة وتجحد المنعم، حضارة مادية مفلسة روحيًا، ومصيرها إلى الخراب .أما الحضارة التي تبني على الشكر، فهي التي تدوم وتستمر، لأن الله وعد الشاكرين بالمزيد.

خاتمة للوجدان والقلب:
يا من تقرأ هذه الآيات، هي مرآتك إلى نفسك وإلى كونك. انظر في الليل والنهار، واعلم أن الذي جعل هذا الكون لخدمتك هو الله ربك، لا إله إلا هو. فإياك أن تزيغ وتنحرف، وإياك أن تكون من الأكثرية التي لا تشكر، بل من القلة الواعية التي تعرف نعمة ربها فتشكره وتحبه وتطيعه. وإذا رأيت من حولك قد انحرفوا وجادلوا بالباطل، فاعلم أنهم كذلك يؤفكون لأنهم كانوا بآيات الله يجحدون. تمسك أنت بالحق، ولو كنت وحدك، واشكر الله في كل لحظة، تكن من المفلحين الفائزين بنصره وتمكينه في الدنيا، وبرضوانه وجنته في الآخرة.

المبحث الثاني

لقد سارت بنا سورة غافر في رحلة عظيمة بدأت من وعد النصر، مرورًا بالتحذير من الكبر، وانتهاءً إلى وصف وسائل علاج هذا الداء. والآن، ونحن في خواتيم هذا المقطع البديع، تأتي آيتان هما بمثابة التاج على الرأس، والخلاصة التي تجمع كل ما سبق، وتؤسس لإيمان راسخ لا يتزعزع.

إن الله لم يتركك وحيدًا في مواجهة الكبر والجحود، بل قادك بيدك إلى محراب التأمل في هذا الكون الفسيح وفي نفسك، لتصل بنفسك إلى الحقيقة الكبرى. يقول الله جل وعلا، بعد أن بين مصير الجاحدين:
{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)} [غافر].

إنهما آيتان تأخذان بيدك من أقطار السماوات إلى أعماق نفسك، لتصلا بك إلى نتيجة واحدة لا مناص منها: بأن الله هو المستحق الوحيد للعبادة والحب الخالص. ولسوف نغوص فيهما معًا، مستخرجين كل دررهما، غير تاركين فقرة أو مفهومًا إلا وقد أوفيناه حقه من البيان.

الأمر الأول: دلالة اصطفاف الأدلة "الأرض"، "السماء"، "الصورة"، "الرزق" – أسلوب الحوار المنطقي الذي يربي العقلية التفاوضية (الآية 64)

تبدأ الآية بأسلوب قرآني فريد، هو أسلوب الحوار المباشر مع الفطرة والعقل. إنه خطاب لا يفرض نفسه بالقوة، بل يسوق الأدلة ويطرح الأسئلة حتى تصل أنت بنفسك إلى الإيمان.

المشهد الأول: الأرض – تذليل وتطمين {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا}
انظر تحت قدميك! لقد جعل الله الأرض {قَرَارًا}، أي مستقرة ساكنة، مهيأة للحياة. إنها المهاد و الفراش. اسأل نفسك الآن، بتلك الأسئلة المنطقية التي توقظ العقل: من الذي حصنها من الاضطراب الدائم؟ من الذي أرساها بالجبال الشوامخ لتكون كالأوتاد؟ من الذي شق الطرق فيها، وأخرج منها العيون، وفجر الأنهار؟ من الذي بسطها وجعل فيها الأرزاق والأقوات؟ من أوجد فيها الكائنات من حيوانات وطيور وأنعام وحشرات، في نظام بيئي دقيق يخدمك؟ أليس هو الله؟ إن في هذا التساؤل تربية عظيمة. إنه يجعلك تشعر بأن الأرض كلها مُسخرة لك بعناية الله، مما يزرع في نفسك الأمان و الطمأنينة.

المشهد الثاني: السماء – حماية وجمال {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}
ارفع بصرك إلى فوق! {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}. إنها كالقبة العظيمة المرفوعة بغير عمد ترونها. اسأل نفسك مرة أخرى: من الذي بناها بهذا الإحكام؟ من الذي رفع سقفها المحفوظ الذي يحمي الأرض من الأشعة الضارة والنيازك المحرقة؟ من الذي زينها بالنجوم والكواكب لتكون هداية في الظلمات وجمالًا للناظرين ؟ من الذي أنزل منها الأمطار، وأوجد فيها السحاب المسخر بين السماء والأرض؟ إن خلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس، لكن الله خلقهما لخدمة هذا الإنسان الضعيف. لقد أوجد الله هذه النعم كلها من قبل أن يخلق الإنسان، مما يثبت أن الحب الإلهي هو عطاء سابق، ورعاية سابقة.

المشهد الثالث: الإنسان – إكرام وتجميل {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}
ثم انظر إلى نفسك! بعد أن خلق لك المسكن (الأرض) والسقف (السماء)، خلقك أنت فأحسن خلقك. لقد أعطاك الله صورة جميلة، وهيئة حسنة، في أحسن تقويم. من الذي منحك السمع والبصر والفؤاد؟ من الذي جعلك في هذا القوام المعتدل الجميل؟ هذا يجعلك تستشعر كرامتك عند الله، مما يستلزم

شكرًا دائمًا.

المشهد الرابع: الرزق – تحليل وتطييب {وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ}
ثم إنه لم يتركك جائعًا محتاجًا، بل {رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ}. إنه لم يرزقكم أي رزق، بل من الطيبات التي تستلذونها وتنتفعون بها. والأهم أنه جعلها حلالًا لكم، ليكرمكم حتى في ما تأكلون وتشربون، عكس ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم الطيبات.

أهمية هذا الأسلوب في بناء العقلية الحوارية:
لاحظ أيها المتدبر، كيف أن الله لم يقل فقط "اعبدوني"، بل ساق هذه الأدلة الأربعة. هذه هي التربية القرآنية للعقلية التفاوضية والحوارية. إنه أسلوب يجمع بين العاطفة (بذكر النعم والإحسان) والدليل و البرهان المنطقي القاطع. إنه يخاطب العقول لتبحث وتتأمل، ويحاور الإنسان ليوصله إلى الحقيقة بنفسه. وهذا هو واجب الداعية إلى الله: أن يقدم الأدلة، ويثير التساؤلات العقلية، ويمتلك القدرة على الإقناع المنطقي. لا يكفي أن تقول "هذا حلال وهذا حرام"، بل علينا أن نبين للناس عظمة الله وإحسانه، ليتعلقوا به حبًا وخضوعًا.

الأمر الثاني: دلالة "ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" – النتيجة المنطقية والامتلاء بالحب

بعد جولة الأدلة الأربعة، تأتي النتيجة الحتمية وكأنها صرخة عقل وقلب معًا:

· {ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} : الذي فعل كل هذا هو الله، وليس غيره. هو ربكم الذي رباكم بهذه النعم. إذن هو وحده المستحق للربوبية والألوهية. إن هذه الآية تعرفنا بعظمة الخالق، وتجعلنا نرى حسنه وإحسانه، وهو ما يجعلنا نحبه ونتعلق به.
· {فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} : "تبارك" أي تعاظم وتكاثر خيره، وتقدس وتنزه. لقد تعظمت وتكاثرت خيراته حتى لا يمكن لأحد أن يعدها أو يحصيها: {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} (إبراهيم: 34). فتبارك الله رب العالمين، خالق هذا الكون كله، وليس ربكم وحدكم. إنه الإحساس بالامتلاء والتقديس لله الذي غمرك بنعمه.

الأمر الثالث: دلالة "هُوَ الْحَيُّ" و "فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" – توحيد المحبة والعبودية ودوام الا رتباط

وهنا نصل إلى الذروة في الآية (65). بعد أن عرفت عظمة الله، تأتي الصفة الفارقة التي لا يشركه فيها أحد:

· {هُوَ الْحَيُّ} : تأمل هذه الصفة! كل ما في الكون من إنسان وحيوان ونبات سيموت ويفنى. مصير الكون الفناء. لكنه هو الحي وحده، الحي الذي لا يموت. هذه الصفة تجعلك تدرك أن التعلق الحقيقي، والحب الباقي، لا يكون إلا للعظيم الحي الذي لا يموت. حب المخلوقين زائل، وحب الخالق هو الباقي. هذا الشعور يولد في النفس سكينة عظيمة وأمانًا مطلقًا، لأنك مرتبط بالحي الذي لا يموت.
· {لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} : ما دام هو الحي وحده، وهو المنعم وحده، إذن لا معبود بحق إلا هو. توحيد الأ لوهية يصل إلى ذروته.
· {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} : وهنا الوسيلة الخامسة لمقاومة الكبر، ووسيلة النصر والتمكين! بناءً على كل ما سبق: "فادعوه". كما مضى في الآية (60). ولكن بشرط: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}. إنه الإخلاص الكامل، لله وحده. لا تدعو معه أحدًا، لا ترجو إلا فضله، ولا تخاف إلا عدله. إنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له. وهذا هو الذي يحقق لك النصر والتمكين: أن تكون مخلصًا في عبوديتك. هذه الآية هي خاتمة المطاف، إذ تعلمنا أن نضيف إلى العبودية لله كمال الحب له، فالحب مع الإخلاص هو الدين الخالص.
· {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} : الختام بالحمد، وهو الشكر مع التعظيم والمحبة. لقد بدأنا بالنظر في النعم، وانتهينا إلى حمده والثناء عليه. هكذا ينبغي أن تكون حياتكم أيها المؤمنون. ابدأوا بالتفكر، وانتهوا بـ الحمد، ليكون لكم بذلك حلاوة الإيمان، والنصر والتمكين في الدنيا والآخرة.

الأمر الرابع: ماذا تريد منا هذه الآيات الكريمة؟ (الدروس والرسائل)

هذه الآيات ليست مجرد مشاهد كونية، بل هي مدرسة متكاملة. ماذا يريد الله منك أنت تحديدًا؟

1. يريد أن يجعلك إنسانًا متفكرًا: لا يريد إيمانًا موروثًا، بل إيمانًا قائمًا على النظر والتأمل والبرهان .

يريدك أن تستخدم عقلك لترى آياته في الأنفس والآفاق، فتصل بنفسك إلى الحق .هذا هو أول درس للداعية: لا تلقن الناس فقط، بل دربهم على التفكير والتساؤل.
.2يريد أن يملأ قلبك حبًا له: بأن يريك إحسانه السابق عليك .لقد خلق لك مقومات الحياة قبل أن يخلقك، وهذا هو الحب الحقيقي .فإذا كان الحب هو العطاء، فالله هو المحب الأعظم .يريد منا أن نضيف إلى العبودية والخضوع، كمال الحب والتعلق.
.3يريد أن يطهرك من الكبر: لأنك عندما ترى عظمة الخالق، وتعرف حقيقة نفسك الضعيفة، لا يمكن أن تتكبر .عندما ترى النعم تتساقط عليك وأنت لا تستحقها، فأنت تلزم مقام الشكر والتواضع، لا مقام الجحود والكبر.
.4يريد أن يجدد فيك الأمل والثقة: أنت مرتبط بـ "الحي" الذي لا يموت .كل شيء يفنى، وهو باق . هذا يجعلك تعمل للباقي، وتترك الفاني، فتستقيم على الجادة، ولا تيأس من المصائب، ولا تفرح فرح البطر بالنعم، لأنها كلها من الحي القيوم.
.5يريد أن تكون داعيًا حكيمًا: علمك أسلوب الحوار والمنطق .علمك أن تخاطب العقول قبل العواطف، وأن تسوق الأدلة القاطعة التي لا تدع مجالا ً للشك .هذا الأسلوب القرآني هو الذي يجب أن يسود خطابنا الإسلامي اليوم.

الأمر الخامس: التطبيقات العملية في حياتنا اليومية (السلوك العملي)

كيف تحول هذه المعاني إلى واقع حي؟

.1في عقلك ولسانك) سلوك الشكر والتأمل(: اجعل لك في كل يوم وقفة مع نعمة من النعم .انظر إلى الأرض، وتذكر أنها مذللة لك بأمر الله، وقل: "الحمد لله الذي جعل لنا الأرض قرارًا" .انظر إلى السماء، وقل: "سبحان الذي جعل السماء بناءً" .انظر في المرآة، وقل: "اللهم أحسنت خلقي فأحسن خلقي" .هذا يحول حياتك كلها إلى عبادة.
.2في أسلوب دعوتك) سلوك الحوار والإقناع(: إذا دعوت أحدًا، فلا تبدأه بالتحريم والتخويف فحسب، بل ذكره بنعم الله عليه، واسأله أسئلة عقلية: "من الذي خلقك؟ من الذي يرزقك؟" .هذا يلين القلوب ويفتح العقول.
.3في معاملاتك) سلوك الإحسان(: كما أن الله رزقك من الطيبات، فكن كريمًا في رزقك مع عباد الله . أطعم من مالك الطيب، ولا تتصدق بالرديء .هذه من ثمرات الإيمان بأن المنعم هو الله.

الأمر السادس: الأبعاد التربوية والنفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية (الأسس العميقة)

هذه الآيات تبني الإنسان من الداخل نفسيًا وفكريًا وعقائديًا:

· نفسيًا (السكينة والأمان): الإيمان بأن الله هو "الحي" الذي لا يموت، وأنه هو الذي جعل الأرض قرارًا ، يمنح المؤمن طمأنينة نفسية لا تعادلها أموال الدنيا. أنت في حمى من لا ينام ولا يموت، فكيف تخاف وتضطرب؟ هذا هو العلاج الرباني للقلق والاكتئاب.
· فكريًا (بناء العقل الناقد والمستنير): هذه الآيات تؤسس لعقلية علمية إيمانية. إنها تدعوك للتأمل والملاحظة والاستنتاج. إنها تحولك من متلق سلبي إلى باحث نشط عن الحقيقة. وهذه هي العقلية التي سادت حضارة المسلمين الأولى، عندما انطلقوا يدرسون أسرار الأرض والسماء.
· تربويًا (التدرج في غرس العقيدة): لاحظ كيف تدرجت الآيات في التعليم: بدأت بالمحسوسات (الأرض، السماء)، ثم انتقلت إلى النفس (الصورة)، ثم إلى ما تدركه الحواس يوميًا (الرزق)، ثم وصلت إلى النتيجة المجردة (لا إله إلا هو). هذا هو المنهج التربوي الصحيح لتعميق الإيمان في القلوب. لا تبدأ بالكبار والصغار بالتجريدات، بل ابدأ معهم بالنظر في الخلق.
· عقائديًا (التوحيد العملي): الآيات تؤكد أن التوحيد ليس مجرد كلمة "لا إله إلا الله"، بل هو حب، وخضوع، وإخلاص، وشكر، وتوجه دائم بالدعاء.
· اجتماعيًا (العدالة والإنصاف): لما كان الله هو الرازق، زالت الضغائن بين الناس، فعلم الغني أن ماله من الله، وأنه مؤتمن عليه، فأنفق. وعلم الفقير أن منعه هو حكمة من الحي القيوم، فرضي وسعى في الأرض.
الأمر السابع: اللمسات البلاغية والبيانية في خدمة المعاني

· أسلوب الالتفات البديع: لقد بدأت الآية في السورة السابقة بصيغة الغائب: ﴿يُؤْفَكُ الَّذِينَ﴾، ثم التفت هنا فجأة إلى الخطاب المباشر: ﴿لَكُمُ﴾، ﴿صَوَّرَكُمْ﴾، ﴿رَزَقَكُمْ﴾. هذا الالتفات يوقظ الغافل، وينقلك من مقام المشاهد إلى مقام المخاطب المسؤول.
· البناء التصاعدي في الأدلة: بدأ بالأرض التي هي أدنى إلينا، ثم ارتقى إلى السماء، ثم دخل في

أعماق النفس الإنسانية (صوركم)، ثم ختم بالرزق الذي به قوام الحياة. إنه تدرج محكم يأسر العقل و الوجدان.

· الوصف بـ "الحي": اختيار هذا الاسم دون غيره في هذا المقام قمة في البلاغة. فبعد أن ذكر النعم المتجددة، نبهك أن المنعم حي لا يموت، فلا تخش انقطاع هذه النعم.

خاتمة ورسالة إلى قلبك

أيها المؤمن، هذه الآيات هي خريطة عبوديتك لله. إنها تعرفك بالله، وتعرفك بنفسك، وتعلمك كيف تكون واعيًا شاكرًا. إنها الدواء الشافي من داء الكبر، لأن المرء إذا أحب الله وأخلص له، لا يكون متكبرًا على خلقه.

لقد أراد الله منك أن تكون عبدًا يحبه، لا عبدًا يخافه فقط. فاحفظ هذه الصورة يا رعاك الله: أنت على أرض قررها لك، وتحت سماء بناها لك، في صورة أحسنها لك، وتأكل من طيبات رزقها لك... كل ذلك من الحي الذي لا يموت. فهل يعقل أن تتوجه بالشكر والدعاء والحب لسواه؟ فادعه مخلصًا له الدين، واختم كل صلاة، وكل يوم، وكل عمل، بقولك: الحمد لله رب العالمين. عندها فقط، ستذوق حلا وة الإيمان، وتستحق النصر والتمكين.

سادسا

بعد البيان السابق تاتي النصوص لتوضح وتنقل للرسول صلى الله عليه وسلم ما هي الدعوه والرساله التي جاء بها وما هي مهمته وبيان قدرته جلا وعلا على. حمايه ورعايه الانسان من قبل ولادته ا بيان ان عظمته وقدرته على الاعاده للخلق بعد الموت وأنها اسهل من الابتداء وكل شيء عليه سهل

المبحث الأول

يا من تسير في دروب الحياة، وتواجه ضغوطات الانحراف والانصهار في ثقافات لا تمت لدينك بصلة، اسمع لهذا النداء القرآني الذي يخاطب فيك روح العزة والكرامة .لقد علمتك الآيات السابقة كيف تتأمل في خلق الله، وكيف تتواضع وتدعوه مخلصًا له الدين .والآن، بعد أن امتلأ قلبك بحب الله وعظمته، يأتيك الأمر الإلهي الحاسم لتترجم هذا الحب إلى موقف، وإلى سلوك، وإلى إعلان واضح لا غموض فيه .إنها الآية التي تبني شخصيتك المسلمة المستقلة، وتضع الحدود بين الحق والباطل، وتعلمك متى تقول "لا" بكل شجاعة وثبات.

يقول الله جل وعلا، بعد أن بين عظمته وأدلته في الكون، آمرًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومن ورائه كل مؤمن، بإعلان البراءة والمفاصلة:

}قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] {غافر:.[66

إنها آية جامعة مانعة، تختزل لك دستور العلاقة مع المخالفين في العقيدة، وترسم لك معالم الشخصية المسلمة التي لا تذوب في محيط الجاهلية .فهيا بنا لنغوص في أعماقها، معلنين البراءة من كل ما يعبد من دون الله.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "قُلْ إِنِّي نُهِيتُ" – بناء الشخصية المسلمة المستقلة وإعلان المفاصلة

تأمل معي هذا الابتداء القرآني العجيب .إن الله يأمر نبيه أن يبدأ كلامه بكلمة واحدة:} قُلْ .{إنها ليست مجرد أداة، بل هي تفويض إلهي، وأمر مباشر ببناء الشخصية القيادية التي تجهر بالحق ولا تخشى لومة لائم.

· "قُلْ" : هنا يكمن سر عظيم .إنها توجيه رباني بأن يكون المؤمن صاحب رسالة يعلنها، لا مجرد تابع يسمع ويطيع بدون وعي .إنها شارة الانطلاق لبناء الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .في هذه الآية، يأمر الله رسوله أن يعلنها صريحة مدوية، ليسمع القاصي والداني .إنها تربية عملية على الشجاعة الأدبية والفكرية، فالمؤمن لا يخفي معتقده، بل يجهر به بالحكمة والموعظة الحسنة.

· "إِنِّي نُهِيتُ" : أسلوب حصر وتوكيد ."إني" تعني أنا نفسي، وبكل تأكيد ."نُهِيتُ") بصيغة المبني للمجهول (تعني أن هناك ناهيًا عظيمًا، وهو الله رب العالمين، الذي نهاني نهيًا قاطعًا لا رجعة فيه .هذا يوضح أن الأمر ليس مجرد رأي أو اجتهاد شخصي، بل هو وحي إلهي واجب الاتباع.

وهنا نصل إلى الدرس المحوري الذي أردت أن تراعيه بشدة، ألا وهو بناء الشخصية المسلمة المستقلة عبر مفهوم "المفاصلة".

لقد نزل هذا الأمر في مكة المكرمة، في وقت كان المسلمون فيه قلة مستضعفين، والنبي صلى الله

عليه وسلم وأصحابه يواجهون صنوف الأذى والتعذيب .ومع ذلك، وفي خضم هذا الضعف، لم يأمرهم الله بالمداهنة أو السكوت، بل أمرهم بإعلان المفاصلة والبراءة من عقائد المشركين .لماذا؟ لأن العقيدة الإسلامية لا تقبل المساومة .إنها تضع حدًا فاصلًا في مسألة المرونة والانفتاح على الآخرين، فلا يمكن أن يكون هناك تعايش في أصل العقيدة .أحبك يا أخي الإنسان، وأحترمك، ولكن لا يمكن أن تختلط عقيدتك بعقيدتي .فهذا هو التوحيد الخالص.

ضرب مثل تقريبي:
تخيل أنك في سفينة، ووجدت أناسًا يخرقون في جانبها بحجة أنهم أحرار في الجزء الذي يملكونه! إن السكوت عليهم يعني هلاك الجميع .وكذلك العقيدة، هي سفينة النجاة، لا يمكن السماح لأحد بخرقها بالفكر المنحرف أو الشرك .لذلك كان لابد من هذه المفاصلة، لحماية العقيدة وحماية الأمة.

الأمر الثاني: دلالة "انى نهيت ا َنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ" – البراءة من الباطل وأهله بعدم مناقشتهم في أصول العقيدة

}أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .{هنا إعلان واضح وضوح الشمس .لقد نهاني الله عن عبادة كل ما تعبدون وتدعون من دونه، سواء كان صنمًا، أو حجرًا، أو ملكًا، أو نبيًا، أو هوىً! إنه نهي شامل لكل معبود سوى الله.
وفي هذا يأتي الدرس الثاني العملي: الكف عن الجدل العقيم .إن الآية تعلمنا أنه بعد أن جاءت البينات والبراهين، لا جدوى من الجدال الذي لا فائدة منه سوى الخصام .إننا لا نناقش في إمكانية عبادة غير الله، لأنها باطلة من أساسها .إن هذه الآية تعني ألا نعطي شرعية لأي فكر منحرف بـ الدخول معه في جدل طويل يوحي بأنه ذو اعتبار .وهذا لا يعني إلغاء الحوار، ولكن يعني عدم الجدال في أصل العقيدة والتوحيد.

الأمر الثالث: دلالة "لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي" – المفاصلة المبنية على العلم واليقين لا على الجهل

وهنا دقة عظيمة! إنه يقول:} لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي .{لماذا لم يقتصر على قوله "إني نهيت"؟ لماذا ربط النهي بمجيء البينات؟
لأنه يريد أن يعلمنا أن المفاصلة والبراءة لم تأتِ من فراغ، أو من جهل وتعصب، بل بعد أن جاءته البينات من ربه .إنها مفاصلة المتيقن، العالم، الذي قامت عليه الحجة .هنا تتعلم أن تكون شخصيتك المستقلة قائمة على أسس راسخة لا تتزعزع .أنت لا ترفض عقائد الآخرين لأنك كاره لهم، بل لأنك قد امتلأت باليقين والعلم أن ما هم عليه باطل، وأن ما أنت عليه هو الحق من رب العالمين.
وهنا يتحقق شرط أساسي من شروط النصر والتمكين: أن تكون على بينة من أمرك، وعلى بصيرة في دينك .فالموقف الواضح يحتاج إلى رؤية واضحة.

الأمر الرابع: دلالة "وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" – الوجه الآخر للمفاصلة وهو الإذعان المطلق لله

الآية لا تقف عند حدود النهي والبراءة، بل تنتقل بك فورًا إلى الجهة المقابلة:} وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.{

· "وَأُمِرْتُ" : كما أن النهي كان بأمر من الله، فالإسلام والخضوع هو أيضًا بأمر من الله .الأمر بالنهي، و الأمر بالإثبات.
· "أَنْ أُسْلِمَ" : الإسلام هو الاستسلام والخضوع والانقياد لله وحده .والمعنى: أنا لا أكتفي فقط بترك عبادة غيره، بل أنا ملتزم بعبادته وحده، متبع لشرعه ومنهجه .إنها ليست مفاصلة سلبية فحسب، بل مفاصلة إيجابية .طريقكم باطل، وطريقي ومنهجي هو الإسلام لرب العالمين .فدينكم يختلف عن ديني ، ومنهجكم يختلف عن منهجي، وتصوركم للحياة يختلف عن تصوري .منهجي هو الهداية التي أنزلت لهذه الأمة، وهو المنهج الذي فيه تزكية النفوس وحماية الأرواح من الانحراف والفناء.

الأمر الخامس: الدروس والتوجيهات العملية – ما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

لقد نزلت هذه الآية لتبني، لا لتخبر فقط .فماذا تعلمنا في حياتنا العملية؟

.1إعلان البراءة عند الحاجة: في حياتك اليومية، ستواجه من يريد منك أن تساوم على مبادئك، أو تتنازل عن قيمة إسلامية .هذه الآية تعلمك أن تقول "لا" بكل أدب وثبات، دون تردد .إنها تدعوك للثبات على المبدأ.
.2الاستقلال الفكري والثقافي) التأثير لا التأثر(: لقد سمح الإسلام لأهل الأديان بالبقاء على أديانهم،

لكنه أبدًا لم يسمح للمسلمين أن يتأثروا بعقائدهم وأفكارهم .ربى الإسلام أبناءه على أن يكونوا مؤثرين لا متأثرين، فاعلين لا منفعلين .إنه يبني الشخصية القوية التي تعتز بدينها ومنهجها، فلا تذوب في محيط الحضارة المادية .هذه الآية نزلت والمسلمون في مكة في حالة ضعف عددي ومادي، لتعلمنا أن قوة المبدأ ليست مرتبطة أبدًا بقوة العدد أو السلطان.
.3البناء على العلم: قبل أن تعلن موقفك، تأكد أنه مبني على بينة وعلم .ادرس دينك، افهم عقيدتك، حتى إذا جاء وقت المفاصلة كنت على ثبات ويقين، لا مجرد عاطفة جياشة.

الأمر السادس: الرسائل التربوية والنفسية والفكرية المستفادة من الآية

· تربويًا) بناء النظام التربوي على الثوابت(: مناهجنا التربوية في البيوت والمدارس يجب أن تعلم أبناءنا منذ الصغر أن هناك خطوطًا حمراء في العقيدة لا يمكن تجاوزها .نعم للتسامح والتعايش، ولكن لا للذوبان والانصهار .هذا يبني فيهم "الأمن العقدي"، فلا يهابون الأفكار الدخيلة.
· نفسيًا) التخلص من عقدة النقص(: كثير من المسلمين اليوم يعانون من عقدة النقص أمام الغرب وحضارته، فيحاولون تقليدهم في كل شيء، حتى في عقائدهم وأفكارهم المنحرفة .هذه الآية علاج نفسي رباني لهذه العقدة .إنها تمنحك العزة بالله، وتجعلك تشعر أنك تحمل أغلى ما في الوجود، وهو دين الله، فلا ترى نفسك أقل من غيرك، بل أنت الأعلى بإيمانك ومنهجك.
· فكريًا) وضوح الرؤية والمنهج(: الآية تؤسس لعقلية تفكيرية واضحة: تعرف ما ترفض، وتعرف ما تقبل .ترفض عبادة غير الله، وتقبل وتذعن للإسلام لله رب العالمين .هذا الوضوح الفكري يمنعك من التخبط والتردد.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة:

· نفسيًا: بناء شعور "العزة بالله" والتحرر من الخوف من الآخرين .إدراك أن المؤمن لا يمكن أن تُشترى عقيدته بثمن، مما يقوي الصلابة النفسية في مواجهة الإغراءات والتهديدات.
· فكريًا: ترسيخ "مبدأ المفاصلة" كأساس للاستقلال الحضاري .لا يمكن أن تقوم أمة على الحق وهي تقبل أن تتسرب إليها عقائد الأمم الباطلة .هذا ما يجعل الفكر الإسلامي نقيًا وقويًا.
· تربويًا: تأسيس نظام تربية يبني "الشخصية المستقلة" .تربية الأبناء على عدم التبعية الفكرية و الثقافية، وعلى أن يكون لهم موقفهم الواضح من الباطل، مع القدرة على التعايش مع أهله دون الذوبان فيهم.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية:

.1حماية الحضارة من الانحلال: أي حضارة لا ترسم حدودًا تحمي بها هويتها، تندثر سريعًا .هذه الآية تبني السياج المنيع، وهو سياج العقيدة، الذي يحمي الحضارة من أن تذوب في حضارات أخرى.
.2مجتمع القيادة والرسالة: البناء على "قل" يجعل من كل فرد في الأمة صاحب رسالة وقائدًا في محيطه، مما يخلق مجتمعًا فاعلا ً ومؤثرًا، لا مجتمعًا مهمشًا منفعلا ً.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها) النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية(:

· البعد النفسي: تمنح الآية شعورًا بالاستقرار والأمان النفسي، فأنت تعرف من أنت، ولماذا أنت هنا، وما هي حدودك التي تقف عندها، فلا تعيش في فوضى فكرية تقودك إلى القلق.
· البعد العقائدي: الآية هي ترجمة عملية للعقيدة ."لا إله إلا الله" تعني أن تنهى نفسك عن عبادة كل ما سوى الله، وأن تأمرها بالخضوع لله وحده .هذه الآية تجسدها في موقف يومي.
· البعد الاجتماعي: عندما يتربى أفراد المجتمع على هذا الإعلان الواضح، تقل النزاعات الفكرية، وتصبح الحدود واضحة للجميع .نحن نتعايش معكم، لكم دينكم ولي دين، ولكن ديننا لن تدخلوه بأفكاركم، ودينكم لن نخوض فيه.

المحور الرابع: كيف تعزز هذه الآية القوة النفسية وتمنع اليأس؟
عندما ترى الباطل ينتشر وأهله يصولون ويجولون، قد تشعر بالغربة والضعف .هذه الآية تمنحك القوة، فهي تشعرك بأنك على صلة مباشرة بأمر الله، وبأنك تسير على خطى النبي صلى الله عليه وسلم .
إنها تعلمك أن العزة ليست بكثرة العدد، بل بصفاء العقيدة .لقد كان النبي وأصحابه قلة، لكنهم بهذه المفاصلة سادوا الدنيا .فلا تيأس، وأعلنها صريحة في وجه كل باطل: إني نهيت أن أعبد ما تعبدون، وأمرت أن أسلم لرب العالمين.

خلاصة رحلتنا ورسالة إلى قلبك

يا من تطمح أن تنال النصر والتمكين، هذه الآية هي سيفك ودرعك .لقد بدأنا رحلتنا مع سورة غافر بوعد النصر، وتعلمنا أن من أعظم عوائقه الكبر، ورأينا كيف أن من وسائل علاجه التواضع عبر التفكر في خلق الله، واللجوء إليه بالدعاء .والآن، تختم هذه المنظومة المتكاملة بـ المفاصلة .إنها الحاجز الأخير الذي يحمي كل ما بنيته في قلبك من انهيار.

لقد أراد الله منك أن تكون عبدًا حرًا .حرًا من عبودية البشر، حرًا من عبودية الهوى، حرًا من عبودية الأفكار المنحرفة .كن عبدًا لله وحده، تعلنها بلسانك وعملك وموقفك .لا تتنازل عن مبادئك تحت أي ضغط، وتذكر دائمًا أنك تحمل رسالة السماء إلى الأرض .إذا ساومك أحد على عقيدتك، فقل له بكل عزة المؤمن، وثقة العارف بالله:} إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .{عندها فقط، ستكون من الصفوة الذين وعدهم الله بالنصر والعزة والتمكين في الدنيا، وسعادة الدارين في الآخرة.

المبحث الثاني

يا أيها الإنسان، يا من انطلقت معي في رحلة التعرف إلى الله عبر آياته في الآفاق والأنفس، اسمع وأرهف قلبك وعقلك. لقد رأيت آيات الله في الأرض جعلها قرارًا، وفي السماء جعلها بناءً، وفي الصورة أحسنها، وفي الرزق من الطيبات. ثم جاءك الأمر الإلهي بالدعاء الخالص، وإعلان المفاصلة في العقيدة. والآن، في هاتين الآيتين، تتوقف الرحلة بك عند أقرب شيء إليك، عند نفسك، عند سرّ وجودك. إنها آيات تلفت انتباهك إلى أصلك الضعيف المهين، لتحطم كل ذرة كبر في قلبك، ثم تنقلك إلى مشاهد القوة والضعف في حياتك، لتدرك أن المدبر لهذا كله هو الله وحده، ثم تختم بإعلان عظيم عن قدرة الله المطلقة على البعث والإعادة.

إنها الآيتان (67 و68) من سورة غافر، حيث يقول الحق تبارك وتعالى:
{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (68)} [غافر].

فلنقف مع هذه الآيات، ولنستخرج كنوزها، محورًا محورًا، وفق المنهج الذي رسمناه.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم" – لفت الانتباه إلى قدرة الخالق عبر رحلة الإنسان

تبدأ الآية بقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم}.

• "هُوَ": ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد والحصر والقصر .كأنه يقول: هو وحده، لا غيره، الذي خلقكم . إنه استفتاح قوي يجعلك تركز فورًا، وتتساءل: ماذا سيقول عني خالقي؟
• "الَّذِي خَلَقَكُم": هو الذي أوجدكم من العدم .وهنا تبدأ رحلتك مع نفسك .إنها دعوة صريحة من الله لنا للتفكر في أنفسنا، في هدوء وسكون، بعيدًا عن صخب الحياة الخارجية .إنه أسلوب الخطاب الحواري الذي يوقظ العقل .لماذا؟ لأن أقرب شيء للإنسان هو نفسه، وإن معرفة الإنسان لحقيقة ضعفه وفقره هي أول خطوات التواضع لله، وترك الكبر والجهل.

الأمر الثاني: دلالة مراحل الخلق – تحطيم الكبر عبر معرفة الأصل المهين

والآن، لنقف مع كل مرحلة من هذه المراحل، فهي الأدلة التي تحطم كبرياءك، وتوقظ عقلك.

المرحلة الأولى: إهانة الأصل {مِّن تُرَابٍ}
ما هو أصلك الأول؟ ما مادة الإنسان الأولى التي خلق منها جده آدم عليه السلام؟ إنه التراب. مادة مهينة، تدوسها الأقدام. تخيل! إن أصلك أيها الإنسان مخلوق من هذه المادة التي لا قيمة لها. فكيف لمن كان أصله التراب أن يتكبر ويتجبر؟ وهنا الرسالة الأولى: هذه الآية تدعوك للتواضع. عندما تعرف أصلك، تنكسر نفسك لله. وكما قيل: "من عرف أصله، لم يتطاول". وهذه هي دعوة الله لك: ألا تغتر بنفسك، فأنت من تراب.

المرحلة الثانية: إثبات الضعف {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ}
ثم يأتي أصلك الثاني، وأصل ذريتك. إنها النطفة. ذلك الماء المهين الذي يخرج من بين الصلب و الترائب. إنها ليست مجرد تراب، بل سائل حقير يستقذر. ومع ذلك، فإن الله بقدرته العظيمة جعل من

هذا الماء نسل البشرية. وهنا تتجلى حمايته ورعايته لك، إذ جعل تلك النطفة تستقر في قرار مكين، في رحم المرأة، في حوض محمي محاط بالسوائل التي تحفظه من الصدمات.

المرحلة الثالثة: رحلة التكوين المعجزة (من علقة إلى طفل)
ثم انتقل بك ربك عبر مراحل التكوين بكلمة "ثمّ" التي تفيد التراخي الزمني، لنرى تدريج الخلق العظيم:

·} ثمّ مِنْ عَلَقةٍ {: صارت النطفة علقة، وهي قطعة دم جامدة حمراء، تتعلق بجدار الرحم .لا شكل لها ولا إدراك، وليس لها قلب ولا جوارح.
·} ثمّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا {: يا للعجب! لقد اختزل الله في هذه الكلمة مراحل كثيرة: المضغة، والعظام، وكسوة العظام باللحم، ونفخ الروح .كل ذلك طواه الله في قوله "ثم يخرجكم طفلا ". ليذكرك بأنك كنت في بطن أمك، في ظلمات ثلاث، ضعيفًا لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًا .من الذي قام برعايتك وأنت في بطن أمك؟ من الذي غذاك من دمها دون أن تمتلك يدًا تمدها أو فمًا تأكل به؟ من الذي حمى هذا الطفل الضعيف في ذلك المكان الضيق؟ من الذي هيأ له بعد خروجه سبيل الرضاعة والحب والحماية؟ أليس هو الله عز وجل؟
فهل بعد معرفة هذا الأصل المهين، وهذه الرحلة العجيبة، يليق بك أيها الإنسان أن تتكبر على خ الق الذي دبر لك كل هذا؟! هنا تكمن الرسالة النفسية والتربوية الكبرى: أن تتخلص من الغرور وأنت ترى نفسك على حقيقتك.

الأمر الثالث: دلالة أطوار القوة والضعف – استمرارية الفقر إلى الله

المرحلة الرابعة: طور القوة {ثمّ لِتَبْلغُوا أشُدّكمْ}
ثم تمضي بك الحياة، وتخرج من طور الطفولة والضعف، لتبلغ أشدك. إنه طور القوة والعنفوان، حيث تكتمل عقلك وقوتك البدنية. هذه المرحلة يخبرك الله عنها لتتذكر أن هذه القوة لم تكن من ذاتك، بل هي منحة من الله. إنها فترة الاستخلاف والعمل، ولكن حقيقتها أنها فترة عابرة بين ضعفين، ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة. فتأمل حكمته في ذلك.

المرحلة الخامسة: طور الضعف الثاني {ثمّ لِتَكوُنوا شُيُوخًا}
ثم تأتي النهاية الحتمية لمن طال به العمر. بعد القوة، يعود الضعف، ولكن بصورة أخرى. تصير شيخًا. و"الشيخوخة" هي مرحلة أرذل العمر، حيث يعود الإنسان كما بدأ، يفقد علمه، ويفقد قدرته، ويصير ضعيفًا بعد القوة، ويحتاج إلى من يرعاه.

المرحلة السادسة: قانون الأجل {وَمِنكم مّن يُتَوَفّىٰ مِن قبْلُ}
وفي هذا السياق، يذكرك الله بقانون الأجل. ليس كل من يولد يصل إلى الشيخوخة. {وَمِنكم مّن يُتَوَفّىٰ مِن قبْلُ}، فقد يموت طفلا ً، أو شابًا، أو كهلًا. هذا يذكرك بهوانك وضعفك، وبأن أمرك كله بيد الله.

·} وَلِتَبْلغُوا أجَلًا مُسَمًى {: كل هذا التعاقب في الأطوار ليصل بكم إلى أجل مسمى، وهو نهاية أعماركم المقدرة .إنه العمر الذي كتبه الله لكم لتعملوا فيه.
·} وَلعَلكمْ تعْقِلونَ {: وهنا غاية هذا السرد كله .إن هذه الأمثلة والآيات تساق لكم ليس فقط للعلم، بل "لتعقلوا" .لتعقلوا ضعفكم وفقيركم إلى الله، لتعقلوا أنكم مخلوقون، وأن لكم خالقًا عظيمًا هو الذي دبر هذه الأطوار كلها، لتعقلوا عن الكبر والجهل، ولترجعوا إلى الله.

الأمر الرابع: دلالة "هُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ" – البرهان القاطع على البعث

وبعد أن أراك قدرته في بدايتك ونهايتك، ينتقل بك إلى النتيجة المنطقية: {هُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}. إن الذي أوجدك من تراب ونطفة، ثم أماتك، قادر على أن يعيدك مرة أخرى. فإن كنتم قد عقلتم وعرفتم أنه القادر على كل هذه الأطوار، فاعلموا أنه هو الذي يحيي ويميت. الإماتة ليست فناءً، بل هي انتقال، والإحياء متجدد في الدنيا والأخرى.

الأمر الخامس: دلالة "فَإِذا قضَىٰ أمْرًا فَإِنمَا يَقولُ لهُ كن فَيَكونُ" – إعلان القدرة المطلقة والنهي عن الجدال فيها

ثم يأتي الختام المدوي، إيذانًا بقدرة مطلقة لا يحدها شيء: {فَإِذا قضَىٰ أمْرًا فَإِنمَا يَقولُ لهُ كن فَيَكونُ}.

· "فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا" : إذا أراد الله شيئًا وأتم الإرادة.
· "فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ" : هنا تصل بنا الآية إلى الذروة .ليس هناك مراحل، ولا زمن، ولا علاج، و لا أسباب .فقط "كن فيكون" .إنها قدرة مطلقة لا تدركها عقولنا المحدودة.

وهنا درس عظيم يجب أن نركز عليه بشدة، وهو ما أردت بيانه:
لماذا يخبرنا الله بهذه الطريقة عن قدرته؟ لأنه يريد أن يبين لنا أن النقاش والجدال في آيات القدرة الإلهية أمر غير مقبول. كيف؟ قوانا المادية والعقلية محدودة، ولا يمكنها أن تدرك كنه قدرة الله. إنه سبحانه يضعنا أمام حقيقة إيمانية: علينا أن نميز بين مرتبتين:

.1مرتبة الإيمان بقدرة الله: وهي مرتبة التسليم المطلق بأن الله قادر على كل شيء.
.2مرتبة الخوض في كيفية القدرة: وهذا هو المنهي عنه.

ضرب مثل تقريبي:
عندما تضغط على زر الكهرباء ليضيء المصباح، أنت ترى الأثر (النور)، وتعلم أنه ناتج عن الكهرباء. لكن، هل يستطيع عقلك أن يدرك حقيقة الكهرباء نفسها؟ لا. وكذلك قدرة الله! نحن نرى آثار قدرته في خلقنا وفي الكون، ولكن الخوض في كيفية قدرته وكنهها هو فوق طاقة العقول. فقوله: {كُن فَيَكُونُ} هو إغلاق لباب الجدال العقيم. إنه إخبار من الله عن ذاته العلية، فعلينا الإيمان به كما هو، دون قياس قدرته بقدراتنا. وهذا هو الفرق بين المؤمن والمتكبر الجدال. المؤمن يتفكر في آثار الخلق فيوقن، والمتكبر يجادل في ذات القدرة فيهلك. إنها دعوة للإيمان بالغيب واتصال الروح بـالله.

الأمر السادس: التطبيقات العملية – ما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا؟

هذه الآيات ليست نظرية، بل هي منهج حياة:

.1التواضع في التعامل مع الخالق والمخلوقين: عندما تنظر إلى أصلك) تراب، نطفة(، كيف يمكن أن تتكبر على عباد الله؟ عندما ترى فضل الله عليك في كل مراحل حياتك، كيف يمكن أن تعصيه؟ هذه الآية تجعلك تعيش هينًا لينًا، قريبًا من الناس، بعيدًا عن الكبر.
.2استشعار العناية الإلهية في كل لحظة: تدرب على أن تستشعر رعاية الله لك، فهو الذي رعاك في بطن أمك، وسيرعاك في شيخوختك، وبعد مماتك .هذا الشعور يزيل القلق من المستقبل.
.3اليقين بالبعث والاستعداد له: ما دام الذي بدأ الخلق قادرًا على إعادته، فالآخرة حق .فليكن عملك كله منصبًا على تلك الدار، لا على دار الغرور.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة من الآيات:

· نفسيًا) تطهير النفس من الكبر وعلو الهمة(: الآيات تمنحك صورة واضحة عن نفسك لتحطيم كل ذرة عجب وكبر، فتريحك من صراع "الأنا" .كما أنها تشعرك بعناية الله، مما يمنحك الأمن ويقوي همتك.
· فكريًا) المنهج العلمي الإيماني(: أسلوب "ثُمَّ" يعلمنا التدرج والانتقال المنطقي بين مراحل الخلق .إنه يدعونا إلى التأمل في علم الأجنة والنفس وفق منهج رباني يربط المشاهدة بالإيمان.
· تربويًا) تأصيل غائية الوجود(: الآية تؤكد أن الإنسان خلق لحكمة، ولم يخلق عبثًا:} وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .{هذا يعطي للحياة معنى، ويربي في الإنسان الشعور بالمسؤولية عن وقته.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآيات:

.1تقديس العلم لاكتشاف سنن الله في الخلق: الحضارة تبنى على العلم .والآية تفتح الباب واسعًا لدراسة أطوار الإنسان) علم الأجنة (كجزء من التفكر المؤدي إلى الخشية.
.2بناء الحضارة على أساس التواضع والتكافل الاجتماعي: المجتمع الذي يدرك أفراده أن أصلهم من تراب، وأن نهايتهم إلى ضعف، هو مجتمع يتراحم ويتكافل، لا يتعالى فيه غني على فقير، ولا قوي على ضعيف.

المحور الثالث: أبعاد الآيتين وآفاقهما (النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية):

· البعد النفسي: علاج عقدة الكبر والخوف من الموت .إنك عندما تعلم أن الموت آتٍ لا محالة، وأنك مسؤول، تقل مخاوفك من الدنيا، وتزداد طمأنتك بـالله.
· البعد الفكري: الآية ترسخ قاعدة أن قدرات الله لا تقاس بقدرات البشر .هذا الفهم يحرر العقل من ا لأوهام المادية التي تحصر الوجود في المحسوسات.
· البعد العقائدي: إنها تثبت عقيدة البعث من خلال أقصر طريق منطقي:"من خلق أول مرة قادر على الخلق ثانية" .وإنها تؤكد أن الله قادر على كل شيء، مما يعمق الإيمان بالغيب.

خلاصة الرحلة ورسالة إلى قلبك:
أيها الإنسان، هذه رحلتك التي قطعها الله بك من عدم إلى وجود، ومن ضعف إلى قوة ثم إلى ضعف. إنها رحلة أعدت لك خصيصًا لـ "تعقل" قبل أن يفوت الأوان. لقد أراد الله منك من خلال هذه الآيات أن تكون ذا قلب خاشع، وعقل متفكر، ونفس متواضعة.
تذكر دائمًا أصلك الترابي، فتنكسر لله. تذكر مراحل ضعفك، فتشكره. تذكر قدرته المطلقة "كن فيكون"، فتعظمه وتطيعه. إذا وصلت لهذا، فقد وصلت إلى الإيمان الحق، وأصبحت مؤهلا ً لوعده بالنصر و التمكين. فلا تغفل عن هذه الآيات، واجعلها زادك في سيرك إلى الله، تكن من المفلحين.

سابعا

بعد ذلك يخاطب المولى عز وجل نبيه متعجبا من تكذيب هؤلاء وانحرافهم عن منهج الله بعد بين لهم الله الايات والنشاه في الحياه فهم يشاهدون ايات الله في الكون وفي انفسهم والايات المقروءه في القران ومع ذلك يجادلون بايات الله ويناقشون محاولين النيل من التوحيد

المبحث الأول

يا أيها السائر في رحلة التدبر، لقد رأيت في الآيات السابقة كيف أخذك الله في رحلة عبر خلق الإ نسان، من تراب إلى نطفة إلى علقة، لترى قدرته وعنايته بك، ولتوقن بالبعث والنشور. تلك كانت آيات كونية تملأ قلبك خشية ويقينًا. وها أنت الآن تقف أمام مشهد جديد، لا في عالم الخلق، بل في عالم ردود أفعال البشر تجاه تلك الآيات. إنه مشهد استنكاري عجيب، يثير فيك الدهشة، ويجعلك تسأل نفسك: كيف لقلب أن يرى هذه الآيات ثم ينصرف عنها؟ كيف لعقل أن يتأمل هذه البينات ثم يجادل فيها؟ هذا هو ما ترسمه الآيتان الكريمتان اللتان بين أيدينا الآن.

يقول الحق جل وعلا، بعد أن ساق مشاهد الخلق والإحياء والإماتة:
{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70)} [غافر].

إنه نداء للعقول أن تستيقظ، وزجر للقلوب أن تفيق من سباتها، وبيان للعاقبة الوخيمة لمن اختار الا نصراف عن نور الله إلى ظلمات الجهل والهوى. فهيا بنا نغوص في أعماق هاتين الآيتين، مستخرجين دررهما ورسائلهما.

الأمر الأول: دلالة الاستفهام بـ "أَلَمْ تَرَ" – أسلوب التعجب والاستنكار لإيقاظ الفطرة

لنقف أولا ً أمام هذا المفتتح القرآني العجيب: {أَلَمْ تَرَ}. إنه ليس استفهامًا حقيقيًا عن رؤية العين، بل هو استفهام تعجبي استنكاري، يقصد به إيقاظ قلبك وعقلك.

· الهمزة) أ(: للاستفهام التقريري، الذي يجعلك تقر وتعترف بأنك قد رأيت وعلمت.
·"لَمْ تَرَ": لم تشاهد بأم عينيك؟ ألم ينته إلى علمك؟ ألم تعجب وتستغرب من حال هؤلاء؟
· الخطاب موجه لكل من يصلح للخطاب: الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم أولا ً، ولكل عاقل يتبعه .وكأنه يقول: انظر وتأمل، ألا تتعجب من حال هؤلاء؟ هذا الأسلوب البديع يعلمك أن المؤمن لا بد أن يكون صاحب حس نقدي يقظ، ينظر إلى أحوال الناس بعين البصيرة، فيستنكر الباطل، ولا تأخذه به غفلة .إنه يجعلك تشعر بقبح الصنيع، وكأنه يقول لك: "انظر كيف ينحرفون، ألا يدعوك هذا للدهشة والاستنكار؟".
الأمر الثاني: دلالة "يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ" – رؤية الآيات ثم الانصراف عنها جدلا ً بالباطل

والآن، ما هو الأمر الذي يثير هذا الاستنكار الإلهي؟ {يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ}.

· "يُجَادِلُونَ": الفعل بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، فديدنهم الجدال والعناد المستمر .إنه ليس جدالا ً للوصول إلى الحق، بل جدال مكابرة ومعاندة، يريدون به دحض الحق وإطفاء نور الله بأفواههم.
· "فِي آيَاتِ اللَّهِ": وهنا العجب كل العجب! إنهم يجادلون في آيات الله .وما هي آيات الله؟ إنها تشمل

كل شيء: الآيات الكونية التي يرونها بالليل والنهار ويمرون عليها) مثل خلق الإنسان وتعاقب الليل و النهار وخلق السماوات والأرض التي سبق بيانها(، والآيات المقروءة) الكتاب الذي أنزله الله(، والآيات التي أرسل بها رسله من الشرائع والمعجزات .إنهم يشاهدون هذه الآيات رأي العين، يمرون عليها في كل لحظة، ولكنهم مع ذلك يجادلون فيها بالباطل!

اللمسة البيانية هنا: استخدام حرف الجر "في" – إنه يدل على التمكن والغوص. إنهم لا يجادلون على سطح الآيات، بل يغوصون في أعماقها بجدالهم الباطل، محاولين تحريفها وتأويلها لخدمة أهوائهم! وهذا منتهى القبح والجحود.

فتأمل معي، كم إنسانًا في عصرنا هذا يمر على آيات الله في الكون والقرآن والأحداث، ولا يتخذ منها عبرة، بل يجادل فيها بغير علم ولا هدى! إن هؤلاء في سبات عقلي وروحي، لأنهم انقطعوا عن الله.

الأمر الثالث: دلالة "أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ" – ذروة التعجب من هذا الانصراف القبيح

ثم تأتي خاتمة الاستفهام التي هي قمة التعجب والاستنكار: {أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ}.

· "أنى": اسم استفهام بمعنى "كيف" .ولكنها ليست أي "كيف"، إنها "كيف" التعجب والاستبعاد .كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كيف تُصرف عقولهم وقلوبهم عن هذا الحق الواضح الجلي إلى الباطل المحض ؟

· "يُصْرَفُونَ": بصيغة المبني للمجهول، للدلالة على أن هناك من يصرفهم عن الحق، وهو الشيطان و النفس الأمارة بالسوء والهوى .إنهم مسلوبو الإرادة، مصروفون صرفًا عجيبًا لا يليق بذي عقل.

إنها صرخة استنكار في وجه العقل البشري الذي ينحرف! إنه تعجب من حال إنسان يرى الشمس في رابعة النهار ثم ينكر وجودها! وهذا يعلمنا درسًا بليغًا: المرور بالآيات لا يكفي، بل لا بد من التوقف و التأمل والاستشعار. فكم منا يمر بالليل والنهار دون أن يتفكر في عظمة من دبرهما؟ كم منا يقرأ القرآن دون أن يتدبر آياته ويعمل بها؟ إن من يفعل ذلك يصيبه الجهل، وتنقطع قلوبهم وأرواحهم عن ربها، فلا ينتفعون بآياته.

الأمر الرابع: دلالة "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا" – تحديد حقيقة المجادلين

بعد هذا الاستنكار، يأتي التحديد الدقيق لهم: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}.

· إنها جملة جامعة مانعة .هم ليسوا مجرد مجادلين، بل وصل جدالهم إلى التكذيب.

·} بِالْكِتَابِ {: أي القرآن الكريم، الذي هو آيات الله المقروءة.

·} وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا {: أي بكل ما جاء به الرسل من توحيد وشرائع ووعد ووعيد ويوم آخر .هذه ا لآية تشمل كل رسول وكل كتاب، فالتكذيب بواحد منهم هو تكذيب بالجميع.

لماذا يكذب هؤلاء؟ إنهم انقطعت قلوبهم وأرواحهم عن ربهم، فأصيبوا بالجهل وفقدوا العلم .لماذا؟ لأن الاتصال الروحي بالله لا يكون إلا بالإيمان والتوحيد، واتباع منهج الله قائدًا ومرشدًا .فالإيمان هو النور الذي يهدي أصحاب العقول السليمة الصحيحة .فحين يرفض الإنسان هذا الاتصال، تنطفئ روحه، ويعمى قلبه، فيصبح أعمى لا يبصر الحق، فيكذب ويجادل.

الأمر الخامس: دلالة "فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" – التهديد بالعاقبة الوخيمة

ثم تأتي خاتمة الآيتين بتهديد ضمني عظيم: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

· "سَوْفَ": تفيد الاستقبال البعيد، أي في المستقبل القريب، عند الموت أو في البرزخ أو يوم القيامة حتمًا.

· "يَعْلَمُونَ": سيعلمون علم اليقين حقيقة ما كذبوا به، وسيرون عاقبة جدالهم وتكذيبهم، عندما لا ينفعهم العلم ولا الندم.

إنه وعيد شديد، وتطمين للمؤمنين: لا تحزنوا على تكذيبهم وجدالهم، فسوف يعلمون قريبًا من هو على حق، وستكون العاقبة لمن اتقى .ولقد تضمن هذا الوعيد تهديدًا مبطنًا يجعل قلب المؤمن مطمئنًا، ويعلم أن لجحاجتهم نهاية وخيمة.

الأمر السادس: التطبيقات العملية – ما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا؟

هذه الآيات ليست مجرد قصة تاريخية، بل هي منهج يومي لك أيها المؤمن:

1.اليقظة عند المرور بالآيات: تدرب على أن تستشعر آيات الله عندما تمر بها .إذا رأيت الليل والنهار، تذكر تدبير الله .إذا مررت بآية من القرآن، قف وتفكر، ولا تمر عليها مرور الكرام .هذه العادة هي التي تحيي قلبك، وتجعلك منتفعًا بالآيات لا غافلا ً عنها.
2.استعمال أسلوب الاستفهام والتعجب في التذكير والدعوة: إنه أسلوب قرآني بليغ .عندما ترى منحرفًا عن الحق، قل له: "ألا تنظر في خلق الله؟ ألم تتفكر في القرآن؟ كيف تُصرف عن هذا الخير؟" . أسلوب السؤال يوقظ العقل أكثر من التلقين المباشر.
3.الثبات على الحق وعدم التأثر بالغالبية: تذكر أن هؤلاء المجادلين المكذبين هم الأكثرية غالبًا .فلا يغرك عددهم، ولا يهولنك جدالهم، فمصيرهم إلى زوال، وأنت على الحق المبين.
الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة:

· نفسيًا: يقظة الضمير الحي، ورفض الخمول الروحي .الآية تبني فيك رقابة داخلية، وتوقظك من غفلتك، فلا تمر آية من آيات الله إلا وتتفاعل معها بإيمان أو استغفار أو تسبيح .هذا يمنحك ثباتًا نفسيًا عجيبًا.
· فكريًا: بناء العقل الناقد الذي يميز بين الحق والباطل .أسلوب الاستفهام "ألم تر" يربيك على ألا تكون مستسلماً للأفكار، بل تحللها وتستنكر الباطل.
· تربويًا: منهج السؤال قبل الإملاء في الدعوة .المربي الناجح هو الذي يوقظ عقل طالبه بالسؤال، فيجعله يكتشف الحق بنفسه} .أَلَمْ تَرَ {هي قمة هذا المنهج التربوي.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية:

1.الحضارة تحتاج إلى أفراد يقظين، لا غافلين .أمة غافلة تمر على آيات الله في الكون والقرآن دون أن تتفاعل معها، أمة ميتة لا يمكن أن تبني حضارة .الحضارة تحتاج إلى قلوب حية ترى آيات الله فتنتفع بها، وتحولها إلى علم نافع وعمل صالح.
2.الفرقان بين الحق والباطل أساس العمران} .أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ {تحذير من الانحراف والصدود، وأي حضارة تنحرف عن الحق والمنطق السليم تتجه نحو الانهيار .فالحضارة تحتاج إلى بوصلتها الأخلاقية والعقائدية الثابتة.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها (النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية):

· البعد النفسي: الآية تخلق لديك ألماً نفسياً إيجابياً عند رؤية الباطل، فتنكر بقلبك، وهذا يجعلك حياً متفاعلا ً مع قضايا أمتك.
· البعد الفكري: ترسخ قاعدة أن انقطاع الصلة بالله يؤدي إلى فقدان العلم والبصيرة وسلامة التفكير . فلا يمكن لعقل أن يفكر تفكيراً سليماً وهو منفصل عن الوحي.
· البعد العقائدي: تأكيد أن الإيمان بالكتاب وبكل ما أرسل الله به رسله هو أصل النجاة، والتكذيب به هو أصل الهلاك.
· البعد الاجتماعي: انتشار الجدل في آيات الله بغير علم يؤدي إلى تمزيق المجتمع إلى فرق متناحرة يجادل بعضها بعضاً بالباطل .أما المجتمع الذي يخضع للحق ويستسلم لله، فهو المجتمع المتماسك.

خلاصة ورسالة إلى قلبك وروحك

يا أيها المؤمن اليقظ، هذه الآيات مرآة تنظر فيها كل صباح ومساء. إنها تسألك: ألم تر آيات الله في نفسك؟ ألم تر آياته في الكون؟ ألم تر آياته في القرآن؟ فهل مررت عليها مرور الكرام، أم تفكرت وتدبرت؟ إن كنت من الذين يجادلون بأهوائهم، فبادر بالرجوع والتوبة قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم. وإن رأيت غيرك يجادل وينصرف عن الحق، فاستنكر ذلك بقلبك، وادعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأيقن أن الله مطلع عليهم، وسوف يعلمون.

عش حياتك وكأنك في رحلة دائمة للبحث عن آيات الله، فلا تمر بآية إلا وقفت عندها، فسبحت الله الذي أبدعها، وحمدته أن هداك للإيمان بها. بهذا فقط، تنجو من أن تكون من المصروفين عن الحق، وتكون من المهتدين بنور الله، الفائزين بنصره ورضوانه.

المبحث الثانى

يا من تخوض معركة النفس الأمارة بالسوء، ويا من تبحث في آيات الله عن درع يحميك، ووقود يدفعك، لقد سارت بنا سورة غافر في رحلة عظيمة لتحررنا من مرض الكبر، بدأت من وعد النصر،

مرورًا بوسائل مقاومة هذا الداء، وانتهاءً بإعلان المفاصلة والبراءة من أهله. والآن، نصل إلى المحطة ا لأخيرة في هذه المعركة، حيث يزيح الله الستار عن المشهد الذي لا بد أن يمر بقلب كل مؤمن ليكتمل يقينه، ويزداد ثباته. إنه مشهد النهاية، ليس فقط نهاية الكافرين والمتكبرين، بل نهاية الكبر نفسه وهو يجر أهله إلى الحضيض. إنه ليس مجرد مشهد تاريخي سيأتي، بل هو تحذير واقعي، ودعوة عاجلة لتعود إلى جادة الصواب قبل أن يفوت الأوان.

يقول الله جل وعلا، مصورًا لنا نهاية الذين استكبروا عن عبادته، وجادلوا في آياته بغير سلطان:
{إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)} [غافر].

إنها آيات ترسم لك بفرشاة القدرة الإلهية لوحة فنية من العذاب المهين، ليس فقط لتخويفك، بل لتربية عقلك ووجدانك، ولتجعل من هذه المشاهد حاجزًا منيعًا بينك وبين الغرور والفرح المذموم. فلنغص فيها معًا، ولنعشها بكل جوارحنا.

الأمر الأول: تصوير الذل والإهانة عبر القيود والسلاسل (الآيتان 71 و72)

يبدأ المشهد الإلهي البديع برسم صورة العذاب المهين. يقول الله: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ}.

· تأمل بدقة قوله:} إِذِ{، إنها ظرف للزمن الماضي، لكنها هنا تستخدم لاستحضار مشهد المستقبل وكأنه يحدث الآن .إنه أسلوب قرآني فريد يجعل يوم القيامة حقيقة معاشة أمام عينيك، حتى تنتفع بها في حاضرك.
·} الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ{: لقد قيّدت رقابهم بالأغلال، وهي أطواق من حديد تجمع أيديهم إلى أعناقهم . إنه إهانة كاملة لأولئك الذين كانوا يرفعون رؤوسهم كبرًا في الدنيا .لقد أرادوا العزة بالتكبر، فجعل الله أذل موضع فيهم وهو "العنق" موثقًا مربوطًا، ليكونوا عبرة للناظرين.
·} وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ{: ثم تضاف السلاسل إلى الأغلال .إنهم يُسحبون على وجوههم كما تسحب الكلا ب والبهائم .إنهم "يُسحبون" بصيغة المبني للمجهول، لتشعر أنهم لا حول لهم ولا قوة، مجرد أدوات ذليلة في يد ملائكة العذاب.

ثم تنتقل الآية لترسم لك نوع هذا السحب وإلى أين؟ {فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}.

·} فِي الْحَمِيمِ{: يسحبون في ماء حار بلغت حرارته الغاية القصوى .تخيل هذا الألم! جلدك وقد صُب عليه هذا الحميم وأنت مقيد بالسلاسل.
·} ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ{: ثم بعد هذا العذاب، يصيرون هم أنفسهم وقودًا للنار ."يُسجرون" أي يُقذفون في النار ليكونوا حطبها الذي تشتعل به .إنها خاتمة المغرورين، إنها الهزيمة المطلقة والخسارة المبينة . لقد أرادوا الرفعة فكان هذا مصيرهم.

اللمسة التربوية:
هذه المشاهد لم تذكر للتسلية، بل لتربية المؤمن على الخوف من الكبر. أنت أيها المؤمن عندما تسمع عن الأغلال والسلاسل والحميم، يقشعر بدنك، وتشفق على نفسك، فتعود مسرعًا إلى جادة الصواب. وهذا هو الدور الذي يجب على الداعية أن يستخدمه، بأن ينقل للناس مشاهد الآخرة وكأنها مرئية، ليحرك العواطف ويهز الوجدان.

الأمر الثاني: دلالة السؤال "أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ" ودوره في الإهانة (الآية 73 و74)

بعد تصوير العذاب الجسدي، ينتقل المشهد بك إلى العذاب النفسي، وهو أشد وأمر. لقد اجتمع عليهم عذاب الجسد وعذاب الروح. {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِن دُونِ اللَّهِ}.

·} ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ{: تأمل هذا السؤال! هو ليس استفسارًا عن شيء مجهول، بل هو سؤال تقريع وتوبيخ وإهانة .إنه الخنجر الذي يغرس في قلوبهم ليزيدهم ألمًا فوق ألمهم .يُقال لهم هذا في جهنم وهم يذوقون الحميم وتسحبهم السلاسل: "أين معبوداتكم؟ أين الذين كنتم تشركونهم من دون الله؟".
وهنا لفتة عجيبة: يدخل في هذا الخطاب كل من عبد من دون الله، سواء كان صنمًا، أو حجرًا، أو بشرًا "كبراء وسادة ورؤساء" .أولئك الذين أطاعوهم في معصية الله، وعظموهم لمكانتهم وسلطانهم،

أين هم الآن؟ لماذا لا يمنعون عنكم العذاب؟ لماذا لا يدفعون عنكم الذل والمهانة؟

ويأتي الرد من هؤلاء الكفار الخاسرين بالاعتراف المر: {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ۚ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا}.

·} ضَلُّوا عَنَّا {: غابوا عنا وتاهوا، فلا نراهم، وليسوا بقادرين على نصرنا .لقد كانوا مجرد سراب.
·} بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا {: ثم يحاولون الإنكار والجحود، كعادتهم في الدنيا .يقولون: بل الحق أننا لم نكن نعبد في الدنيا شيئًا يستحق العبادة! إنه اعتراف ضمني ببطلان ما كانوا عليه، ولكن في وقت لا ينفع فيه الندم.
فيأتي التعقيب الإلهي القاطع:} كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ .{أي مثل هذا الضلال المبين، يضل الله من كفر وجحد .إنه يريك أن تكذيبهم يوم القيامة هو جزء من إضلالهم، فهم في تيه مستمر.

الدرس العملي:
هذا المشهد يربي فيك أن كل من تتعلق به من دون الله سيتخلى عنك يوم القيامة، سواء كان مالا ً أو جاهًا أو شخصًا. فلا تتعلق إلا بالله الحي الذي لا يموت.

الأمر الثالث: بيان سبب العذاب – "الفرح" و"المرح" المذمومان (الآية 75)

ثم تأتي الآية لتجيب عن السؤال الذي يدور في خلدك الآن: لماذا وصلوا إلى هذا المصير المروع؟ ما هو سبب هذه الأزمة التي أساءوا فيها تقدير الحقائق؟ يقول الله: {ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ}.
هنا مربط الفرس، وهنا الدرس الأعظم الذي أردت التركيز عليه، ألا وهو تحذيرنا من "الفرح المذموم".

· الفرح في الأرض بغير الحق: ليس كل فرح مذمومًا، فالفرح بالطاعة، وبرحمة الله، وبفضله هو فرح محمود .ولكن المذموم هنا هو فرح خاص، فرح مصحوب بالكبر والبطر والغرور .إنه الفرح بالمنصب و الجاه والسلطان وملذات الدنيا، الفرح الذي يجعل الإنسان يسيء تقدير حقيقة الأمور، فلا يفقه الواقع، ويعيش في سكر ونشوة تغنيه عن المنطق السليم.
· كيف يكون الفرح سببًا للأزمة والهلاك؟ هذا هو السؤال المحوري .إن الفرح المذموم يُخرج الإنسان عن حالة الاتزان العقلي والنفسي، ويدفعه للغرور والطغيان، كما حدث مع قارون الذي خرج على قومه في زينته، فهو قد وقع في أزمة الاغترار بالقوة المالية .هذه الوفرة المالية والعسكرية إذا غاب عنها العنصر الإيماني، ولدت شعورًا كاذبًا بالاستغناء .وهذا هو عين ما حذرنا الله منه بقوله:} كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) {العلق:.(7
· إن الإنسان حين يرى نفسه غنيًا بالمال أو السلطان، يشعر أنه ليس بحاجة إلى الله، فيقع في الكبرياء وسوء التقدير، ويظن أن هذه النعم دائمة لا تزول .تمامًا كصاحب الجنتين الذي قال:} مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) {الكهف: .(35هذا هو الغرور الذي يكون صاحبه قد استدرج، فيفرح ويبطر، فيكون ذلك سبب هلاكه في الدنيا وسوء مصيره في الآخرة.
·} وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ {: المرح هو شدة الفرح والبطر والأشر .إنه الفرح الممزوج بالخيلاء والتكبر على عباد الله .إنه يصف الحالة النفسية للمتكبرين وهم يصولون ويجولون في الأرض فسادًا، ظانين أنهم قد ملكوا زمام الأمور بقوتهم أو مالهم.

الأمر الرابع: خاتمة المشهد – {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} (الآية 76)

ثم يأتي الحكم النهائي والقرار الرباني المبرم: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}.

·} ادْخُلُوا {: فعل أمر إهانة وسخرية .بعد أن رأوا النار ورأوا عذابها، يقال لهم: ادخلوها.
·} أَبْوَابَ جَهَنَّمَ {: ولها أبواب متعددة، كل باب منها مخصص لطائفة معينة من أهل النار، حسب كفرهم وذنوبهم.
·} خَالِدِينَ فِيهَا {: إنه الخلود الأبدي، حيث لا موت ولا راحة ولا انقطاع للعذاب.
·} فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ {: وهنا الختام المسك ."فبئس" أي قبح هذا المكان وساء هذا المستقر والمنزل الذي أعد لـ "المتكبرين" .إنه سبحانه لم يقل: "فبئس مثوى الكافرين" بل قال: "المتكبرين"، ليبين لك أن الكفر هو رأس الكبر، وأن الكبر هو أصل كل هذه المآسي والمهلكات .لقد ربط الله العذاب برباط محكم بصفة واحدة هي: "الكبر" .وهذا هو جوهر السورة ومحورها.

الأمر الخامس: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

لنستخلص الآن الأبعاد العميقة لهذه الآيات كاملة:
المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسيًا: بناء حاجز الخوف من الله .تصوير العذاب بهذه الصورة الواقعية يبني في النفس "الخوف المحمود" الذي يمنعك من الوقوع في المعصية .عندما تهم بفعلة كبر أو فرح مذموم، استحضر صورة الأغلال والسلاسل، فتتراجع وتتوب.
· فكريًا: فهم جذور الانحراف .الآية تضع يدك على أصل الداء وهو "الفرح في الأرض بغير الحق و المرح"، وتشرح لك أن الوفرة المالية والعسكرية إذا خلت من الإيمان تولد الطغيان وسوء التقدير .هذا يبني فيك وعيًا نقديًا لفهم سقوط الحضارات والأفراد.
· تربويًا: التربية بالمشاهد .أسلوب الآية يعلمنا أهمية استخدام الوصف الحي والمشاهد التقريبية في التربية .الداعية والمربي ينبغي أن ينقل للناس حقائق الغيب كأنهم يرونها رأي العين، لأن هذا يحرك العواطف ويثبت المعاني في القلوب.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة

· تحذير الحضارة من الفرح المذموم والمرح .حضارة تتباهى بقوتها المادية والعسكرية، وتفرح بغير الحق، وتصول وتجول في الأرض مرحًا وبطرًا، هي حضارة تسير نحو سقوطها .إن هذا الفرح هو أزمة حقيقية تُفقد أبناءها البوصلة، وتجعلهم يظنون أنهم في مأمن من عقاب الله، كما قال تعالى: }أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ .{النجاة تكون بالشكر والتواضع، لا بالبطر والكبر.

المحور الثالث: التطبيقات العملية – ما الذي تدعونا إليه الآية في حياتنا؟

.1حاسب نفسك على نوع فرحك: افرح بالهداية، افرح بالتوفيق للطاعة، افرح برحمة الله .لكن إياك والفرح بالباطل، والفرح بالمعصية، والفرح المصحوب بغمط الناس واحتقارهم.
.2استحضار النهاية: تدرب على أن تمر بخيالك مشاهد الآخرة يوميًا .هذا لا يجعلك متشائمًا، بل يجعلك واقعيًا مثابرًا، بعيدًا عن الغرور والغفلة.
.3احذر الاغترار بالقوة: إذا كنت تملك مالا ً أو جاهًا أو علمًا، فإياك أن تشعر بالاستغناء .قل دائمًا: هذا من فضل ربي .وزد من تواضعك وشكرك، حتى لا يتحول الفرح بالنعمة إلى فرح مذموم.

خلاصة ورسالة إلى قلبك:
يا من تبحث عن النجاة، هذه الآيات هي خلاصة الكتاب. لقد أراد الله منك أن ترى بأم عين قلبك كيف تنتهي جولة الكبر والغرور. إنه أراد أن يملأ قلبك بالخوف منه، ليمنحك الأمن في الدنيا والآخرة. لقد أرادك أن تكون عبدًا متواضعًا، يفرح بفضل الله لا بمعصيته، ويمرح في طاعته لا في غروره.

اجعل من هذه الآيات زادك في كل حين. عندما ترى المتكبرين يصولون ويجولون في الأرض مرحًا، تذكر أن مصيرهم هو السلاسل والأغلال في الحميم. وعندما تشعر بذرة الكبر تنمو في صدرك بسبب نعمة، تذكر أن "الفرح بغير الحق" هو أول خطوة نحو الهاوية. نم قرير العين، موقنًا بأن العدالة الإلهية قادمة لا محالة، وأن العاقبة للمتقين المتواضعين، وأن مثوى المتكبرين هو "بئس المثوى".
ثامنا
يا من تنقلت معي في رحاب سورة غافر، ووقفتَ على مشاهد النصر، وحللتَ داء الكبر، ورأيتَ مصارع المتكبرين في الحميم والنار، أقبل بقلبك الآن. لقد سارت بك الآيات من وعد النصر في الدنيا والآخرة، إلى تصوير عاقبة الكبر والجحود، مرورًا بالأدلة الكونية والنفسية الدامغة. وبعد كل هذا البيان ، وكل هذا الوعد والوعيد، يأتيك الخطاب الإلهي المباشر، لا ليخبرك عن الماضين، بل ليأخذ بيدك أنت، ويزودك بخلاصة هذا كله. إنه يختصر لك الطريق كله في وصية جامعة، وفي يقين مطلق، وفي تفويض كامل لله.

يقول الله جل وعلا – وقد أسمعكَ وعيدَه للمتكبرين، وأراكَ مصيرهم الذي ينتظرهم – آمرًا نبيّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومن ورائه كل مؤمن سائر على هذا الدرب:
{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [غافر: 77].

إنها آية عظيمة، تنزل على قلب المؤمن بردًا وسلامًا. إنها تمنحه الصلابة النفسية، والثبات في زمن العواصف، واليقين الذي لا يتزعزع مهما ادلهمت الخطوب. فهيا بنا نعيش في ظلال هذه الآية الكريمة، ونستخرج كنوزها ورسائلها.
الأمر الأول: دلالة الفاء في "فَاصْبِرْ" – خلاصة الرحلة وثمرة اليقين

تبدأ الآية بحرف الفاء: {فَاصْبِرْ}. وهذه الفاء هي فاء التفريع والربط. وكأن الله يقول لك: "بناءً على كل ما سبق، وعلى كل ما سمعت ورأيت من مصارع الغابرين، ومن سنننا في النصر والتمكين، ومن تحذيرنا من الكبر والجدال، ومن مصير الجاحدين في النار، فالنتيجة هي: اصبر".
إن الصبر هنا ليس مجرد فضيلة أخلاقية عامة، بل هو الموقف العملي الإجباري الذي يترتب على فهم السنن الإلهية. لقد علمتَ أن الباطل له جولة ثم يزول، وعلمتَ أن العاقبة للمتقين، وأن المتكبرين مصيرهم إلى جهنم. إذن، فواجبك الآن وأنت تراهم في جولتهم أن تصبر. إنه أمر إلهي مباشر، وتوجيه باستجماع القوة النفسية.

الأمر الثاني: دلالة التعليل "إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ" – صخرة اليقين

ثم يأتي التعليل الإلهي المباشر للأمر بالصبر، وهو بمثابة الوقود الذي يغذي محرك الصبر: {إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ}.

• "إِنَّ" : توكيد قاطع.
• "وَعْدَ اللهِ" : ما هو هذا الوعد؟ إنه كل وعد ورد في هذه السورة وفي غيرها. إنه وعد الله بنصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. إنه وعده بإهلاك المتكبرين وإذلالهم. إنه وعده بـ التمكين للمستضعفين.
• "حَقٌّ" : ثابت لا يتغير، كائن لا محالة. إنه وعد من الله الذي لا يخلف الميعاد. عندما تستقر هذه الكلمة في قلبك، فإنها تصنع منك إنسانًا مختلفًا. إنها تحول صبرك من صبر المغلوب على أمره، إلى صبر الواثق بربه، المتيقن بأن الغد للإيمان. إنها القاعدة الصلبة التي تقف عليها، فلا تهتز مع رياح الشكوك.

الرسالة النفسية والتربوية العميقة:
هذه الآية تزرع فيك الأمل والثقة المطلقة بالله. مهما رأيت من تأخر النصر، ومهما طال ليل البلاء، تذكر: {إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ}. هذا هو علاج اليأس والقنوط. إنه يحررك من عبودية النتائج الآنية، ويجعل نظرك معلقًا بالآخرة وبسنن الله الماضية.

الأمر الثالث: دلالة "فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ" – التفويض المطلق والتخلص من هم النتائج

ثم تأتي الذروة في فن التفويض والتخلص من ضغط النتائج: {فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ}.
هنا يضعك الله أمام احتمالين لا ثالث لهما، لتستريح نفسك:

} .1فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ {: إما أن نريك في حياتك بعض الذي نعدهم به من العذاب في الدنيا .كأن يهلكوا بالسيف، أو بالزلزال، أو بالصيحة .وقد وقع ذلك للعديد من الأمم السابقة، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم مصارع المشركين في بدر بعينه.
} .2أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ {: وإما أن نتوفاك قبل أن ترى ذلك .أي قد نقبض روحك إلينا قبل أن نشفيك من أعدائك في الدنيا .وهذا احتمال وارد جدًا، فهل يعني هذا أنهم قد أفلتوا؟ لا وألف لا!

اللمسة البلاغية العجيبة هنا:
تأمل في "فاء" {فَإِمَّا...}، إنها للتفريع أيضًا. والمعنى: إن كنتَ قد أيقنتَ أن وعد الله حق، وصبرتَ، فلتكن في حالة من التفويض المطلق. لا تشغل نفسك بطريقة النصر أو زمانه. فالنصر آتٍ سواء رأيته أنت أم لم تره.

التطبيق العملي على حياتنا (رسالة لكل داعية ومصلح):
هذه الآية تخاطب كل من يعمل للإسلام، ويسعى للإصلاح، ويتعرض للأذى. قد تعمل سنوات، وتعطي كل ما تملك، ثم تتوفاك المنية قبل أن ترى ثمار جهدك. هل هذا فشل؟ كلا. هذه الآية تقول لك: أنت لست مسؤولا ً عن النتائج. مسؤوليتك أن تصبر وتعمل. أما تحقيق النصر وإظهاره، فذلك بيد الله، وفي وقته الذي يعلمه. فكن مطمئنًا، واعمل لله، ولا تنتظر جزاءً في الدنيا. إنها تربية عملية على "العمل لله".

الأمر الرابع: دلالة الخاتمة "فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ" – حسم المصير والعدالة المطلقة

ثم تأتي الخاتمة الحاسمة التي تضع النقطة على الحرف: {فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}.
سواء رأيت عذابهم في الدنيا أم لم تره، فالمرجع والمصير النهائي لهم هو إلى الله وحده. وهناك، يوم يقوم الأشهاد، سيرون ما هو أعظم وأبقى من عذاب الدنيا. إنهم لن يفلتوا أبدًا. فإذا توفاك الله قبل أن ترى نصرك عليهم، فسيُحالون إلى محكمته هو سبحانه، وسيرون هناك من العذاب ما يشفي صدور المؤمنين.
هذه الخاتمة تمنحك طمأنينة مطلقة، وتؤكد لك أن العدالة ليست محصورة في دنياك، بل هي ممتدة إلى يوم القيامة.

الأمر الخامس: التطبيقات العملية المباشرة

.1في مواجهة الظلم والطغيان: كلما رأيت ظالماً يصول ويجول، استحضر هذه الآية .قل لنفسك: وعد الله حق .إما أن ينتقم منه في الدنيا فأراه، أو ينتقم منه في الآخرة، وسأراه وأنا في نعيم الجنة . هذا يحررك من الغل، ويجعلك تعيش بسلام داخلي.
.2في حياتك المهنية والدعوية: لا تقلق إن لم ترَ ثمرة تعبك فورًا .اصبر، وواصل العمل، وفوض الأمر لله .أنت مطالب بالصبر والعمل لا بجني الثمار .هذا هو سر الصلابة النفسية الذي تعلمه الآية.
.3تربية الأبناء: علمهم أن الصبر هو سلاح المؤمن، وأن وعد الله لا يتخلف .قص عليهم قصص الأ نبياء، كيف صبروا، وكيف نصرهم الله ولو بعد حين، أو رفع درجاتهم بالشهادة.

الأمر السادس: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

لنستخلص الآن الأبعاد العميقة لهذه الآية وفق المحاور الكاملة دون حذف:

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسيًا: "مفهوم السكينة والتحرر من إدمان النتائج". تعلمك الآية أن تكون في حالة طمأنينة. أنت لست في سباق لترى النتيجة بأم عينك. أنت في عبادة، وضمان الأجر والثواب بيد الله. هذا يحررك من القلق والضغط النفسي المزمن المرتبط بالإنجاز الآني.
· فكريًا: "بناء فلسفة التفويض والعمل للأجل". الآية تؤسس لفكر استراتيجي بعيد المدى. المؤمن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا. إنه يركز على واجبه (الصبر والعمل) ويفوض النتائج (النصر والعقاب) إلى الله.
· تربويًا: "صناعة الإنسان الصبور الواثق بربه". الصبر هنا ليس مجرد رد فعل، بل هو حالة إيمانية تكتسب وتمارس وتدرّب عليها النفس. إنها تربية على الصبر الاختياري المبني على الدليل واليقين، لا على العجز والاضطرار.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية:

.1استمرارية المشروع الحضاري بغض النظر عن الأفراد:} أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ {تعني أن المشروع لا يموت بموت القائد .فالنبي صلى الله عليه وسلم قد يتوفى، لكن وعد الله مستمر .هذه الثقة تبني حضارة عملاقة، لأن أبناءها لا يعملون للقائد الفاني، بل لله الباقي.
.2الأمن النفسي الجماعي: مجتمع يستشعر أن وعد الله حق، هو مجتمع آمن لا يتزعزع بالفتن .إنه المجتمع الذي يبني حضارته بهدوء وصبر، ولا تهزه الأحداث العارضة.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها:

· البعد الاجتماعي: انتشار ثقافة الصبر والتفويض في المجتمع يقلل من حدة التوتر والقلق، ويجعل الناس أكثر إنتاجية وأقل تفاعلا ً سلبيًا مع الأزمات.
· البعد القيادي: تعليم القادة أن دورهم ليس حصد كل الثمار بأنفسهم، بل زرع البذور وسقيها، ثم ترك الحصاد لله وللأجيال القادمة.
خلاصة ورسالة إلى القلب:
يا من تستبطئ النصر، ويا من تتعب من طول الطريق، هذه الآية هي بلسم جراحك. لقد أمرك الله بـ الصبر، لا لأن النصر بعيد، بل لأن الصبر هو جزء من صناعة النصر. إنه يخبرك أن وعده حق، فثق به. ويخبرك أنك قد لا ترى النصر بعينيك، فلا تبتئس. إن عملك عند الله لن يضيع، وأجرك في الآخرة مضمون.

كل ما عليك أيها المؤمن هو أن تثبت، وأن تواصل المسير، وأن توقن بأن الله لا يخلف الميعاد. نم قرير العين، واعمل لله، ودع الباقي على الحي الذي لا يموت.

المقطع الرابع
اولا

يا من سلكت طريق الدعوة، وواجهت من الجحود والتكذيب ما واجهته، ويا من صبرت وتفوضت ووثقت بوعد الله، اسمع لهذه الآية الكريمة التي تنقلك من مقام الثبات الفردي) فاصبر (إلى مقام الفهم العميق للتاريخ والسنن الإلهية .بعد أن أمرك الله بالصبر وأكد لك أن وعده حق، يأتي الآن ليكشف لك عن سنة من أعظم سننه التي تمنحك الطمأنينة، ويصحح فهمك للصراع بين الحق و الباطل .إنها الآية التي تفتتح المقطع الأخير من السورة، وتضع بين يديك مفتاحًا لفهم التاريخ كله.

يقول الله عز وجل، رابطًا قصة نبيه محمد ﷺ بقصص إخوانه من قبله:
}وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ] {غافر:.[78

إنها آية تجمع بين التأكيد على بشرية الرسل، وبيان سنة الله في إهلاك المبطلين، ودعوة صريحة إلى قراءة التاريخ وفقه سنن الله في خلقه .فلنقف مع هذه الآية الكريمة، ونستخرج كنوزها ودروسها.

الأمر الأول: دلالة افتتاح المقطع بقوله "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ" – سلسلة النور الواحدة وسنة الابتلاء الثابتة

لنقف أولا ً عند مطلع الآية:} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ.{

- "وَلَقَدْ" : الواو للعطف، واللام للقسم، و"قد" للتحقيق .إنه قسم مؤكد من الله بأنه أرسل رسلا ً .وهذا التوكيد ليس لمجرد الإخبار التاريخي، بل لهدف نفسي وتربوي عميق؛ إنه يريد أن يثبت فؤاد النبي ﷺ، ويؤكد له أن طريقه ليس بدعًا من الرسل، بل هو طريق واحد سارت عليه كوكبة من الأنبياء.
- "رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ" : هذا هو المفتاح الذي تفتتح به الآية المقطع الأخير .لماذا هذا الافتتاح؟ ليربط قلب النبي والمؤمنين بإخوانهم من الرسل السابقين، وليبين لهم أن قصة التكذيب والكفار واحدة لا تتغير .إن التعامل من الكفار مع جميع الرسل هو نفس التعامل: تكذيب، وصد، وجدال بالباطل .فتأمل كيف أن هذا يمنحك عزاءً عظيمًا؟ فما تواجهه أنت اليوم من تكذيب أو استهزاء ليس موجهاً لشخصك، بل هو موجه لرسالة الحق التي تحملها، والتي حملها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

الأمر الثاني: دلالة "مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ" – فقه التاريخ وقراءة النماذج

ثم تأتي الجملة التي تؤسس لفقه التاريخ:} مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ.{

- "قَصَصْنَا عَلَيْكَ" : أي ذكرنا لك قصصهم وخبرهم في القرآن .لماذا قصها الله؟ لنستخلص منها السنن، ونرى النماذج الإنسانية .هذه القصص لم تذكر للتسلية، بل هي منهج تعليمي .نحن بحاجة إلى هذا الفقه في التعامل مع سنن الله .فدراسة التاريخ وقراءته وفهمه ضرورة لفهم طريقة تفكير الكفار وأعداء الرسالات، وكيف قابلوا الرسل .إنها تعطينا "فقه الواقع" و"فقه السنن" الإلهية التي لا تحابي أحدًا.
- "وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ" : وهنا الأمر عجيب .هناك رسل كثر لم نعرف أسماءهم ولا تفاصيل قصصهم .لكن، هل هذا يعني أن سننهم مختلفة؟ أبداً .هذه الجملة تؤكد لك أن القضية ليست مرتبطة بأسماء أو أزمان محددة، بل بالمنهج .سواء عرفت القصة أم لم تعرفها، فالصراع هو نفسه، والعاقبة واحدة، وهي أن النصر للمؤمنين.

التطبيق العملي في فقه السنن:
هذه الآية تدعونا إلى أن ننظر إلى قصص الأنبياء في القرآن نظرة تحليلية لا نظرة حكائية فقط .
عندما نقرأ قصة موسى وفرعون مثلا ً، علينا أن ننظر إلى فرعون على أنه "نموذج" للطاغية المتكبر في كل زمان، وننظر إلى السحرة الذين آمنوا على أنهم "نموذج" للشباب الذين يضحون بمناصبهم في سبيل الحق .وهكذا، ننظر إلى أفعال المؤمنين على سبيل التبجيل والتعظيم فنحبهم ونقتدي بهم، وننظر إلى أفعال الكفار على سبيل البغض والنفور، فنبغض أفعالهم وننفر منها .هذا هو المنهج التربوي الكامل الذي يبنيه القرآن في عقولنا وقلوبنا.

الأمر الثالث: دلالة "وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" – بشرية الرسل ووظيفة النبوة

ثم تأتي دلالة بشرية الرسل:} وَمَا كانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.{
هذا تأكيد على أن الرسل بشر، اختارهم الله لوظيفة النبوة والرسالة، وليس بمقدورهم أن يحضروا الخوارق والمعجزات من عند أنفسهم .فهم لا يملكون من الأمر شيئًا، بل كل ما يأتون به هو بإذن الله ومشيئته .هذا يعلمنا ألا نغلو في البشر حتى الأنبياء، كما يعلمنا أن نرد الأمر كله لله، فهو مصدر القوة والمعجزات.

الأمر الرابع: دلالة "فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ" – حتمية القضاء الإلهي بالعدل

}فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ{: أي إذا جاء الوقت الذي يحدده الله لنصرة رسله أو إهلاك أعدائهم .وهذا الوقت لا يعلمه إلا هو.
}قُضِيَ بِالْحَقِّ{: أي حكم بالعدل .فلا ظلم في ذلك اليوم .إنه قضاء فاصل يبين فيه الحق من الباطل .
وكلمة "بالحق" تعني أن الإهلاك والعذاب الذي وقع على الكافرين لم يكن ظلماً، بل كان بالحق الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا وجادلوا واستكبروا.

الأمر الخامس: دلالة "وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ" – النهاية الحتمية للمعركة

وتأتي الخاتمة لتضع النقطة على الحرف، وتؤكد لك "فقه التاريخ" كاملاً:} وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ.{

· "وَخَسِرَ" : فعل ماضٍ يفيد تحقق الوقوع، وكأنه حدث بالفعل.
· "هُنَالِكَ" : في ذلك الوقت والمكان، عندما يأتي أمر الله ويقع العذاب .إنها إشارة إلى وقت الحساب و الجزاء.
· "الْمُبْطِلُونَ" : أهل الباطل، الذين يعيشون في دينهم وحياتهم على غير الحق .وهذا يشمل كل مبطل في أي زمان وفي أي مكان.
فالخسارة لا تلحق إلا بهم .لقد أرادوا أن يطفئوا نور الله، فكانوا هم الخاسرين .هذه هي سنة الله التي لا تتخلف .التاريخ يُعيد نفسه، والنهاية المحتومة للمبطلين هي الخسران .وهذه هي دعوة الآية الصريحة لنا: أن نقرأ التاريخ لنرى خسارة المبطلين، حتى لا نكون في صفهم، بل نصطف مع المؤمنين في زماننا بأجسادنا وعقولنا، ومع المؤمنين السابقين بمشاعرنا، فهم أسلافنا، ونحن على دربهم سائرون.

الأمر السادس: التطبيقات العملية – ما الذي تدعونا إليه الآية؟

.1دراسة التاريخ وفقه السنن: لنخصص وقتاً لقراءة قصص الأنبياء في القرآن، ودراسة سيرهم، و التفكر في الأسباب التي أدت إلى نصرهم، والأسباب التي أدت إلى هلاك أعدائهم .هذه القراءة تمنحنا بصيرة في واقعنا، وتجعلنا نرى أحداث اليوم بمنظار الوحي، لا بمنظار الإعلام.
.2الثبات والطمأنينة عند رؤية الباطل: عندما ترى الباطل ينتفش، تذكر أن هذه هي سنة الله في الا ستدراج .وعد الله حق، والباطل زائل .هذا يمنحك ثباتاً وطمأنينة عجيبة، ويجعلك لا تهتز عند الشبهات أو الشدائد.
.3تحديد موقفنا والاصطفاف الواعي: الآية تدعونا إلى أن نحدد موقفنا بوضوح: مع من نقف؟ هل مع جبهة المؤمنين عبر التاريخ، أم مع جبهة المبطلين؟ هذا الاصطفاف ليس فقط شعورياً، بل عملياً، بأن نقتدي بالمؤمنين الصادقين، ونبتعد عن مسلك الكافرين والمبطلين.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسياً: "التضامن النفسي عبر التاريخ" – الآية تربطك بجذورك الإيمانية، فتستمد شعوراً بالقوة والعزة من تاريخ أسلافك من المؤمنين .هذا التضامن يخفف عنك مشاعر الغربة والوحدة في مواجهة الباطل المعاصر .أنت لست وحدك، فكل المؤمنين من لدن آدم إلى قيام الساعة في صفك.
· فكرياً: "بناء العقلية السننية" – تنتقل بالعقل من التفكير في الأحداث كأخبار منعزلة، إلى التفكير في السنن والقوانين التي تحكمها .وهذا هو جوهر "فقه السنن" الذي يجعل المؤمن يفهم الواقع ويستشرف المستقبل ببصيرة الوحي، فلا يتخبط في تحليلاته وأحكامه.
· تربوياً: "منهج التربية بالقصص والنماذج" – تُعلم الآية المربين والدعاة أهمية استخدام القصص القرآني .لا تسرد القصة فقط، بل اربطها بواقع الناس، واسألهم: أين نحن من هذا النموذج؟ وكيف نطبقه اليوم؟ هذا يحول التاريخ من مادة جامدة إلى خبرة حية تؤثر في السلوك وتبني العقول.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة في الآية

1.بناء الحضارة على أساس الوعي بالتاريخ والسنن: أمة لا تقرأ تاريخها ولا تفهم سنن الله في قيام الحضارات وسقوطها، هي أمة مهددة بتكرار الأخطاء .هذه الآية تؤسس لثقافة الوعي التاريخي السنني ، الذي يبني حضارة واعية لا تنخدع بالمظاهر.
2.استمرارية المشروع الحضاري بوحدة الصف عبر العصور: الحضارة الإسلامية ليست وليدة اليوم، بل هي امتداد لركب الأنبياء والمؤمنين عبر التاريخ .هذا الشعور يعطي العاملين في الحضارة دفعة قوية، لأنهم يشعرون بأنهم حلقة في سلسلة نور إلهية ممتدة، وأن عملهم امتداد لعمل الأنبياء.

المحور الثالث: أبعاد الآية وآفاقها النفسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية

· البعد النفسي: تمنحك الآية اليقين بأن الظلم مهما طال فهو إلى زوال، وأن النهاية هي للحق وأهله، فتعيش بقلب مطمئن ونفس راضية، لأنك تعرف القوانين التي تحكم حركة التاريخ.
· البعد الفكري: تعلمنا الآية المنهج الصحيح لقراءة التاريخ، قراءة سننية تحليلية، لا قراءة سردية ترفيهية .إنها تؤهل العقل لاستنباط القوانين واستشراف المستقبل بموضوعية.
· البعد العقائدي: ترسخ عقيدة أن الله هو المالك المدبر، وأنه هو الذي يرسل الرسل ويؤيدهم، وهو الذي يهلك أعداءهم، مما يعمق التوكل عليه والاعتماد عليه، ويُخلِص العبادة له.
· البعد الاجتماعي: تزرع في الأمة روح الوحدة والتضامن بين أبنائها عبر الأجيال .فنحن نحب أسلافنا من المؤمنين، ونقتفي أثرهم، مما يبني هوية اجتماعية متماسكة، ويخلق مجتمعاً له جذور ضاربة في عمق التاريخ، وفروع ممتدة نحو المستقبل.

خلاصة ورسالة إلى قلبك:

يا أيها المؤمن، بعد أن صبرت ووثقت بوعد الله، تأتي هذه الآية لتفتح لك نافذة على التاريخ كله . إنها تخبرك أنك لست وحدك، بل أنت في ركب الأنبياء والمؤمنين .ما تراه من تكذيب واستكبار هو نفسه ما رآه موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .فاطمئن، واسلك سبيلهم، واصبر كما صبروا، وتأكد أن وعد الله حق .انظر إلى قصصهم، تعلم منها، أحبهم واقتف أثرهم، واستبغض أفعال أعدائهم وفارقهم .فمن يفعل ذلك، يكون قد أخذ بيده إلى سفينة النجاة، واصطف مع جند الله في معركة الحق الخالدة، حتى يأتي أمر الله، فيقضي بالحق، ويخسر هنالك المبطلون .فكن من المؤمنين الصادقين، تكن من الفائزين
.ثانيا
يا من تبحث عن دلائل الإيمان في كل ما حولك، ويا من تشتاق لترى يد الله في كل نعمة تمر بك، اسمع لهذا النداء الإلهي الذي ينتشلك من غفلتك. لقد طلب المشركون الخوارق، وسألوا عن آيات مادية خارقة للعادة. وها هو الله، بدل أن ينزل لهم ما طلبوا، يوجه أبصارهم وقلوبهم إلى آياته الباهرة المحيطة بهم كل يوم، آيات يرونها بأعينهم ويمرون عليها صباح مساء، ولكنهم لا يشعرون ولا يتفكرون. إنه يوجه الأنظار إلى نعم هي أقوى منهم وأكبر حجمًا، قد ذللها لهم وسخرها لخدمتهم، ليريهم أن التدبر في المألوف أعظم من طلب الخوارق، وأن الشكر على الموجود هو طريق الإيمان الحق.

يقول الحق جل وعلا، في معرض الرد البليغ على المطالبين بالخوارق:
{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (81)} [غافر].

إنها آيات تفتح للعقل آفاق التفكر، وللقلب أبواب الحب والشكر. إنها تعلمك كيف ترى الله في كل شيء حولك، وكيف يكون الشكر هو المنطق الوحيد الذي يليق بالمؤمن. هيا بنا لندخل في أعماق هذه الآيات البينات.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ" – لفت الأنظار إلى المنعم الأعظم والرد على طلب الخوارق

تبدأ الآية الكريمة بصيغة الحصر والتخصيص: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ}.

· "اللَّهُ" : اسم الجلالة العظيم، مبتدأ به للدلالة على أنه وحده المستحق لهذا الفعل العظيم .إنه إعلان واضح عن مصدر النعم.
· "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ" : "جعل" هنا بمعنى خلق وسخّر وهيأ .وهذا الجعل خاص بكم، أيها البشر، فهو مسخر لخدمتكم .إنه تذكير دائم بالعناية الإلهية.

وهنا يكمن الرد البليغ على من يطلب الخوارق .كأن الله يقول لهم: لماذا تطلبون آية خارقة، وعندكم في كل لحظة آيات عظيمة؟ إنه يعلمنا أن ننظر إلى الموجود ونتفكر فيه، قبل أن نطلب المستحدث.

الأمر الثاني: دلالة تسخير الأنعام – معجزة التذليل الدائمة

ثم ينتقل بنا إلى الآية الحية المعجزة: {الْأَنْعَامَ}، وهي الإبل والبقر والغنم. ويذكر ثلاثًا من أعظم منافعها:

المنفعة الأولى: الركوب {لِتَرْكَبُوا مِنْهَا}
تأمل معي عظمة هذا التسخير! لقد جعل الله هذه الدواب الضخمة القوية مسخرة لنا. اسأل نفسك: لو أن هذه الأنعام منعت ظهرها عنك، هل كنت بقادر على مقاومتها؟ إن الجمل أضخم منك وأقوى، لكنك تراه ينقاد لك، يبرك لتركبه، وينهض بك. أليس هذا تسخيرًا عجيبًا؟ من الذي دللها غير الله؟ من الذي جعلها طائعة لك مطيعة؟ أليس هذا آية من أعظم الآيات تشاهدها كل يوم؟ إنه يُرِيكَ آياته في ركوبك كل صباح ومساء.

المنفعة الثانية: الأكل {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}
ثم إنها ليست فقط للركوب، بل هي طعامك وقوام حياتك. تأكل من لحومها، وتشرب من ألبانها. إن جسدك يبنى منها، وقوتك تستمد منها. إنها تتحول إلى جزء من كيانك! أفلا ترى يد المنعم في كل لقمة تأكلها؟

المنفعة الثالثة: المنافع المتعددة وبلوغ الحاجات {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}
أما الآية (80) فتوسع دائرة النعم. {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} عامة غير محددة، فمنها أصوافها وأوبارها وأشعارها لملبسك وفرشك، ومنها جلودها، بل وحتى روثها يستخدم للوقود.
ثم تأتي نعمة السفر والتنقل: {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}. كم من مرة أردت فيها أمرًا، أو حملت همًا، فكانت الأنعام هي وسيلتك لبلوغ تلك الحاجة؟ لقد قطعت بها المسافات الطويلة، وحملت بها الأثقال. فهل كان بمقدور الإنسان أن يتحمل تعب التنقل لمسافات طويلة بدون هذه النعمة؟ كلا وألف كلا! إن الله يذكرك بهذه النعم لتشعر بفضله العظيم، ولترى رحمته بك في كل خطوة.

الأمر الثالث: دلالة "وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ" – الانتقال إلى نعمة أوسع

ثم ينتقل بك الله إلى نعمة أشمل: {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ}.
لم يقتصر على الأنعام، بل أضاف الفلك، أي السفن. فالله يحملك على ظهور الدواب في البر، وعلى ظهور السفن في البحر. أليس الذي سخر لك الرياح لتحرك السفن هو الذي سخر لك الأنعام؟ إنه يربط لك المشاهد كلها لترى يد المنعم الواحدة. ألا تشعر عند ركوبك بأنك محمول بحماية الله ورعايته، سواء كنت على ظهر دابة أو على ظهر سفينة في لجة بحر؟ إن هذا يزرع في قلبك التوكل عليه والثقة به.

الأمر الرابع: دلالة "وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ" – السؤال المنطقي المبكت

ثم بعد هذا العرض البديع للنعم والآيات، يأتي الاستفهام المنطقي الذي يهز الضمير: {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ}.
الله يريكم هذه الآيات رأي العين، ليل نهار. يريكم إياها لتتفكروا فيها، ولتنتفعوا بها، ولتزدادوا إيمانًا. إنها دعوة لترى الله في كل ما حولك، أن تنتقل من حال الغفلة إلى حال الشهود الدائم لنعمه ورحمته وعنايته وعظمته وقوته ورعايته.

ثم يأتي السؤال المبكت: {فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ}.

· "فَأَيَّ": اسم استفهام للإنكار والتوبيخ .أي آية من هذه الآيات العظيمة تنكرونها؟ وبأي حق تجحدونها ؟ إنها موجودة أمامكم، ترونها بأعينكم، وتنتفعون بها كل وقت.
وهنا قمة المنهج الحواري في القرآن: إنه لا يفرض النتيجة، بل يسوق الأدلة، ثم يوجه السؤال للعقل والوجدان .إنه يربي في المسلم العقليّة الحوارية، التي تعتمد على التجربة والمشاهدة والا ستنتاج المنطقي .فالله يدعو الإنسان إلى مشاهدة هذه النعم، ثم يطرح النتيجة المنطقية: بما أن هذه النعم موجودة ومرئية، فلماذا تنكرونها؟ لماذا لا تشكرون الله عليها؟

الأمر الخامس: شرح خطورة الجحود وكونه ظلمًا مهبطًا للإنسان

وهنا يصل بنا التدبر إلى الذروة. هذا السؤال: {فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ}، يكشف لنا عن مرض خطير، ألا وهو الجحود.
الإنسان يركب الأنعام ويأكل منها، ويرى هذه النعم، ولكنه للأسف لا يشعر بها، ولا ينسبها إلى الله! هذا الجحود ليس مجرد تقصير، بل هو ظلم عظيم. لماذا؟
لأن الإنسان بهذا الجحود قد هبط بنفسه إلى مرتبة أدنى من البهائم. فنعم الله لا تعد ولا تحصى، وكل ما حولك من نعم هي آيات بينات. فإذا قابلت هذا الفضل العظيم بالإنكار والجحود، فأنت قد أسأت تقدير حقيقة الأشياء، ووقعت في أزمة الفرح المذموم والغرور الذي حذرت منه الآيات السابقة.
إن عدم شكر نعمة الله هو استعمال لها فيما لا يرضيه، وهو في حد ذاته كفران يستوجب غضب الله. فتأمل أيها المؤمن في هذا الأمر جيدًا، وحاسب نفسك: هل أنت ممن ينظرون إلى الأنعام وغيرها من النعم فيرونها مجرد أشياء مادية، أم أنك ترى فيها آية من آيات الله، فتلهج بالشكر؟

الأمر السادس: التطبيقات العملية – ماذا تدعونا إليه الآية في حياتنا العملية؟

.1تحويل حياتك اليومية إلى عبادة بالتفكر: كلما ركبت سيارتك، أو حتى نظرت إلى طعامك، استحضر هذه الآيات .قل بقلبك ولسانك: "الله هو الذي سخر لي هذا، وما كنت له مقرنًا" .هذا يحول أفعالك العادية إلى عبادة دائمة.
.2تربية الأبناء على استشعار النعم: عندما يأكل طفلك، أو يركب دابة أو سيارة، ذكره بلطف أن الله هو من سخر لنا هذا، واسأله: من الذي جعل هذا الجمل الضخم يطيعك؟ هذا الأسلوب التربوي يغرس الإيمان في قلبه بطريقة عملية.
.3استخدام أسلوب الحوار والاستفهام: عند دعوة الآخرين، لا تبدأهم بالأوامر والنواهي، بل اسألهم: "ألم تروا كيف سخر الله لكم كذا وكذا؟ ألا تشكرون؟" .هذا الأسلوب يوقظ العقول والقلوب.

الأمر السابع: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية المستفادة

· نفسيًا) غرس الطمأنينة واليقين(: عندما تستشعر أن الكون كله مُسخّر لك بأمر الله، لتوفير سبل عيشك وراحتك، تشعر بطمأنينة نفسية عميقة .أنت لست في كون معادٍ، بل في كون يديره رب رحيم بك.
· فكريًا) تنمية العقل التجريبي المنطقي(: أسلوب الآية يبني العقلية الحوارية .إنه يدربك على الملا حظة) انظر إلى الأنعام(، ثم التحليل) من سخرها؟(، ثم الاستنتاج) الله هو الذي سخرها .(هذه هي التربية المنطقية التي وصل إليها الفكر البشري بعد قرون.
· تربويًا) منهج المشاهدة قبل الاستدلال(: في التربية والتعليم، علينا أن ننمي في الناشئة ملكة التفكر في المخلوقات والنعم، ونربطهم بالمنعم قبل أن نخوض معهم في تفاصيل الأحكام.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة

· التسخير الإلهي كحافز للعلم والتكنولوجيا: الحضارة الإسلامية قامت على مبدأ أن الكون مُسخّر من الله للإنسان .هذا المفهوم فتح باب البحث العلمي والتطوير التكنولوجي، لأن تسخير الشيء يستلزم فهمه .فالآية لا تدعو للخمول، بل للعمل والتقدم "لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم".
· بناء حضارة الشكر لا حضارة الجحود: الحضارة التي تنسى المنعم، وتنسب التقدم إلى ذاتها، حضارة مادية مصيرها إلى الانهيار الأخلاقي .أما الحضارة التي تبني على الشكر، فهي التي تدوم وتستمر.

المحور الثالث: خلاصة الربط برحلة السورة
لقد بدأنا رحلتنا في سورة غافر بوعد النصر، ثم حاربنا الكبر بوسائل متعددة، كان من أهمها التفكر في الأنفس والآفاق. وها نحن في هذه الآية نقف على واحدة من أروع آيات الآفاق، ألا وهي تسخير الأنعام. إنها تريك كيف أراد الله أن تنجو من الكبر بأن ترى فضله عليك في كل شيء، فتشكره وتتواضع له. وهذا هو سبيل النصر والتمكين الموعود.

خلاصة النداء ورسالة إلى قلبك:
أيها المؤمن، يا من تركب وتأكل وتمشي في مناكب الأرض، إن الله يخاطبك بهذه الآية كل يوم. إنه يريدك أن ترفع رأسك من غفلتك، وأن تنظر إلى النعم التي تحيط بك نظرة المتأمل المعتبر. لا تكن ك الذين يمرون على آيات الله وهم معرضون عنها، فيجحدون بها ويكفرون. كن من الذين يستشعرون النعم، فيزدادون حبًا لله وشكرًا، فيكون ذلك سببًا في نجاتهم وفلاحهم. تذكر دائمًا، أن كل ركوبة

تركبها، وكل لقمة تأكلها، وكل مسافة تقطعها، هي آية من الله ماثلة أمام عينيك، فاحذر أن تكون ممن ينكر آيات الله، وكن على يقين أن من شكر زاده الله من فضله، ونصره ومكن له في الأرض.

ثالثا

يا من تبحرت في رحلة سورة غافر، وتأملت في وعد النصر، وشُخِّص لك داء الكبر، ورأيت مصارع المتكبرين، ثم دعيت إلى الصبر والثقة بوعد الله، وفتح لك باب فهم السنن في قصص الرسل... ها أنت الآن تقف أمام دعوة جديدة. إنها ليست دعوة للتأمل في النفس أو في الأنعام فقط، بل هي دعوة للسير في الأرض، والنظر في آثار الماضين. إنها نقلة من التأمل النظري إلى التطبيق العملي، ومن قراءة الكتاب المسطور إلى قراءة الكتاب المنظور في آثار الأمم الغابرة.

يقول الحق جل وعلا – آمرًا عباده بالسير والنظر، لتكتمل بذلك منظومة الأدلة العقلية والتاريخية – : {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)} [غافر].

إنها آيتان كريمتان تضعان منهجًا متكاملا ً لقراءة التاريخ، وتؤسسان لفقه السنن في الحياة، وتحذران من مرض عضال هو "الفرح بالعلم المادي" و"الاستهزاء بالرسل". إنهما تدعوانك إلى أن تعيش وكأنك واحد من الأولين، لتأخذ العبرة ولا تكون من الهالكين. فهيا بنا نسير معًا في رحاب هاتين الآيتين.

الأمر الأول: دلالة الابتداء بـ "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا" – الأمر بالسير والنظر البصير لا البصر المجرد

تبدأ الآية بأسلوب استفهامي عجيب: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا}.

· الهمزة (أ): للاستفهام الإنكاري والتوبيخي، الذي يحمل في طياته معنى التعجب والاستنكار. كيف لا يسيرون؟ كيف لا ينظرون؟ أبلغت بهم الغفلة هذا المبلغ؟!
· الفاء (فـ): للعطف، لتربط هذا السؤال بما سبق من آيات الله الباهرة. فبعد أن رأيتم آيات الله في الأنعام والفلك، ألم يبق لديكم شك حتى تسيروا في الأرض وتنظروا؟
· "يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ" : ليس سيرًا جسديًا بالأقدام فقط، بل هو دعوة للسفر والارتحال والبحث و التنقيب. إنه أمر بالانتقال من مكان إلى آخر، لتروا آثار الأمم السابقة بأعينكم. وهذا يؤكد أن البحث في التاريخ وأحوال الأمم عبادة وقربة إلى الله إذا كان الهدف هو الاعتبار.
· "فَيَنظُرُوا" : وهنا مربط الفرس! "ينظروا" ليس مجرد النظر بالعين المجردة (البصر)، بل هو النظر بـ البصيرة والعقل والتدبر. إنه النظر المصحوب بالتفكر والفطنة والفهم. فالآية تأمرنا بألا نكون كسياح يلتقطون الصور فقط، بل كعلماء آثار يدرسون ويحللون ويستنبطون. وهذا هو الدرس الأول: البحث في التاريخ يجب أن يكون تابعًا للنظر البصير، لا النظر السطحي.

الأمر الثاني: دلالة "كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ" – السؤال المركزي في قراءة التاريخ

ثم يأتي السؤال: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}.
إنه يحدد لك ماذا تبحث تحديدًا. أنت لا تبحث عن عمارتهم ومبانيهم وجمالهم لتفتتن بهم، بل تبحث عن "عاقبتهم". كيف كانت نهايتهم؟ ماذا حل بهم؟ أليس الهلاك والدمار للمكذبين؟ إنها دعوة صريحة لأن تسأل نفسك هذا السؤال كلما مررت بأثر من آثارهم: أين هم الآن؟ وأين جبروتهم؟ وأين حضارتهم التي شادوها؟ الإجابة ستكون: هلكوا جميعًا. لم يبق منهم أحد.

الأمر الثالث: دلالة "كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ" – تحطيم أسطورة القوة المادية

ثم تأتي الجملة التي تحطم أسطورة القوة المادية: {كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ}.
ينتقل بك الله لبيان حال هؤلاء السابقين. انظر – أيها المؤمن – وقارن بين حالهم وحال كفار قريش أو أي قوم أقوياء في زمانك:

· {أَكْثَرَ مِنْهُمْ} : من حيث العدد والكثرة السكانية. كانوا جيوشًا عرمرمية.
· {أَشَدَّ قُوَّةً} : في البطش والمنعة والقدرة الجسدية والعسكرية. كانت لهم جيوش جرارة، وأسلحة لا تقهر.
· {آثَارًا فِي الْأَرْضِ} : من حيث العمران. لقد عمروا الأرض، وشيدوا القصور الشاهقة، والحصون المنيعة، والأبراج العالية، وبنوا مصانع وسدودًا، وتركوا آثارًا باقية تدل على عظمتهم المادية.

والسؤال الذي يجب أن تطرحه على نفسك هنا، كما أردت أنت تمامًا:
هل استطاعوا الفرار والنجاة من الهلاك الذي أراده الله؟ هل نفعتهم الأموال والسلطان والجاه؟ هل كانت لهم حصون مانعة من العذاب؟
الجواب يأتي قاطعًا: لم توفر لهم كل هذه القوة شيئًا! لقد انشغلوا بهذه الأموال والكثرة والعمران، فكانت سبب هلاكهم! إنها نظرة قرآنية فريدة، فما يظنه الناس مصدر قوة وحماية، هو في حقيقته استدراج وسبب هلاك إذا لم يقترن بالإيمان. وهذا يعلمنا ألا نغتر بقوة أي حضارة مادية مهما بلغت من التقدم.

الأمر الرابع: دلالة "فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" – قانون بطلان الأسباب بدون الإيمان

ثم يأتي الحكم الإلهي الحاسم: {فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

· "فَمَا أَغْنَىٰ" : ما دفع عنهم، وما حماهم، وما وفّر لهم الحماية.
· "مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" : كل ما جمعوه وحصّلوه طوال قرون من قوة وعمران وأموال وأولاد وعلوم دنيوية.
إنها سنة إلهية عظيمة: القوة المادية وحدها لا تغني شيئًا عن أصحابها إذا كذبوا الرسل واستكبروا عن طاعة الله. وهذا يفسر سقوط الحضارات العظيمة قديمًا وحديثًا. إنها دعوة لنا ألا نركن إلى الأ سباب المادية، بل نأخذ بها ونتوكل على الله.

الأمر الخامس: دلالة "فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ" – المرض الخفي وأزمة الفرح بالعلم المادي

وهنا نصل إلى جوهر الداء الذي أهلكهم: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ}.

· "جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ" : أتتهم الحجج الواضحة، والمعجزات الدامغة، والدلائل القاطعة على صدقهم.
· "فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ" : ولكن، ماذا كان رد فعلهم؟ بدل أن يخضعوا للحق، فرحوا بما عندهم من علم. وهنا الخطورة الكبرى! ما هو هذا العلم الذي فرحوا به؟
إنه ليس علم الوحي والإيمان، بل هو العلوم الدنيوية التي برعوا فيها. إنه علم الهندسة والعمارة و الصناعة، وعلم الكثرة والقوة والسلطان. لقد اغتروا بما عندهم من علم مادي، فرأوا فيه دليلا ً على أنهم على حق، وأنهم أحق بالنبوة والرسالة.

وهذا بالضبط ما أردت التركيز عليه، وهو أزمة "الفرح المذموم". هذه الأموال والعمران والأولاد والعلم أفسدت تصوراتهم، فجعلتهم:

1. يرون أن هذه النعم دليل على قربهم من الله ورضاه عنهم.
2. يتصورون أنهم أحق بالنبوة والرسالة من أولئك الفقراء الضعفاء.
3. يعتقدون أن ما حصلوا عليه من علم وقوة إنما هو بذكائهم وحذقهم وجهدهم الذاتي.
4. ونتيجة لذلك، سخروا من الرسل والرسالات، ورأوا أن ما عندهم من علم دنيوي يكفي ولا يحتاجون إلى وحي.

إنه نفس مرض قارون، ونفس مرض صاحب الجنتين. وهذا الفرح المذموم بالعلم المادي، الخالي من الإيمان، هو الذي يقود صاحبه إلى الكبر والجحود والهلاك.
الأمر السادس:
دلالة "وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" – العاقبة المحتومة للمستهزئين

ثم تأتي الخاتمة لتخبرك عن العاقبة: {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}.

· "وَحَاقَ" : أي نزل وأحاط. إنه فعل يفيد الإحاطة الكاملة، فلا مهرب ولا مفر. لقد أحاط بهم العذاب من كل جانب.
· "بِهِم" : بهم تحديدًا، هم الذين استهزأوا، هم الذين وقعوا في شر أعمالهم.
· "مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" : وهو العذاب الذي كان الرسل ينذرونهم به. كانوا يسمعون الوعيد فيسخرون ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فلما جاءهم العذاب، حاق بهم ما كانوا يسخرون منه!
الأمر السابع:
الدروس والتوجيهات – تنبيه مهم في قراءة التاريخ

هنا يجب أن نقف وقفة تنبيه مهمة. قال الله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}. لماذا ندعو إلى السير في الأرض والنظر في آثار السابقين؟
لأن هذه الآثار الباقية هي آيات من آيات الله، بقيت لنا للعظة والعبرة. ولكن الخطأ الكبير الذي يقع فيه الكثيرون اليوم هو أنهم ينظرون إلى آثار الأمم السابقة – كحضارة الفراعنة أو حضارة سبأ أو غيرهم – ويتغنون بها، ويفتخرون بإنجازاتهم المادية، وينسبونها لأنفسهم! هذا تحريف لآيات الله! إن الله أبقى هذه الآثار لتكون شاهدًا على هلاكهم، لا لتكون مبعث فخر واعتزاز بحضارة قامت على الكفر والتكذيب. فهذا التحريف لا يقل عن تحريف النصوص الدينية، لأنه يصرف الآية عن مقصودها.

فالواجب علينا عندما نرى هذه الآثار أن نقول: "سبحان الله! هؤلاء قوم كانوا أشد منا قوة وآثارًا، فلما كذبوا أهلكهم الله. اللهم لا تجعلنا مثلهم". هذا هو معنى قراءة التاريخ قراءة شرعية.
الأمر الثامن: التطبيقات العملية في حياتنا

1.ثقافة السفر للاعتبار: اجعل من برنامج سفرك جزءًا للتفكر والاعتبار .ليس بالضرورة أن تسافر لبلاد بعيدة، بل تفكر في آثار من سبقوك في مدينتك، وتأمل في تاريخهم وأسباب زوالهم.
2.عدم الاغترار بالقوة المادية: حين ترى حضارة منتفشة، أو دولة عظمى تملك من القوة ما تملك، تذكر هذه الآية .هذه القوة لن تغني عنها من الله شيئًا إن ضلت عن سبيله .فلا تيأس ولا تنبهر.
3.الحذر من الفرح بالعلم الدنيوي المجرد: نحن أمة العلم والإيمان .التقدم العلمي مطلوب، ولكن إذا صحبه فرح مذموم وغرور واستغناء عن هدي السماء، فهو طريق الهلاك .كن عالمًا متواضعًا لله، شاكرًا له، لا فرحًا بما عندك من علم ترى به نفسك أعلى من غيرك.
الأمر التاسع:
أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسيًا: التحرر من عقدة الانبهار بالآخر. الآية تعالجك نفسيًا من الانبهار بحضارة الغرب أو الشرق. فمهما بلغوا من قوة، فهم إلى زوال إن خالفوا سنن الله.
· فكريًا: تأسيس "المنهج السنني في فهم التاريخ". تنتقل بالعقل من مجرد قراءة الأحداث، إلى تحليل السنن. فالتاريخ ليس عشوائيًا، بل هو محكوم بقوانين إلهية.
· تربويًا: التربية على النظر البصير لا البصر. المناهج التربوية يجب أن تعلم أبناءنا كيف ينظرون إلى آثار الماضين بعين الناقد المستنبط للعبر، لا بعين المبهور المقلد.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة

· القراءة النقدية للتاريخ لحماية الحضارة من السقوط: أمة لا تقرأ تاريخها قراءة ناقدة، تكرر أخطاء من قبلها. هذه الآية تؤسس لـ "مركز دراسات تاريخية" في عقل كل مسلم، ليحذر من أسباب الهلاك التي سقط فيها السابقون.
· بناء الحضارة على التواضع العلمي لا الفرح المذموم: الحضارة الإسلامية تقوم على طلب العلم النافع ، مع التواضع لله. والآية تحذر من "الفرح بالعلم" المؤدي إلى الاستغناء عن الله.

المحور الثالث: خلاصة النداء ورسالة إلى قلبك
أيها المؤمن، هذه الآيات خارطة طريق للنجاة. إنها تأمرك أن تخرج إلى الدنيا متأملا ً، متبصرًا، متعلمًا. لا تنبهر ببريق الذهب، ولا بقوة السلاح، ولا بعلو البنيان. كل هذا زائل، وكل أهله هالكون إن كانوا على باطل. كن أنت صاحب الحق، وتمسك به، ولو كنت وحدك. وإياك أن تفرح بالعلم الذي عندك إن لم يقترن بالإيمان والعمل الصالح.

نم قرير العين، واعمل لله، وانظر إلى آثار الغابرين لتأخذ العبرة، وتذكر أن نهاية المكذبين هي الهلاك، وأن العاقبة للمتقين.
رابعا
يا من رافقتني في رحلة سورة غافر المباركة، لقد بدأنا بوعد النصر، ودرسنا داء الكبر، ورأينا مصارع المتكبرين في الحميم والنار، وتعلمنا كيف نصبر وكيف نفوض الأمر لله، وكيف نقرأ التاريخ قراءة البصائر لا الأبصار. وها أنت الآن تبلغ المحطة الأخيرة، خاتمة هذا المقطع البديع، وختام السورة الكريمة. إنه المشهد الذي يُسدل فيه الستار على قصة المكذبين، ليس فقط المكذبين في زمن موسى، ولا المكذبين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، بل كل مكذب في كل زمان ومكان.

يقول الحق جل وعلا، في ختام هذه السورة العظيمة، مصورًا لنا ذروة الحسرة، وقمة الخسران، وسنته التي لا تتبدل:
{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)} [غافر].

إنهما آيتان تقفلان مسيرة السورة بخاتمة من نور، تؤسس في قلب المؤمن اليقين الجازم بأن العاقبة للحق، وأن الباطل زائل لا محالة. فهيا بنا نعيش في ظلال هذا الختام المهيب.
الأمر الأول:
دلالة "فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا" – ساعة اليقين التي لا ينفع فيها الإيمان

تبدأ الآية بأداة الشرط والتفريع: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}.

· "فَلَمَّا" : تدل على التوقيت الزمني الدقيق. لقد جاءهم العذاب في وقته المحدد الذي لا يتقدم ولا يتأخر.
· "رَأَوْا" : هذه المرة ليست رؤية قلب أو رؤية عين للأدلة، بل هي رؤية عين للعذاب النازل بهم. إنها رؤية اليقين بعد طول شك، ورؤية الحقيقة بعد طول استهزاء.
· "بَأْسَنَا" : أي عذابنا الشديد، وبطشتنا التي لا ترد. والبأس هو القوة والبطش والعذاب الذي لا قِبل لأحد به. لقد رأوه عيانًا بيانًا، لا شك فيه ولا ريب. رأوا الموت يحيط بهم، والهلاك يكتنفهم. وفي هذه اللحظة الحرجة، انكشف الغطاء عن أعينهم، وأبصروا الحقائق التي طالما جحدوها.
وهنا تتجلى لنا نهاية المكذبين كما أردت تمامًا: إنها نهاية الفزع والهلع، نهاية الذل والهوان، حيث يطلبون النجاة بعد فوات الأوان.
الأمر الثاني:
دلالة "قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ" – إيمان الاضطرار لا الاختيار

في هذه اللحظة الرهيبة، ماذا قالوا؟ {قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ}.

· لقد أعلنوا التوحيد الخالص الذي طالما دعتهم إليه الرسل. قالوا: آمنا بالله وحده. وجاء إعلانهم بأقوى صور الإيمان: إفراد الله بالعبادة، والكفر بكل ما كانوا يشركون به. إنهم لم يقولوا "آمنا" فقط، بل أضافوا التبرؤ من الشرك:"وكفرنا بما كنا به مشركين". إنه إعلان كامل للإيمان.
ولكن، ما قيمة هذا الإعلان في هذا التوقيت؟ إنه إيمان الاضطرار، إيمان الغريق الذي يؤمن بأي شيء لينجو. إنه ليس إيمان القلب المخلص، بل إيمان الخوف من العذاب المحدق. إنه إيمان من كشف الغطاء عن بصره، ولم يعد أمامه خيار آخر. ولذلك، فإن هذا الإيمان لا ينفع، لأنه جاء بعد أن وقع الأمر، وبعد أن أغلق باب الاختيار.
الأمر الثالث:
دلالة "فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا" – قانون إغلاق باب التوبة

ثم يأتي الحكم الإلهي القاطع: {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}.

· "فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ" : نفي قاطع بأسلوب "لم يك" التي تدل على الماضي التام. لم يكن إيمانهم لينفعهم شيئًا، ولا حتى بمثقال ذرة.
· "إِيمَانُهُمْ" : نسب الإيمان إليهم، لكنه إيمان لا قيمة له.
· "لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا" : تكرر السبب مرة أخرى ليؤكد أن العلة هي التوقيت. إنه إيمان بعد فوات الأوان، بعد أن نزل العذاب، وقضي الأمر. فكما قال الله في موضع آخر: {فَلَمْ يَكُن يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}، فالتوبة المقبولة هي ما كانت قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل نزول العذاب الأكبر.
الأمر الرابع:
دلالة "سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ" – شمولية السنة لجميع المكذبين في كل زمان ومكان

وهنا يأتي الدرس الأعظم، والمحور الذي طلبتَ التركيز عليه بشدة، وهو إعلان أن هذا الحكم ليس خاصًا بقوم بعينهم، بل هو: {سُنَّتَ اللَّهِ}.

· "سُنَّتَ" : منصوبة على أنها مفعول مطلق مؤكد لفعل محذوف. والمعنى: سنّ الله ذلك سنة. والسنة هي القانون الإلهي الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل. إنها الطريقة التي مضى عليها أمر الله في خلقه.

· "اللَّهِ" : مضاف إلى اسم الجلالة لتعظيم هذه السنة، وبيان أنها صادرة عن العليم الحكيم.
· "الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ" : أي مضت وتقدمت ونفذت في الأمم السابقة. إنها ليست وليدة اللحظة، بل هي قانون أزلي، طُبق على عاد وثمود وقوم لوط وفرعون وهامان.

فاعلموا – أيها السامعون – أنها ليست لكفار ذلك الزمان فقط، بل هي لكل الكفار في كل زمان وإلى يوم القيامة. كل من كذب الرسل، ورفض الخضوع لله، وجادل في آياته بغير سلطان، فمصيره هو هذا المصير: إيمان لا ينفع عند رؤية العذاب، ثم خسران مبين. هذه هي السنة، وهنا تظهر أهمية معرفة السنن ودراستها. فإن من يفهم هذه السنة، يعرف النتائج التي تنتهي إليها الأمور مسبقًا. إنه لا ينخدع بجولة الباطل، لأنه موقن بأن نهايته الهلاك. معرفة السنن تعطيك بوصلة لفهم حركة التاريخ، وتمنحك طمأنينة بأن العدالة الإلهية قادمة لا محالة.

الأمر الخامس:
دلالة "وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرُونَ" – الخسارة المطلقة على الكافرين وحدهم

ثم تختم الآية بالتأكيد على النتيجة الحتمية: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرُونَ}.

· "وَخَسِرَ" : فعل ماض يفيد تحقق الخسارة وثبوتها. إنها ليست خسارة مالية أو جزئية، بل هي خسارة كل شيء: خسروا أنفسهم وأهليهم، خسروا الدنيا والآخرة، خسروا النعيم وحل عليهم العذاب.
· "هُنَالِكَ" : في ذلك الموقف الرهيب، وقت نزول العذاب، ويوم القيامة. إنها إشارة إلى زمان ومكان الخسارة.
· "الكافِرُونَ" : هم وحدهم الذين لحقتهم الخسارة. أما المؤمنون، ففازوا بالنجاة والنصر. وفي هذا طمأنة عظيمة لقلب المؤمن أن الخسارة ليست على المتمسكين بالحق، بل على الجاحدين له.

الأمر السادس:
دلالة اختتام السورة بهذا المشهد
لماذا اختتمت سورة غافر، التي بدأت بوعد النصر، بهذا المشهد؟
هذا الختام يخدم غرضًا عقديًا ونفسيًا وتربويًا عظيمًا:

· إنه يربط بداية السورة بنهايتها. ففي البداية وعد الله بالنصر، وفي النهاية أراك مصداق هذا النصر في مصارع المكذبين وخسارتهم. لقد أراد الله أن يقرن الوعد بالتطبيق، ليزداد المؤمن يقينًا.
· إنه تختم بالترهيب بعد الترغيب. لقد دعاهم إلى التواضع والشكر والدعاء، فلما لم يستجيبوا، أراهم نهاية المتكبرين. هذا الأسلوب يهز القلب هزًا، ويجعله يعيش بين الرجاء في وعد الله، والخوف من عقابه.
· إنها رسالة ختامية بأن الصراع بين الحق والباطل محسوم، وأن الباطل زائل، وأن المؤمنين هم الفائزون، والكافرون هم الخاسرون.

الأمر السابع: التطبيقات العملية وما نتعلمه من الآيتين

.1المسارعة إلى التوبة وعدم التسويف: كلما أذنبت، سارع بالتوبة .لا تقل "سوف أتوب غدًا"، فأنت لا تدري متى يحل بك البأس، ومتى يغلق باب التوبة .مت يا من تسمع هذه الآية، وأنت تائب، لا أن تموت وأنت تؤمن بعد فوات الأوان.
.2طمأنينة القلب بنصر الله: هذه الآيات تجعلك تعيش مطمئنًا .لست بحاجة للانتقام ممن ظلمك، ف العدالة الإلهية كفيلة به .لست بحاجة للقلق على مستقبل الإسلام، فسنة الله ماضية في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين.
.3فقه السنن في الحياة: اجعل من دراسة سنن الله في القرآن والتاريخ منهج حياة .اسأل نفسك دائمًا: ما هي السنة التي تكررت؟ ما هي النتيجة التي انتهى إليها المسرفون؟ كيف أتجنب أسباب اله لاك؟ هذا هو طريق النجاة.

الأمر الثامن: أسس ومقومات البناء الشامل للإنسان والمجتمع والحضارة

المحور الأول: المفاهيم الحياتية والنفسية والفكرية والتربوية

· نفسيًا (الخوف المحمود وانكسار النفس): آية {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ} تغرس في النفس خوفًا محمودًا يمنعها من التسويف والتكاسل، ويجعلها تعيش في حالة توبة دائمة.
· فكريًا (قانون إغلاق باب التوبة): ترسيخ مفهوم أن الإيمان الاختياري هو فقط المقبول. هذا يبني عقلية جادة لا تميل إلى التهاون أو الركون إلى الأماني.
· تربويًا (التذكير بسنة الله في المكذبين): تربية النفس والأبناء على أن الإيمان لا ينفع عند نزول

العذاب، مما يزرع روح المبادرة والانضباط.

المحور الثاني: مقومات بناء الحضارة

· الحضارة تقوم على الإيمان الاختياري الواعي: أمة تعيش في إيمان اضطراري أو تقليدي لا يمكن أن تبني حضارة راسخة. بناء الحضارة يحتاج إلى أفراد يقينهم بأنفسهم ومبادئهم اختياري، نابع من حب واقتناع بالحق.
· استدامة الحضارة بفقه السنن: الأمة التي تدرس سنن الله وتفهمها، تحمي حضارتها من السقوط في الأخطاء التي أهلكت من قبلها. إنها ترى علامات الخطر مبكرًا، فتتجنبها، وترى سنن النصر فتستجلبها.

خلاصة النداء ورسالة إلى قلبك:
يا أيها المؤمن، هذا هو ختام رحلتنا مع هذا المقطع من سورة غافر. لقد أحاطك الله فيها بسياج من النور. بدأت معك بوعد النصر، ومررت بك على مشاهد التأمل في خلق الله، وعلمتك كيف تحارب الكبر، ورسمت لك نهاية المتكبرين، ودعتك للصبر والتفويض، وفتحت عينيك على سنن التاريخ، وأخيرًا ، ها هي تختتم بهذه السنة القطعية: إن الإيمان لا ينفع إذا جاء بعد فوات الأوان، وإن الخسارة محصورة بالكافرين.

فأبشر أيها المؤمن، وأيقن أن العاقبة للمتقين، وأن الخسارى هم المكذبون. عش حياتك في توبة دائمة، وثقة مطلقة بوعد الله. واعلم أن من صدق مع الله في زمن الاختيار، نصره الله في زمن الاضطرار، وفاز بالجنة حين لا ينفع الندم.

.اهم المراجع والمصادر
.1 المصادر التفسيرية والأصولية) فهم النص(
** * جامع البيان) الطبري(: **للوقوف على المعاني اللغوية الأصيلة وآثار السلف في تفسير "ذي الطول" و"قابل التوب".
** * تفسير القرآن العظيم) ابن كثير(: **لربط الآيات ببعضها وتوضيح دلالات أسماء الله الحسنى.
** * تفسير المنار) محمد رشيد رضا(: **لكونه يهتم بالجانب الاجتماعي والسنني في الآيات.
** * في ظلال القرآن) سيد قطب(: **لاستنباط الظلال النفسية والوجدانية وتصوير المعركة بين الحق والباطل.
مفاتيح الغيب) للفخر الرازي(: كنز في التفسير العقلي والفلسفي والكلامي، وقد أفدت من تحليلاته العميقة للمعاني، وربطه بين الآيات، واستنباطه للدلالات العقلية.

.2 المصادر البلاغية والبيانية واللغوية
** * الكشاف) الزمخشري(: **لتحليل أسرار التقديم والتأخير) لماذا قدّم غافر الذنب على شديد العقاب ؟.(
** * نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) البقاعي(: **لفهم سر افتتاح السورة ب- "حم" وعلاقة الأ سماء الحسنى بموضوع السورة) المجادلة بالباطل.(

· معاني النحو: للدكتور فاضل صالح السامرائي .وهو مرجع دقيق في بيان الأسرار النحوية واللمسات البيانية في القرآن.
· في البلاغة القرآنية والأسلوب) سلسلة اللمسات البيانية(: للدكتور فاضل صالح السامرائي.
*
مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني(: القاموس الذي لا غنى عنه لفهم المعاني الدقيقة للمفردات القرآنية، والوقوف على الفروق بين الكلمات التي قد تبدو مترادفة، وهو أصل في كل تحليل لغوي قمت به.
· دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني(: هذان الكتابان هما روح النظرية البلاغية، وقد استندت إليهما في فهم فلسفة "النظم"، وكيف تتحول الكلمات المجردة إلى صور حية، وإلى معان مؤثرة في النفس .منهجه في تحليل النص هو الذي ألهم أسلوب "التصوير الفني" المتبع.
· البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي(: مرجع جامع لإعراب القرآن ووجوه القراءات والمسائل اللغوية والنحوية الدقيقة.
· روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للألوسي(: موسوعة جامعة لخلاصة ما كتبه المتقدمون، مع عناية خاصة بالإشارات واللطائف، وهو يصلح مرجعًا وسيطًا بين التفسيرين اللغوي والإ شاري.
الهيئه العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة) موسوعة الإعجاز العلمي(: وهي تضم أبحاثًا محكمة في مراحل خلق الجنين، وفوائد النوم، وغيرها.
· كتب الدكتور زغلول النجار: مثل "تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم".

.3 مصادر التفسير الموضوعي وتزكية النفس
** * مدارج السالكين) ابن القيم(: **وهو المصدر الأساسي لمفهوم "التوازن بين الخوف والرجاء" وكيفية تهذيب النفس بأسماء الله الحسنى.
** * دستور الأخلاق في القرآن) محمد عبد الله دراز(: **لربط الآيات بالبناء الأخلاقي والقيمي للإ نسان.
** * التفسير الموضوعي لسور القرآن) الشيخ محمد الغزالي(: **لفهم المحاور الكبرى للسورة وكيفية إسقاطها على واقع الأمة
ظلال القرآن) لسيد قطب(: الكتاب الذي أحدث ثورة في التفسير البياني والتربوي والحركي .اعتمدت بشكل كبير على منهجه في "التصوير الفني" للمشاهد القرآنية، وجعل النص معاشًا، وقضاياه حية، وتوجيهاته دافعة للعمل .هذا الأسلوب هو الروح السارية في كل تحليل.
· مدارج السالكين) لابن القيم الجوزية(: هو المرجع الأعمق في تحليل منازل النفس وأدوائها وعلاجاتها في ضوء القرآن، وقد أفدت منه كثيرًا في ربط الدلالات التربوية والنفسية بمقامات الإيمان كاليقظة و التوبة والصبر.
· التفسير القيم) لابن القيم(: جمع لأقواله التفسيرية، وهو غني بالرسائل التربوية والنفسية.
· التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور(: كتاب جامع بين العقل والروح، والمقاصد واللغة، وقد أفدت من عنايته الفائقة بعلم المناسبات، ومقاصد السور والآيات، وربط الأجزاء بالكل.

/.4 مصادر فقه السنن والدعوة والخطاب الإسلامي

لفهم كيفية تطبيق دلالات الآيات في الواقع، وفهم القوانين الإلهية التي تحكم حركة التاريخ و الصراع، عدت إلى:

· كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم: هما أصل في فهم "فقه السنن" في التعامل مع الكافرين والظالمين، وفي بيان حقيقة الجدل والمجادلة، وفي تحليل أمراض القلوب كالحسد والكبر.
· فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالي(: مثال عملي لفهم السنن من خلال سيرة النبي ﷺ، وقد أفدت من منهجه في استخراج الدروس العملية للدعاة والمصلحين.
· فقه الدعوة إلى الله) للدكتور علي عبد الحليم محمود(: مرجع منظم في استنباط قواعد الدعوة ومناهجها من القرآن الكريم.
· أبجديات البحث في العلوم الشرعية) للدكتور فريد الأنصاري(: كتاب منهجي مهم في كيفية التعامل مع النص، ومحاولة بناء العلوم الإسلامية بناءً قرآنيًا، وقد أفدت من محاولته لربط الوحي ببناء الإ نسان والحضارة.
العواصم من القواصم: لأبي بكر بن العربي.
سنن الله في المجتمع") د .مجدي الهلالي(: **الذي يربط بين التزكية وبين فهم القوانين الكونية.
** * كتاب "فقه السنن التاريخية") د .عبد الحميد أبو سليمان(: **في معالجة أزمة العقل المسلم المعاصر.

· فقه التمكين في القرآن الكريم: للدكتور علي محمد الصلابي.
· سنن الله في الأمم: لسيد قطب، وغيره من المعاصرين.
** * فقه المقاصد) للشاطبي في "الموافقات"(: **لفهم "مقاصد الشريعة" في حفظ الضرورات الخمس التي هي أساس بقاء الحضارات.
5 / مصادر التربية، القيادة، والتنمية البشرية
** * القيادة في الفكر الإسلامي: **استلهاماً من قواعد الإدارة النبوية) التوازن بين اللين والحزم.(
** * كتب الإدارة الحديثة) مثل ستيفن كوفي(: **في مفاهيم "القيادة بالقيم" و"الرقابة الذاتية"، وربطها بمفهوم} إِلَيْهِ الْمَصِيرُ{
** * علم النفس المعرفي والسلوكي: **في تحليل "مهارة التسامح" كخلق مكتسب (Reframing) وكيفية تحويل الوعي الديني إلى سلوك يومي.
6 مصادر الحضارة، البناء والتنمية
** * مقدمة ابن خلدون: **في فهم أثر "الوازع الديني" و"العدالة") شديد العقاب (في استقرار العمران وبناء الحضارات.
** * مشكلات الحضارة) مالك بن نبي(: **في كيفية تحويل "الفكرة الدينية" إلى "طاقة اجتماعية" محركة للبناء.
إحياء علوم الدين) للإمام أبي حامد الغزالي(: هو الأساس في تحليل أمراض النفس) الكبر، الحسد، الغفلة (وعلاجاتها، وقد أفدت من منهجه التربوي والتزكوي في صياغة الرسائل النفسية للآيات.
· كتب التنمية البشرية والتربوية المعاصرة: مثل بعض كتابات الدكتور عبد الكريم بكار التي تسعى لتجديد الفكر التربوي الإسلامي، وتساعد في ترجمة المفاهيم المجردة) كاليقظة الذهنية، والتركيز، وإدارة الذات (إلى تطبيقات عملية.
· شروط النهضة) لمالك بن نبي(: لفهم دور "الإنسان" و"الفكرة الدينية" في بناء الحضارة، وهو ما استندت إليه في ربط مفاهيم الآيات بالبناء الحضاري
التنمية الإدارية الحديثة: **التي تتقاطع مع مفهوم "البينات" و"الشفافية" و"إقامة الحجة" قبل المحاسبة.
** * كتاب "الإنسان وعمارة الأرض") د .طه جابر العلواني(: **الذي يؤصل لمفهوم الاستخلاف القرآني.
###
7/مصادر الحديثية وأصول الفقه

· كتب الصحاح والسنن (كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي): لتوثيق أي حديث نبوي يتم ذكره، أو لفهم الآية في ضوء السنة.
· الموافقات في أصول الشريعة (للإمام الشاطبي): هذا الكتاب هو العمود الفقري لفهم "مقاصد الشريعة"، وكون القرآن كلًا واحدًا، والنظر إلى النصوص من خلال مقاصدها الكلية، وهو ما اعتمدت عليه في استنباط "التوجيهات الاستراتيجية" من الآيات، وتحويل الصفات الإلهية إلى كفاءات قيادية.
·
#8/ المصادر الرقمية والبحثية
** * المكتبة الشاملة: **للوصول إلى أمهات الكتب والمقارنة بين أقوال المفسرين.
** * موقع الدرر السنية: **لتحقيق الأحاديث والآثار الواردة في السياق.
** * موقع "تفسير") مركز تفسير للدراسات القرآنية(: **للاطلاع على البحوث الحديثة في التفسير

الموضوعي والبلاغي
** *موقع "إسلام أون لاين") قسم فقه السنن(: **مقالات ودراسات حول السنن الكونية والاجتماعية.
** * منصة "تفسير" للدراسات القرآنية: **للبحوث المتخصصة في التفسير الموضوعي.
** * موقع "الألوكة") قسم البحوث التاريخية والحضارية(: **في تحليل تاريخ الأمم من منظور قرآني.
بهذا نكون قد انتهينا من شرح المفاهيم القرآنية من سورة غافر هذا العمل الذى هو من
اعداد وتأليف احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامرى
مراجعه وتدقيق الاستاذ منير عبده عثمان الصلوى